بسم الله الرحمن الرحيم

إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي

الإصلاح الحسيني

مجلة فصلية متخصصة في النهضة الحسينية وتعنى بالدراسات الدينية

تصدر عن

مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية

قسم الشؤون الفكرية والثقافية / العتبة الحسينية المقدسة

العدد السابع عشر

السنة الخامسة (١٤٣٨ هـ ـ ٢٠١٧م)

الإصلاح الحسيني

مجلة فصلية متخصصة في النهضة الحسينية وتعنى بالدراسات الدينية

الهيئة الاستشارية

آية الله الشيخ محمد السند
آية الله الشيخ محمد جواد فاضل اللنكراني
آية الله السيّد رياض الحكيم
آية الله السيّد عادل العلوي
آية الله السيّد منير الخباز
العلّامة الدكتور الشيخ محمد باقر المقدسي
العلّامة الشيخ عبد المهدي الكربلائي

رئيس التحرير :

الشيخ قيصر التميمي

مدير التحرير :

الشيخ صباح عبّاس الساعدي

هيئة التحرير :

الشيخ ثناء الدين الدهلكي

د. الشيخ محمد الكروي القيسي

الشيخ أسعد التميمي

الشيخ ميثم الربيعي

المقابلة وتقويم النص :

الشيخ عدنان الطائي

الشيخ عصام السعيد

الشيخ مصطفى الدالي

التصميم والإخراج الفنّي :

السيّد صادق الحيدري

الشيخ حسين المالكي

عبد الزهرة الطائي

معتمد الترجمة الإنجليزية :

بدر شاهين

الإشراف العام :

سماحة الشيخ علي الفتلاوي

التنسيق العام :

السيّد صالح التنكابني

السيد مالك البطاط

د. علي البديري

زيد فرج اللّه الأسدي

مريم هادي الياسري

إدارة المؤسّسة :

الشيخ باقر الساعدي (النجف الأشرف)

الشيخ رافد التميمي (قم المقدّسة)

معاونية المؤسّسة :

الشيخ عبّاس الحمداوي (النجف الأشرف)

الشيخ حيدر الأسدي (قم المقدّسة)

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٩٢٤) لسنة ٢٠١٣م

الترقيم الدولي : ISSN: 978-964-984-240-7

هوية المجلّة

مجلّة علمية فصلية تخصّصية تُعنى بالبحوث المتخصّصة في مجال النهضة الحسينية، وكذا الدراسات العلمية في حقول المعرفة الدينيّة. تصدر عن مؤسّسة وارث الأنبياء للدراسات التخصّصية في النهضة الحسينية في النجف الأشرف وقم المقدّسة.

اهتمام المجلّة

تهتمُّ المجلّة بنشر معالم وآفاق الفكر الحسيني وتسليط الضوء على تاريخ النهضة الحسينية وتراثها، وكذا إبراز الجوانب الإنسانية والاجتماعية والفقهية والأدبية في تلك النهضة المباركة.

كما تهتمُّ المجلّة أيضاً باستقطاب ونشر البحوث والدراسات الدينية التخصّصية ذات الجوانب التجديدية والإبداعية، وذلك في كافّة الحقول والمجالات، فتمتدّ لتشمل الدراسات القرآنية والعقدية والفكرية والتاريخية والفقهية، وكذا ما يرتبط بالتراث الديني من الأدعية والزيارات والنصوص الدينيّة بشكلٍ عام.

فالمجلّة تتطلّع لاستيعاب جميع المجالات المهمّة والحسّاسة في أبواب العلوم والمعارف الدينية، شريطة أن تكون البحوث والدراسات متضمّنة لجوانب من الإبداع والحداثة والتجديد، مع حفظ روح الأصالة والتأسيس.

أهداف المجلّة

١ـ إعطاء رؤية واضحة حول معالم النهضة الحسينية من خلال البحوث والدراسات.

٢ ـ نشر أهداف وثقافة النهضة الحسينية.

٣ ـ إحياء التراث الديني والحسيني.

٤ ـ فتح نافذة علمية لتفعيل جانب الإبداع والتجديد والتأصيل الفكري في كافة حقول المعرفة الدينية.

٥ ـ الانفتاح على الواقع العلمي والفكري لدى العلماء والأساتذة والمفكِّرين.

٦ـ استثمار الأقلام الرائدة، وتطوير الطاقات العلمية الواعدة، واستقطاب البحوث والدراسات والمقالات العلمية القيّمة لنشرها تعميماً للفائدة.

٧ ـ فسح المجال أمام الباحثين والمفكِّرين لنشر بحوثهم ودراساتهم؛ لتكون المجلّة رافداً من روافد تزكية العلم والمعرفة.

٨ ـ التصدّي للإجابة عن الشبهات والإشكاليات والقراءات غير الموزونة حول الدين بصورة عامّة والنهضة الحسينية بصورة خاصّة.

ضوابط النشر

تدعـو المجلّة العلماء والأسـاتذة والباحثـين وكل مَن لديه اهتـمام في مجال الكتابة والتحقيق إلى رفدها بنتاجاتهم القيّمة، على أمل ملاحظة الأُمور التالية:

- أن تكون البحوث مرتبطة باختصاص الـمجلّة وأركانها.
- ألّا تكون منشورة أو بصدد النشر في كتاب أو مجلّة.
- أن تكون ضمن المناهج العلميّة المتَّبعة.
- أن تكون بحوثاً مبتكرة وبلغة معاصرة.
- أن يكون البحث على قرص ليزري فيما لو كان منضداً.
- حقوق النشر محفوظة.
- الأفكار المطروحة لا تعبِّر بالضرورة عن رأي الـمجلّة.
- لا تعاد البحوث لأصحابها نُشِرَت أم لم تُنشَر.
- يخضع ترتيب البحوث لاعتبارات فنيّة.
- إجراء التعديلات والتلخيصات اللازمة من صلاحيات الـمجلّة.
- للمجلّة حق إعادة نشر البحث أو المقال في كتاب أو ضمن كتاب منفصل، مع الحفاظ على نصه الأصلي.
- كل ٢٥٠ كلمة تحسب صفحة واحدة.
- تتّبع الـمجلّة نظام المكافآت لأصحاب البحوث.
- تعتبر الأولوية في الـمجلّة للمقالات والبحوث الحسينيّة.
- الـمجلّة غير ملزمة بنشر ما يقل عن ١٥ صفحة أو يزيد عن ٣٠ صفحة.

مراكز النشر

* النجف الأشرف: سوق الحويش ـ المكتبة العلمية.

* النجف الأشرف: شارع الرسول صلى الله عليه وآله ـ مكتبة دار الهلال.

* النجف الأشرف: سوق الحويش ـ دار الغدير.

* كربلاء المقدّسة: المعرض الدائم في العتبة الحسينيّة المقدّسة.

* بغداد: شارع المتنبّي ـ مكتبة العين.

* البصرة: العشّار ـ مكتبة الإمام الهادي عليه السلام.

* إيران / قم المقدّسة: شارع معلم ـ سوق ناشران ـ معرض العتبة الحسينية المقدّسة.

* إيران / قم المقدّسة: صفائية ـ سوق الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ مكتبة فدك.

* إيران / قم المقدّسة: سوق كذرخان ـ مكتبة الهاشمي.

المحتويات

كلمة التحرير

كلمةُ التّحرير

رئيس التحرير ١٣

ملف العدد
دراسات في الأدب والشعر الحسيني

أثر النهضة الحسينيّة في القصائد المُكَتّمات

أ. د. محمد جواد حبيب البدراني ٢٣

الإمام الحسين عليه السلام في رواية بين القصرين لنجيب محفوظ .. رؤية تحليلية

أ. م. د. وسام علي محمد حسين ٤٣

الجمالية الفنّية في شعر الإمام الحسين عليه السلام

أ. م. د. مرتضى عبد النبي علي الشاوي ٧١

انعكاس القيم الثورية في الشعر الحسيني المعاصر

د. رقية رستم بور ملكي ٩٩

استلهام الثورة الحسينية في القصيدة العينية للجواهري .. دراسة تحليلية

أ. م. د. عدنان كاظم مهدي / أ. م. د. صادق فوزي دباس..... ١١٥

السمو الإنساني في الشعر الحسيني عند شعراء القرن الرابع الهجري

أ. م. د. سناء هادي عباس ١٣٧

المجاز في كلام الإمام الحسين عليه السلام

أ. م. د. حسن عبد الـمجيد عباس الشاعر ١٦٥

المنظومة القيمية والأخلاقية في النهضة الحسينية

م. م. سنان سعيد جاسم..... ١٨٧

تجلّيات قيم واقعة الطفّ في النصّ الشعري

أ. م. د. سجا جاسم محمد / د. أنوار مجيد سرحان ٢٢٣

(مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً).. دراسة في أبعادها الإصلاحية

م. د. كواكب باقر الفاضلي ٢٤١

المؤسسة الجامعية وأهميتها في غرس القيم التربوية والأخلاقية المستوحاة من النهضة الحسينية

م. د. ميثم عبد الكاظم هاشم الساعدي ٢٧١

دور المرجعية الدينية في إصلاح الواقع العراقي.. السيّد السيستاني أُنموذجاً

د. الشيخ أحمد علي عبود الخفاجي ٣٠٣

خلاصة المقالات باللغة العربيّة والإنجليزية ٣٣٣

كلمة التحرير

كلمةُ التّحرير

رئيس التحرير

مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية، هي مؤسسة فكرية علمية تخصصية تابعة للعتبة الحسينية المقدّسة، ذات فروع متعدّدة، ينحصر اهتمامها في المجال العلمي والتخصصي للنهضة الحسينية المباركة، تعمل على التأسيس لبناءٍ علمي مختصّ رصين في كافّة أبعاد النهضة الحسينية وآفاقها الواسعة، الفكرية والتاريخية والاجتماعية والأخلاقية؛ لما لها من عمق إنساني، وتستند في منهجها العام إلى ركائز الأصالة والعمق المعرفي وقداسة التراث الديني من جهة، وتحمل بالمستوى ذاته روح الحداثة والتجديد والإبداع من جهة أُخرى.

وقد حملت مؤسستنا على عاتقها لواء الإصلاح الذي حمله الإمام الحسين عليه السلام لهداية الأُمّة، وكانت ثمرة تحمّل تلك المسؤولية الثقيلة العمل على تأسيس مجموعة واسعة من المشاريع الحسينية العلمية التخصصية المهمّة والحسّاسة والمؤثرة في المجالات العلمية والاجتماعية، وقد أنتجت تلك المشاريع المباركة نتاجات كبيرة يتطلبها واقعنا الفكري والاجتماعي.

ومن تلك المشاريع المهمّة والمحورية مشروع (المؤتمرات والندوات العلمية والتخصصية) في مجال النهضة الحسينية ودورها الرائد في إصلاح الأُمّة، ويمثّل هذا المشروع المبارك أحد الأقسام المهمّة في المؤسسة، وقد بذل الإخوة الأعزاء الأفاضل في هذا القسم جهوداً استثنائية ومتواصلة، حيث عملوا وفي فترة قياسية على عقد ملتقيات وندوات علمية متنوّعة وفي أماكن مختلفة، في داخل العراق وخارجه،

أثمرت جملة من البحوث المهمّة المختصّة بنهضة الإمام الحسين عليه السلام ومكانتها في المجتمع، كما أثمرت وأثّرت أيضاً في تحريك الأساتذة والنخب والباحثين للإنتاج المعرفي في هذا المجال بالخصوص.

وأما بالنسبة إلى إقامة المؤتمرات، فبعد الجلسات العلمية المتواصلة والتخطيط المدروس والمتواصل مع الجامعات والكلّيات ذات الصلة بالعلوم الدينية والإنسانية، التقينا بثلّة طيّبة من الأساتذة الأكفاء في كلّية التربية المختلطة التابعة لجامعة الكوفة الموقّرة، وقد وجدنا فيهم روح التفاني والإخلاص لدينهم ومبادئهم ومجتمعهم ووطنهم، وهم الذين بادرونا مشكورين بإمكانية عقد مؤتمر للإصلاح الحسيني في كلّيتهم الموقّرة، وكان ذلك بمباركة وتشجيع لهم من عميد الكلّية الدكتور باسم باقر جريو رحمه الله.

وبعد مفاتحة المتولّي الشرعي للعتبة الحسينية المقدّسة (دامت بركاته) وتشجيعه لنا بالقيام بأعباء هذا المؤتمر المبارك، باشرت المؤسسة بالتخطيط لإقامته مع كادر الكلّية الموقّر، وقد تمّ تشكيل مجاميع من اللجان المختصّة والمشتركة، وبعد الجهود المتواصلة والمتابعات الميدانية الفاعلة، تمّ اختيار عنوان المؤتمر الدولي السنوي الأوّل، وكان عنوانه: (الإصلاح الحسيني)، وقد تلاه العمل الجادّ والمتواصل لتحديد محاوره وموضوعاته المهمّة ذات الانعكاس المباشر على واقعنا الفكري والاجتماعي، ومن ثمّ المباشرة بالإعلان عنه، والتواصل مع الكتّاب والباحثين وأهل القلم والإبداع الفكري في كافّة أنحاء العالم، وإبلاغهم بمحتواه بغية استكتابهم.

والذي أذهلنا وأسعدنا كثيراً وفي فترة قياسية أيضاً التفاعل الكبير مع عنوان المؤتمر ومحاوره وعناوينه التي دارت حول مبدأ الإصلاح الحسيني، وقد تلقّت اللجان المشتركة كمّاً كبيراً من البحوث والدراسات العلمية الحسينية القيّمة، أكاديمية وحوزوية، من داخل العراق وخارجه، ما جعلنا نستشرف النجاح المتميّز للمؤتمر، وأعطانا جرعة معنوية كبيرة في المواصلة لبذل جهود أكبر وأوسع، وكان

الواقع بحمد الله كما استشرفناه، حيث كان المؤتمر مؤتمراً ناجحاً بكلّ المقاييس، وحاز صدىً علمياً وإعلاميّاً واسعاً، محليّاً وعالمياً.

وكان المغنم الأكبر الذي تعتزّ وتفتخر به مؤسستنا هو انفتاحها الكبير والمتميّز على أقلام جديدة رائدة وواعدة في المجال الحسيني، وسوف نحرص على الاستمرارية في التواصل مع تلك النخب والطاقات العلمية المختصّة، والتي نسعى جاهدين لإشراكها في مشاريعنا الحسينية المباركة؛ لأننا بحاجة ماسّة إلى هذه الأقلام المسؤولة في بناء وتنمية المسيرة العلمية والتخصصية في المؤسسة، سواء على مستوى المجلّات التخصصية، أم في الموسوعات العلمية، أم في المؤتمرات والندوات والملتقيات والفعاليات الصوتية والمرئية، أم في غيرها من المجالات الحسينية الأُخرى.

وانطلاقاً من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**جمال العلم نشره**»[1]، وتثميناً للجهود العلمية التي بذلها الأساتذة والباحثون في هذا المؤتمر المبارك، واعتزازاً بما تضمّنه المؤتمر من معطيات فكرية قيّمة ورائدة، ارتأت رئاسة وإدارة تحرير مجلّة الإصلاح الحسيني نشر بحوثه ووقائعه في سلسلة أعدادها الفصلية، فانتظمت في أعداد أربعة، هي الأعداد: الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر.

وقد احتوى هذا العدد الماثل بين يديك عزيزي القارئ جوانب مهمّة من جنبات وقائع مؤتمر (الإصلاح الحسيني) الأوّل، حيث اختصّت وانتظمت بحوثه تحت محور وعنوان: (دراسات في الأدب والشعر الحسيني)، وهي مجموعة من البحوث العلمية القيّمة والرصينة، والتي أشرف على تقويمها العلمي أساتذة أكفاء، مشهود لهم بخبرتهم العالية في مجال التحكيم والتقويم العلمي.

ولا يفوتنا التنبيه على أنّ الوقت قد ضاق بنا ذرعاً؛ لضخامة المؤتمر، وضخامة موضوعه، وكثرة البحوث التي توافدت إلينا من دون انقطاع، وهذا ما اضطرّنا

(١) الواسطي الليثي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص٢٢٢.

لطباعة قسم من البحوث المحكّمة والمقبولة في ضوء الموازين العلمية للمؤتمر، ونشرها في هذا العدد.

كما لا يفوتنا أيضاً التنبيه على أننا حاولنا أن نغض الطرف عن بعض ما قد لا يتواءم والضوابط العلمية والفنّية العامّة في المجلّة، لمراعاة الأمانة العلمية، ونؤكّد على أن الآراء الواردة في هذه البحوث لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلّة وتوجّهاتها العامّة.

وفي نهاية المطاف نتقدّم بوافر الشكر والامتنان إلى الأمانة العامّة للعتبة الحسينية المقدّسة، التي أولت عنايتها الخاصّة بهذا المؤتمر، ولولا ذلك ما خرج مؤتمرنا إلى نور التألّق والنجاح، كما نتقدّم بالشكر الجزيل أيضاً للأمانة العامّة للعتبة العلوية المقدّسة على تعاونها المتميّز مع المؤسسة، كما نشكر أيضاً أمانة مسجد الكوفة المعظّم على استقبالها الطيّب للباحثين وكرم ضيافتها لهم، وكذلك شكرنا الموصول وامتناننا الوفير لرئاسة جامعة الكوفة الموقّرة وعمادة كلّية التربية المختلطة وأساتذتها على احتضانها لوقائع المؤتمر، والجهود العلمية والميدانية الكبيرة التي بذلوها في سبيل إنجاحه، كما نشكر أيضاً اللجان المشتركة التي أشرفت مباشرة وبصورة تفصيلية على متطلّبات المؤتمر العلمية والتحضيرية والتنفيذية إلى حين انعقاده.

ونسأل الله تعالى لمؤسستنا المباركة ولكلّية التربية المختلطة الموقّرة ولكلّ مَن بذل جهداً مشكوراً لإنجاح المؤتمر دوام التوفيق والسداد، والسير على هدى وخطى سيّد الشهداء ونهضته العالمية المباركة، إنّه قريب مجيب سميع الدعاء!

Editorial

Editor-in-chief

The Wārith al-Anbiyā' Institution of Specialized Studies on Imam al-Ḥusayn's Reformative Uprising, one of the multi-branch Imam al-Ḥusayn Holy Shrine Foundation, is dedicated to scientific and academic studies on the blessed reformative uprising of Imam al-Ḥusayn. Its main concern is to found a well-compacted scientific structure focused on all the wide-ranging domains and horizons of Imam al-Ḥusayn's reformative revolution, including the intellectual, historical, social, and ethical fields, given that this blessed reformative revolution enjoys a human profundity, basing its general course on the pillars of epistemic genuineness and insight as well as the holiness of the religious heritage and, at the same level, holding the spirits of modernism, rebirth, and creativity.

The Institution has taken upon itself the responsibility of raising the banner of reformation that was raised by Imam al-Ḥusayn for purpose of guiding the masses to the right path. The fruit of the Institution's having undertaken this precious responsibility has come in the form of establishing a big set of projects, all of which have been dedicated to presenting scientifically specialized studies of Imam al-Ḥusayn's reformative revolution; and all these studies have been greatly effective, valuable, and helpful in academic and social fields. As a result, these efforts have come with serious products desperately required by the intellectual and social state of affairs.

One of these important and essential products, however, was the project of holding academic and scientific conferences and forums, the main topic of all of which has been the pioneering role played by Imam al-Ḥusayn's revolutionary movement in reforming the affairs of the masses. In fact, this blessed project represents one of the major departments of the Institution, since our dear colleagues, running this department, have continuous exerted exceptional efforts and, in a very short time, succeeded to hold various academic and scientific conferences and symposiums in different areas of the world that resulted

in producing a big set of highly valued researches on the topic of Imam al-Ḥusayn's reformative uprising and its impacts on societies. These conferences have also motivated many professors and researchers on writing and researching in the different fields of the topic related.

As a result of these conferences that contained continuous academic sessions based on well-organized planning and contact with universities and colleges of human and religious studies, we have met a good company of competent professors from the Faculty of Education in Kufa University and found them enjoying such a high spirit of sincerity and devoutness to their religion, religious principles, society, and homeland that they suggested to us the holding of a conference on Imam al-Ḥusayn's reformative uprising inside the building of their faculty. It is worth noting that Professor Baqir Jrew, the dean of the faculty, blessed and encouraged the holding of such a conference. After receiving this appreciated suggestion, we discussed the matter with the legal manager of the Imam al-Ḥusayn Holy Shrine who also welcome the idea and encouraged us to take upon ourselves all the issues related to holding such a conference. Hence, the Institution, with the help of the staff of the Faculty of Education, started planning for holding the conference through forming a set of shared and specialized committees.

Continuous efforts were exerted and active field visits were paid and the result was that the first annual international conference was given the title: Imam al-Ḥusayn's Reformative Uprising. That was the initial step, which was followed by other steps of incessant and serious efforts for identifying the key topics to be discussed in that conference as well as the most important issues that directly reflect on the intellectual and social state of affairs of the community. As soon as promulgations for holding such a conference were made and contacts were made with writers, researchers, and men-of-letters known for their intellectual creativity from in and outside Iraq in order to encourage them on writing essays and researches on this topic, we were astonished at the startling reaction to the idea and the huge quantity of studies, essays, and researches presented to us, all of which were written on the topic of Imam al-Ḥusayn's reformative uprising by academics as well as teachers and scholars of the Religious Seminary. In fact, this fact delighted us very much, made us look forward to an outstanding success of the conference, and granted us a big push to exert greater and wider efforts. Thanks to God, the result was as expected, since the

conference achieved great success from all aspects and gained a local and worldwide scientific reaction and was covered by different mass media.

Besides, the greatest of all the achievements of the conference is the fact that it made our Institution open remarkably to contacting with new pioneering and promising writers who would write notable essays on the topic of Imam al-Ḥusayn's reformative uprising. The Institution will continuously keep contact with such writers and scientific powers in order to give them parts in its coming blessed projects, due to the urgent need of the Institution for such writers whom are hoped to contribute to building and developing the scientific course of the Institution through writing essays in the magazines and periodicals issued by the Institution, participating in writing encyclopedias on Imam al-Ḥusayn's reformative uprising, and participating in the conferences, forums, and audio and video activities that speak of Imam al-Ḥusayn and his blessed reformative revolution.

Putting into practice out Imam 'Alī's golden maxim, "The beauty of knowledge lies in spreading it," and evaluating the precious scientific efforts exerted by scholars and professors in the blessed conference, and in order to highlight the importance of the intellectual, valuable, and pioneering results of the conference, the editorship-in-chief and the management of the al-Islah al-Husayni Magazine have decided to publish the essays and researches presented in the conference in the Magazine's issues; namely, Issues 14, 15, 16, and 17. Accordingly, the current issue of the Magazine comprises major aspects of the events of the 1st Conference of Imam al-Ḥusayn's Reformative Uprising; therefore, the essays in this issue have been dedicated to a general title; namely, Studies of Literature and Poetry on Imam al-Husayn, containing a set of constructive and well-compacted scientific researches, methodologically revised by a number of proficient professors and scholars known for their sustained expert in the field of scientific judgment and assessment.

It is important to draw attentions to the point that because of the vastness of the conference and the multitude of its topics and researches, we could not have enough time to cover all the researches; therefore, we have had to print a small part of the researches, picking out only some of the essays that were characterized by precision and acceptability in light of the scientific criteria of the conference; therefore, only this little amount of the essays and papers will be published in the current issue .

It is also noteworthy that we have tried to overlook some papers that might seem to be incompatible with the technical and scholastic lines of the Magazine in order to observe scientific honesty. We are here to assure that the opinions contained in these essays do not necessarily express the general view of the Magazine.

Finally, we would cordially like to express our gratitude to the General Secretariat of the Imam al-Ḥusayn Holy Shrine for its special care for the conference, without which the conference would not have achieved such brilliance and accomplishment. Out acknowledgement is also extended to the General Secretariat of Imam 'Alī Holy Shrine whose staff cooperated remarkably with us and contributed to the success of the conference. Acknowledgement is also extended to the General Secretariat of the al-Kūfah Great Mosque for the kind reception of the guests and for the hospitality shown. Very much acknowledgement is also shown to the headship of the Kufa University and the deanship of the Faculty of Education for embracing the events of the conference and for the big field and academic efforts exerted by the professors and lecturers who contributed greatly to the success of the conference. Similar acknowledgment is extended to the shared committees that directly and exhaustively supervised and met the scientific and executive requirements and preparations for the conference.

Seizing this opportunity, we pray to the Almighty God to grant incessant success and prosperity to our Institution, the Faculty of Education in the Kufa University, and all those who contributed to making successful the conference. We also pray Him to keep their steps fixed on the true path represented by the guidance and the course of Imam al-Ḥusayn, Chief of Martyrs and leader of the blessed international reformative uprising. Verily, God is Ever-Nigh and Responsive to prayers

.

ملفّ العدد

دراسات في الأدب والشعر الحسيني

أثر النهضة الحسينيّة في القصائد المُكَتّمات

أ. د. محمد جواد حبيب البدراني*

توطئة

نفخت شهادة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام روحاً جديدة في الإسلام المحمّدي الأصيل؛ إذ استطاعت الدماء الطاهرة التي سالت في أرض كربلاء أن تبعث الإسلام من جديد، وتعيد أصالته التي بدأ الصدأ الأُموي يُخيِّم عليها، فقد تأجّجت روح المقاومة التي أذكى أُوارها الصمود الحسيني، فتحرّر المسلمون من ربق العبودية الذي ضرب بجرانه على البلاد والعباد؛ إذ تخلّص المجتمع من حالة الاستلاب الحضاري، واستيقظت روح العزّة والكرامة من جديد، تلك الروح التي دأبت السلطة الأُمويّة على إماتتها في الشخصية العربية الإسلامية آنذاك، لذلك يمكن القول: إنّ حركة النهضة الحسينية الخالدة تمكّنت من تغيير الواقع، وقلب المخطط الأُموي على أعقابه، لتصبح بداية النهاية للبيت السفياني في الحكم، ومهّدت لما بعدها من ثورات عمّت أرجاء الدولة طيلة الحكم الأُموي.

لقد نتجت عن الثورة الحسينية نهضة اجتماعية وفكرية وثقافية وسياسية ودينية امتدت آثارها في المجتمع منذ القرن الأول للهجرة حتى وقتنا الحاضر، ولم يك ذلك الأمر ذا أبعاد دينية فحسب، بل يعود ذلك لامتدادات تلك الثورة وتعبيرها عن الحسّ الإنساني الرافض للاضطهاد والتقييد، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، لذلك كانت جميع الثورات اللاحقة تستلهم معالم الثورة الحسينية، وتستفيد من تلك

* جامعة الكوفة/ كلّية التربية للعلوم الإنسانية.

التجربة التي مثّلت اتّجاهاً نادراً في الرفض والتحدّي.

لم يكن الشعر بمعزل عن ذلك، فهو مرآة المجتمع، وديوان العرب المعبِّر عن حياتهم بتفصيلاتها السياسية والاجتماعية والفكرية، لذلك فمن الطبيعي أن يتأثّر الشعر بالثورة الهائلة التي أحدثتها النهضة الحسينية، وامتدت إشعاعاتها للحياة بأكملها، ولعل من خير ما عبّر عن هذا التغيير الكبير في الواقع الأدبي ما عُرِف بـ(القصائد المكتّمات) التي ظهرت في العصر الأُموي، وكانت أشبه بالمنشورات السرِّية، والنشريات التثقيفية السرِّية لأحزاب المعارضة، التي يجري تداولها بعيداً عن أنظار السلطة، بهدف التحريض على الثورة، وإيصال التعليمات للثوّار، وسنقف عند ثلاثة من تلك القصائد التي انتشرت بين صفوف المعارضة الشيعية للسلطة الأُموية بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وكانت اللسان المعبّر عن الثورة والرفض بوجه التسلّط الأُموي، والدعوة إلى إسقاط الحكم الجائر.

المُكَتّمات: المصطلح والمحتوى

لعل أوّل مَن أطلق مصطلح المكتّمات هو الطبري في تأريخه، وربما نقله من تسميةٍ شاعت وانتشرت في زمانه؛ إذ يقول في حديثه عن موقعة عين الوردة ومقتل التوّابين: «**وكان ممّا قيل من الشعر في ذلك قول أعشى همدان، وهي إحدى المكتّمات، كنَّ يُكتّمن في ذلك الزمان**»[1]، كما قدّم لها ابن الأثير بقول مشابه، أمّا المرزباني فيقول عند ترجمته لعبد الله بن عوف بن الأحمر: «**له قصيدة طويلة رثى بها الحسين بن علي عليه السلام، وحضّ الشيعة على الطلب بدمه، وكانت القصيدة تُخبّأ أيّام بني أُميّة**»[2].

القصائد المكتّمات إذن هي قصائد معارضة سياسية، وتحريض ودعوة للثورة ضد الحكم الأُمويّ، خبّأها شعراؤها، أو تستّر الناس عليها ولم يظهروها، وتداولوها

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٥، ص٦٠١.
(٢) المرزباني، محمد بن عمران، معجم الشعراء: ص١٦٤.

بصورة سرِّية بعيداً عن الأنظار، بوصفها منشورات سرّية لحماية أصحابها ومتداوليها من بطش السلطة، وقد أسهمت في تأجيج الثورة ضد الأُمويين وإسقاط حججهم بالحقّ بالخلافة[1].

وسنحاول في الصفحات القادمة الوقوف عند هذه القصائد، وأثر النهضة الحسينية في ألفاظها وبنياتها.

قصيدة ابن الأحمر

هو عوف بن عبد الله بن الأحمر بن زهير بن مالك بن عوف بن ثعلبة، ينتهي نسبه إلى غامد، كان من أبطال الإسلام المعدودين، ومن الشعراء المبرّزين، ولد أوائل القرن الأوّل للهجرة، وكان من فرسان جيش الإمام علي عليه السلام، شارك معه في حروب الجَمَل وصفِّين، وكان من المقرّبين للإمام الحسن عليه السلام، وحالت ظروفٌ دون مشاركته في معركة الطف إلى جنب الإمام الحسين عليه السلام، وقضى حياته بعد ذلك يأكله الندم، وكان الصوت الإعلامي للمعارضة الشيعية للحكم الأُموي، حتى استشهاده في معركة عين الوردة مع التوّابين عام (٦٥هـ)[2].

ومن المعروف أنّ الأُمّة الإسلامية أُصيبت بحالة من الإحباط والوجوم بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، ونجحت دماؤه الطاهرة في تحريك المجتمع، وأشعلت أُوار النهضة الثورية، وأشاعت روح التذمّر والدعوة إلى مقاومة الحكم الأُموي والخروج عليه، وقد بدأت الحملة الإعلامية المناهضة للحكم الأُموي من البيت الهاشمي ذاته، وكلّنا نعرف خُطَب الإمام زين العابدين عليه السلام، والسيِّدة زينب والسيِّدة

(١) للتفصيل في هذه القصائد أُنظر: مخيمر صالح، القصائد المكتّمات في العصر الأُموي. الظواهري، د. كاظم، المكتّمات من صور الشعر السياسي في العصر الأُموي. الطل، علي خليل، التقية في الشعر الأُموي: (رسالة ماجستير/ جامعة الخليل، ٢٠٠٥).

(٢) أُنظر: المرزباني، محمد بن عمران، معجم الشعراء: ص١٦٤. باتني، د. عزيزة فوال، معجم الشعراء المخضرمين والأُمويين: ص٣٤٤ـ٣٤٥.

سكينة عليها السلام، التي كانت الشرارة الأُولى للثورة الإعلامية، والمرحلة الثانية من التعبئة الجماهيرية للنهضة الحسينية، واستمرّت في البيت الهاشمي، فقد قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عندما بلغه استشهاد الإمام الحسين عليه السلام: «**الحمد لله عزّ وجلّ على مصرع الحسين إلّا تكن آست حسيناً يدي فقد آساه ولدي... ولما أتى أهل المدينة مقتل الحسين خرجت ابنة عقيل بن أبي طالب... وهي تقول:**

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأُمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أُسارى ومنهم ضُرِّجوا بدم»[1].

وكان من أوّل النادمين على مقتل الحسين من عامّة الناس عبيد الله بن الحر، وهو من أشراف الكوفة، وقد خرج إلى كربلاء فنظر إلى مصارع القوم، وقال أبياتاً مطلعها:

«يقول أمير غادر حقّ غادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه
فيا ندمي أن لا أكون نصرته ... ألا كلّ نفس لا تُسدّد نادمه
وإنّي لأني لم أكن من حُماته ... لذو حسرة ما إن تفارق نادمه»[2].

وهكذا يتّضح لنا أنّ روح الندم ازدادت وتوطّدت لدى الناس، وبدأت ثمار النهضة الحسينية تأتي أُكلها بالتدريج، فقد أيقن الناس أنّ سكوتهم عن الظلم قادهم إلى ما وقعوا فيه، لذلك عمّت الثورات أرجاء الدولة، فقد قام ابن الزبير بحركته مستفيداً من نقمة القواعد الشعبية على الدولة الأُمويّة بانتهاكها حرمة البيت النبوي، وقتلها سيّد شباب أهل الجنة، وفي عام (٦٣هـ) خرج أهل المدينة على الدولة الأُموية، وأخرجوا الوالي الأُموي، وبايعوا عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، وأعلنوا خلعهم يزيد بن معاوية، ثمّ حدث ما حدث من موقعة الحرّة واستباحة المدينة المنورة، وقتل الأنصار وأبناء الأنصار الذين أوصى الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله بهم، ثمّ الذهاب إلى

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٥٧.
(٢) المصدر السابق: ج٤، ص٣٦٠.

مكّة واحتراق الكعبة في المعارك بين ابن الزبير وجيش الشام.

وقد شهد هذا العام خروج سليمان بن صرد رافعاً شعار (يا لثارات الحسين) في ثورة التوّابين، وهي أوّل ثورة للنادمين المتخلِّفين عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد خرج معه أربعة آلاف من أصل عشرة آلاف بايعوه على الخروج، «**فقام سليمان ابن صرد في الناس متوكئاً على قوس له عربية، فقال: أيّها الناس، مَن كان إنّما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا، ونحن منه، فرحمة الله عليه حيّاً وميتاً، ومَن كان إنّما يريد الدنيا وحرثها، فوالله ما نأتي فيئاً نستفيؤه، ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوان الله ربّ العالمين، وما معنا من ذهب ولا فضّة، ولا خز ولا حرير، وما هو إلا سيوفنا في عواتقنا ورماحنا في أكفنا، وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا... فتنادى الناس من كلّ جانب: إنّا لا نطلب الدنيا، وليس لها خرجنا**»[1].

يُلاحظ على خطبة سليمان بن صرد أنّها تكاد تكون في معانيها مستمدّة من خُطَب الإمام الحسين عليه السلام التي ألقاها عند خروجه إلى مكّة، وعند وصول خبر مقتل مسلم ابن عقيل (رضوان الله عليه)، إذ قال في خروجه من مكّة: «**خُطّ الموت على وِلْد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي وأوصالي هذه يتقطّعها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن منّي أكراشاً جوفاً، وأجربةً سغباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفّينا أُجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة في حظيرة القدس، تقرّ بهم عينُه، ويُنجز بهم وعده، مَن كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله**»[2].

إنّ خطبة سليمان بن صرد مستمدّة من خطبة الإمام الحسين عليه السلام التي لم يكتفِ فيها بالحديث عن حتمية الموت، بل منحه صورة جميلة محبّبة، وعدّ الشهادة زينة

(١) المصدر السابق: ج٤، ص٤٥٣.

(٢) ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، مثير الأحزان: ص٢٩.

تزين الإنسان تزيين القلادة لجيد الفتاة، ويُلاحظ أنّ ابن صرد استنار بهدي النهضة الحسينية حين جعل الناس على بينة من أمرهم موضّحاً أنّه لا يبحث عن مال ولا جاه ولا منصب، وإنّما يريد إحدى الحُسنيين: النصر أو الشهادة.

خرج المقاتلون التوّابون إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام، فازدحموا عليه ازدحام الناس على الحجر الأسود، فبكوا كثيراً، وأعلنوا توبتهم من التخلُّف عن نصرته، وعاهدوا الله على فداء أرواحهم دون الثأر من قاتليه، ثمّ خرجوا مارّين بالأنبار فهيت فالقيارة، ثمّ واصلوا طريقهم إلى عين الوردة التي خاضوا فيها المعركة، واستُشهدوا هناك بعد أن خاضوا معركة مستميتة مع الجيش الشامي الذي يفوقهم عدداً وعدّة، وقد استُشهد معهم ابن الأحمر في شهر ربيع الآخر من عام (٦٥هـ).

لقد قال ابن الأحمر قصيدته المكتّمة قبل خروج التوّابين، وقد اختلفت الروايات فيها وأُضيف إليها أبيات وحُذفت أُخرى، والقصيدة تُعدّ واحدة من أهمّ الأدوات الإعلامية لثورة التوّابين، بل يمكن عدّها بياناً تمهيديّاً للشروع بالثورة، فهو يقول:

صحوت وودّعت الصبا والغوانيا ... وقلت لأصحابي أجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى ... وقتل العدا لبيك لبيك داعيا
وقودوا إلى الأعداء كلّ طمرة ... وقودوا إليكم سانحات المذاكيا
وشدّوا له إذ سعر الحرب أزره ... ليُجزى امرؤ يوماً بما كان ساعيا
وسيروا إلى القوم المحلِّين جنّة ... وهزّوا حراباً نحوهم وعواليا[1].

يُلاحظ أنّ الشاعر ابتدأ قصيدته بمطلع ذكي، فهو مطلع وحسن تخلّص في آنٍ واحد؛ إذ يسوّغ خروجه عن البناء التقليدي للقصيدة العربية التي اعتاد أصحابها ابتداءها بالمقدّمة الطللية والغزلية، فهو يبرر صحوه من ذلك كلّه بأنّ الذي قاده إلى

(١) أُنظر: الطل، علي خليل، التقية في الشعر الأُموي: ص١٨٦.

الصحو هو المصيبة التي مرّت بالإسلام، وكأنّ الشاعر لا يعبّر عن صحوة ذاتية، بل صحوة جمعية مرّت بها الأُمّة بعد حالة النكوص التي مرّوا بها بتخلّيهم عن نصرة ابن بنت نبيّهم، لذلك يدعو الناس إلى إجابة النداء، والاستجابة للدعوة التي أطلقها سليمان بن صرد وأصحابه.

ويُلاحظ أنّ القصيدة تمثّل بياناً من بيانات الثورة، فقد تآزرت مع خُطَب سليمان ابن صرد، لتكونا لسان الثورة وإعلامها، فمن المعروف أنّ الشعر والخطابة كانا يمثّلان الآلة الإعلامية للحروب آنذاك، فقصيدة ابن الأحمر لا تختلف كثيراً عن خطبة سليمان التي يقول فيها: «**إنّا كنّا نمدّ أعناقنا لقدوم آل نبيّنا، ونمنّيهم بالنصر، ونحثّهم على القدوم، فلمّا قدموا ونينا وعجزنا، وأدهنا وتربّصنا، وانتظرنا ما يكون، حتى قُتِل فينا وِلْد نبيّنا، وسلالته وبضعة من لحمه ودمه... ألا انهضوا فقد سخط ربّكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، وما أظنّه راضياً حتى تناجزوا من قتله، أو تبيروا، ألا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه أحدٌ إلّا ذلّ**»[1].

من هنا يمكن القول: إنّ المقطع الأوّل من القصيدة تناول الأفكار ذاتها التي تناولتها خطبة سليمان بن صرد، وهي:

١ـ هول المأساة وفداحة الإثم بمقتل الإمام الحسين عليه السلام.

٢ـ ضرورة الإسراع بالانتقام من قَتَلة الإمام الحسين عليه السلام والمتواطئين معهم.

٣ـ تجسيد فكرة الاستشهاد والتضحية بالأموال والنساء.

٤ـ الإصرار على نيل التوبة عن طريق التضحية بالنفس[2].

بعد ذلك ينتقل الشاعر إلى الحديث عن تفصيلات المعركة، وما حدث في الطف من مأساة إنسانية باستشهاد سيّد شباب أهل الجنّة، وإصرار جيش الأُمويين على

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٥، ص٥٨٨.

(٢) بيضون، د. إبراهيم، التوّابون: ص٨٦.

قتله، إلّا ثلّة وقفت معه، وفدته بالنفس والنفيس:

ولا قائلاً لا تقتلوه فتُستحوا	ومَن يقتل الزاكين يلق التخازيا
فلم يك إلا ناكثاً أو مقاتلاً	وذا فجرة يسعى عليه معاديا
سوى عصبة لم يعظم القتل عندهم	يشبهها الراؤون أُسداً ضواريا
وقوه بأيديهم وحر وجوههم	وباعوا الذي يفنى بما كان باقيا
وأضحى حسين للرماح درية	فغودر مسلوباً لدى الطفّ ثاويا
قتيلاً كأن لم يغن في الناس ليلة	جزى الله قوماً أسلموه الجوازيا[1].

إنّ الشاعر يلجأ إلى لغة التحريض والاستنهاض والتقريع، وتذكير الناس بتخاذلهم عن نصرة ابن بنت نبيّهم حين تركوه وحيداً في ساحة المعركة، إلّا ثلّة من آل بيته وأنصاره الذين حملوا الأرواح على الأكف، واصفاً إياهم بأنّهم باعوا الذي يفنى بما كان باقياً، مستفيداً من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[3].

كما أنّها مستمدّة من قول الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى أرض المعركة: «**إنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برماً**»[4]، فملامح النهضة الحسينية واضحة في القصيدة؛ إذ إنّ الشاعر يستثمر كلّ النتاج الفكري للثورة الحسينية ليوظّفه في قصيدته، محاولاً تأجيج مشاعر الجماهير، منتقلاً إلى لوم النفس والشعور

(١) الشجري، يحيى بن الحسين، الأمالي الخميسية: ص٢٦٣.
(٢) آل عمران: آية١٦٩ـ١٧٠.
(٣) البقرة: آية٢٠٧.
(٤) مطهري، مرتضى، الملحمة الحسينية: ص١٤٧.

بالندم، فيقول:

فيا ليتني إذ ذاك كنت شهدته	فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
ودافعت عنه ما استطعت مجاهداً	وأعملت سيفي فيهم وسنانيا
ولكن قعدت في معاشر ثبّطوا	وكان قعودي ضلّة من ضلاليا
فما تنسني الأيّام من نكباتها	فإنّي لن آلف له الدهر ناسيا
ويا ليتني غودرت فيمن أجابه	وكنت له من مقطع السيف فاديا
ويا ليتني أحضرت عنه بأُسرتي	وأهلي وخلاني جميعاً وماليا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى	بغربية الطف الغمام الغواديا[1].

إنّ الشاعر نادم على عدم مشاركته في القتال مع الإمام الحسين عليه السلام وصحبه، فهو يشعر أنّه ضيّع دنياه وآخرته بعدم استجابته لواعية الإمام الحسين عليه السلام، ويتمنّى أن تعود الأيام ليفدي الإمام الحسين عليه السلام بأهله وأُسرته وأحبائه، ثمّ يدعو له بالسقيا، وهو تقليد معروف في القصيدة العربية منذ العصر الجاهلي حيث يُدعى بالسقيا لقبور الأحبّة، ويصف خذلانهم للإمام الحسين عليه السلام بأنّه ضلال وضياع، وأنّه ليس لهم إلّا التوبة والعودة إلى طريق الله.

إنّ القارئ للقصيدة يتلمّس بوضوح تام أنّ الشاعر استطاع أن يستلهم مبادئ الثورة الحسينية التي عبّرت عنها خُطَب الإمام الحسين عليه السلام، وأوضحتها مواقفه ومواقف أهل بيته بعد استشهاده في أسْرِهم.

قصيدة أعشى همْدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث من همْدان، يعدّ من أشعر اليمانيين وأفصحهم بالكوفة، ومن أبرز فرسان عصره، شاعر مبرّز من الشعراء الذين برزوا في الدولة الأُموية، كان فقيهاً ومن أشهر القرّاء في الكوفة، ثمّ ترك ذلك وتوجّه

(١) الشجري، يحيى بن الحسين، الأمالي الخميسية: ص٢٦٣.

للشعر، شارك في بعض الفتوحات، ثمّ خرج على الدولة الأُموية مؤيِّداً لثورة عبد الرحمن بن الأشعث في خراسان، وجيء به أسيراً للحجاج فضرب عنقه صبراً[1].

يُعدّ الأعشى الهَمْداني صاحب المكتّمة الثانية، وقد كتبها في رثاء قتلى حركة التوّابين، وبالأخص سليمان بن صرد الخزاعي، ويمكن تقسيم القصيدة على ثلاثة أقسام:

١ـ المقدّمة: وتشمل هذه المقدّمة الأبيات التسعة الأُولى من القصيدة، وهي مقدّمة غزلية يقول فيها:

ألَمَّ خيال منك يا أُمّ غالب ... فحيّيت عنّا من حبيب مجانب

وما زلت لي شجواً وما زلت مقصداً ... لهمٍّ عراني من فراقك ناصب

فما أنس لا أنسى انفتالك بالضحى ... إلينا مع البيض الوسام الخراعب

تراءت لنا هيفاء مهضومة الحشا ... لطيفة طيّ الكشح ريّا الحقائب

مبتلة غرّاء رود شبابها ... كشمس الضحى تنكل بين السحائب

فلمّا تغشّاها السحاب وحوله ... بدا حاجب منها وضنّت بحاجب

فتلك الهوى وهي الجوى لي والمنى ... فأحببْ بها من خلّة لم تصاقب

ولا يبعد الله الشباب وذكره ... وحبّ تصافي المعصرات الكواعب

ويزداد ما أحببته من عتابنا ... لعاباً وسقياً للخدين المقارب[2].

إنّ القصيدة تبتدئ بمقدّمة غزلية على وفق تقاليد القصيدة العربية، فقد اعتاد الشعراء العرب منذ جاهليتهم ابتداء القصيدة بمقدّمة غزلية قبل الدخول في غرضها الأصلي، ويبدو لي أنّ النصّ يحمل رمزية عالية، فالشاعر سمّى حبيبته أُمّ غالب، ووصفها بأنّها حبيب مجانب متمنّع، وأنّها شجو في الحلق، تصرّ على الفراق ولا

(١) أُنظر: أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغاني: ج٦، ص٣٣. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج٣، ص٣١٢. الشبستري، عبد الحسين، مشاهير شعراء الشيعة: ج٢، ص٤٠١.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٥، ص٦٠٨.

تواصل، بعيدة المنال، فهي الهوى والجوى والمنى التي يسعى إليها، لكنّها لا تتحقّق، ويبدو لي أنّ الشاعر يرمز للنصر العسكري والتغلّب على الأعداء، وكأنّه يقول: إنّ الانتصار العسكري غاب عن سكّة التشيُّع في معاركهم مع العدو، وكأنّ الله سبحانه وتعالى اختار لهم درب الشهادة في الدنيا، ومفارقة الأحبّة؛ ليعزّهم في الآخرة.

إنّ مقدّمة القصيدة كما يبدو لي ليست مقدّمة تقليدية لا همّ لها إلّا السير على النمط العربي المعروف، بل هي غزل ليس بمعزل عن البناء العام للقصيدة، فهو يسير على وفق أهدافها ومراميها، ويعبّر عن حسرة لا تنفك في نفس الشاعر على مفارقة النصر على الأعداء، والذي غدا بالنسبة إليه حبيبة متمنّعة يتعذّر الوصول إلى حِماها، على الرغم من تقديم التضحيات الجسام من أجل الوصول إلى الحلم المبتغى، وبذل الدماء رخيصة، فالغزل بُنية متكاملة مع موضوع القصيدة، وليس مقحماً في بُنيتها.

٢ـ وصف التوّابين وتحرّكهم:

فإنّي وإن لم أنسهنّ لذاكر ... رزيئة مخبات كريم المناصب
توسّل بالتقوى إلى الله صادقاً ... وتقوى الإله خير تكساب كاسب
وخلى من الدنيا فلم يلتبس بها ... وتاب إلى الله الرفيع المراتب
تخطّى عن الدنيا وقال أطّرحتها ... فلست إليها ما حييت بآيب
وما أنا في ما يكبر الناس فقده ... ويسعى له الساعون فيها براغب
فوجهه نحو الثويّة سائراً ... إلى ابن زياد في الجموع الكباكب
بقوم هم أهل التقية والنهى ... مصاليت أنجاد سراة مناجب
مضوا تاركي رأي ابن طلحة حسبة ... ولم يستجيبوا للأمير المخاطب
فساروا وهم من بين ملتمس التقى ... وآخر ممّا جر بالأمس تائب[1].

لقد ابتدأ أمر الحركة بعد مقتل الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، ويروي الطبري في

(١) المصدر السابق.

تأريخه عن ابن الأحمر صاحب المكتّمة الأُولى أنّه لـمّا قُتل الحسين بن علي عليهما السلام تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندّم، وأدركت أنّها أخطأت خطأً كبيراً بترك نصرة الحسين عليه السلام بعد أن دعوه فأجابهم، فخذلوه ولم ينصروه حتى استُشهد بين ظهرانيهم، وأنّه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلّا بقتل مَن قتله أو القتل فيه، ففزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة، إلى سليمان بن صرد الخزاعي، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وآله، وإلى المسيب بن نجبة الفزاري، وكان من أصحاب الإمام علي عليه السلام وخيار أهل الكوفة، وإلى عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وإلى عبد الله بن وال التميمي، وإلى رفاعة بن شدّاد البجلي، وبعد أن اتّفقوا على تولية أمرهم سليمانَ بن صرد الخزاعي قام فيهم خطيباً فقال:

«أمّا بعد، فإنّي والله لخائف أن لا يكون أخّرنا الله عزّ وجلّ إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة، وعظمت الرزية، وشمل فيه الجور أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير، إنّا كنّا نمدّ أعناقنا لقدوم آل نبيّنا ونمنّيهم النصر، ونحثّهم على القدوم، فلمّا قدموا ونينا وعجزنا، وأدهنا وتربّصنا وانتظرنا، حتى قُتل فينا ولد نبيّنا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه، اتّخذه الفاسقون غرضاً للنبل، ودرية للرماح، حتى أقصدوه وعدوا عليه فسلبوه، ألا انهضوا فقد سخط ربّكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله لا أظنّه راضياً دون أن تناجزوا مَن قتله أو تبيروا.

ألا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه امرؤ قط إلّا ذلّ، كونوا كالأُولى من بني إسرائيل، إذ قال لهم نبيُّهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، فما فعل القوم؟ جثوا إلى الركب والله، ومدّوا الأعناق، ورضوا بالقضاء حين علموا أنّه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلّا الصبر على القتل، فكيف بكم لو قد دُعيتم إلى مثل ما دُعي القوم إليه، اشحذوا السيوف، وركّبوا الأسنّة، ﴿وَأَعِدُّواْ

(١) البقرة: آية ٥٤.

لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ * وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1]»[2].

فقام إليه خالد بن سعد بن نفيل، وحنش بن ربيعة الكناني وغيرهم، فتصدّقوا بأموالهم إلّا السلاح، وبايعوه على الموت، ثمّ راسلوا إخوانهم وأنصارهم بالمدائن والبصرة وغيرها، وبدأوا بإعداد العُدّة، والاستعداد للقتال، حتى حلول عام (٦٤هـ) وموت يزيد، ممّا زاد عزيمتهم على المضي في أمرهم[3].

إنّ الشاعر يتحدّث عن تخلّي سليمان بن صرد الخزاعي وأنصاره عن الأموال والمطامع الدنيوية، وإصرارهم على بذل الروح رخيصة في سبيل ما يريدون من دون تردّد أو وجل، واختيارهم طريق التوبة النصوح.

لقد تأثّر أصحاب سليمان بالأثر الفكري الذي تركته النهضة الحسينية في نفوس الناس، وانتصار الدم الحسيني على السيف الأُموي والآلة الإعلامية، ويستثمر الشاعر ما دار في الخطبة التي ألقاها سليمان في أصحابه، حتى تبدو القصيدة وكأنّها وثيقة تاريخية معبّرة عن حركة التوّابين ومؤرّخة لها؛ إذ تصف القصيدة الأحداث التأريخية بدقّة، وكيف خرج سليمان وأنصاره إلى المواجهة ومقارعة الظلم والطلب بالثأر.

ويذكر الطبري في تأريخه: أنّ أمير الكوفة عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة زارا سليمان بن صرد، وعرضا عليه أن يقيم معهما في الكوفة بانتظار جيش الشام لمواجهته، على أن يخصّاه وأصحابه بخراج جوخى، فقال: ما للدنيا خرجنا، بل طلباً لإحدى الحُسنيين. ثمّ خرجوا إلى النُّخَيلة، ثمّ نزل على شاطئ الفرات، وقد تخلّف عنه قرابة ألف ممّن بايعوه، فقال ابن صرد: ما أحبّ أن مَن تخلّف عنكم معكم،

(١) الأنفال: آية ٦٠ـ٦١.
(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٥، ص٥٥٣.
(٣) اُنظر: المصدر السابق: ج٥، ص٥٥٣، وما بعدها.

ولـو خرجوا معكم ما زادوكـم إلّا خبالاً، إن الله عزّ وجلّ كره انبعاثهم فثبّطهم، وخصّكم بفضل ذلك فاحمدوه[1].

ويُلاحظ أنّ سـليمان اسـتثمر قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ * وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ * لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾[2].

ثمّ سار سليمان وأصحابه، فأصبحوا عند قبر الإمام الحسين عليه السلام، وأقاموا فيه يوماً وليلة، ما رُئي يوم كان أكثر باكياً منه، وكان سـليمان يقول عند نزوله القبر الشريف: **«اللّهم أرحم حسـيناً الشـهيد ابن الشـهيد، المهدي بـن المهدي، الصدِّيـق ابن الصدِّيق، اللّهم إنّا نُشهدك أنّا على دينهم وسبيلهم، وأعداء قاتليهم، وأولياء محبّيهم»**[3].

ثمّ ساروا على الجصّاصة، فالأنبار، فالصدود، فالقيارة، وكان ابن الأحمر يردد:

خرجنَ يلمعنَ بنا إرسالا
عوابساً يحملننا أبطالا
نريد أن نلقى بها الأقتالا
القاسطين الغدر الضلالا
وقد رفضنا الأهل والأموالا
والخفرات البيض والحجالا
نرضي به ذا النعم المفضالا[4].

(١) أُنظر: المصدر السابق.
(٢) التوبة: آية ٤٥ـ٤٨.
(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٥، ص٥٨١.
(٤) المصدر السابق: ج٥، ص٥٧١.

وقد أرسل إليهم أمير الكوفة يدعوهم إلى العودة ومواجهة الجيش الشامي معه، فاستشار ابن صرد أصحابه، فقالوا: إنّا وطنّا أنفسنا على الجهاد، وطلبوا رأيه هو، فقال: «**رأيي والله، أنّكم لم تكونوا قط أقرب من إحدى الحُسنيين من يومكم هذا، ولا أرى أن تنصرفوا عمّا جمعكم الله عليه من الحقّ، وأردتم به من الفضل، أنا وهؤلاء مختلفون، إنّ هؤلاء لو ظفروا دعونا إلى الجهاد مع ابن الزبير، ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلّا ضلالة، وإنّا إن نحن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهله، وإن أُصبنا فعلى نياتنا تائبين من ذنوبنا**»[1].

ثمّ انصرفوا ونزلوا هيت، وكتب إلى عبد الله بن يزيد: «**إنّا سمعنا الله عزّ وجلّ يقول في كتابه:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]، **إنّ القوم قد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا، إنهّم قد تابوا من عظيم جرمهم، وقد توجّهوا إلى الله، وتوكّلوا عليه، ورضوا بما قضى الله،** ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[3]»[4].

ثمّ خرجوا حتى نزلوا عين الوردة وجاء الجيش الأُموي لمواجهتهم، فقام سليمان خطيباً فقال: «**إذا لقيتموهم فاصدقوهم واصبروا، إنّ الله مع الصابرين، ولا يولينّهم امرؤ دبره إلّا متحرّفاً إلى قتال أو متحفّزاً إلى فئة، لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح،**

(١) المصدر السابق: ج٥، ص٥٧٢.
(٢) التوبة: آية ١١١ـ١١٢.
(٣) الممتحنة: آية ٤.
(٤) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٥، ص٥٧٤.

ولا تقتلوا أسيراً بعد أن تأسروه من أهل دعوتكم، إلّا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، أو يكون من قَتَلة إخواننا بالطفّ رحمة الله عليهم، فإنّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين...».

ثمّ قال: «إن أنا قُتلت فأمير الناس المسيب بن نجبة، فإن أُصيب المسيب فأمير الناس عبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قُتل عبد الله فأمير الناس عبد الله بن وال، فإن قُتل فأمير الناس رفاعة بن شدّاد، رحم الله امرءاً صدق ما عاهد الله عليه»[1].

ولعلّ أهم ما يمكن ملاحظته هنا:

١ـ الإفادة من قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

٢ـ إنّ ابن صرد أفاد من وصايا الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ووصايا الإمام علي عليه السلام عند الخروج للقتال في الحفاظ على أخلاقيات المعركة، وعدم الانجرار وراء القتل المفرط، بل الاكتفاء بمعاقبة المجرم على جريرته.

٣ـ استمرار حالة الندم التي غدت هي الشغل الشاغل لحركة التوّابين، وكان الندم هو الخطوة الأُولى باتّجاه تصحيح الأوضاع.

٤ـ رثاء القتلى والتحسّر على فوات النصر:

فلاقوا بعين الوردة الجيش فاصلاً ... إليهم فحسوهم ببيض قواضبِ

يمانية تذر الأكف وتارة ... بخيل عتاق مقربات سلاهبِ

(١) المصدر السابق: ج٥، ص٥٧٧.

(٢) البقرة: آية٢٤٩.

(٣) الأنفال: آية١٥ـ١٦.

فجاءهم جمع من الشأم بعده ... جموع كموج البحر من كلّ جانبِ
فما برحوا حتى أُبيدت سراتهم ... فلم ينجُ منهم ثمّ غير عصائبِ
وغودر أهل الصبر صرعى فأصبحوا ... تعاورهم ريح الصبا والجنائبِ
وأضحى الخزاعي الرئيس مجدلاً ... كأن لم يقاتل مرّة ويحاربِ
ورأس بني شمخ وفارس قومه ... شنوأة والتيمي هادي الكتائبِ
وعمرو بن بشر والوليد وخالد ... وزيد بن بكر والحليس بن غالبِ
وضارب من همدان كل مشيع ... إذا شدّ لم ينكل كريم المكاسبِ
ومن كل قوم قد أُصيب زعيمهم ... وذو حسب في ذروة المجد ثاقبِ
أبوا غير ضرب تفلق الهام وقعه ... وطعن بأطراف الأسنّة صائبِ
وإنّ سعيداً يوم يدمر عامراً ... لأشجع من ليث بدرنا مواثبِ
فيا خير جيش للعراق وأهله ... سقيتم روايا كلّ أسحم ساكبِ
فلا يبعدن فرساننا وحماتنا ... إذا البيض أبدت عن خدام الكواعبِ
فإن يُقتلوا فالقتل أكرم ميتة ... وكلّ فتى يوماً لإحدى الشواعبِ
وما قُتلوا حتى أثاروا عصابة ... محلين ثوراً كالليوث الضواربِ[1].

إنّ القصيدة تتوافق مع ما ذكرته كتب التأريخ، بل تبدو القصيدة وكأنّها توثّق المعركة بالأسماء، فقد ذكر الطبري أنّ الحصين بن نمير أرسله عبيد الله بن زياد في أكثر من (١٢) ألف مقاتل، فالتقى مع جيش التوّابين في يوم الأربعاء لثمانٍ بقين من جمادى الأُولى، فجعل سليمانُ على ميمنته عبد الله بن سعد بن نفيل، وعلى ميسرته المسيب بن نجبة، وبقي هو في القلب، فلمّا دنوا منهم دعا أهلُ الشام العراقيين إلى الجماعة على عبد الملك بن مروان، ودعا التوّابون أهلَ الشام إلى تسليمهم عبيد الله بن زياد، وخلع عبد

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٥، ص٦٠٢.

الملك، وإخراج ابن الزبير من العراق، وتسليم الأمر لآل البيت عليهم السلام، فأبى الطرفان.

وينقل المؤرِّخون أنّ النصر في بداية المعركة كان من نصيب التوّابين، وأنّهم أوقعوا في أهل الشام الكثير من القتلى إلى الليل، وفي الصباح أمدّهم ابن زياد بأكثر من ثمانية آلاف يقودهم ابن ذي الكلاع، فقاتلوهم قتالاً شديداً لا يحجزهم إلّا الصلاة، وكان النصر للتوّابين، ثمّ أمدّهم ابن زياد بعشرة آلاف آخرين يقودهم أدهم بن محرز الباهلي، فاقتتلوا يوم الجمعة إلى الضحى، وقد تكاثر أهل الشام، فلمّا رأى سليمان بن صرد ذلك نادى أصحابه: مَن أراد البكور إلى ربّه والتوبة من ذنبه فإليّ. ثمّ كسر جفن سيفه، وفعل أصحابه مثله، فقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، فلمّا رأى الحصين ذلك أمرَهم أن يضربوهم بالسهام والنبال، فقُتل سليمان بن صرد بسهم، فأخذ الراية المسيب بن نجبة، وقال: رحمك الله يا أخي سليمان، فقد صدقت ووفّيت بما عليك، وبقي ما علينا. فقاتل وهو يرتجز:

قد علمت ميالة الذوائبِ

واضحة اللبات والترائبِ

أنّي غداة الروع والتغالبِ

أشجع من ذي لبد مواثبِ

قطّاع أقران مخوف الجانبِ[1].

فقاتل حتى استُشهد، فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل، وفي هذه الأثناء وصل عبد الله بن فضيل الطائي وكثير بن عمرو المزني وسعر بن أبي سعر الحنفي يُبشِّرون التوّابين بقرب وصول مدد أهل المدائن بقيادة سعد بن حذيفة بن اليمان، ومدد البصرة بقيادة المثنى بن مخربة العبدي، فقالوا: لن يدركوننا ونحن أحياء، ثمّ قاتل الثلاثة مع أصحابهم فقُتل المزني، وطُعن الطائي، وجُدعت أنفه، وجُرح

(١) المصدر السابق: ج٥، ص٦٠٠.

العبدي، ونجا بعد ذلك.

ثمّ استُشهد عبد الله بن سعد بن نفيل وأخوه خالد، واستُشهد ابن وال، وقُتِل من حمير وهمْدان الكثير، وانتهت المعركة بانتصار الأُمويين وفناء التوّابين إلّا الأقل[1].

يمكن تسجيل النقاط الآتية:

١ـ إنّ التوّابين ساروا على نهج الإمام الحسين عليه السلام نفسه في التفاني في المعركة والتضحية بالغالي والنفيس.

٢ـ اختطّ سليمان لنفسه الوصية التي أوصاها الرسول صلى الله عليه وآله في معركة مؤتة، وذلك بتوالي القيادة؛ كي لا يبقى الجيش بلا قائد.

٣ـ نجح الشعر في أن يكون معبِّراً تعبيراً صادقاً عن المعركة ووصفها بشكل دقيق.

٤ـ يمكن عدّ القصائد المكتّمات أُنموذجاً حيّاً للقصيدة الإعلامية.

٥ـ ظلّت هذه القصائد تتداول بين الناس طيلة العصر الأُموي بوصفها سلاحاً في معركة التصدّي.

٦ـ استثمرت هذه القصائد معاني وأهداف الثورة الحسينية واستضاءت بها.

٧ـ تُمثِّل هذه القصائد صورة واضحة لأدب التشيّع.

(١) أُنظر: المصدر السابق: ج٥، ص٦٠٠، وما بعدها.

فهرست المصادر

* القرآن الكريم.

١ ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

٢ ـ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ط١، دار الكتب المصرية، ١٩٢٩م.

٣ ـ الأمالي الخميسية، يحيى بن الحسين الشجري الجرجاني (ت٤٩٩هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان.

٤ ـ تاريخ الأُمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف بمصر، د.ت.

٥ ـ التقية في الشعر الأُموي، علي خليل الطل، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، ٢٠٠٥م.

٦ ـ التوّابون، د. إبراهيم بيضون، شبكة الإمامين الحسنين على الإنترنت.

٧ ـ مشاهير شعراء الشيعة، عبد الحسين الشبستري، ط١، قم، ١٤٢١هـ.

٨ ـ معجم الشعراء، أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق: فاروق إسليم، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م.

٩ ـ معجم الشعراء المخضرمين والأُمويين، د. عزيزة فوال باتني، ط١، لبنان، ١٩٩٨م.

١٠ ـ المكتّمات في العصر الأُموي، مخيمر صالح دار الفيحاء، عمان، ١٩٨٨م.

١١ ـ المكتّمات من صور الشعر السياسي في العصر الأُموي، د. كاظم الظواهري، دار الصفوة، ١٩٨٧م.

١٢ ـ مثير الأحزان، ابن نما الحلي (ت٦٤٥هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

١٣ ـ الملحمة الحسينية، الشيخ مرتضى المطهري، ط٢، طهران، ١٣٨٦هـ.

الإمام الحسين عليه السلام في رواية بين القصرين لنجيب محفوظ
رؤية تحليلية

أ. م. د. وسام علي محمد حسين*

المقدّمة

من المعروف لمؤرّخي الأدب العربي ودارسيه أنّ الإمام الحسين عليه السلام، قد احتل مساحة واسعة في خارطة هذا البلد، وكان أحد محاور القصيدة العربية منذ واقعة الطفّ ٦١هـ إلى يومنا هذا، ولكن من غير المعروف للكثير من المهتمّين بشؤون الأدب ما احتلّه الإمام الحسين عليه السلام في الأجناس الأدبية الأُخرى، لا سيّما الحديثة منها، ألا وهي الرواية.

وممّن أفرد له عليه السلام فضاء واسعاً في رواياته من الروائيين العرب الكبار في القرن العشرين هو الروائي نجيب محفوظ، الذي انساب الإمام الحسين عليه السلام في ثنايا فنّه الروائي انسياب الماء الزلال في سواقي البساتين المزهرة، وقد ارتأيت أن أختار إحدى روايات نجيب محفوظ، وأكشف عن ملامح الإمام الحسين عليه السلام وصورته في تلك الرواية، وهي رواية بين القصرين، وهي واحدة من ثلاثية: قصر الشوق، والسكرية، وروايتنا موضوع البحث والدراسة.

لقد اتخذتُ منهجاً يقوم على مقدّمة وتمهيد ومحورين وخاتمة وقائمة بالمصادر المفهرسة، وقد تناولت في التمهيد تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، ودورها في نشر مذهب آل البيت عليهم السلام، والشغف بالإمام الحسين عليه السلام، كما تتبعت الموروث المصري،

* جامعة الكوفة/ كلية التربية للبنات/ قسم اللغة العربية.

وتلمست أثر الإمام الحسين عليه السلام فيه.

وفي المحور الأوّل وقفت عند الإمام الحسين عليه السلام في ذاكرة نجيب محفوظ، كما تتبعت شخصية الإمام الحسين عليه السلام في رواية بين القصرين في هذا المحور، واستكملت قسمات وملامح صورة الإمام الحسين عليه السلام في شارع المعزّ أو شارع بين القصرين، حيث يتربع مسجد الحسين شامخاً يطاول الزمن.

كما توقفت متناولة الإمام الحسين عليه السلام في رحاب الأُسرة المصرية المتمثلة في أُسرة أحمد عبد الجواد وأفرادها، لا سيّما زوجته أمينة التي تعلّق قلبها بحب الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك ابنها الصغير كمال الذي كانت له تأملات معبّرة عن ذلك الحب الإلهي الذي يجمعه بالإمام الحسين عليه السلام، لقد تمكّن نجيب محفوظ من تصويرها ورسمها بريشة الفنان الحاذق، وتقديمها للقارئ بأُسلوب مؤثّر للغاية، ثمّ أنهيت الدراسة بخاتمة لخّصت فيها أهم ما توصّلت إليه من نتائج.

التمهيد: الدولة الفاطمية في مصر ودورها في نشر مذهب أهل البيت عليهم السلام

من المعروف لدارسي تأريخ الدولة الفاطمية في مصر، أنّهم قد توجّهوا بأنظارهم من بلاد المغرب التي سادها الاضطراب من حين لآخر إلى مصر؛ لوفرة ثرواتها، وقربها من بلاد المشرق، الأمر الذي جعلها صالحة لإقامة دولة مستقلّة تنافس العباسيين[1].

«ولم تواجه جماهير السنّة في مصر أيّة ضغوط من قبل الدولة الفاطمية؛ لإجبارها على التخلّي عن مذهبها كما أشاع خصوم الفاطميين، وإنّما الجماهير هي التي زحفت طواعية نحو دعوة آل البيت، حتى تحوّل أنصار مذهب السنّة إلى أقلية»[2].

وتذكر المصادر أنّه عندما «**وصل الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي إلى القاهرة في**

(١) أُنظر: تأسيس الدولة الفاطمية، موقع: *www.dovar.net*.

(٢) الورداني، صالح، الشيعة في مصر من الإمام علي إلى الخميني: ص٢٧.

سنة ٣٦٢هـ، ركّز اهتمامه في تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي»[١]، وقد كانت القاهرة آنذاك تشكّل مركزاً لحركة التشيع في مصر؛ باعتبارها عاصمة الدولة الفاطمية ومقراً للدعوة، ومنها ينطلق الدعاة إلى أقاليم مصر ونجوعها[٢].

ويبدو أنّ «**الأساس القوي الذي كانت عليه الدولة الفاطمية، هو انتسابها إلى الإمام علي بن أبي طالب**عليه السلام**؛ ولهذا كان السلاح القوي الذي استعمله أعداؤها ومعارضوها هو الطعن في شرعية حكمها**»[٣].

وقد فضّل الفاطميون الانتماء إلى السيدة فاطمة الزهراء**عليها السلام**؛ «**لأنّهم يُقيمون حقّهم في الخلافة على أنّهم أسباط النبي**صلى الله عليه وآله**، وأنّهم أبناء الوصي علي بن أبي طالب، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها، ويقولون: إن الانتساب إلى النبي من جانب عمّه العباس أقرب من جانب علي ابن عمّه أبي طالب، ومن أجل هذا يتسمّى الفاطميون بهذا الاسم؛ لأنّ بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون**»[٤].

ولعلّ الصبغة الدينية العميقة قد طبعت سياسة الدولة الفاطمية منذ القِدم، وبفضل هذا قامت حكومتهم، وتركّزت في مصر[٥].

وتذكر المصادر أنّ الوزير الفاطمي الصالح طلائع بن رزيك، قد لعب دوراً هاماً في حفظ رأس الإمام الحسين**عليه السلام** مؤقتاً بالسرداب، حيث انتقل من عسقلان إلى القاهرة في ٨ جمادى الآخرة عام ٥٤٨هـ، وبقيت عاماً مدفونة في قصر الزمرد، حتى أُنشئت له خصيصاً قبة هي المشهد الحالي، وكان ذلك عام ٥٤٩هـ[٦]، وقد تمّ «**حمل**

---

(١) أُنظر: موسوعة الفرق، الدولة الفاطمية وخيانتها في محو السنّة ونشر التشيع، المبحث الخامس، *dorar.net/enc/firq/1843*.

(٢) أُنظر: مرغي، جاسم عثمان، الشيعة في مصر: ص٧٣.

(٣) الأميني، محمد هادي، عيد الغدير في عهد الفاطميين: ص٢٩.

(٤) العقاد، عباس محمود، فاطمة الزهراء والفاطميون: ج٢، ص٣٤٦.

(٥) أُنظر: الأميني، محمد هادي، عيد الغدير في عهد الفاطميين: ص٣٠.

(٦) أُنظر: إبراهيم، محمد زكي، مراقد أهل البيت في القاهرة: ص٤٣.

الـرأس الشريف من السرداب العظيم إلى هذا القبر، ودُفن به في الثلاثاء الأخير من ربيع الآخر على المشـهور من العام التالي، وهو موعد الذكرى السـنوية الكبرى بمصر للإمام الحسـين»[1]، ويبدو أنّ حضارة مصر الفاطمية «**في ظلّ الإسـلام الشـيعي، كانت نتاج تجربة فريدة من نوعها للدولة الإسلامية الشيعية، وسنجد مؤشرات عظمة هذه الحضارة في المؤسسـات التي بناها الخلفاء المصريون، فالمظهـر الحضاري المتميّز والمتقدّم هو الذي يـدل على عظمة الفكر الذي يحمله أهلها لآل البيت عليهم السلام، الذين أصبحوا نبراسـاً يُحتذى به في المُثل الإسلامية والإنسانية**»[2] على مرّ الأزمان والعصور.

الإمام الحسين عليه السلام في الموروث المصري

لقـد تشرّفت مصر بأهل البيت عليهم السلام منـذُ أن جاءها محمد بن أبي بكر عاملاً للإمام عـلي عليه السلام، واسـتمرت علاقتهـا بأهل البيت عليهم السلام، وقـد زاد من ولائها مجـيء عدد من الأعلام، كالإمام الشافعي عندما انتقل إلى مصر، حيث نقل معه هذا الحب، وكذلك وجود بعض من آل البيت كالسـيدة نفيسـة بنت الحسن التي دُفنت هناك[3]، وما زال مرقدها يؤمّه الزائرون من كلّ حدب وصوب؛ تيمناً بحفيدة الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فكان لقيام دولة كاملة حكمت مصر ـ وعُرفت باسم الفاطميـين، وقـد رفعت شـعاراً عنوانه حب أهل البيت عليهم السلام ـ آثار كبـيرة، منها: بناء القاهـرة التي أنشـأها جوهر الصقلي، وأصبحت مركزاً للإشـعاع الحضاري للبلدان المجاورة، وقد تكرّست علاقة مصر بأهل البيت عليهم السلام حتى العصور المتأخرة، ويقال: إنّ مـصر سـنّية المذهب، شـيعية الهـوى، وحين يزور الإنسـان مقام الحسـين عليه السلام، أو السيدة زينب عليها السلام يرى مظاهر التعلّق بأهل البيت واضحة هناك[4].

---

(١) المصدر السابق: ص٤٨.

(٢) صالح، حسن محمد، التشيع المصري الفاطمي: ص٩.

(٣) أُنظر: الإمام الحسين عليه السلام في الثقافة المصرية، موقع: www.abraronline.net.

(٤) أُنظر: المصدر السابق.

ويوجد في مصر كثير من الأضرحة والمزارات التي لا حصر لها، والتي يُنسب الكثير منها إلى أهل البيت عليهم السلام، ومن المعروف أنّ مصر قديماً قد اشتُهرت بكثرة ما بها من المساجد والقباب والأضرحة، وما ذلك إلّا لطيبة وصلاح يغلبان على أهلها[1].

وقد تنسمت أرض مصر وأهلها «**حباً في آل البيت عشقاً وتشيعاً، ولم يكتفوا بتلك الأضرحة والمشاهد الحقيقية، وإنّما بنوا العشرات، بل والمئات من الأضرحة ومشاهد الرؤيا**»[2]، ومازالت آثارها باقية ليومنا هذا.

ويبدو أنّ حب المصريين لآل البيت عليهم السلام وتبركهم بهم، دفعهم لبناء تلك الأضرحة التي حملت أسماءهم، وقد أجمع المؤرخون على أنّها تحوي «**رفات أصحابها بالفعل، وأضرحة أُخرى يُسمّيها المؤرخون مشاهد الرؤيا، أي: إنّها لا تحوي رفات أصحابها، وإنّما أُقيمت للتبرك بهم فقط**»[3]، ويروى أنّ السيدة زينب عليها السلام قد اختارت «**مصر لِما علمت من حب أهلها ووواليها لأهل البيت**»[4].

وقد دخلتها في «**أوائل شعبان سنة ٦١ من الهجرة، ومعها فاطمة وسكينة وعلي أبناء الحسين، واستقبلها أهل مصر في بلبيس بُكاة معزّين، واحتملها والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري إلى داره بالحمراء القصوى عند بساتين الزهري حي السيّدة الآن**»[5].

وتذكر المصادر أنّ: «**السيدة زينب أوّل جوهرة من دوحة النبوّة المباركة ترصّع أرض مصر، بل هي رضي الله عنها ظلّت منذ هذا التأريخ قبساً من أقباس النبوة في مصر**»[6].

كما استقبل أهل مصر السيدة نفيسة رضي الله عنها أحسن استقبال، فقد أحبّها الشعب المصري قبل قدومها إليهم[7]. ويبدو أنّ مرونة المصريين في تناول الدين بشكل خاص،

(١) أُنظر: شاهر، هادي خسرو، وتي شوني محمد، أهل البيت في مصر: ص٦٣.
(٢) المصدر السابق: ص٦٧ـ٦٨.
(٣) مكانة أهل البيت عند المصريين، موقع: *egypthistory.net/2010*.
(٤) إبراهيم، محمد زكي، مراقد أهل البيت: ص٦٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) شاهر، هادي خسرو، وتي - شوني محمد، أهل البيت في مصر: ص٧١.
(٧) أُنظر: أبو علم، توفيق، السيدة نفيسة رضي الله عنها: ص٨٠.

قـد سـاهم في تحديد الملامح الثابتة في الشـخصية المصرية[١]، كما سـاهم وجود رأس الإمام الحسـين عليه السلام في مصر على ربط المصريين بمذهب التشـيّع وحـبّ آل البيت[٢].

ومن بين العادات الشـيعية الباقية في مصر ليومنا هذا ذكرى عاشـوراء، «**وقد كان المصريـون يُحيون قديماً ذكرى عاشـوراء، حيث كان الموكب يخرج من المسـجد ويجوب المدينـة رافعـاً الأعلام في ذكرى استشـهاد الإمام الحسـين عليه السلام، وكان الموكـب يتألف من مجموعة خيول يمتطيها الشباب للتذكير بموكب الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وبعد أن تجوب الخيول المدينة يتّجه الجميع إلى منازلهم لتناول طبق عاشـوراء، وفي المسـاء يتجمع الناس في بيت كبير في القرية، حيث يستمعون للقرآن الكريم، وتنطلق الأناشيد في حبّ آل البيت**»[٣]، «**وقد استمرت مواكب الشيعة احتفالاً بذكرى عاشوراء حتى فترة قريبة، ويبـدو أنّ هـذه المواكب من بقايـا العهد العثماني الـذي أُتيحت في أواخـره فرصة لبروز شـيعي، وإن كان محـدوداً**»[٤]، «**وإنّ وجـود مثـل هذه العـادات والتقاليد حتـى اليوم في مصر، ليدل دلالة واضحة على أنّ التشيع استمر وجوده في الواقع المصري**»[٥].

«**وفي شـهر رمضان يصبح الضريح والساحة المحيطة به قبلة لسكان القاهرة، ومنهم مَن يتنسم فيه رائحة سليل النبوّة، ومنهم مَن يذهب إلى الإمام الشهيد دون أن يشغل باله بموقع الدفن الحقيقي، فالإمام روح أعلى من أيّ جسد**»[٦]، «**وكما يحمل المصريون الحبّ والتقدير للإمام الحسين عليه السلام، فإنّهم يحملون حبّاً بالقدر نفسه لشقيقته السيدة زينب عليها السلام، التي عانت بعد استشـهاده من التضييق بعـد أن تخلّى الجميع عمّن بقيَ من آل البيت عليهم السلام وسبوهم، فلم تجد السيدة زينب عليها السلام من كلّ بلاد الله أرضاً تستضيفها وتحميها من بطش**

(١) أُنظر: الورداني، صالح، الشيعة في مصر من الإمام علي إلى الخميني: ص٧٧.
(٢) أُنظر: المصدر السابق: ص١١٢.
(٣) مكانة أهل البيت عند المصريين، موقع: *egypthistory.net/2010*.
(٤) الورداني، صالح، الشيعة في مصر من الإمام علي إلى الخميني: ص٧٥.
(٥) المصدر السابق.
(٦) مكانة آل البيت لدى المصريين، موقع: *egypthistory.net*.

يزيد وزبانيته غير أرض مصر، فقرّرت الهجرة إليها»[1].

ولآل البيت في مصر ـ فضلاً عن ذلك ـ مشاهد يأتي إليها الزائرون من أنحاء مصر في مختلف المناسبات الدينية وغيرها، وفي مقدّمتها مشهد رأس الحسين عليه السلام، ويأتي بعده مشهد السيدة زينب عليها السلام، وكلا المشهدين في القاهرة، ومشهد أيضاً باسم الإمام زين العابدين، وهو في الحقيقة مشهد رأس ولده الشهيد زيد صاحب الثورة على هشام بن عبد الملك الأُموي[2]، لقد ترسّخ حب آل البيت عليهم السلام في ضمائر المصريين الذين «**مازالوا يحبونهم ويوالونهم، وهي حقيقة لا مراء فيها**»[3].

«**وقد تجسّدت في الهوية المصرية عبر الأجيال المتوارثة، وقد تجلّى ذلك الحب لآل البيت أن تسموا بمسميات أهل البيت علي والحسن والحسين**»[4]. فضلاً عن تسمية بناتهم بنفيسة وأُمّ كلثوم وزينب... من مسمّيات سيدات آل البيت عليهم السلام. كلّ ذلك يؤكّد عمق محبة المصريين لآل البيت، وهذا كلّه قد ألقى بظلاله على نتاج أدب المصريين، لا سيّما الرواية المصرية، وفي مقدّمتها روايات نجيب محفوظ.

المحور الأوّل: الإمام الحسين عليه السلام في ذاكرة نجيب محفوظ

لقد تغلغل الإمام الحسين عليه السلام في الوجدان المصري بكلّ أطيافه، ولا سيّما الكتّاب والروائيين منهم، الذين عبّروا عن «**فلسفة وتبحر في مجريات التاريخ، قام به كبار المفكرين مثل عباس محمود العقاد، حين كتب أبو الشهداء، وكان منطلقاً لآخرين**»[5]، ومن المعروف أنّ الثقافة العربية كانت منقسمة بين «**مدرستين: مدرسة طه حسين، ومدرسة العقاد، فهو صاحب فلسفة في التاريخ، فتناول هذا الجانب الإنساني من ثورة**

(١) المصدر السابق.
(٢) أُنظر: مرغي، جاسم عثمان، الشيعة في مصر: ص١١٤.
(٣) النميش، أحمد راسم، مقدّمة المصريون والتشيع الممنوع: ص٨.
(٤) الورداني، صالح، الشيعة في مصر من الإمام علي إلى الخميني: ص١٦.
(٥) الإمام الحسين في الثقافة المصرية، موقع: www.abrar online. net/ar .

الإمام الحسين، يقول: هذه الإنسانية لا تزال في عطش جديد لدماء الشهداء»[1].

ومـمّـا يُذكـر في تأريخ مـصر أنّ «**القرويين من أريـاف مصر لا ينظـرون إلى القاهرة، إلّا باعتبارها المكان الذي يوجد فيه مسـجد الحسـين، ومسـجد السيدة زينب عليهما السلام، وقد أشـارت رواية الأيام لطه حسـين إلى ذلـك، حيث حكى عن نظرتهم حـول القاهرة أنّها تعني: الحسين، السيدة، الأزهر**»[2].

ولم تختلف نظرة نجيب محفوظ عن نظرة مَن سـبقه في حبّه للإمام الحسـين عليه السلام؛ إذ قال: «**لقد ولدتُ في حي الجمالية بجوار الحسين، ثمّ انتقلتُ إلى العباسية، وأنا أحمل لهذه الأحياء ذكريات غالية دافئة ما زلت أحنُّ إليها، وأنا في شيخوختي**»[3].

ومن المعلوم أنّ نجيب محفوظ قد أمضى طفولته «**وسط الشوارع الفقيرة المؤدية إلى جامع الأزهر، الذي يناهز عمره الألف عام، والتي تؤدي أيضاً إلى مسجد الحسين حفيد النبـي محمد عليـه الصلاة والسـلام، والموجود بداخلـه ضريح بديع، يحتـوي على رأس الإمام الحسـين، كما تقود هذه الشـوارع الصغـيرة أيضاً إلى العديد مـن الجوامع القديمة الأُخرى التي يتجاوز عمرها مئات الأعوام**»[4].

لقد جعل نجيب محفوظ في أوّل حياته الإمام «**الحسين مثالاً مع صدمة الحب الهائلة، التـي اتضـح له في نهايتها أنّه ضحية اعتداء منكر، تآمر به عليه القدر وقانون الوراثة**»[5]، وقـد كانت أُسرة نجيب محفوظ تملك «**بيتاً جديداً في حي العباسـية، رغم هذا الانتقال كانت الأُسرة دائمة التردد على حي الحسين، وكان نجيب محفوظ يختلف إلى حي الحسين عادةً، ولم يكن متواجداً لعشق هذا الحي، فقد ورث ذلك عن أُمّه؛ لأنّها كانت كلّ صباح تركـب العربـة ـ التي تجرّها الخيول وتُسـمّى السـوارس ـ من العباسـية، وتذهب لزيارة**

(١) المصدر السابق.
(٢) مرغي، جاسم عثمان، الشيعة في مصر: ص١٦٩.
(٣) عيد، حسين، نجيب محفوظ رحلة الموت في أدبه: ص٢٩٢.
(٤) نجيب محفوظ الأديب المصري الكبير، موقع: www.m.yalaa.com.
(٥) عيد، رجاء، دراسة في أدب نجيب محفوظ: ص٦٣.

الحسين، وزيارة أقاربها وجيرانها القدامى، ثمّ تعود ولم تنقطع عن تلك اليومية طول حياتها»[1].

وممّا يرويه نجيب محفوظ في مذكراته عن والدته وعلاقتها بالإمام الحسين عليه السلام بالقول: «**لقد ظلّت أُمّي حتى حدود التسعين من عمرها تزور الحسين**»[2]، وقد ظلّ نجيب محفوظ «**ملازماً لوالدته باستمرار في زيارتها إلى الحسين**»[3].

ويُضيف نجيب محفوظ: «**كانت والدتي تُحيطني برعاية كبيرة، وتصحبني معها في كلّ مكان تذهب إليه، سواء في زياراتها للحسين، والمتحف، والأديرة**»[4].

إلّا أنّها كانت «**تعشق سيدنا الحسين وتزوره باستمرار، وفي الفترة التي عشناها في الجمالية كانت تصحبني معها في زياراتها اليومية، ففي كلّ المرات التي رافقتها فيها إلى سيدنا الحسين، كانت تطلب منّي قراءة الفاتحة عندما ندخل، وأن أُقبّل الضريح، وكانت هذه الأشياء تبعث في نفسي معاني الرهبة والخشوع**»[5]، ولم يقتصر ذلك عليه وعلى والدته، بل كان والده عبد العزيز إبراهيم أحمد الباشا أيضاً «**يتردد يومياً على حي الحسين بحكم عمله؛ حيث إنّه بعد إحالته للمعاش التحق بعمل في محل تجاري يملكه أحد أصدقائه، فيأتي كلّ يوم في حي الحسين كأنّه لم يغادره**»[6].

وقد شكّل حي الحسين بالذات مبتغىً للناس، سواء في مصر أو من خارجها[7].

لقد ظلّ نجيب محفوظ إلى جوار سيدنا الحسين عليه السلام «**عهد العشرينات من هذا القرن الذي يرث حصيلات العصر المملوكي**»[8]، وبقي مسجد الحسين عليه السلام «**في القاهرة**

(١) الدوزي، محمد نجم الحق، نجيب محفوظ في ضوء نزعاته الأدبية: ص١٠.
(٢) النقاش، رجاء، نجيب محفوظ صفحات من مذكراته: ص١٥.
(٣) المصدر السابق: ص١٤.
(٤) المصدر السابق: ص١٥.
(٥) المصدر السابق: ص١٣.
(٦) الدوزي، محمد نجم الحق، نجيب محفوظ في ضوء نزعاته الأدبية: ص١٠.
(٧) أُنظر: أبو كف، أحمد، آل بيت النبي في مصر: ص١١٨.
(٨) شلق، علي، نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم: ص٥٤.

الفاطمية أكثر المناطق المحببة إلى قلب الأديب»[1].

وهكذا نشأ نجيب في أُسرة «**مكتفية متدينة، وهذا ممّا جعل الطفل نجيب ينعم في جو الدين وبيته غير بعيد عن مقام سيدنا الحسين والتكية، وكل يوم تعرض له الحارة دراويش، ومشايخ، وبعض ما أفرزه الأزهر**»[2].

وهذا «**ما تلخص في معظم ما كتب من أصداء حي الحسين، وقد كان جار مقامه، وهذا تراه على الأخص في أولاد حارتنا ممثلاً بالجيلاوي، كما نلمحه لدى حديثه عن التكايا والأزقة المظلمة المهجورة، والأفراد الغرباء الغامضين، من دراويش وغجرة وسحرة، وعابرين**»[3].

وعندما نتأمل نتاج محفوظ في المرحلة الأُولى سنلحظ الطابع التأريخي في بواكير إنتاجه، ثمّ تلاه الطابع الاجتماعي منذ رواية القاهرة الجديدة، وفيه يعنى بتصوير أحوال أفراد الطبقة المتوسطة، ويتخذ بيئاته من القاهرة القديمة، والحسين، والجمالية، والعباسية[4].

وقد كان نجيب محفوظ في معظم رواياته عندما يصف المظلوم يقول له: مظلوم ظلم الحسن والحسين[5]، وهكذا قد تغلغل الإمام الحسين عليه السلام في أعماق نجيب محفوظ، وظلّ ضريح الإمام الحسين عليه السلام «**بتركيبه الوقور المنعزل، وشاهديه الشامخين، وسرّه المنطوي، حباً دائماً، وعشقاً أبدياً في قلب نجيب محفوظ**»[6].

فطالما ردد نجيب: «**من أشوف ضريح سيدي ومولاي الإمام الحسين أرتاح كثيراً،**

---

(١) مصر تبكي محفوظ، موقع: *www.ana.hura.com*.

(٢) شلق، علي، نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم: ص٤٦.

(٣) المصدر السابق: ص٥٣.

(٤) أُنظر: نوفل، يوسف حسن، القصة والرواية بين جيل طه حسين وجيل نجيب محفوظ: ص١٣١.

(٥) أُنظر: شيعة مصر، موقع: *egyptian shia –added new*.

(٦) شلق، علي، نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم: ص٢٠.

أُمنيتي زيارة الإمام الحسين»[1]، وقد ظلّت هذه الأُمنية هاجساً يتمناه طوال حياته بزيارة مرقد الإمام الحسين عليه السلام في العراق، الذي لم تُتح له هذه الفرصة حتى وافته المنية، وشُيع جثمانه من «**مسجد الإمام الحسين بالقاهرة حسب وصيته وسط الآلاف من محبيه البسطاء الذين استلهم منهم شخصياته**»[2] في معظم رواياته.

وقد صُلِّي عليه في مسجد الإمام الحسين عليه السلام «**والذي طالما أدّى الصلوات فيه، واستلهم منه ومن الأحياء المجاورة له المليئة بعبق التاريخ، وتراث مصر وحضارتها عبر العصور**»[3]، وقد سكب هذا الروائي العربي المصري العظيم ذلك الحب في رواياته ومنها بين القصرين.

الإمام الحسين عليه السلام في رواية بين القصرين

شارع المعزّ أو بين القصرين «**شارع عمره ألف عام، يقف كشاهد حي على تحوّلات الزمن، منذ فترة حكم الدولة الفاطمية لمصر، مروراً بالمماليك والعثمانيين، والتأريخ الحديث، وما زال قلب القاهرة النابض بالحياة، وأكبر متحف مفتوح للآثار الإسلامية، إنّه شارع المعزّ لدين الله الفاطمي، الذي كان يُسمّى قديماً بين القصرين**»[4]، وقد كان شارع بين القصرين قديماً «**تمرّ به مواكب السلطان، وكذلك موكب المحمل، وكسوة الكعبة، وتُقام فيه احتفالات شهر رمضان، ودخول السنة الهجرية**»[5].

ويبدو أنّ نجيب محفوظ قد سمح في بعض أعماله الروائية «**بجرعة أكبر من سيرته الذاتية بدءاً بالثلاثية**[6]، **وقد لجأ نجيب محفوظ في هذه الرواية إلى اتباع الأسلوب الواقعي**

---

(١) www.alyayha-ahlalmotada.com.

(٢) مصر تشيع نجيب محفوظ، جريدة الاتحاد، موقع: www.alittihad-qe-mobile.

(٣) مصر تبكي محفوظ، موقع: www.ana.hura.com.

(٤) شارع المعز أو بين القصرين حكاية ألف عام / أنا زهرة، ٢٠١٤. www.anazahra.com

(٥) المصدر السابق.

(٦) أُنظر: شارع بين القصرين من محرر القدس إلى حرافيش محفوظ: M.hespress.com.

في وصف بعض مظاهر الحياة في حي الحسين عموماً، وفي بين القصرين خصوصاً»[1].

وبين القصرين هو «**الجزء الأوّل من ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة، والتي تشكّل القاهرة ومنطقة الحسين خصيصاً المسرح الأساسي والوحيد لأحداثها، تحكي الرواية قصة أُسرة من الطبقة الوسطى، تعيش في حي شعبي من أحياء القاهرة، أي: فترة ما قبل وأثناء ثورة ١٩١٩م**»[2].

وقد صور نجيب محفوظ في هذه الرواية حياة أُسرة برجوازية من الطبقة الوسطى، ويقول نجيب: «**كمال يعكس أزمتي الفكرية، وكانت أزمة جيل فيما أعتقد، والأزمة التي يقصدها هي مأساة الحرية في المجتمع آنذاك**»[3]، ورواية بين القصرين «**تحمل في ثناياها قصص عن أُسرة، لكلّ فرد فيها قصة تجعل منه رواية في حدّ ذاته، وفي بين القصرين يقع منزل السيد أحمد عبد الجواد المكوّن من حرمه أمينة، وابنه الأكبر ياسين، وخديجة، وفهمي، وعائشة، وآخر العنقود كمال**»[4].

ويمثّل «**السيد أحمد عبد الجواد السلطة المطلقة في البيت، فلا رأي فوق رأيه، ولا قول يضاهي قوّته، يطيعه أولاده طاعة عمياء، حتى أنّهم يفضّلون الموت ألف مرّة عند مواجهة أبيهم**»[5]، «**ويبدو أنّ شخصية أحمد عبد الجواد مأخوذة من قصة حياة جدّ نجيب محفوظ، فوالده كان يعمل بالدائرة التي بها جدّه لوالدته، واسمه محمد عمرو، وكان تاجراً غير متعلّم ومسرفاً، وكثير الزواج، وكانت آخر زيجة له من (عالمة) اسمها زبيدة**»[6].

---

(١) مجلة العربي، العدد ٥٧٧، ذو القعدة ١٤٣٧هـ ٢٠٠٦: عدد خاص عن نجيب محفوظ.

(٢) تقنيات المكان في رواية بين القصرين، رؤية تحليلية، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، النجف الأشرف، العدد ٥٣٨/ ٢٠١٢: ص٤٠.

(٣) محفوظ، نجيب، رواية بين القصرين: *Ar.m.wiktpedia-er*.

(٤) المنهج الواقعي في رواية بين القصرين نجيب محفوظ: *www.al5hahb.com*.

(٥) محفوظ، نجيب، رواية بين القصرين.

(٦) المصدر السابق.

والجدير بالذكر أنّ في القاهرة تجمعات شيعية تقل وتكثر حسب أحوال الزمان في حي الحسين، وكان أغلبها من الشيعة الوافدين إلى مصر بهدف الاستقرار فيها، «**والذين كانوا يقدمون من الشام وبلاد فارس والعراق وغيرها... بمعنى عائلة السيد من تلك العائلات، ولا تزال لهذه العائلات بقايا في مصر حتى اليوم**»[٧].

واسم السيّد هو في الحقيقة «**صفة تشريفية خاصّة بالأشراف المنتسبين لآل البيت، فهي لا تُطلق إلّا على الأشراف فقط**»[٨]، وهكذا يبدو أنّ شارع بين القصرين قد جمع بين العديد من «**عوامل الجذب، أوّلها: ديني، يتجلّى في محبي الإمام الحسين والسيدة زينب وكلّ ما يتصل بهما، إذ يروى أنّ المسجد يضمّ رأس الحسين**عليه السلام، **وثانيهما: تاريخي، ويتجلّى في القبة المعمارية والأثرية للمسجد ومرافقه الأساسية، الحرم والمُصلّى والقبّة والمنارة**»[٩]، وقد كان المسجد عبارة عن ضريح «**متوسط المساحة، بناه الصالح طلائع من الحجر المنحوت، واتخذ له ٣ أبواب ومئذنتين وقبة واحدة في أعلى الضريح الذي يقال: إنّه ضمّ رأس الإمام الحسين**عليه السلام»[١٠].

وقد أُعيد تجديد الضريح دون تغيير عمارته في «**عهد الصالح نجم الدين أيوب بعد احتراقه؛ بسبب الشموع التي يوقدها داخله الزائرون، وكانت آخر عملية توسعة قامت بها الحكومة المصرية عام ١٩٣٥م؛ لتصبح مساحة المسجد الكلية ٣٣٤٠م**»[١١]، ولعلّ هذا الاهتمام يعكس مدى قدسية المكان، ومدى أهميته في نفوس المصريين عامّة، والحكام بخاصّة.

(٧) بعد ٦٠ عاماً على ثلاثية نجيب محفوظ مجلة الشباب: *Shabab.ahram-org –eg*.

(٨) أُنظر: الورداني، صالح، الشيعة في مصر من الإمام علي إلى الخميني: ص٧٦.

(٩) المصدر السابق: ص٧١.

(١٠) المصدر السابق.

(١١) مرغي، جاسم عثمان، الشيعة في مصر: ص١٦٨.

المحور الثاني: الإمام الحسين عليه السلام في رحاب الأُسرة المصرية في رواية بين القصرين

١ـ الأُمّ أمينة والإمام الحسين عليه السلام

كانت شخصية أمينة ضمن نسيج الرواية شخصية محورية، فقد كانت «**شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القِدم، ولم تكن تظنُّ أنّها بحاجة إلى مزيد من العلم يُضاف إلى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطبيّة، وممّا ضاعف من إيمانها بعلمها أنّها تلقته عن أبيها الذي كان شيخاً من العلماء**»[١]، «**وقد ظلّت أمينة طوال عشرين سنة قضتها في هذا الشارع شديدة الشوق إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام، هذا الحبيب المقدّس الذي كان على مقربة من بيتها**»[٢]، لأنّ زوجها ذلك «**الكائن الرهيب كان يحول بينها وبين أُمنيتها في الخروج من البيت**»[٣].

وقد استمر حب الحسين عليه السلام في صدرها والشوق إليه في ساعات النظر إلى مئذنته التي أحبّتها حبّاً لصاحبها، فكانت تتنهّد وبألم؛ لشعورها بالحرمان من زيارة هذا الصرح العربي الإسلامي، الذي يربض على مقربة من بيتها، وظلّ هذا الصرح ـ أي: ضريح الإمام الحسين عليه السلام ـ أكثر تأثيراً في نفس أمينة من أيّة أمكنة دينية أُخرى، فكم كانت «**تروعها المآذن التي تنطلق انطلاقاً ذا إيحاء عميق، تارةً عن قرب، حتى لترى مصابيحها وهلالها في وضوح، كمآذن قلاوون وبرقوق، وترف عن بُعد غير بعيد، فتبدو لها جميلة بلا تفضيل، كمآذن الحسين والأزهر، وثالثة من أُفق سحيق، فتراءى أطيافاً كمآذن القلعة والرفاعي، وتقلّب وجهاً فيها بولاء وافتتان، وحب وإيمان، وشكر ورجاء**»[٤].

---

(١) مكانة آل البيت لدى المصريين، موقع: *Ar.m.wikipedia.org/wiki*.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راغب، نبيل، قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ: ص١٣٦.

(٤) أُنظر: ثلاثية نجيب محفوظ: ص١١. *Ollap.ps/article/tag*.

لكنّ روح أمينة كانت ترفرف «**فوق ذراها أقرب ما تكون إلى السماء، ثمّ تستقر العينان على مئذنة الحسين**عليه السلام[1]**، أحبّتها ـ لحبّ صاحبها ـ إلى نفسها، فتنفض نظراتها حناناً وأشواقاً، مشوبة بحزن يطوف بها كلّما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله، وهي على مسير دقائق من مثواه، وتنهّدت نهدةً مسموعةً، استردّتها من استغراقها، فثابت إلى نفسها، وراحت تتسلّى بالنظر إلى الأسطح والطرقات، فلم تزايلها الأشواق**»[2].

«**ويبدو أنّ المعالم الدينية كانت ذات تأثير محدود في نفس أمينة، لا يرتفع إلى مستوى ضريح الإمام الحسين الذي تربع على عرش قلب أمينة**»[3].

ومن الواضح في رواية بين القصرين أنّ ربّ الأُسرة السيد أحمد عبد الجواد وما كان يتصف به من «**غلظة وتشدد وراء عدم تحقق تلك الأُمنية**»[4]، في زيارة أمينة لسيدها الإمام الحسين وهو على قرب منها.

إنّ الأقدار قد شاءت ذات يوم أن يسافر ربّ الأُسرة السيد أحمد عبد الجواد بطل الرواية إلى بور سعيد، فانطلقت في ذهنها فكرة زيارة ضريح الإمام الحسين عليه السلام، وكان لابنها الأكبر ياسين دور في ترسيخ هذه الفكرة، حتى أنّها من فرط خوفها الممزوج بفرحها تمتمت وتنهدت قائلة لابنها ياسين: «**سامحك الله.. فقهقه ولدها الشاب، وهو أكبر أبنائها مردفاً القهقهة بالقول: والله، لو كنت مكانك لمضيت من توّي إلى سيدنا الحسين، ألا تسمعين حبيبك الذي تهيمين به على البعد وهو قريب، قومي إنّه يدعوك إليه**»[5].

---

(١) مئذنة الإمام الحسين عليه السلام قد بُنيت على نمط المآذن العثمانية، فهي إسطوانية الشكل، ولها دورتان، وتنتهي بمخروط. اُنظر: مسجد الإمام الحسين القاهرة، موقع: *htt://ar.m.wikipedia.or.wiki*.

(٢) نجيب محفوظ، ورواية بين القصرين، موقع: *www.m.ahewar-org.s.as*.

(٣) محفوظ، نجيب، رواية بين القصرين: ص٤٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ثلاثية نجيب محفوظ: ص١٢. *ollap.ps/article/tag*

لقد كانت لحظة اقتناع أمينة بفكرة الزيارة مدهشة، وكأنّها «**زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل، فلم تدرِ كيف استجاب قلبها للنداء، ولا كيف تطلّع بصرها إلى ما وراء الحدود المحرّمة، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة، بل مغرية، بل طاغية، أجل بدت زيارة الحسين عذراً قوياً ـ له صفة القداسة ـ للطفرة اليسارية التي نزعت إليها إرادتها، ولكنّها لم تكن وحدها التي تمخّضت عنها نفسها، إذ لبّت دعاءها في الأعماق تيارات حسينية متلهفة على الانطلاق، كما تلبي الغرائز المتعطشة لقتال نداء الدعاء إلى الحرب، بحجّة الدفاع عن الحرية والسلام**»[1]، لقد صاحب لحظة اقتناع أمينة بفكرة الزيارة «**خفقان لاحت آثاره في احمرار وجهها، فخفضت رأسها؛ لتُخفي تأثرها الشديد، انجذب قلبها إلى الدعاء بقوة تفجرت في نفسها فجأة على غير انتظار، لا منها ولا من أحد ممّن حولها حتى ياسين نفسه**»[2].

ولم تدرِ أمينة كيف تعلن استسلامها الخطير، ولكنّها نظرت إلى ياسين وسألته بصوت متهدج: «**زيارة الحسين منية قلبي وحياتي.. ولكن أبوك؟ فضحك ياسين قائلاً: أبي في طريقه إلى بور سعيد، ولن يعود قبل ضحى الغد**»[3].

لقد انتصر خيار أمينة هذه المرّة بالخروج من المنزل والذهاب إلى سيدها الحسين عليه السلام برفقة ابنها الأصغر كمال، فحثّت بهما الخطى بشوق اللقاء إلى دخول الجامع الذي «**يقيد الأبصار حسناً وجمالاً، فيه من أنواع الرخام المجزّع الغريب الصنعة، البديع الترصيع، مما لا يتخيّله المتخيّلون، والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثلها في التأنق والغرابة، وحيطانه كلّها رخام على الصفة المذكورة**»[4].

(١) محفوظ، نجيب، رواية بين القصرين: ص١٧٥.
(٢) المصدر السابق: ص١٧٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) إبراهيم، محمد زكي، مراقد أهل البيت في القاهرة: ص٥٤.

وقد كان مسجد الحسين عليه السلام في الأصل قصر الزمرد، وهو من أهم «**قصور دولة الفاطميين، وفي مكان الزمرد ـ كان أشرف مكان بالقصر تقام به الصلاة ـ حتى بالرأس الشريف ليدفن هناك**»[1]، ويُعدّ مسجد «**الحسين بالقاهرة، وهو مسجد تأريخي تجددت عمارته في مختلف العصور، وهو يضمّ الضريح الذي يقال: إنّ رأس الحسين حُمل إليه من عسقلان سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة هجرية ـ ١١٥٣م ـ ودفن به**»[2].

وقد وُضع رأس الإمام الحسين عليه السلام في «**تابوت من فضة مدفون تحت الأرض، قد بني عليه شباك جميل، يقصر الوصف عنه، ولا تحيط الإدراك به، مجللاً بأنواع الديباج، محفوفاً بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض، ومنه ما هو دون ذلك، وقد وضع أكثره في أنوار فضة خالصة ومذهبة**»[3].

ولم يختلف وصف الكاتب نجيب محفوظ في روايته بين القصرين لجامع الإمام الحسين عليه السلام عن ذلك الوصف، حيث وصف الجامع من الخارج والداخل، لا سيّما حيث همّت أمينة وابنها كمال الخطى إلى جامع الحسين عليه السلام؛ إذ يصف نجيب محفوظ ذلك بالقول: «**فلاحَ لهما عن بُعدٍ جانب من المنظر الخارجي لجامع الحسين، يتوسّطه شباك عظيم الرقعة، محلّى بالزخارف العربية، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كأسنة الرماح، فتساءلت والبشر يسجع في صدرها: سيدنا الحسين؟ ولما أجابها بالإيجاب مضت تقارن بين المنظر الذي تقترب منه ـ وقد حثّت خطاها لأوّل مرّة مذُ غادرت البيت ـ وبين الصورة التي خلقها خيالها له، مستعينة في خلقه بنماذج من الجوامع التي في متناول بصرها، كجامع قلاوون وبرقوق، فوجدت الحقيقة دون الخيال؛ لأنّها كانت تنفخ في الصورة طولاً وعرضاً على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها**»[4].

(١) مرغي، جاسم عثمان، الشيعة في مصر: ص٤٧.
(٢) إبراهيم، محمد زكي، مراقد أهل البيت في القاهرة: ص٥٤.
(٣) محفوظ، نجيب، رواية بين القصرين: ص١٧٨.
(٤) المصدر السابق.

ويُضيف نجيب محفوظ واصفاً فرحة أمينة حين دخلت جامع الحسين عليه السلام: «**بَيْدَ أنّ هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال، لم يكن ليُؤثر شيئاً في فرحة اللقاء التي تمثّلت بها جوانحها، ودارا حول الجامع حتى الباب الأخضر**[1]**، ودخلا في زحمة الداخلات، ولما وطأت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأنّ بدنها يذوب رقة وعطفاً وحناناً، وأنّها تستحيل روحاً طائراً، يرفرف بجناحيه في سماء يسطع بجنباتها عرف النبوّة والوحي، فاغرورقت عيناها بالدمع الذي أسعفها للترويح عن جيشان صدرها، وحرارة حبّها وإيمانها، وأريحية امتنانها وفرحها**»[2]، ويبدو أنّ أمينة قد ذُهلت من فرحة اللقاء، ولم يقف أمامها إلّا «**أن تلتهم المكان بأعين شيّقة، متطلّعة جدرانه وسقفه وعمده، وأبسطته ونجفه، ومنبره ومحاريبه**»[3].

وقد تزامنت زيارة أمينة وابنها كمال جامع الحسين عليه السلام مع تدفق «**تيّار الزائرات الزاحف في بطء، يدفعهما رويداً، حتى وجدا نفسيهما في مثوى الضريح، طالما تلهّفت أشواقها على زيارة هذا المثوى، كما تتلهّف على حلم يستحيل تحقيقه في هذه الدنيا، ها هي تقف بين أركانه، بل ها هي لصق جدران الضريح نفسه، تشرف نفسها عليه خلال الدموع، وتودّ لو تتريّث لتتملّى مذاق السعادة، لولا شدّة ضغط الزحام، ومدّت يدها إلى الجدران الخشبية، واقتدى كمال بها، ثمّ قرءا الفاتحة، ومسحت بالجدران وقبّلتها، ولسانها لايني عن الدعاء والتوسل**»[4].

لقد كانت أمينة تودّ وتتمنّى «**لو تقف طويلاً، أو تجلس في ركن من الأركان؛ لتُعيد النظر والتأمل، ثمّ لتُعيد الطواف، ولكنّ خادم المسجد وقف للجميع بالمرصاد، لا**

(١) الباب الأخضر: وقد سُمّيت المنطقة بالباب الأخضر؛ لأنّها في الأصل قصر الزمرد أيام الدولة الفاطمية، وقد دُفن رأس الإمام الحسين عليه السلام فيه؛ ولأنّ الزمرد لونه أخضر، سُمّيت المنطقة بالباب الأخضر. أُنظر: شاهر، هادي خسرو، وتي - شوني محمد، أهل البيت في مصر: ص١٥.

(٢) محفوظ، نجيب، رواية بين القصرين: ص١٧٨.

(٣) المصدر السابق: ص١٧٩.

(٤) المصدر السابق.

يسمح للواحدة بالتلكّؤ، ويحثّ المتباطئات، ويلوّح منذراً بعصاه الطويلة، وهو يدعو الجميع إلى إتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة»[1].

لقد ارتوت أمينة من المنهل العذب، «**ولكنّها لم تطفئ ظمأها، وهيهات أن يُروى لها ظمأ، لقد هاج الطواف حنينها، فتفجرت عيونه، وسال وزخر، ولن يزال ينشد المزيد من القرب والابتهاج**»[2].

«**ولمّا وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه انتزاعاً، وأودعته قلبها، وهي تولّيه ظهرها، ثمّ مضت حسرى يعذّبها شعورها بأنها تودعه الوداع الأخير**»[3]. لكنّ الأُمور سارت عكس ما ابتغت أمينة، التي انطفأت نار أشواقها بزيارة ضريح الإمام الحسين عليه السلام؛ إذ شاء القدر أن تسقط في الشارع، وهي تسير في طريقها من جامع الحسين إلى بيتها، وأن تُكسر ساقها، وهي برفقة ولدها كمال الذي ما برحت يده الصغيرة تفارق يدها المرتجفة؛ خوفاً من عقاب زوجها إن علم بخروجها من البيت دون علمه.

لقد حاول أفراد الأُسرة، ولا سيّما ابنتها خديجة والخادمة أُمّ حنفي، التخفيف عمّا أصاب أمينة، مبرّرين خروجها لزيارة الإمام الحسين عليه السلام دون علم والدهم الصارم بالأمر الهيّن؛ لقدسية المكان الذي قصدته أُمّهم أمينة، حتى «**بدا هذا الأثر واضحاً بين الجماعة خارج الحجرة، فتمتمت خديجة: فلتحلّ بها بركة سيّدنا الحسين الذي ما خرجت إلّا لزيارته. وكأنّما تذكر كمال بقولها أمراً هاماً نسيه طويلاً، فقال بدهشه: كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين؟ ولكن أُمّ حنفي قالت ببساطة: وما أدرانا بما كان يحدث لها ـ والعياذ بالله ـ لو لم تتبرك بزيارة سيّدها وسيّدنا**»[4].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق: ص١٧٦ـ١٧٧.

(٣) المصدر السابق: ص١٩٦.

(٤) المصدر السابق.

لقـد تزامنت عـودة الأب أحمد عبد الجواد وبشـكل مفاجئ من سـفره مع حادثة خروج أمينة دون علمه وكسر ساقها، ممّا «**تضاعف عند ذاك شعورها بفداحة الذنب، وخطـورة الاعتراف، فدمعـت عيناها، وقالت بصوت لم تعن بإخفـاء نبراته الباكية، إمّا لأنّه غلبها على صوتها، أو لأنّها أرادت أن تبذل محاولة يائسـة لاسـتدرار العطف، قائلة: ظننت أن سـيّدنا الحسين يدعوني إلى زيارته، فلبيت.. ذهبت للزيارة.. وفي طريق العودة صدمتني سيارة.. قضاء الله يا سيّدي**»[1].

«**وهتفت خديجة:**

ـ أرأيت بركة الحسين؟

وقالت عائشة بخيلاء:

ـ لكل شيء حدود، حتى غضب بابا»[2].

ويبـدو أنّ الأُمور سـارت عكـس التوقعات، فلم يشـفع عنده خـروج أمينة ولو لغرض زيارة الحسـين عليه السلام؛ حيث فـ«**الرجل واصـل حديثه بهدوئه الرهيب الذي يهون إلى جانبه الزعيق، قائلاً:**

ـ كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير، ألأنّي ابتعدت عن البلد يوماً واحداً؟

ـ فقالت بصوت متهدج، وشت نبراته بالرجفة التي ملكت جسمها:

أخطـأت يـا سـيدي، وعندك العفـو! وكانت نفسي تتوق إلى زيارة سـيّدنا الحسـين، وحسبت أنّ زيارته المباركة تشفع لي في الخروج، ولو مرّة واحدة»[3].

ويبـدو أنّ أمينة كانت امرأة متدينة خاضعة بشـكل كلّي للـزوج، حالها حال المرأة المصرية آنذاك.

---

(١) المصدر السابق: ص٢٠٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وقد اتخذ أحمد عبد الجواد قراره بطردها إلى بيت أُمّها إلى حين شفاء ساقها، وقد ذهبت أمينة ـ بالفعل ـ إلى بيت أُمّها تملأ جوانحها خيبة أمل من زوجها الذي توقعت أن يسامحها لمجرد سماعه باسم الإمام الحسين عليه السلام، ولكنّه كاد «**يطلقها حين علم بفعلتها؛ لأنّها مسّت طاعته المقدّسة**»[1].

وقد ملأ الحزن والألم قلب أمينة، وهي تُخبر والدتها بما جرى لها.

«**خبريني يا بنيتي!**

فقالت أمينة متنهّدة:

زرت سيّدنا الحسين في أثناء سفره إلى بورسعيد، فتفكّرت الأُمّ في حزن وكآبة، ثمّ تساءلت: وكيف علم بأمر الزيارة؟»[2]، وتضيف والدة أمينة متهكّمة ممّا جرى بقولها: «**هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة سيّدنا الحسين؟! أَلا يسمح أصدقاؤه، وهم لا يقلّون عنه غيرةً ورجولةً، لزوجاتهم بالخروج لمختلف الأغراض؟ أبوك نفسه الذي كان شيخاً من حملة كتاب الله، كان يأذن لي في الذهاب إلى بيوت الجيران للتفرّج على المحمل**»[3].

ولعلّ هذا الأمر كان تعبيراً واضحاً عمّا اختلج في نفس المرأة المصرية ـ أمينة ـ من حبّ صادق للحسين عليه السلام، حتى أنّها دفعت بنفسها إلى تحمّل ما آلت إليه الأُمور من موقف زوجها، وهو الذي تحكمه تقاليد وأعراف مصرية تحول دون خروج المرأة من بيتها، وإن كان لغرض الزيارة، وهذا ما دفعه إلى اتخاذ هذا القرار مع أمينة.

٢ـ الابن الأصغر كمال والإمام الحسين عليه السلام

لقد كان كمال طفلاً «**شقياً ذا خيال محلّق، متفوّقاً في دراسته، مهتماً بالدين الذي يمثّل الإمام الحسين ركناً مهماً فيه**»[4]. وراح كمال عبد الجواد في الثلاثية عند مواجهة «**قناعاته**

(١) نجيب محفوظ، هدوء البراكين، موقع: *www.danaabd.com*.

(٢) محفوظ، نجيب، رواية بين القصرين: ص٥٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أُنظر: تقنيات المكان في رواية بين القصرين، رؤية تحليلية: ١٣ـ١٤.

الدينية السابقة، في إيمانه بالأرواح، وأضرحة الأولياء، حين يكتشف في تراجيديا مثيرة أنّ ضريح الإمام الحسين لا يحمل رفاته، وأنّه ضريح رمزي ليس إلّا، وهنا تبدأ رحلة كمال بحثاً عن معرفة جديدة»[1].

لقد كان كمال من محبّي سماع سيرة آل البيت عليهم السلام، **«والتزوّد منها بأنبل القصص وأعمق الإيمان، حتى وجدت منه على القرون مستمعاً مشغوفاً، ومحبّاً مؤمناً، وأسيفاً بكّاءً، فلم يُهوّن من بلواه إلّا ما قيل من أنّ رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر، لم يرضَ من الأرض مسكناً إلّا في مصر، فجاءها طاهراً مسبّحاً، ثمّ ثوى حيث يقوم ضريحه»**[2].

لقد كانت شخصية كمال وعلاقته بالإمام الحسين عليه السلام واضحة المعالم في هذه الرواية، ونحن لا نستبعد أنّ نجيب محفوظ قد اتخذ من كمال قناعاً، وأسقط عليه ذكريات الطفولة، حين كان يصاحب أُمّه إلى الضريح، فكمال هو نجيب محفوظ دون غيره، ومن تلك المعالم عدم حلف كمال بالإمام الحسين عليه السلام كذباً، فقد: **«كان يُدرك خطورة الحلف الكاذب فيما يُثير من سخط الله وأوليائه، ويعزّ عليه جداً أن يحلف كذباً بالحسين خاصّة؛ لولهه به، ولكنّه كثيراً ما وجد نفسه في مأزق حرج ـ كما وجد اليوم ـ لا مخرج منه في نظره إلا بالحلف الكاذب، فينساق وهو لا يدري إلى التورط فيه، بَيْدَ أنّه لم يكن ينجو، خاصة إذا ذكّر بجريرته، من الهم والقلق، ويود لو يقتلع الماضي السيّئ من جذوره، وأن يبدأ صفحة جديدة نظيفة، وذكر الحسين، وموقفه عند أصل مئذنته، حيث تتراءى، وكأنّ هامتها تتصل بالسماء، وسأله في ضراعة أن يعفو عن زلته، وهو يشعر بفضاضة مَن اجترأ على حبيب بإساءة لا تغتفر، وغرق في توسلاته مليّاً، ثمّ أخذ يفيق إلى ما حوله، ويفتح أذنيه إلى ما يدور من حديث، فيه المعاد وفيه الجديد»**[3].

(١) محفوظ، نجيب، رواية بين القصرين: ص٦٣.
(٢) المصدر السابق: ص٥٦.
(٣) المصدر السابق: ص٦٥

ولعل شـخصية الحسين عليه السلام في رواية بين القصرين تنساب كالماء الزلال في سواق البسـتان، ممّا أتاح لكلّ أبطال الرواية أن يأخـذوا بما يروي ظمأهم لمعرفة جوهر هذا الشيء، والاقتراب منه من خلال الضريح الذي ينتصب شامخاً في وسط القاهرة، لقد كان جامع الحسين مثار أخيلة وعواطف لا تنضب لشخصيات الرواية، ومنهم كمال الذي كان يقف «**حيال الضريح حالماً مفكراً، يود لو ينفذ ببصره إلى الأعماق؛ ليطلع على الوجـه الجميـل الذي أكّـدت له أُمّه أنّه قـاوم غير الدهر بسرّه الإلهـي، فاحتفظ بنضارته ورونقه، حيث يُضيء ظلمة المثوى بنور غرّته**»[1].

وظلّ الإمام الحسين عليه السلام يراود مخيّلة كمال الطفل، حتى أصبحت زيارة الحسين عليه السلام أُمنيـة مـن الأماني «**ولمّا لم يجـد إلى تحقيق أُمنيته سـبيلاً، قنع بمناجاتـه في وقفات طويلة، مفصحـاً عـن حبّه، شـاكياً إليه متاعبه الناشـئة من تصوّراته عـن العفاريت، وخوفه من تهديد أبيه، مسـتنجداً به على الامتحانات التي تلاحقه كلّ ثلاثة أشهر، ثمّ خاتماً مناجاته عادةً بالتوسّل إليه أن يُكرمه بالزيارة في منامه**»[2].

ولعلّ اعتياد المرور «**بالجامع صباحاً ومسـاءً خففت بعض الشيء من شـدّة تأثره به، إلّا أنّـه لم تكـن تقع عليه عينـاه حتى يقرأ له الفاتحـة، ولو تكرّر ذلك منه مـرّات في اليوم الواحد، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع من صدره بهجة الأحلام، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها مع قلبه، ولم يزل لمئذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبيه الفاتحة**»[3]، ولطالما تمنّـى كـمال أن يلقى الإمام الحسـين عليه السلام وجهـاً لوجه، إذ يصف نجيـب محفوظ ذلك المشـهد الرائع، قائلاً: «**وكم تمنّى حالماً لو ينسـونه في الجامع بعد أن يغلق أبوابه، فيمكنه أن يلقى الحسـين وجهاً لوجه، وأن يمضي في حضرته ليلة كاملة حتى الصباح، وتخيّل ما يخلق به أن يقدّمه له عند اللقاء من آي الحبّ والخضوع، وما يجدر به أن يلقيه عند قدسيه**

(١) المصدر السابق: ص٥٦.
(٢) المصدر السابق: ص٥٨.
(٣) المصدر السابق.

من أمانيه ورغباته، وما يرجوه بعد ذلك عنده من العطف والبركة»[1].

ويُضيف نجيب محفوظ مصوراً المشهد الذي يجمع كمال بالإمام الشهيد قائلاً: **«تخيّل نفسه وهو يقترب منه خافض الرأس، فيسأله الشهيد برقة من أنت؟، فيجيبه وهو يقبل يده كمال أحمد عبد الجواد، ويسأله عن عمله، فيقول له: تلميذ ـ ولن ينسى التنويه بتفوّقه ـ بمدرسة خليل آغا، ويسأله عمّا جاء به في هذه الساعة من الليل، فيجيبه بأنّه حبّ آل البيت عامّة والحسين خاصّة، فيبتسم إليه عطفاً، ويدعوه إلى مرافقته في تجواله اللّيلي، وعند ذاك يبوح له بأمانيه جملة قائلاً: اضمن لي أن ألعب كما أشاء داخل البيت وخارجه، وأن تبقى عائشة وخديجة في بيتنا إلى الأبد، وأن تُغيّر طبع أبي، وأن تمدّ في عمر أُمّي إلى ما لا نهاية، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتي، وأن ندخل الجنة جميعاً بلا حساب»**[2]، وبهذا اتخذ كمال من الإمام الحسين عليه السلام مثلاً وقدوة وشفيعاً له، ومجسّداً عمق الصلة الروحية التي تربطه بملهمه الأبدي الإمام الحسين عليه السلام.

الخاتمة

كثيرة هي البحوث التي أنجزتها أقلامنا، وهي ضمن اختصاصنا الأدبي المعروف، لكن لهذا البحث وقعه الخاص ومذاقه المميّز؛ لِما فيه من دهشة ممزوجة بالخشوع والتحليق في أجواء روحانية، لم يملك القارئ حتى تترقرق عينه بالدمع فرحاً لهذا السمو وهذا الرقي، رقي نفوس المصريين، ومدى تعلّقهم بشخصية عربية إسلامية تربّعت على قمّة هرم التأريخ منذ أربعة عشر قرناً من الزمن، وستبقى منهلاً عذباً لكلّ الأقلام الإنسانية الرصينة، ملهمة لمواهب وقرائح الشعراء والروائيين والكتّاب، ولكلّ مَن يمتلك ناصية الكلمة واللون.

---

(١) المصدر السابق: ص١٧٨ـ١٧٩.

(٢) المصدر السابق: ص١٧٩.

وعليه فإنّ النتائج المستخلصة من هذه الدراسة قد تبلورت فيما يأتي:

١ ـ إنّ شخصية الإمام الحسين عليه السلام لم تكن حكراً على الشعر في القصيدة العربية، بل كان للرواية حصة فيها.

٢ ـ إنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن شخصية خاصّة بشعب أو بلد دون آخر، فهي شخصية عابرة للبلدان والدول والطوائف وحتى الأديان، شخصية إنسانية، ومثل أعلى لكلّ البشر.

٣ ـ إنّ رواية بين القصرين قد جسّدت بفنّية عالية حبّ المصريين للإمام الحسين عليه السلام، ومدّى تعلّقهم به، وقد عبرت عن ذلك الحبّ بلغة روائية ساحرة.

٤ ـ إنّ شخصية أمينة وحبّها للإمام الحسين عليه السلام قد توارثته من عائلتها التي كانت تقطن إلى جوار مسجد الحسين في القاهرة، ممّا يؤكّد أنّ الحبّ يُتوارث كما يُتوارث المال والنسب.

٥ ـ إنّ حبّ الإمام الحسين عليه السلام والتعلّق به متفاوت لدى أفراد العائلة المصرية، إذ كانت أمينة من أقصى اليسار في هذا الحبّ، وكان محمد عبد الجواد من أقصى اليمين، وهذا الصراع أو التضاد قد منح هذا الحبّ حرارة أو لذعة مستطابة، تقرّب المحبين من معاني الحبّ الصوفي، الذي لا يخلو من التضحية من أجل المحبوب.

٦ ـ وفي كلّ محاور الرواية وفصولها يبرز لنا ما يتغلغل في أعماق نجيب محفوظ من حبّ للإمام الحسين عليه السلام، استلهمه وتنامى في داخله من خلال مجاورة مسجد الإمام الحسين عليه السلام في الجمالية، والنظر إلى قبّته يومياً، وقد جسّد نجيب محفوظ ببراعة الفن الروائي ذلك الحبّ من خلال شخصية كمال، الذي جعله قناعاً عبّر من خلاله عن ذلك الشعور بقداسة الإمام الحسين عليه السلام، ومنزلته وتأثيره في قلوب المصريين.

٧ ـ إنّ هذه الدراسة ربما ستفتح أفقاً جديداً أمام دراسة تخوض غمار البحث عن الإمام الحسين عليه السلام بين ذخائر ونفائس الرواية العربية عامّة والمصرية خاصّة.

فهرست المصادر

١ ـ أهـل البيـت في مصر، إعداد وتقديم: السـيد هادي خسرو شـاهر، تي ـ شـوني محمد، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، ط١، ٢٠٠٦م.

٢ ـ آل بيت النبيّ في مصر، أحمد أبو كف، دار المعارف، القاهرة.

٣ ـ التشيع المصري الفاطمي، د. حسن محمد صالح، دار الحجة، البيضاء.

٤ ـ دراسـة في أدب نجيـب محفـوظ تحليل ونقـد، د. رجاء عيـد، الناشر: منشـأة المعارف بالاسكندرية.

٥ ـ رواية بين القصرين، نجيب محفوظ، ١٩٧٣م، دار القلم، بيروت.

٦ ـ السيدة نفيسة ﵂، أ. توفيق أبو علم، القاهرة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٧ ـ الشـيعة في مصر، جاسـم عثمان مرغـي، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م، مؤسسـة البلاغ، دار سلوني.

٨ ـ الشـيعة في مـصر مـن الإمـام عـلي إلى الخمينـي، صالـح الـورداني، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، مطبعة ستار برس للطباعة والنشر، القاهرة.

٩ ـ العبقريـات الإسـلامية، فاطمـة الزهـراء والفاطميـون ـ أهـل البيت، عبـاس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

١٠ ـ عيد الغدير في عهد الفاطميين، د. محمد هادي الأميني، ط١، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م، مؤسسة الآفاق.

١١ ـ قضية الشـكل الفني عند نجيب محفوظ، نبيل راغـب، ط٢، ١٩٧٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٢ ـ مراقـد أهل البيت في القاهرة، السـيد محمد زكي إبراهيم، قـدّم لها وعلّق عليها: محي الدين حسين يوسف، ط٦، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٣ ـ المصريـون والتشـيع الممنـوع، د. أحمد راسـم النميـش، دار الحجة البيضـاء للطباعة والنشر والتوزيع.

١٤ ـ نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم، د. علي شلق، دار المسيرة، ط١، ١٩٧٩م، بيروت.
١٥ ـ نجيب محفوظ في ضوء نزعاته الأدبية، د. محمد نجم الحق الدوزي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م، أربد ـ الأردن.
١٦ ـ نجيب محفوظ صفحات من مذكراته، رجاء النقاش، مركز الأهرام للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

أهم المجلات

١٧ ـ الكلية الإسلامية الجامعة، النجف الأشرف تقنيات المكان في رواية بين القصرين رؤية تحليلية، النجف الأشرف، العدد ٥٣٨ع/ ٢٠١٢.
١٨ ـ مجلة العربي، عدد خاص نجيب محفوظ عروبة القلب الوديع، العدد٥٧٧ـ ذو القعدة ١٤٣٧هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٦م.

مواقع الأنترنت

١٩ ـ الإمام الحسين عليه السلام في الثقافة المصرية: *www.abrar online. net/ar*.
٢٠ ـ بعد ٦٠ عاماً على ثلاثية نجيب محفوظ مجلة الشباب: *Shabab.ahram-org eg*.
٢١ ـ بين القصرين نجيب محفوظ ـ مجلة نور الأدب: *www.nooreladab.com*.
٢٢ ـ الدولة الفاطمية: *www.dorar.net*.
٢٣ ـ شيعة مصر: *Egyptian shia-added 2new*.
٢٤ ـ مسجد الحسيين شهادة حبّ المصريين لآل البيت: *www.retagato.com*.
٢٥ ـ مصر تبكي محفوظ: *www.ana.hura.com*.
٢٦ ـ مصر تشيع نجيب محفوظ: *www.alittihad-qe-mobile*.
٢٧ ـ المصريون بعدسة نجيب محفوظ: *M.alwafd.org*.
٢٨ ـ مكانة آل البيت عند المصريين. *Egypthistory.net*.
٢٩ ـ نجيب محفوظ هدوء البراكين، د. لنا عبد الرحمن. *www Lanaabd.com*.
٣٠ ـ نجيب محفوظ ورواية بين القصرين *www.m.ahewar-org.s.as*.

الجمالية الفنّية في شعر الإمام الحسين عليه السلام

أ. م. د. مرتضى عبد النبي علي الشاوي*

توطئة

يعدّ شعر الإمام الحسين بن علي عليهما السلام من الأدب الإسلامي؛ إذ يتضمّن المعاني الإسلامية في الوعظ، والإرشاد، والنصيحة، والفخر، والحماسة، والوصف، والتذكير بالآخرة، والتحذير من النار، ومن فتنة القبر.

وكذلك يتضمّن نصوصاً إبداعية، فضلاً عن احتوائه تلك المظاهر البيانية، فالشاعرية تقف عند الصورة وأدوات التصوير، من تشبيه وكناية واستعارة، وحالات نفسية، ودراسة عميقة في نقل الأجواء السائدة آنذاك، والقريبة من نفس الرسول صلى الله عليه وآله، فهو يتغذّى من شجرة النبوّة وأغصان الولاية، فوالده الإمام علي عليه السلام أمير البلغاء، وأُمّه بضعة النبيّ، الزهراء البتول عليها السلام، سيِّدة نساء العالمين، صاحبة البيان والمنزلة الرفيعة، وأخوه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كريم آل محمد عليهم السلام.

فشعر الإمام الحسين عليه السلام المنسوب إليه بمفرداته ومعجمه الشعري وصوره وأغراضه، خير دليل على ما وصل إلينا منه، سواء كان مدوّناً في متون الكتب القديمة، أو منثوراً هنا وهناك، أو مجموعاً في ديوان، أو ذُكرت منه مقاطع أو قصائد في كتب قديمة، وعلى الرغم من قلّته إلّا أنّنا فخورون به، فإنّه كلام منظوم في ديباجته الشعرية، وموضوعاته الإنسانية؛ بما يحمل من حكمة وزهد وأخلاق وإرشاد وتوعية بأقلّ ما تتضمّن الكلمة الشعرية من إحساس وأفكار.

---

* جامعة البصرة / كلّية التربية ـ القرنة / قسم اللغة العربية.

والمنهجية التي استعملتها في هذه الدراسة البلاغية البيانية هي: تسليط الضوء على أهمّ مرتكزات البلاغة العربية في قراءتها الأكاديمية التطبيقية من جانب تحليلي، واضعاً التقسيمات الأساسية لها، ومضمِّناً فروعها، متمثِّلاً بأشعار الإمام الحسين عليه السلام بما يناسب تلك التقسيمات، كونها ظواهر بلاغية، وملامح فنّية عامّة، يتجلّى فيها النصّ الشعري بخطابه العام والخاص، وهي دراسة فنّية جمالية، تقف عند كلٍّ ممّا يأتي:

الصور التشبيهية

إنّ معالم الصور التشبيهية واضحة، وتظهر في أبعاد خطابه الشعري، وأنّ مفهوم التشبيه يعتمد على المقارنة بين الأشياء في ضوء الربط والجمع بأداة التشبيه؛ لأنّ التشبيه «**أبرز أنواع التصوير اطّراداً في كلام البشر عامّة، المسموع منه والمقروء، فهو يوسّع المعارف من حيث كونه يسهِّل للذاكرة عملها، فيغنيها عن اختزان جميع الخصائص المتعلِّقة بكلّ شيء على حدة؛ بما يقوم عليه من اختيار الوجوه الدالة التي يمكن بفضل القليل منها استحضار الكثير**»[1].

فهناك مجموعة من الصور التشبيهية المتنوعة وردت في شعر الإمام عليه السلام، منها: ما يخصّ التشبيه الذي يتشكّل من دون أداة، ويسمّى عند البلاغيين بالتشبيه البليغ، فالمشبّه مثلاً (الحسين) عليه السلام نفسه، والمشبّه به (البدر)، كما ورد في قوله عليه السلام:

أليس رسول الله جدّي ووالدي ... أنا البدر إن خلا النجوم خفاء[2].

وقوله في حماسيته عليه السلام:

أنا الحسين بن علي بن أبي ... طالب البدرُ بأرض العرب[3].

وكذلك جاء المشبّه (نحن) الضمير الجمعي الذي يرمز للأئمّة عليهم السلام، والمشبّه به

(١) الطرابلسي، د. محمد هادي، خصائص الأُسلوب في الشوقيات: ص١٤٢.
(٢) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص٧١.
(٣) المصدر السابق: ص٨٢.

(سراج الله)، كما في قوله عليه السلام:

وجدي رسـول الله أكرم مَن مشى ونحن سراجُ الله في الأرض يزهر[1].

وأحياناً يستعمل الفعل (صرنا) الدالّ على التغيير والتحوّل، فاسمه في ضمير (نا) المتكلّمين العائد على المتكلم في خطابه الذي يؤوّل أمره، فشبّه حالته بالعظام التي لا فائدة منها، كما في قوله عليه السلام:

وتنسانا الأحبّـةُ بعد عشر وقـد صرنـا عظاماً باليـاتِ[2].

فتشبيه الحالة المتغيرة كالعظام الفانية بالثوب البالي هي صورة حسّية، ذات أبعاد حيويّـة، محمّلـة بالبُعد الإنسـاني، وهي إشـارة إلى مصير الإنسـان، وحالته الجسـدية المتغيّرة.

وهناك التشبيه البليغ الذي يكون من دون أداة، ويُعرف عند اللغويين والبلاغيين بـ (التشبيه بالمصدر)، كما في قوله عليه السلام:

فقـد عُمـي ابـن آدم لا يراهـا عمىً أفضى إلى صمم الصّماخ [3].

فاستعمال المصدر كأداة للتشبيه هي صورة في غاية الدقّة؛ إذ تتضمّن الحَدَثيّة، والتركيز على نمطية مميّزة لخفاء أحد عناصر التشبيه ـ وهي الأداة ـ من أجل تحقيق الإيجاز والاختصار، والتركيز على الحدث المرتبط بزمن الفعل، وإيجاد جوانب كثيرة في التصوير على مستوى التشبيه.

وكذلك نجد هذا اللون في قوله عليه السلام:

رمـيـتـنـي رمـيـةً لا مقيل بـكلّ خَطْـبٍ فـادح جليـل[4].

وقـد أشـار بعـض النقّاد إلى مثل هـذا النوع من التشـبيه الذي تُحـذف فيه الأداة،

(١) المصدر السابق: ص١٠٥.
(٢) المصدر السابق: ص٨٥.
(٣) المصدر السابق: ص٩٥.
(٤) المصدر السابق: ص١٥١.

كقـول ابن ناقيا البغدادي (ت٤٨٥هـ): «**للتشـبيه أدوات منهـا: الكاف وكأنّ، ومثل، وشبيه، ونحو ذلك، وربما استُغني عن هذه الأدوات بالمصدر نحو: خرج خروج القِدْح، وطلع طلوع النجم، ومرق مروق السهم**»[١]، وقيمة هذا النوع بلاغياً تبدو كبيرة؛ لأنّ «**مـا حُذف منه الأداة يسـمّى مؤكّداً، لتأكيده بحذف الأداة، فهـو أوجز وأبلغ وأوقع في النفـس، أمّـا أنّه أوجـز فلحذف أداته، وأبلغ لإيهامه أنّ المشـبّه عين المشـبّه بـه**»[٢]، وإنّما تُحذف الأداة من أجل أغراض يتطلّبها السياق، أو رغبة من المنشئ في المبالغة.

وهنـاك ألـوان أُخرى من صور التشـبيه، مثلاً: التشـبيه بالأداة (الـكاف)، كما في قوله عليه السلام واصفاً الدنيا:

لقد مُـزِجـتْ حـلاوتهـا بسمٍّ فـما كالحـذر منهـا مـن مـلاذ[٣].

فطرفا التشـبيه مختلفان؛ لأنّ المشـبّه حسّي، والمشـبّه به عقلي، فحـلاوة الدنيا رغم طعمهـا إلّا أنّهـا مطعّمة بسـمٍّ قاتل، فـلا هروب من القدر، أشـبه بالإنسـان في غاية الحذر، وهو مغلوب على أمره.

وفي قوله عليه السلام:

نحن وكـلُّ مَـن فيها كسفر دنـا منّـا الرحيـل عـلى الوفـاز[٤].

وطرفا التشبيه حسّيان، فالمشبّه حسّي، والمشبّه به حسّي، فوجود الإنسان في الدنيا كالمسافر لا تدوم له الحياة، وفي كلّ لحظة هو في شأن.

وقوله عليه السلام:

فكيـف تطيـق يـوم الديـن حمـلاً لأوزار الكبائـر كالـرواسي[٥].

فطرفا التشبيه مختلفان، فالمشبّه عقلي، والمشبّه به حسّي، فعظم الذنوب مثل الجبال

(١) ابن ناقيا البغدادي، عبد الله بن محمد، الجمان في تشبيهات القرآن: ص٤٣ـ٤٤.
(٢) د. عبد القادر حسين، القرآن والصورة البيانية: ص٨٨.
(٣) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٠١.
(٤) المصدر السابق: ص١١١.
(٥) المصدر السابق: ص١١٣.

الراسيات بحجمها، وثقلها، وارتفاعها، وهيئتها.

وقوله عليه السلام:

إذا بلغ المـراد عُـلاً وعـزّاً تـولّى واضمحـل مـع البـلاغ

كـقـصر قـد تهـدّم حـافَـتـاه إذا صـار البناء إلى الـفـراغ[1].

فطرفا التشبيه مختلفان، فالمشبّه عقلي، والمشبّه به حسّي، فمهما بلغ الإنسان من علوٍّ ورفعة، يضمحلّ وينتهي، مثلما ترتفع القصور وتتهدّم إذا كان الأساس متخلخلاً، قائماً على فراغ.

وقوله عليه السلام:

وابـن سعد قـد رمـاني عنوةً بجنـود كوكـوف الهاطلـين[2].

فطرفا التشبيه متشابهان، فالمشبه حسّي، والمشبّه به حسّي، فوكف الدمع قد سال، وقطر قليلاً قليلاً، ونزل متتابعاً متفرّقاً، عظيم القدر فهو هاطل.

وهناك تشبيه باستعمال الاسمية بمفردة (مثل)، كما في قوله عليه السلام:

عظيم هـولـه والـنـاس فيه حيـارى مثـل مبثـوث الفـراش[3].

فطرفا التشبيه حسّيان، فالمشبّه حسّي، والمشبّه به حسّي، وتطاير الناس من شدّة الهول مثل تطاير الفراش المبثوث.

وكذلك استعمال الاسمية لمفردة (نظائر)، وهي جمع تكسير على وزن فعائل، ومفردها (نظير)، بمعنى (أمثال)، مفردها (مثل)، كما في قوله عليه السلام:

فـإنّ الغافلين ذوي الـتـواني نظائرُ للبهائم في الغياض[4].

طرفا التشبيه حسّيان، فالمشبّه حسّي، والمشبّه به حسّي، فلا فرق بين الجهلاء وهم

(١) المصدر السابق: ص١٢٩.

(٢) المصدر السابق: ص١٦٠.

(٣) المصدر السابق: ص١١٥.

(٤) المصدر السابق: ص١٢٠.

غافلون عن البهائم في صورة الهياج.

واستعمال (كأنّ) الثقيلة والمخفّفة، وكلاهما يفيدان التشبيه، كما في قوله عليه السلام:

وتنسانا الأحبّة بعد عسر ... وقد صرنا عظاماً بالياتٍ

كأنّا لم نعاشرهم بودٍّ ... ولم يك فيهم خلّ مؤاتٍ[1].

وكما في قوله عليه السلام:

وأين القَرن بعد القَرن منهم ... من الخلفاء والشم الكبار

كأنْ لم يُخلقوا أو لم يكونوا ... وهل أحدٌ يُصان من البوار[2].

وقوله عليه السلام:

جهلناها كأنْ لم نختبرها ... على طول التهاني والتعازي[3].

الصور المجازية

لا يخلو شعر الإمام الحسين عليه السلام من الصور المجازية، وقد يُعدّ «**المجاز من أحسن الوسائل البيانية التي تهدي إلى الطبيعة لإيضاح المعنى، إذ به يخرج المعنى متّصفاً بصفة حسّية تكاد تعرضه على عيان السامع**»[4]، ويمكن أن نلمس ملامحه فيما يأتي:

المجاز العقلي

كما في قوله عليه السلام:

ودنيانا وإن ملنا إليها ... وطال بها المتاع إلى انقضاء[5].

فالمجاز العقلي علاقته السببية؛ لأنّ طبيعة الإنسان الميل إلى الملذّات وارتكاب

(١) المصدر السابق: ص٨٥ـ٨٦.

(٢) المصدر السابق: ص١٠٨.

(٣) المصدر السابق: ص١١٢.

(٤) د. ياسين الأيوبي ومحيي الدين ديب، البلاغة العربية وأساليب الكتابة: ٢٩٠.

(٥) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص٧٤.

الفاحشة، وليس الميل الحركي، فكان استعمالاً مجازياً علاقته السببية، فسبب الميل هو وجود المتاع.

وكذلك في قوله عليه السلام:

ولستَ لهم وإن عَتَبوا مطيعاً حياتي أو يغيّبني التراب[1].

فالمجاز هنا عقلي علاقته السببية، كون التراب سبباً لخفاء الإنسان بعد موته.

وقوله عليه السلام:

وقادتْك المعاصي حيث شاءت وألفتْك امرءاً سلس القياد[2].

فالمجاز هنا عقلي علاقته المسبّبية، فالمعاصي كانت مسبّبة لقيادة الإنسان إلى الهلاك، أو ربما يتضمّن استعارة فيها أنسنة المعاني؛ لما فيها من تشخيص في خلع صفات الأشخاص على كلٍّ من المحسوسات والماديات[3].

وفي قوله عليه السلام:

أو ظنّ أنّ المال مَن كسبه زلّت به النعلان من خالق[4].

فهنا مجاز عقلي علاقته الحالية، فالتي تزلّ هي الأقدام عن الطريق، وليس النعلين.

المجاز المرسل

كما في قوله عليه السلام:

فقد عُمي ابن آدم لا يراها عمىً أفضى إلى صمم الصماخ[5].

فالمجاز مرسل وعلاقته الآليّة، فالصمم: فقدان لحاسّة السمع، والصماخ: قناة

(١) المصدر السابق: ص٧٧.
(٢) المصدر السابق: ص٩٩.
(٣) أُنظر: المنصوري، د. حافظ، شعر الشريف الرضي (الفن والابداع): ص١٥٢.
(٤) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٣٧.
(٥) المصدر السابق: ص٩٥.

الأُذن الخارجية التي تنتهي عند الطبلة، وهي مدخل الصوت.

الصور الاستعارية

إنّ الاستعارة وسيلة للمبالغة والإيجاز، أو التكثيف[1]، وخير مثال للتطبيق: تلك الصور التي جاء بها شعر الإمام الحسين عليه السلام في انتظام لوحات فنّية، كما في قوله عليه السلام:

فيسلم فيه مهجوراً فريداً أحاط به شحوب الاغتراب[2].

الشُّحوب: تغيير اللون بسبب معين، كالهزال، أو الجوع، أو السفر، أو الاغتراب والنزوح من مكان إلى مكان آخر، فاستعارة الشُّحوب إلى الإغراب يكمن عن أنسنة الأشياء المعنوية، وجعلها في فاعلية الحراك الإنساني، وغياب المشبّه عن الصورة يجعلها في صبغة الاستعارة التصريحية.

وكذلك في قوله عليه السلام:

عليك بظِلْف نفسك عن هواها فما شيء ألذّ من الصلاح

وبادر بالإنابة قبل موت على ما فيك من عظم الجُناح[3].

فاستعارة الظلف لتهذيب النفس هو الأثر، فيُقال: جاء على ظلفه، أي: على أثره وكونه تابعاً له.

واستعارة الجناح لعظَم الظروف وأحوالها، يتناسب مع مفردة الجناح لما تحمل من كبر، وهو الإثم والحرج، فالرجوع إلى جادة الصواب هو بالتوبة الحقيقية لعظم الذنوب، وقد يُقال: لا جناح عليك. أي: لا حرج ولا إثم عليك، فيقع هذا اللون الذي يختفي فيه المشبّه على مفهوم الاستعارة المكنية.

(١) أُنظر: عصفور، جابر أحمد، الصورة الفنّية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: ص٢٣٢.
(٢) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص٨٣.
(٣) المصدر السابق: ص٩٢.

وفي قوله عليه السلام:

إذا عاش امرؤ خمسين عاماً ولم يُرَ فيه آثار العفاف

فلا يُرجى له أبداً رشاد فقد أردى بنيته التجافي[1].

لقد استعار مفردة (الآثار) للعفاف ـ على الرغم من ماهية الآثار التي تُطلق على المعاني المادية، والعفاف صفة معنوية ـ لأنّها تتناسب مع الفترة الزمنية التي يكتسبها الإنسان بعد خمسين عاماً، فآثار العفاف طاغية، ولهذا السبب استعار مفردة الآثار لدلالتها التأريخية الموافقة لطول العمر.

وقوله عليه السلام:

إذا ما عظك الدهر فلا تجنح إلى خلق[2].

فالمستعار له هو الدهر المطلق المحمّل بالأحداث، وقد استُعير له من صفات الوحش وهو العضّ، دالاً على أسنانه، وهي استعارة تخيلية، «**فالمستعار له فيها غير محقّق لا حسّاً ولا عقلاً، بل هو صورة وهمية**»[3].

ومثلها في قوله عليه السلام:

من صاحب وماجد قتيل والدهر لا يقنع بالبديل[4].

فأنسنة الزمان وإضفاء صفات غير أخلاقية قريبة من التوحّش في التعامل تسمّى بالاستعارة المكنية التي يختفي بها المشبّه به، وتبقى قرينة دالّة عليه؛ لأنّ القناعة من صفات الإنسان، وعدم القناعة تستبعد عنه الإنسانية القريبة من الوحشية.

(١) المصدر السابق: ص١٣١.

(٢) المصدر السابق: ص١٣٨. دخيل، محمد علي، أدعية الإمام الحسين عليه السلام (الصحيفة الحسينية): ص٢٤.

(٣) د. ياسين الأيوبي ومحيي الدين ديب، البلاغة العربية وأساليب الكتابة: ص٢٧٨.

(٤) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٤٧.

أو قوله عليه السلام:

ليس يصفو لزاهد طلب الزهـ ـد إذا كان مثقلاً بالعيال[1].

فاستعارة مفردة (الثقل) للمستعار له وهو العيال؛ لما يتضمّن من مناسبة بينهما.

أو في قوله عليه السلام:

والله يعلم والقرآن ينطقه إنّ الذي بيدي من ليس يملك لي[2].

فهنا استعارة قائمة على التشخيص المادي للقرآن، فهو ناطق مثل الإنسان، يتكلّم بلسان حاله.

الصورة الكنائية

تتجلّى قيمة الكناية في إيجازها، وقوّة تأثيرها، وتجسيدها المعاني في صور محسوسة[3]، ونجد ملامحها في شعر الإمام الحسين عليه السلام كثيراً كما في قوله عليه السلام:

وقاطنها سريع الظعن عنها وإن كان الحريص على الثّواء[4].

فسريع الظعن: كناية عن الارتحال، والحريص على الثواء: كناية عن المتمسّك والمشفق والراغب في المنفعة؛ لأنّ الثواء معناه: ثوى بالمكان استقرّ وأطال الإقامة فيه، فخفاء الموصوف يدلّ على هذا النوع الذي يسمّى بالكناية عن موصوف (ذات).

وقوله عليه السلام:

ويرى ذُباب الشرّ من حولي يطنّ ولا يذُبُّه[5].

---

(١) المصدر السابق: ص١٤٦.

(٢) المصدر السابق: ص١٤٨.

(٣) أُنظر: الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن: ج٢، ص١٩٢. مختار عطية، علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقّات السبع: ص١٤٨.

(٤) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص٧٤.

(٥) المصدر السابق: ص٧٩.

فذباب الشّر: كناية عن حدّ الشرّ وطريقه، وعن شيوع الشرّ وانتشاره في البلاد، فهم أهل الخسّة والطمع، فتجمّع الأعداء على الإمام الحسين عليه السلام مثل تزاحم الذباب على ما لذّ وطاب من طعام وشراب.

وفي قوله عليه السلام:

يحوّلُ عن قريب من قصور مزخرفة إلى بيت التراب[1].

يشير الإمام الحسين عليه السلام إلى أنّ الإنسان سرعان ما ينتقل من الدنيا المليئة بالزخرف إلى القبر حيث يُوارى بالتراب، فبيت التراب كناية عن القبر.

وفي قوله عليه السلام:

أليس من أعجب عجب العجب أن يطلب الأبعد ميراث النبي[2].

إذ كنّى عن الأبعد وهو خلاف الأقرب عن اسم المذموم، فيُقال: أهلك الله الأبعد، وهنا تبرز الإيماءة بالأبعد إلى شيء مجهول.

وفي قوله عليه السلام:

ستمضي غير محمود فريداً ويخلو بعلُ عرسك بالتراث[3].

فقد كنّى بـ (بعل عرسك) عن الزوجة التي ترث الزوج بعد مماته.

وفي قوله عليه السلام:

وليس أخو الرزانة مَن تجافى ولكن مَن تشمّر للفلاح[4].

فالرزانة هي الوقار، فأخو الرزانة: كناية عن المؤمن التقي، والمتجافي للفلاح: كناية عن العاصي البعيد، وهو كثير الذنوب، والتشمير للفلاح: كناية عن التهيّؤ إلى عمل الخير.

---

(١) المصدر السابق: ص٨٠.

(٢) المصدر السابق: ص٨٣.

(٣) المصدر السابق: ص٨٧.

(٤) المصدر السابق: ص٩٤.

وفي قوله عليه السلام:

ومؤثـر المقـام بـأرض قفـر عـلى بـلـد خصيب ذي رذاذ[1].

كنّـى عن (البلـد الخصيب ذي الـرذاذ) عـن الأرض التي نما نبتها، وكثر عشـبها بسبب المطر الضعيف، أو الساكن الدائم القطر كأنّه الغبار.

وفي قوله عليه السلام:

وفـاطـمـة أُمّـــي سـلالـة أحمد وعمّي يدعى ذا الجناحين جعفر[2].

فذو الجناحين: كناية عن جعفر بن أبي طالب الطيار رضي الله عنه، الذي استُشـهد في سـنة (٨هـ) في معركة مؤتة.

وفي قوله عليه السلام:

ذنـوبـك جمّـة تـترى عظاماً ودمعـك جامـد والقلب قـاسي[3].

كنّى عن جمود الدمع وقساوة القلب، فوصف الدموع بالجمود وهو «**المعروف أنّ جمود العين إنّما يكنّى به عند إرادة البكاء وبخل العين بالدموع، وهي حالة حزن لا سرور؛ كما في قول الخنساء:**

أعينـيَّ جـودا ولا تجمُـدا ألا تبكيـان لصخـر النـدى»[4].

وكما في قول أبي عطاء السندي يرثي ابن هبيرة:

ألا أنّ عينـاً لم تجُـد يـوم واسـط عليـك بجـاري دمعها لجمـود[5].

على العكس من قول عباس بن الأحنف:

سأطلب بُعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا[6].

---

(١) المصدر السابق: ص١٠٢.

(٢) المصدر السابق: ص١٠٥.

(٣) المصدر السابق: ص١١٣.

(٤) الحوفي، عبد السلام، شرح ديوان الخنساء: ص٣٥.

(٥) أُنظر: الأنباري، محمد بن القاسم، الزاهر في معاني كلمات الناس: ج١، ص١٤٧.

(٦) أُنظر: مجيد طراد، شرح ديوان العباس بن الأحنف.

إذ «جعل سكب الدموع كناية عمّا يلزم في فراق الأحبّة من الحزن والكمد، فأحسن وأصاب في ذلك، ولكنّه أخطأ في جعل جمود العين كناية عمّا يوجبه التلاقي بين الفرح والسرور بقرب أحبّته، وهو خفي وبعيد؛ إذ لم يُعرف في كلام العرب عند الدعاء لشخص بالسرور أن يُقال له: جمدت عينك، أو لا زالت عينك جامدة»[1].

فيعدّ هذا الاستعمال من «التعقيد المعنوي؛ كون التركيب خفيّ الدلالة على المعنى المراد، بحيث لا يُفهم معناه إلّا بعد تفكير طويل»[2].

وفي قوله عليه السلام:

وخذ بالليل حظ النفس واطرد عن العينين محبوب الغماض[3].

فقد كنّى عن (محبوب الغماض) بالنعاس.

وفي قوله عليه السلام:

لكنّ ريب الزمان ذو غير والكفّ منّي قليلة النفقه[4].

وهنا إشارة أو إيماءة، وهي من أنواع الكناية التي تكون قليلة الوسائط، واضحة اللزوم، بلا تعريض، فالكفّ: إشارة إلى كرم الممدوح وجوده.

وفي قوله عليه السلام:

بعيداً عن سماع الشّر سمحاً نقي الكفّ عن عيب وثأي[5].

فالكناية هنا في التجنّب عن المحرّمات، فنقي الكفّ: إيماءة أو إشارة تدلّ على ذلك، فهي كناية قليلة الوسائط، واضحة اللزوم، بلا تعريض[6].

---

(١) الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ص٢٥. الأميني، أمير، تهذيب جواهر البلاغة: ص٢٨.

(٢) الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ص٢٤.

(٣) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٢٠.

(٤) المصدر السابق: ص١٣٤.

(٥) المصدر السابق: ص١٩١.

(٦) اُنظر: د. ياسين الأيوبي ومحيي الدين ديب، البلاغة العربية وأساليب الكتابة: ص٢٨٨.

وفي قوله عليه السلام:

قد عرفناك يا منغصة العيش ... ويا دار كلّ فانٍ وبالي[1].

فالكناية عن منغصة العيش في دلالتها على الدنيا الفانية برمزيتها، فقد استعملها بأقلّ الوسائط للوصول إلى المعنى المترقّب.

وفي قوله عليه السلام:

وعُرّي عن ثياب كان فيها ... وأُلبس بعد أثواب انتقال[2].

فالتعرّي عن الثياب وإلباس ثياب الرحيل: كناية عن الإنسان الذي فارق الحياة، فثياب الانتقال ترمز إلى الكفن.

وفي قوله عليه السلام:

لا لشيء كان منّي قبل ذا ... غير فخري بضياء الفرقدين
بعليّ الخير من بعد النبي ... والنبيّ القرشي الوالدين
خيرة الله من الخلق أبي ... ثمّ أُمّي فأنا ابن الخيرتين
فضّة قد خَلُصت من ذهبٍ ... فأنا الفضّة وابن الذهبين
مَن له جدٌّ كجدّي في الورى ... أو كشيخي فأنا ابن القمرين[3].

فالكنايات الواردة في الأبيات السابقة من (ضياء الفرقدين، ابن الخيرتين، ابن الذهبين، ابن القمرين)، هي كنايات عن موصوف تجلّت في المفردات الدالّة على رمزية خاصّة في صفات الممدوحين الأبويين، وهنا يشير إلى أبويه، وهما: الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام، والسيِّدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

الزخرفة البديعيّة

إنّ البديع مظهر من مظاهر المستوى اللفظي؛ لأنّه «**أداة تعبيرية يعتمد المفارقة**

(١) ماريني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٤٦.
(٢) المصدر السابق: ص١٥٠.
(٣) المصدر السابق: ص١٦١.

الحسّية والمعنوية لغة بذاتها، كما يجعل من الإيقاع التكراري خاصية بذاتها، وكلّ ذلك يمثّل عملية تنظيم للأدوات التعبيريّة التي كان الإلحاح عليها وسيلة لقبولها أوّلاً، ثمّ الإعجاب بها ثانياً»[1]، فيزخر شعر الإمام الحسين عليه السلام بالمحسّنات اللفظية مراعاة للجانب الموسيقي؛ لما يمتاز به من المطابقة ووضوح الدلالة، وهذه التحسينات جاءت كالآتي:

الجناس

إنّ الجناس أو التجانس يعتمد التماثل السطحي، والتسمية ذاتها تشير إلى ذلك، وتعدّ من أبنية التكرار والإعادة[2].

وكما يكثر من الطباق يكثر أيضاً من الجناس بطريقة عفويّة بلا تكلّف، كما في قوله عليه السلام:

وإن كانت الأرزاق شيئاً مقدّراً فقلّة سعي المرء في الرزق أجمل

وإن كانت الأموال للترك جمعها فما بال متروك به المرء يبخل[3].

فالجناس بين (الأرزاق) و(الرزق)، و(الترك) و(متروك)، هو جناس ناقص؛ إذ تتواجد زيادة في إحدى الكلمتين المتطابقتين أكثر من حرف واحد، وهذا النوع يسمّى مذيّلاً[4].

يتأكّد حرص الإمام عليه السلام، في جلب أكثر من طباق بأطرافه الاسمية في موضع واحد بغية التناسب، وربما يجمع بين زخرفتين في آن واحد، في جمعه الجناس والطباق معاً، حرصاً على التناسب، ومجلبة لإيقاع موسيقي في نبرات متلاحقة تثري اللفظ

(١) د. محمد عبد المطلب، البلاغة العربية (قراءة أُخرى): ص٣٤٨.

(٢) أُنظر: الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة: ص١٢، نقلاً عن البلاغة العربية (قراءة أُخرى): ص٣٧٢.

(٣) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٤٤.

(٤) د. ياسين الأيوبي ومحيي الدين ديب، البلاغة العربية وأساليب الكتابة: ص٣٢٦.

جمالاً، وتُلبس المعنى روحاً موسيقيّة، كما في قوله عليه السلام:

اغنَ عن المخلوق بالخالق تسدّ على الكاذب والصادق

واسترزق الرحمن من فضله فليس غير الله من رازق[1].

فالجناس بين (المخلوق) و(الخالق)، و(استرزق) و(رازق) هو جناس اشتقاق[2]، وهو الجمع بين لفظين مشتركين من اشتقاق واحد، أو تجمعهم المشابهة في الحروف.

وفي قوله عليه السلام:

أأنت أولى به من إله فيما ترى اعتللت وما في الدين من علل[3].

فالجناس هنا بين (اعتللت) و(علل) هو جناس اشتقاق.

وفي قوله عليه السلام:

فماز من ألفاظه في كلّ وقت ووزن[4].

فهنا جناس بين لفظين مختلفين، الأوّل: الفعل (ماز)، والثاني: الاسم (وزْن)، ويسمّى جناس مستوفى، وهو عند البلاغيين: ما كان اللفظان متجانسين فيه من نوعين مختلفين كاسم وفعل[5].

وفي قوله عليه السلام:

ثجيج الرعد ثجّاج إذا أرخى نطاقيهِ[6].

فالجناس بين (ثجيج) و(ثجّاج) هو ما يعرف بجناس المشتق، كما في قوله عليه السلام:

ذنوبي قد كوت جنبي كيّاً ألا إنّ الذنوب هي المكاوي[7].

---

(١) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٣٧.

(٢) أُنظر: السيوطي، جلال الدين، معترك الأقران: ج١، ص٣٠٣.

(٣) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٤٩.

(٤) المصدر السابق: ص١٦٧.

(٥) أُنظر: د. محمد أحمد قاسم، ومحيي الدين ديب، علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني): ص١١٥.

(٦) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٧٦.

(٧) المصدر السابق: ص١٨٨.

فالجناس بين (كوت) و(كيّاً) و(المكاوي) جناس اشتقاق.

وكذلك بين (جادت) و(جد) جناس اشتقاق، كما في قوله عليه السلام:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طراً قبل أن تتفلّت[1].

وكذلك في قوله عليه السلام:

وإن صافيت أو خاللت خلاً ففي الرحمن فاجعل مَن تؤاخي[2].

فالجناس بين (خاللت) و(خلاً) هو جناس اشتقاق.

وفي قوله عليه السلام:

يعتزُّ الفتى بالمال زهواً وما فيها يفوت عن اعتزاز[3].

فالجناس بين (يعتزّ) و(اعتزاز) هو جناس اشتقاق.

وقوله عليه السلام:

وأن تعتاض بالتخليط رشداً فإنّ الرشد من خير اعتياض[4].

فالجناس بين (تعتاض) و(اعتياض) هو جناس اشتقاق.

وقوله عليه السلام:

وإذا بلغ المراد عُلاً وعزّاً تولّى واضمحل مع البلاغ[5].

والجناس بين (بلغ) مع (بلاغ) هو جناس اشتقاق.

وقوله عليه السلام:

أقول وقد رأيت ملوك عصري ألا لا يبغينّ الملك باغ[6].

فالجناس بين (يبغين) و(باغ) هو جناس مشتق.

---

(١) المصدر السابق: ص٨٤.
(٢) المصدر السابق: ص٩٤.
(٣) المصدر السابق: ص١١١.
(٤) المصدر السابق: ص١١٩.
(٥) المصدر السابق: ص١٢٩.
(٦) المصدر السابق: ص١٣٠.

وقوله عليه السلام:

ولِـمَ لا أبـذل الإنصـاف منّـي وأبلغ طاقتي في الانتصاف[1].

فالجنـاس بين (الإنصـاف) مع (الانتصـاف) يرجع إلى جناس الاشـتقاق؛ لأنّهما ينتميان إلى جذر لغوي واحد.

الطباق

مـن الملاحظات الفنّية: أنّ خير ما يطبع شـعر الإمام الحسـين عليه السلام كثرته في الجمع بين الأشـياء المتضادة، في بُنَى قائمة على التوافق السـطحي، والتخالف العميق؛ لأنّ المسـتوى السـطحي يأتي بالـدوالّ على أطراف تنتـج معانٍ كنائية تنحـاز إلى الضدّية، يصبّ في بنية الطباق بوصفه يفرز سياقات ضدّية، كما في قوله عليه السلام:

أليس مـن أعجب عجب العجب أن يطلب الأبعد مـيراث النبي

والله قد أوصى بحفظ الأقرب[2].

فالأبعد خلاف الأقرب، وهما ضدّان، استعان بهما على الزخرفة اللفظية في تفعيل المعـاني وإظهـار حيرتها على المسـتوى الفنّـي، فالجمع بـين الأضداد ـ بـين (الأبعد) و(الأقرب) ـ هو تناسب في الاسمية.

وكذلـك في قوله عليه السلام مجموعة من الأضداد، يسـتعين بها للزخرفـة اللفظية، تكتنز بالمعاني العميقة:

فعقبـى كلّ شيء نحـن فيـه من الجمع الكثيف إلى شتات

ومـا حـزنـاه مـن حـلٍّ وحُـرم يـوزّع في البنين وفي البنات[3].

فـ(الجمع) ضدّ (الشتات) الذي معناه التفرّق، و(الحلّ) ضدّه (الحرم)، و(البنين) ضدّه (البنات)، وهو تناسب في الاسمية.

(١) المصدر السابق: ص١٣١.

(٢) المصدر السابق: ص٨٣.

(٣) المصدر السابق: ص٨٥.

وقوله عليه السلام:

ولـــكـــان ذلـــك مـــنـــه أد نـــى شرّه مـــن خـــيره[1].

فالطباق بين (شرّه) و(خيره) هو تناسب بين الاسمية.

وقوله عليه السلام:

جهلناها كـأن لم نختبرها على طول التهاني والتعازي[2].

فالطباق بين (التهاني) و(التعازي) هو تناسب بين الاسمية.

وقوله عليه السلام:

وبـــرّ المـؤمـنـين بـكـلّ رفـقٍ ونصحٌ لـلأداني والأقـاصي[3].

فالطباق بين (الأداني) و(الأقاصي) هو تناسب بين الاسمية.

وقوله عليه السلام:

وكـــلّ أُخـــوّة لا بـــدّ يـومـاً إن طال الوصال إلى انقطاع[4].

فالطباق بين (الوصال) و(الانقطاع) هو تناسب في الاسمية.

فالإمام عليه السلام يكثر من الأضداد انسجاماً مع البنية الإيقاعية في تفعيل الثراء اللغوي لعرض المعاني المخالفة؛ من أجل التكثير والسعة، والجمع بين المتضادّين لأجل المقابلة المعنوية، كما في قوله عليه السلام:

فـلـو عـشـتُ وطـرقـتُ مـن الـغـرب إلى الـشرق

لـمـا صـادقـتُ مَـن يـقـدر أن يُـسـعـد أو يُـشـقـي[5].

والطباق بين (الغرب) و(الشرق)، وبين (يسعد) و(يشقي)، هو طباق الإيجاب،

(١) المصدر السابق: ص١١٠.

(٢) المصدر السابق: ص١١٢.

(٣) المصدر السابق: ص١١٨.

(٤) المصدر السابق: ص١٢٨.

(٥) المصدر السابق: ص١٣٩.

تتداخل الألفاظ المتضادة فيما بينها من أجل اتّساع دائرة المعنى، فهو تناسب بين أطرافٍ تارة في الفعلية، وأُخرى في الاسمية.

وقوله عليه السلام:

ويفنى ما حواه الملك أصلاً وفعل الخير عند الله باقٍ[1].

و(يفنى) و(باقٍ) هو تناسب بين طرفين الفعلية والاسمية.

وقوله عليه السلام:

ومرتهن الفضايح والخطايا يقصّر باجتهاد للفكاك[2].

(مرتهن) بمعنى مقيد، و(فكاك) بمعنى مطلق، وهو تناسب بين طرفين في الاسمية.

وقوله عليه السلام:

يا دهر أُفٍّ لك من خليل كم لك في الإشراق والأصيل[3].

فيه طباق بين (الإشراق) و(الأصيل)، وهو تناسب بين طرفين في الاسمية أيضاً.

وقوله عليه السلام:

يا نكبات الدهر دولي دولي واقصري إن شئتِ أو أطيلي[4].

طباق بين (اقصري) و(أطيلي)، وهو تناسب بين طرفين في الفعلية.

أو قوله عليه السلام:

من يسعد الله يلن له الزمان إن خشن

يجزى بما أوتي من فعل قبيح أو حَسَن[5].

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق: ص١٤١.

(٣) المصدر السابق: ص١٤٧.

(٤) المصدر السابق: ص١٥١.

(٥) المصدر السابق: ص١٦٧.

والطباق بين (يلن) و(خشـن)، و(قبيح) و(حسن)، وهو تناسب بين طرفين تارة بالفعلية، وأُخرى بالاسمية.

وقوله عليه السلام:

فصـار الحـرّ للملـوك عبـداً فـما للحرّ مـن قـدرٍ وجـاهِ[1].

فالطباق بين (الحرّ) و(العبد)، وهو تناسب بين طرفين في الاسمية.

وقوله عليه السلام:

معيناً لـلأرامـل واليتامى أمين الجيب عن قرب ونـأي[2].

والطبـاق بـين (قـرب) و(نـأي)، وهـو تناسـب بـين طرفـين في الاسـمية، فهذه المتضـادات المعنويـة تتجاذب في حراك ثقافي تنبثق من معجم شـعري خاص، يتعالى على مخيّلة النصّ بإضفاء الطابع الإنساني عليه، ويتحرّك باتّجاه المتلقّي؛ لكي يستقطب عقله في التأثير والاستجابة.

وفي قوله عليه السلام:

وينفعني بموعظتي وقـولي وينفع كلّ مستمع وراوي[3].

فالطباق بين (مستمع) و(راوي)، وفي ضوء ذلك فإنّ الإكثار من الطباق في شعره يُعـدّ وسـيلة لأجل الجمع بـين المتضادات في تكثُّـر المعنى؛ ولهذا قيـل: «**ليس الطباق بالضـرورة ترفاً لفظياً فحسب، بل هو تعبير في أكثر الأحيان عن حركة نفسية متوهّجة، وصراع بـين مـا هو كائـن وما يجب أن يكـون، بين الراهـن والمتوقع. والمبـدع يلجأ إليه لتصويـر الهِوّة القائمة بين واقع مرفوض ومسـتقبل مأمول. والقصد منه العمل على بناء عـالم مخالف لمـا هو قائم، حـالم بالأفضـل، فكثرة المتعارضات تشـفُّ عـن غليان داخلي ورفض لأمر الواقع**»[4].

---

(١) المصدر السابق: ص١٨٥.

(٢) المصدر السابق: ص١٩٢.

(٣) المصدر السابق: ص١٨٨.

(٤) د. محمد أحمد قاسم، ومحيي الدين ديب، علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني): ص٦٩.

المقابلة

يعتمد التقابل على مقابلة صورتين لموضوعين أو ذاتين والمقارنة بينهما، وأنّ المقابلة «**أعمّ من الطباق، ليس استناداً إلى معيار كمّي فحسب، ولكن أيضاً لأنّ الطباق ينحصر فقط في الجمع بين متضادين اثنين فقط، بينما المقابلة تكون بين معاني متضادّة أو معاني غير متضادة توضع متقابلة**»[1].

ورأي علماء البديع: أنّ أعلى رُتَب المقابلة وأبلغها ما كثُر فيه عدد المقابلات، لكن شريطة الابتعاد عن التكلُّف والإسراف فيه، كما ورد في قول الإمام عليه السلام:

فلا الجود يُفنيها إذا هي أقبلت ولا البخل يُبقيها إذا ما تولّت[2].

فإنّ (الجود) يقابله (البخل)، و(يُفنيها) يقابله (يُبقيها)، و(أقبلت) يقابله (تولّت)، وهذا النوع من أشكال المقابلة يُعرف بما يسمّى: مقابلة ثلاثة بثلاثة، ومن هنا تكون المقابلة ـ وهي نوع من العلاقة بين الأدلّة اللغوية ـ بنية أساسية للخطاب الأدبي في مستوياته الخطّية، والإيقاعية، والدلالية، تحقّق انسجاماً وترابطاً بين وحداته[3].

المشاكلة اللفظية

تعدّ من دائرة التكرار الذي يجمع بين التماثل السطحي والتخالف العميق، وفيها طابع التكرارية الذي يتكرر لفظه دون معناه[4]، وتبدو المشاكلة في بنيتها «**قريبة الشبه بالجناس في تكريره اللفظ مع اختلاف المعنى، وفي مخادعة القارئ ومخايلته**»[5]، كما ورد عنه عليه السلام:

عجبت لمعجب بنعيم دنيا ومغبون بأيام لذاذ[6].

(١) الطوانسي، د. شكري، البديع وفنونه (مقاربة نسقية بنيوية): ص٢٠٨.
(٢) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص٨٤.
(٣) أُنظر: الطوانسي، د. شكري، البديع وفنونه (مقاربة نسقية بنيوية): ص٢٠٠.
(٤) أُنظر: د. محمد عبد المطلب، البلاغة العربية (قراءة أُخرى): ص٣٧٤.
(٥) الطوانسي، د. شكري، البديع وفنونه (مقاربة نسقية بنيوية): ص٩١.
(٦) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص١٠١.

وكما يُنسب إليه قوله عليه السلام:

فـإن نهـزم فـهـزّامـون قـدمـاً وإن نُهـزم فغير مهزمينا[1].

وقوله عليه السلام:

حـسـبـي بـــربّي كـافـيـاً مـا اختشي والبغي حسبه[2].

وقوله عليه السلام:

أليس مـن أعجب عجب العجب أن يطلب الأبعد ميراث النبي[3].

وهـذا اللـون من التكـرار في البنـى اللفظية يُعـدّ واحداً مـن أبرز آليـات بناء أيّ نـصٍّ لغوي على مسـتوى وحداتـه المعجمية، والصوتيـة، والدلاليـة، والتركيبية؛ لما فيـه من تكرار على مسـتوى الخطاب اللغوي، لكـي يمنحه قدراً كبيراً من التماسـك والانسجام[4].

الظواهر الفنّية

أ. التصوير الغيبي

إنّ التقاط المشهد الغيبي، ونقل الحقيقة من خلف حجاب مادي، تلك الحالة التي يؤول إليها الإنسان بعد مماته ودفنه، لهي من العِبَر والمواعظ التي يسهم الإمام عليه السلام في نقلهـا، رهبة لذلك العالم الخفـي، وتنبيهاً وتحذيراً لأنفس كثـيرة المعاصي والذنوب، فاسـتعمال الصورة بأدواتها الفنّية من اسـتعارة وكناية في تعبير نفسي وشـعوري، قد أزاح النقـل غـير المألوف في تقديم الوصـف؛ لما يقع داخل القبر مـن أهوال غامضة سُـمّيت بفتنة القبر، فرسـم الصورة بألوانها الإبداعية خفّف من حقيقتها؛ ممّا جعلها

(١) المصدر السابق: ص١٥٦.
(٢) المصدر السابق: ص٧٩.
(٣) المصدر السابق: ص٨٣.
(٤) أُنظر: الطوانسي، د. شكري، البديع وفنونه (مقاربة نسقية بنيوية): ص٦٩.

أكثر جمالاً وحسّاً وحيويّة في المفردات، كما في قوله عليه السلام:

يحـوّلُ عـن قريب مـن قصور ... مـزخـرفـة إلى بـيـت الـتراب
فيسلم فيه مـهـجـوراً فريداً ... أحـاط بـه شحوب الاغـتراب
وهـول الحـشر أفظع كـلّ أمر ... إذا دُعـي ابـن آدم للحساب
وألـفـى كـلّ صـالحـة أتـاهـا ... وسـيّـئـة جـنـاهـا في الكتاب
لـقـد آن الـتـزوُّد إن عقلنا ... وأخذ الحظّ من باقي الشباب[1].

يقابلها صورة الدنيا بمغرياتها؛ إذ وصفها بتعابير حسّية ممزوجة بأدوات بيانية من استعارة في أنسنة أشيائها، وإضفاء ملامح لونية وشعورية لدنيا؛ لتتمظهر بأشياء حسّية، كما جاء في قوله عليه السلام:

ودنـيـاك الـتـي غـرّتـك منها ... زخـارفُـهـا تصير إلى انـجـذاذ
تزحـزح عـن مهالكها بجهـدٍ ... فـما أصـغـى إلـيـهـا ذو نفاذ
لقد مُـزجـت حـلاوتـهـا بسمٍّ ... فـما كـالحـذر منها مـن مـلاذ
عجبت لمعجب بنعيم دنيا ... ومـغـبـون بـأيـام لـذاذ
ومـؤثـر المـقـام بـأرض قفر ... على بلد خصيب ذي رذاذ[2].

ب ـ الحوار القصصي

يلجأ الإمام الحسين عليه السلام إلى الحوار القصصي بين الجماد والإنسان في إضفاء روح حيوية للكلمة لأجل أنسنة الجمادات، فيجعل الأشياء متحركة مع الإنسان في صياغة رصينة.

يخاطب سكّان القبور بعد زيارته مقابر الشهداء بالبقيع[3]، ويناديهم من واقع غيبي لا يمكن أن يتصوره أيّ شخص إلّا إذا كان في مقام عالٍ، ومرتبة مقرّبة من مشكاة

(١) ماردیني، عبد الرحيم، ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): ص٨٠ـ٨١.
(٢) المصدر السابق: ص١٠١ـ١٠٢.
(٣) أُنظر: المصدر السابق: ص١٨٢.

النبوّة، فالاطّلاع على عالم الغيب سواء كان مستوراً تحت الأرض، أو في السماء، أمر لا يصفه إلّا مَن يؤمن بذلك إيماناً عميقاً ويقينيّاً، فيبيِّن فيه مشاعره، ويبثّ أحاسيسه، ومهما تكون المناداة والمخاطبة إلى عالم البرزخ، يبقى الردّ غامضاً غير واضح من أيّ إنسان كائن، فليس هناك أيّ جواب من جانب القبر، فلا يسفر عمّا خفي إلّا عندما تكون المخاطبة من نبي، أو وصي، أو إمام معصوم، فهكذا يكون الحوار القصصي بين حيّ وبين جماد لا يفصح عن نفسه، فنابت عنه الأرض في الحديث، والمخاطبة على لسان المتكلِّم الذي يشعر بإحساسه العميق، وخلجات نفسه، ما تبعثه الأرض من معانٍ، فضلاً عن ذلك أنّ الإمام المعصوم عليه السلام يرى ما لا يراه الناس، فعلم الإمام كما جاء في قوله عليه السلام:

ناديتُ سكان القبور فأُسكتوا	وأجابني عن صمتهم تُرَبُ الحصى
قالت أتدري ما فعلت بساكني	مزّقتُ لحمهم وخرّقت الكسا
وحشوت أعينهم تراباً بعدما	كانت تأذّى باليسير من القذا
أمّا العظام فإنّني مزقتُها حتى	تباينت المفاصلُ والشّوا
قطعتُ ذا زاد مِن هذا كذا	فتركتُها رمماً يطوف بها البلا[1].

الخلاصة

إنّ الهدف من هذه القراءة هو تسليط الضوء على جانب إبداعي من حياة الإمام عليه السلام الأدبية، وهي وقفة بلاغية بيانية، نستشف منها البُعد الجمالي الذي ينضوي عليه كلّ نتاجه الشعري ـ على الرغم من قلّته ـ وشحن حياته بالأحداث السياسية التي انتهت باستشهاده؛ إذ كان يتمتع بالاقتدار الفنّي في التعبير.

فما وصل إلينا من أدب الإمام الحسين عليه السلام قليل جدّاً، ويغني عمّا قاله من شعر أو نثر في مجال الخطابة، والوصايا، والدعاء، والرسائل، والخواطر في حياته، فالأئمّة ليسوا

(١) المصدر السابق: ص١٨٣.

بشعراء، لكنّهم يقولون الشعر في مناسبة أو غاية، ويتمثّلون بالأشعار، ويخاطبون الناس على قدر فهمهم شعراً ونثراً؛ لبلوغ الحجّة، وإقناعهم، ودحضهم، وتوعيتهم.

فالحديث عن شعر الإمام الحسين عليه السلام في بيان مضامينه، وأغراضه الشعرية، وتعبيراته الفنّية، يحتاج إلى وقفة تأمّل دراسة فنّية عامّة مفصّلة. إلّا أنّ اختيار عنوان البحث بهذه الكيفية يقتصر على جانب واحد، وهي وقفة في الجنبة الجمالية الفنّية. فالمتأمّل في شعره يجد الصورة الوصفية في أُسلوبه الغيبي عندما يتحدّث عن القبر، ويصف الإنسان من أعماقه، وكأنّه يجلي في وصفه العتمة والغموض السائد عند عامّة الناس، فاستعماله البياني يجسّد الصور الحيويّة بأُسلوب رائع لا يبتعد عن عناصر التصوير الشعري من الاستعانة بها في نقل المشهد، أو الوصف، أو الفخر، أو المدح، أو الهجاء؛ لأجل كشف هوية الخصم.

فتارة يستعمل فنون البيان من تشبيه واستعارة أو مجاز؛ لرسم معالم التصوير الشعري، فيكون الوصف في غاية الدقّة والإبداع، وتارة أُخرى يلجأ إلى الحوار القصصي بين الجماد والإنسان، في إضفاء روح حيوية للكلمة؛ لأجل أنسنة الجمادات، فيجعل الأشياء متحرّكة مع الإنسان في صياغة رصينة.

وربما يجمع مع الصورة الشعرية جاذبية المفردة في استعمال الإيقاع الداخلي بجلب مزايا الجرس عن طريق استعمال الزخرفة البديعية من جناس وطباق ومقابلة.

فضلاً عن ذلك، يجسِّد أفكاره باستلهام معاني القرآن الكريم، والحديث النبوي، فيطرز شعره بمسحة معنوية خاصّة، يستنطق معها القرآن بمفردات شعرية، وإيقاعات مشحونة، تتبرّز ظاهرة التناص مع القرآن الكريم، والحديث النبويّ.

أمّا الألفاظ فتتراوح بين الليونة والرقّة، ويحدو بها إلى الاستعمال الفنّي؛ لما تتضمّن من جزالة وحيويّة وصدق، وهذه من صفات الشعر الإسلامي، فملامحه واضحة المعالم، إلّا أنّه واسع الدلالة، يختفي في مفرداته وصياغاته معالم البيان العربي من مجاز، وتشبيه، واستعارة، وكناية.

فهرست المصادر

١ ـ أدعية الإمام الحسين عليه السلام (الصحيفة الحسينية): محمد علي علي دخيل، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، دار المرتضى، بيروت.

٢ ـ أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، قراءة محمود محمد شاكر، القاهرة، الخانجي، ١٩٨٤م.

٣ ـ البديع وفنونه (مقاربة نسقية بنيوية): د. شكري الطوانسي، ط١، ٢٠٠٨م، مكتبة الآداب.

٤ ـ البرهان في علوم القرآن: محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٥ ـ البلاغة العربية (قراءة أُخرى): د. محمد عبد المطلب، ط٢، ٢٠٠٧م، الشركة المصرية للنشر.

٦ ـ البلاغة العربية وأساليب الكتابة: د. ياسين الأيوبي ومحيي الدين ديب، مكتبة السائح، مطبعة خليفة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٧ ـ تهذيب جواهر البلاغة: أمير الأميني، ط١، ١٤٣٠هـ، مطبعة أميران، قم.

٨ ـ الجمان في تشبيهات القرآن: أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا البغدادي، تحقيق وشرح: د. محمد رضوان الداية، ط١، محرم١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، دار الفكر بيروت.

٩ ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: السيد أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠ ـ خصائص الأُسلوب في الشوقيات: د. محمد هادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨١م.

١١ ـ ديوان الإمام الحسين بن علي (وصاياه وحكمه وكرمه): إعداد عبد الرحيم ماردیني، ط١، ٢٠٠٤م، طبع ونشر دار المحبّة ـ دمشق، ودار آية ـ بيروت.

١٢ ـ ديـوان الخنسـاء: شرح وتحقيـق عبـد السـلام الحـوفي، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٣ ـ الزاهـر فى معـاني كلمات الناس: أبو بكر محمد بن القاسـم الأنباري، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، مؤسّسة الرسالة، بيروت.
١٤ ـ شرح ديـوان العبـاس بن الأحنف: شرح مجيد طـراد، دار الكتـاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤ م.
١٥ ـ شعر الشريف الرضي (الفن والإبداع): د. حافظ المنصوري، ط١، النجف الأشرف، مكتبة الثريا للحاسبة، ٢٠٠٧م.
١٦ ـ الصـورة الفنّية في التراث النقـدي والبلاغي عند العرب: جابر أحمد عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٢م.
١٧ ـ علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلّقات السبع: مختار عطية، دار القفاء لندين للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.
١٨ ـ علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني): د. محمد أحمد قاسـم، ود. محيي الدين ديب: المؤسّسة الحديثة للكتاب، لبنان، ٢٠٠٨م.
١٩ ـ القرآن والصورة البيانية: د. عبد القادر حسين، ط١، ٢٠١٠م، دار غريب، القاهرة.
٢٠ ـ معـترك الأقـران: جـلال الدين السـيوطي، تحقيق: عـلي محمد البجـاوي، دار الفكر العربي.

انعكاس القيم الثورية في الشعر الحسيني المعاصر

د. رقية رستم بور ملكي*

المقدّمة

إنّ قيم ومُثُل ثورة الإمام الحسين عليه السلام بصفتها ثورة إنسانية كبرى بكلّ أبعادها، تشعّ على كلّ أُمم الأرض ما دام الظلم والاضطهاد قائمين في العالم، وإنّ استحضار قيم تلك الثورة العظيمة الخالدة في هذا العصر، يزيدنا عزّة وقدرة للوقوف مع كلّ مظلوم ومضطهد سُلب حقّه، ومكافحة كلّ معالم الجور والفساد، وإحياء الفضائل لإصلاح الأُمور.

وقد أعلم الإمام الأُمة جمعاء بقوله: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مَن رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيِّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله إن يُدخله مُدخله**»[1]. فثورة الحسين عليه السلام، هي امتداد للرسالة المحمدية التي جاءت لتُحطّم صروح الظالمين، وما جاءت ثورة الإمام الحسين عليه السلام إلّا لتجديد الدّم في عروق الشعوب المظلومة.

إنّ هذا البحث يسلّط الضوء على بعض المقاطع الشعرية المعاصرة، ذات طابع سياسي، تتمحور على حادثة كربلاء، ونهضة الإمام الحسين عليه السلام، من أعمال شعراء، أمثال: بدر شاكر السيّاب، ويحيى السماوي، وجواد جميل، وأحمد دحبور، و... ذلك للكشف عن مدى تأثّر أصحاب هذه القصائد بالقيم النابعة من ثورة الإمام

---

* أُستاذة مشاركة في اللغة العربية وآدابها بجامعة الزهراء عليها السلام، من إيران.

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٠٤.

الحسين عليه السلام، للتعبير عن أبعاد مأساة الإنسان العربي المعاصر، المحاصر تحت قيود السلطة وظلم الحكّام.

الشعر الحسيني

«تُعدّ ثورة الحسين مادّة خصبة، استلهمها الأُدباء في فنّهم استلهاماً واسعاً، أمده الأدب الرافض بثروة ضخمة من القصائد»[1].

ولا غبار على هذا القول إذا ما تأمّلنا في شكل ومضمون القصيدة الحسينية، فهي أضافت إلى الشعر العربي عامّة، والوجداني خاصّة، رؤية جديدة في الشكل والمضمون. فأخذ الشعر الحسيني مهمّة إصلاحية نابعة من وجدان الشاعر، تمثّلت برصد الوظيفة الكبرى لثورة الإمام الحسين عليه السلام، وهي الاستنفار لقيم الله سُبحانه بنصرة الحق ودفع الباطل مهما كان الثمن، إذ التفت إليها الشعراء. وأخذ الشعر الحسيني العاشورائي ينمو روحياً بتجديد الزمان، فأثّر ذلك كلّه في عواطف المجتمع الإسلامي والإنساني تأثيراً عميقاً، وظلّت مظاهر الحزن مقرونة بالثورة، وهي تفوح من كلام الشعراء في كلّ عصر لإثارة الضمير الإنساني.

يُعدّ رمز الحسين عليه السلام في الشعر العربي المعاصر رمزاً جامعاً لمعاني النضال، والشهادة، والتضحية، والفداء. ويرى الشاعر المعاصر في شخصية الإمام عليه السلام المثل الأعلى في الثبات على الحقّ، فهو الذي دفع حياته ثمناً له واستُشهد في سبيله، وهو إذ ذاك يناصر الإسلام، ويقتدي بهدي جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولقد سجّل باستشهاده صفحة مضيئة في تاريخ الإسلام، جعلته بطلاً عظيماً نعتزّ به وسيرته. ويظل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء مصدر إلهام للشعراء، متخذين من الإمام رمزاً للفداء والتضحية بالذات في سبيل الحقّ[2].

---

(١) أمين: ١٩٣٦م: ج٣، ص٣٠٤.

(٢) أُنظر: المرزوقي، عبد الله فرج، الشعر الحديث في قطر (تطوّره واتجاهاته الفنية): ص١٨٨ـ١٨٩.

«ولعلّ حادثة كربلاء بما تمثّل من رمزية للمأساة بكلّ معانيها، كانت من أكثر الحوادث حضوراً في دواوين الشعراء، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أنّ من الشعراء مَن يرى في شخصية الإمام الممثّل الحقيقي لكلّ دعوة نبيلة، انطلقت وثارت على واقع ظالم، ولم يقدّر لهذه الدعوات والثورات أن تصل إلى أهدافها، فكانت نتيجتها الفشل والهزيمة، لا لعيب أو قصور في مبادىء أصحابها، وإنّما لكون دعواتهم قمّة في المثالية، لا تتوافق والواقع الفاسد آنذاك»[1].

وكأنّ الشعراء يأملون ثورة تتّصف بهذه المبادىء، ثورة حسينية صادقة، يدفع فيها صاحبها حياته ثمناً لها، حيث يقول يحيى السماوي مخاطباً الإمام الحسين عليه السلام:

أنت لكلّ ذي عزمٍ حُسامٌ وأنت لكلّ مذعور حصون[2].

فتح الإمام الحسين عليه السلام من خلال ثورته الفريدة، ووقفته المجيدة، وصرخته الخالدة، للشعراء والأُدباء والمفكّرين، وكلّ مَن يهتمّ بقضايا العدل والحرية، والنضال والسلام، أبواب الإبداع في مختلف نواحي الفكر والفنّ والأدب؛ لأنّ ملحمة كربلاء بذاتها تزخر بالمعاني السامية، والصور البديعة، والشعارات الكبيرة، التي تتعلّق بالقيم الرفيعة، والمصالح العامّة.

«يمكن القول: إنّ حادثة عاشوراء عامل أساس لإثارة روح التحدّي في نفوس الأُمّة، ومن أشدّ مقاطع التاريخ التصاقاً بواقع الأُمّة في كلّ آن، ومن أكثرها تأثيراً عليه؛ لأنّ قصّة الصّراع الأزلي بين الحقّ والباطل، وبين الظالم والمظلوم، كانت ولا تزال باقية، فلذلك خلدت عاشوراء مهما تجدّد الزمن»[3].

استحضر الشعراء شخصية الإمام الحسين عليه السلام، وجعلوها مصدراً يستمدّون منها. يقول بدر شاكر السيّاب:

---

(١) عشري زايد، علي، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: ص١٢١.
(٢) السماوي، يحيى، (يا سيدي حسين)، موقع المثقف، العدد١٩٥٦، ٢٠١١م.
(٣) مطهري، ١٣٨١: ج١، ص١٨ـ٢٠.

عزَّ الحسين وجلّ عن أن يشتري ريَّ الغليل بخطّة نكراء
آلى يموت ولا يوالي مارقاً جمّ الخطايا طائش الأهواء[1]

وهذا قول الإمام عليه السلام: «**والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد**»[2].

وفيما يلي مقتطفات من المقطع الأخير من قصيدة (صرخة من كربلاء... يا إنسان) المنشورة في ديوان (دينا وأخواتها)من المجموعة الكاملة:

قد تقتلني
قد تفجعني بأعزائي
صحبي... إخواني... أبنائي
قد تسبي أهلي ونسائي
لكنّك أوهى من أن تأخذ صوتي
هيهات الذلة منيب... لن أرجوكم
سأقاومكم... سأقاومكم... سأقاومكم
لن أعطيكم
إعطاء ذليل
إقرار عبيد
سأقاومكم... سأقاومكم... سأقاومكم
حتى لا يبقى حولى سيفٌ ينصرني
حتى تنفجر دمائي في الأجيال وتحكيني
حتى يسمع أنصاري صوتي في الآتي

(١) السيّاب، بدر شاكر، أزهار ذابلة وقصائد مجهولة.
(٢) الأمين، محسن، أعيان الشيعة، ج١، ص٥٨١.

هل من ناصر

فيجيبوني

وتضيء لهم دربَ الحرّية كلماتي

وعلى أصقاع الدنيا تخفق راياتي

ويعمّ سلامي

في كلّ مكان بشعت فيه مظالمكم

ومجازركم

سأسطرُ اسماً لشهيدٍ[1].

والإمام في شعر السيّاب هو رمز الإباء والحرية، كما أنّ يزيد هو رمز للظلم والاستبداد، وبذلك يقوم بتصوير واقع المجتمع العراقي في عصره، إذ إنّ أبناء مجتمعه منهم الثائر ضدّ الظلم، ومنهم المتخاذل الذي يخاف السلطان؛ لذلك فإنّ السياب وجد في شخصية الحسين عليه السلام ـ الثائر على الجور والفساد، وقوى الاستبداد والطغيان ـ رمزاً مماثلاً لأبعاد تجربته الشعرية.

ويتحدّث مصطفى جمال الدين عن القوم الظالمين، الذين أسلموا الإمام للعدو، ويعتبر الإمام رمزاً للنور والهداية، والذي يكشف الطريق:

كأنّ قوماً أسلموك ليلة عسراء وانقلبوا عليك فكذبوا[2].

فإنّ مصطلح ليلة عسراء يوحي بالظلم والجور لقوم يفضّلون الباطل.

إنّ الحسين عليه السلام مدرسة عالمية للثورة، تلمذ عليها الثوار، وانعكس هذا الأمر في تجربة الشعراء المعاصرين، من أمثال مظفر النوّاب، إذ يقول في قصيدة (الوقوف بين السماوات ورأس الإمام الحسين عليه السلام):

(١) درويش، خشاب، ديوان دينا وأخواتها: ص٥.

(٢) جمال الدين، مصطفى، الأعمال الشعرية: ص٥٠٩.

قد تعلّمت منك ثباتي وقوّة حزني وحيداً

لكم كنت يوم الطفوف وحيداً

ولم يكُ أشمخَ منك

وأنت تدوس عليك الخيول

من بعيد رأيت ورأسك كان يحزّ

حريق الخيام

فأسدلت جفنيك فوق الحريق حناناً

فدمعك كان ختام النزول[1].

وأمّا من أثر النهضة الحسينية في الشعر العربي، فهو: أنّ هذه النهضة يقترن فيها التأثير الشعري، والانفعال الجمالي التعبيري، الذي يتوخّاه الشاعر كرسالة يقترن فيها الهدف الفنّي الجمالي بالغرض الفكري الإصلاحي.

وهو حدث فريد من أحداث الإنسانية وصراعها لإعلاء قيم الحقّ والشجاعة والفضيلة؛ إذ يمثّل صرخة الثائر البطل، والإمام الذي تبرمج في وعيه عذابات الإنسانية، وواقعها المنحرف، وسلطاتها الاستبدادية، ورؤاها المشوّهة، فآثر وارث الأنبياء الإمام الحسين عليه السلام الموت تحت ظلال السيوف على العيش الذليل، وألقى بكلّ ثقله وفكره وعياله في ساحة الصراع؛ من أجل إيقاظ الأُمّة من سباتها، وإعادة الثقة لها بدوره المحوري في صنع الحضارة والتاريخ، فكان مآل أمره مقطّعاً بالسيوف، مرمّلاً بالدماء، مع أصحابه وأهل بيته عليهم السلام، ليكون رمزاً لكلّ ثائر ومصلح تتكامل عنده عناصر الإبداع فكراً وسلوكاً، ويصيح في عالم الصمت والاستبداد: لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد.

(١) المخزومي، ٢٠٠٩م: ص٢.

الشعر الحسيني والقضية الفلسطينية

قد نجد أنّ بعض الشعراء يُقرنون مأساة كربلاء بالقضية الفلسطينية في قصائدهم. يقول أحمد دحبور في (العودة إلى كربلاء):

شاهدتهم ومعي شهودي

أنت والماء الذي يعود دماً

ودم لديهم صار ماءً

والنخيل

شاهدتهم عين المخيّم فيَّ لا تُخطىء وكانوا

تاجراً ومقامراً ومقنعاً كانوا دنانير النخيل

ودخلت في موتي وحيداً أستحيل

وطناً فمذبحة فغربة

يا كربلاء

تفور فيّ النار

أذكر بكفٍّ تتقلّب الوجوه[1].

إنّ الرمز هنا لكربلاء الفلسطينيين: الأسى، والعطش، والحصار، والغضب، والمأساة... إنّه البحث عن ماء في زمن العطش، لقد وصل إلى كربلاء رغم الطرق المغلقة، ورغم المشقة، آملاً أن تكون البداية، ووجد الحسين عليه السلام نفسه وحيداً في المواجهة، بينما تقاسم الآخرون أسرارهم وثمر النخيل... فهم الذين خذلوا الفلسطينيين المعاصرين.

ويريد الشاعر أن يتحوّل الدم ـ كما تحوّل دم الحسين عليه السلام ـ إلى محرّض، ودعوة

(١) دحبور، أحمد، الديوان: ص٢٥٧.

لثورة مستمرة لخروج الماء من أرض كربلاء لتروي عطش الحسين عليه السلام:

آتٍ على عطش وفي ... زوادتي ثمر النخيل

فليخرج الماء الدفين إليّ ... وليكن الدليل[1].

الشعر الحسيني والواقع المعاصر

قد يرسم الشعراء ملامح الثورة وأزمتها في الواقع المعاصر في تجاربهم الشعرية، من خلال استدعاء شخصية الإمام الحسين عليه السلام؛ ليكون راية السائرين في زمان الشاعر، مثلما يقول الشاعر قاسم حداد:

نسير ونعرف كيف نشقّ التراب ونبذر داخله

كيف نحزّ الرؤوس ونزرعها عبر كلّ العصور

فنحن الحسين المسافر من كربلاء

ورأس الحسين الممزّق بين دمشق وبين الخليج

ونحمله نستريح على سورة المومياء[2].

إنّ الرمز الحسيني يمتدّ فوق الزمان بنبضاته الخلافية، فهو تجسيد لصراع الحقّ مع الباطل، هذا الصراع الذي لا ينتهي ولا يحسم أبداً، ولأنّ المأساة الحسينية لم تشفِ غليلها بعدُ، فلا بدّ للانفعالات والعواطف والمحبّة الموالية أن ترفد الجانب الوجداني للولاء، بنتاجاتها التي تستوحي من الملحمة العظيمة كلّ محرّك للضمائر، ومهيّج للهمم، ومُثير للدموع العاشقة، كما في قصيدة الشاعر مصطفى جمال الدين:

ذكراك تنطفئ السنين وتغربُ ... ولها على كتف الخلود تلهبُ

لا الظلم يلوي من طماح ظرامها ... أبداً ولا حقد الضمائر يحجب

ذكرى البطولة ليلها كنهارها ... صاح تؤج به الدماء وتلهبُ

(١) المصدر السابق.

(٢) حداد، قاسم، الأعمال الشعرية: ص٦٥.

ذكـرى العقيـدة لم ينـؤ متـن لهـا بالحادثـات ولم يخنهـا منكـب[1].

لقـد أصبح الرمز الكربلائي في الزمن المعاصر أنشـودة ثورية، تردّدها الشـعوب الضامئـة إلى لون الحرية، والعقيدة الإسـلامية، فالحسـين لم يقف فـترة زمنية عابرة، وإنّـما موقفـاً خالداً، وهذا الـشيء يراود الشـاعر العراقي (جواد جميـل) في مجموعته الشعرية (للحسين... لغة ثانية)، وكأنّه يستقرئ التاريخ بلغة شعرية مرهقة؛ إذ يقول في قصيدة (الرؤى):

لم نكن نسمع ما قال
ولكنّا رأينا قمراً غادر كفيه... ونورس
رأيت ظلّه الأخضر
منقوشاً على الرمل المدمّى
ورأينا بين عينيه صلاة تتيبس[2].

كذلك يقول عبد الرزاق عبد الواحد في قصيدة (في رحاب الحسين):

فصخـب بأضلعـه الكبريـاء وصـاح على مـوتـه أقـدامـي
كـذا نحـن يـا سـيدي يـا حسـين شـداد على القهر لم نَشكُم
كـذا نحـن يـا أيّهـا الرافديـن سـوارتـنـا قـطّ لم تهـدم

فـلا المـوت قد غـيّر من إبائه شـيئاً، ولا الدم قد دعـاه إلى أن يهادن أو يسـايس، فهو قد اشـترى الشـهادة وأرادها له ولأهله وصحبه. فنحن نتعلّم منه أروع دروس التضحية والإباء، ثمّ يقول:

لأن ضـجّ مـن حولـك الظالمـون فـإنّـا وُكـلـنـا إلـى الأظـلـم

(١) جبار، صلاح، الرمز الحسيني في الشعر العربي المعاصر، الوفاق، رقم الخبر: ٩٠٢٩٢، التاريخ: ٢٨/ ٧/ ١٣٩٤.
(٢) المصدر السابق.

و إن خانك الصحب والأصفياء فقد خاننا مَن له ننتمي

تدور علينا عيون الذئاب فنحتار من أيّها نحتمي[1].

يُقيم الشاعر مقارنة بين ذاك الزمان والزمن الراهن، فمظاهر الاستعمار والسلطات الغالبة في العالم ممّا لم يتخلّص الإنسان المعاصر من ثقلها ونيرها، وذلك رغم الشعارات الكثيرة التي رُفعت باسم المنظمات والهيئات الدولية، كمنظمة حقوق الإنسان، ومنظمة العفو الدولية، والأُمم المتحدة، وغيرها، والتي تدّعي حرية الشعوب، وحرية الرأي، والديمقراطية، كلّ هذه ممّا تنعكس في تجارب الشعراء الشعرية، مثل ما يقول الشاعر جواد جميل في قصيدته (أشياء يفهمها الثوار):

الشمر قد سجّل اعتذاره

عن مقتل الحسين في الأُمم المتحدة

والقدس ها قد هوّمت

على غناء الأُمم المتحدة

وتنقل المصادر المعريّة

أنّ رجال الأمن في الميناء

قد أغلقوا الدروب

وألقوا القبض على أغنية

ثائرة تحاول الهروب

وحوكمت بالعدل!! في لاهاي

فأُعدمت!

وسُلّمت جثتها للأُمم المتحدة

وتنقل المصادر المعريّة

(١) عبد الواحد، عبد الرزاق، ٢٠٠٢م: ص١٦٥.

إنّ الصليب الأحمر الدولي

ما يزال

يبذل ما في وسعه ليوقف القتال

في غابة بين فراشتين

نعم يعود حاملاً نقالة الجرحى

لأرض الطفّ

وجرحها في قلبها ما جفّ فيدفن القتلى

وينسى جثّة الحسين[1].

إنّ هذه القصيدة تُقيم مقارنة بين واقع الشاعر الأليم والقيم الحسينية السامية، التي ثار من أجلها الإمام الحسين عليه السلام، فرصدت القصيدة الواقع مُعرّية إيّاه؛ بسبب الظلم، والباطل، والشرّ، واتجاهاته في كلّ زمان ومكان. هكذا يتبدّل الشعر الحسيني إلى صوت ومرآة للمسكوت عنه والمحتجين، ذلك أنّ نهضة الحسين عليه السلام تمثّل خطراً محدقاً بسلطة الاستبداد السياسي.

الشعر الحسيني والدفاع عن القيم

إنّ الحسين عليه السلام رمز للدفاع عن كلّ القيم السامية التي مُحيت في زمن بني أُميّة. يقول جواد جميل في شعر عنوانه (أشياء مثل الدم):

سألت القلب أن يُبدي الأسى في لحظة الذكرى

أخبرني بأنّ الطفّ ما زالت تُرضّ

على ثراه الأضلع الحمراء

وما زالت ملطخة هناك الأذرع البتراء

وما زال الرضيع

(١) جميل، جواد، أشياء حذفتها الرقابة: ص٩٧ـ٩٨.

يذوب من عطش
وما زال الحديد يئنّ
يثقل مشيه الأسرى
سمعتك حسين عاشوراء عاد
كنت تعذّب الجلاد
فلا تغضب
إذا ما جال في شريانك العقرب
إذا ما ضبّ فوق جراحك الأحقاد
ولا تغضب
إذا ما زيّفوا بغداد
وصارت كالسبيّة
ولا تعجب إذا حفروا المقابر
وأنّ حروفنا الحمراء
تبقى حين يُمحى كلّ ما يُكتب
ويبقى النخل ينتظر السماء[1].

كأنّ صوت الحسين مرفأنا الموعود والـــدفء والهـــروب الجميلا
حيث ننسى ضياعنا وانكسارات رؤانـــا خطونا والـرحـيـلا[2].

يتبدّل رمز الحسين عليه السلام وصوته الخالد إلى ملجأ يركن إليه الإنسان المعاصر، هارباً من الظلم السائد.

حتى تمتلئ الدنيا بالأسماء وتبكي
وتقوم الأرضُ على أصداء نداءاتي

(١) المصدر السابق.
(٢) جميل، جواد، الحسين لغة ثانية.

تلعنكم كلّ صباح

وتمجد اسم الله وتحضن شهدائي

منتصرٌ عدلي

منتصرٌ طفلي

منتصرٌ عطشي

الآن اذبحني

اقطع رأسي بالسيف وقطّعني

خذ رأسي فوق الرمح أو اصلبني

لأبلّغ كلّ رسالاتي

وأقول لأجيال الحرية آخر كلماتي[1].

لا بـدّ مـن القول: إنّ هناك شـعراء معاصرين آخرين كتبوا في الإمام الحسـين عليه السلام ونهضته، وإنّ إحصاءهم وجمع قصائدهم يتطلّب بحوثاً وجهوداً كبيرة، ووقتاً طويلاً. وقـد يكون هذا التحقيق محاولة للإطلالة على أهمية الشـعر الحسـيني وخصوصيته. فعاشوراء ليس فقط ملهمة الثائرين وطلاب العدالة في العالم، بل هي ملهمة الشعراء والمبدعين أينما وجدوا في العالم.

النتيجة

توصل البحث إلى نتائج من خلال تقديم نماذج شعرية وقراءتها، وهي ما يلي:

إنّ كربلاء ونهضة عاشوراء مدرسة خالدة، لا توصد أبوابها، وأنّها مفتوحة لكلّ مَن يُريد أن يجذّرها من أجل إحياء كرامة الإنسان، وإصلاح أمور المسلمين. وتؤدي ثورة الإمام الحسين عليه السلام قضية إستراتيجية، تؤثر على أفكار وأقلام المفكّرين والأُدباء علـى مـدى التاريخ؛ ولهـذا ينبغي أن يكون الإمام الحسـين عليه السلام عنوانـاً لكرامة الأُمّة

(١) فحص: ١٤١٥.

والدفاع عن العقيدة.

لقد استطاع الشعراء المعاصرون ـ في أشعارهم الحسينية ـ الكشف عن القوى الكامنة المثيرة في هذه النهضة، واتخاذها طريقة لمواجهة كلّ مظاهر الظلم والفساد في المجتمع، فإنّ الشعر الحسيني احتفظ بتلك القيم والمبادىء التي يحتاج إليها الإنسان المعاصر؛ ليميّز بها بين الحقّ والباطل.

إنّ الرمز الحسيني الكربلائي ببكائيته الحادّة، يشكّل همّاً بارزاً من هموم الشعر العربي المعاصر، وأنّ المدرسة أثّرت تأثيراً إيجابياً في مسيرة الشعوب الإسلامية والعالمية، ممّا جعل الشعراء والأُدباء يتناولون الحسين عليه السلام كرمز تاريخي في أغلب نتاجاتهم، وأنّ رمزية الحسين عليه السلام هي صرخة مدوّية تطلقها الأجيال القادمة بوجه طواغيت الأرض.

فهرست المصادر

١ ـ الأعمال الشعرية، مصطفى جمال الدين، ١٤١٥ق.

٢ ـ أشياء حذفتها الرقابة، جواد جميل، دار الفرات، بيروت، ١٩٨٨م.

٣ ـ الأعمال الشعرية، قاسم حداد، دار الفارس، عمان، ٢٠٠٠م.

٤ ـ أزهار ذابلة وقصائد مجهولة، بدر شاكر السيّاب، تحقيق: حسن توفيق، ط٢، ١٩٨٥م، المؤسّسة العربية للدارسات والنشر، بيروت.

٥ ـ الأعمال الشعرية، عبد الرزاق عبد الواحد، دار الشؤون الثقافية العامّة، العراق.

٦ ـ استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.

٧ ـ الحسين لغة ثانية، جواد جميل، المنهج العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم، ١٩٩٦م.

٨ ـ الديوان، أحمد دحبور، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م.

٩ ـ الرمز الحسيني في الشعر العربي المعاصر، صلاح جبار، الوفاق، رقم الخبر: ٩٠٢٩٢، التاريخ: ٢٨/ ٧/ ١٣٩٤.

١٠ ـ الشعر الحديث في قطر: تطوّره واتجاهاته الفنية، عبد الله فرج المرزوقي، ط١، ٢٠٠٥م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، قطر.

١١ ـ صدى الرفض والمشنقة، جواد جميل، معاونية العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي، طهران، ١٩٨٦م.

١٢ ـ أعيان الشيعة، محسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

١٣ ـ للثوار فقط، جواد جميل، دار الفرات، بيروت، ١٩٩١م.

١٤ ـ المثقف (يا سيدي حسين)، يحيى السماوي، العدد ١٩٥٦، ٢٠١١م.

استلهام الثورة الحسينية في القصيدة العينية للجواهري
دراسة تحليلية

أ. م. د. عدنان كاظم مهدي*
أ. م. د. صادق فوزي دباس**

مقدّمة

لم يكن الشعر بمعزل عن الأحداث التاريخية والأوضاع السياسية، بل إنّ الشعر وليد البيئة السياسية، فكلّما يطرأ من أحداث تاريخية وتغييرات سياسية نجد للشعر حضوراً ووجوداً فعّالاً فيها.

فليس من الغريب أن نرى الشعر يسجّل لنا الأحداث، ويؤثّر في واقع المجتمع، فهو مرآة عاكسة للأحداث، بل إنّ الشعر له من القدرة والإمكانية ما يجعله محرّكاً أساساً للثورات والانتفاضات؛ ولذا فإنّ الشعراء طالما كانوا يستمدّون من التاريخ الدوافع والأسباب في تحريك الجماهير، والدعوة إلى التغيير وقلب نظام الحكم .

إنّ الثورة الحسينية بمجملها وبكلّ ما حملته من دروس وعِبَر ومواعظ ومواقف تركت للشعراء كنزاً لا ينفد من المعاني والصور والأفكار والمواقف البطولية، والتي باستطاعة الشاعر أن يستثمرها ويوظّفها في شعره.

لقد شاع استعمال رمز الحسين عليه السلام عند الشعراء؛ بوصفه قائداً متفرداً لرفض الظلم والتحرّر منه، إلّا أنّ طريقة التعامل مع هذه الرمزية تباينت ـ بطبيعة الحال ـ من

---

* جامعة الكوفة/ كليّة الآداب.
** جامعة الكوفة/ كليّة الزراعة.

شـاعر لآخر، بحسب فنّية الشـاعر وخلفيته الثقافية، فسعة القضية وعمق مدلولاتها تُتيـح التعدّدية في أنسـاق الكتابة، وقد تجـلّى هذا الأثر في البعـد العقائدي والعاطفي للشاعر[1]، على أنّ استشهاد الامام الحسين عليه السلام يُتيح للشعراء موضوعاً إنسانياً عميق الدلالة عن الثبات والصبر، وفي تصوير هذه المأساة واقتباس بعض معانيها[2].

وبعد التغييرات السياسـية والاجتماعية التي طرأت عـلى كثير من البلدان العربية ـ خصوصـاً العـراق ـ اتّجهـت القصائد الحسـينية اتّجاهاً يمكن أن نُطلق عليه تسـمية (الاتجـاه التحفيـزي)، حيث صار الحسـين في أكثر القصائد محفّزاً لـكلّ ما هو رفضٌ للظلم والاستبداد، ومغذّياً لكلّ شعور ثوري، بحيث صار الشاعر يتّكئ على رمزية الحسين ومعجم الطف الثري؛ من أجل تصدير فكرته الحاملة لقضايا.

والجواهري ليس ببعيد عن الثورة الحسينية، فهو ابن النجف الأشرف، وهو سليل عائلـة دينيـة عريقة مجتهدة في العلم والفقه، فحينما تقرأ سـيرته الذاتيـة تجد أنّ عائلته كانت تخطّط له لأن يكون رجل دين، فالمعروف أنّ والده ابتدأ حياته شـاعراً وانتهى فقيهاً، وقد سـعى جاهداً ليجعل من ابنه محمد مهدي رجلاً يسـير على سيرته ويجتهد اجتهـاده؛ ليرجع عـلى يده مجد العائلـة الجواهريـة في الفقه والزعامـة الاجتماعية[3]، ومـن أجل هـذا كان الأب يحرص على الابن في حضور الدروس، ويوصي أسـاتذته بالتعامل معه على هذا الأسـاس والواقع، أمّا الجواهري فقد كان يضيق صدراً بهذا، ويرى نفسه قد خُلق لشيءٍ آخر، فقد كانت الدوافع الشعرية الكامنة في خلقه وفطرته تتجاذبه شـيئاً فشـيئاً، لتحدّده وتشـخّصه وتصنعه في قالبه الحقيقي الذي يتطابق مع نفسـه، ومع ميوله، لا مع ما أُريد له، فلم تكن بداية الشـعر عنده إلّا استجابة لغريزة داخليـة تدفعه نحو الشـعر، وكان لـه ولعٌ رهيب بالشـعر، فهو منذ البدء لم يستسِـغ

(١) أُنظر: يوسف، علي حسين، حينما تتوهّج الكلمة (دراسات في الأدب الكربلائي المعاصر): ص٨٠.
(٢) أُنظر: علوان، علي عباس، تطوّر الشعر العربي الحديث في العراق: ص٨٤.
(٣) أُنظر: محبوبة، جعفر، ماضي النجف وحاضرها: ج٢، ص١١٢ـ١١٣، وص١٣٦.

من العلوم الفقهية والأُصول ما يؤهّله للسير في طريق العلم والفقاهة، وبقي الشعر هاجسه الأوّل الذي لا يستطيع تفويت أيّ فرصةٍ ليظفر به[1].

وكانت أنفاس الثورة الحسينية تجري في عروق الجواهري الشاعر وأحاسيسه، فهناك عاملان مهمّان أَسهما في تأصيل واهتمام الجواهري بالثورة الحسينية:

الأوّل: انتماؤه التراثي وإفادته من الموروث الديني والتاريخي؛ إذ كان هو البقية الباقية من التراث الأدبي العربي الصحيح على حدّ قول عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين[2].

والثاني: تمثّل في الظروف السياسية التي كان يمرّ بها العراق والأُمّة العربية جمعاء، من احتلال وتكريس للتجزئة وواقع اجتماعي واقتصادي سيئ؛ لذا فإنّ الجواهري منذ دخوله لمعترك الحياة السياسية، ومجيئه إلى بغداد، حاول التعبير عن صيحات المدّ الجماهيري المتصاعدة، وأن يكون عوناً لحركات النضال الوطني[3].

كان الجواهري يبحث في التراث عن قيم البطولة ورموز التحدّي والثورة، ورفض الواقع المتردّي، وقد وجد ضالّته في الإمام الحسين عليه السلام كرمزٍ تاريخيٍّ يُعبّر عن التغيير، والطموح لمستقبلٍ جديد، خالٍ من التسلّط والعبودية، وقد ألقى قصيدته العينية في عام (١٩٤٧م) في كربلاء، أثناء الحفل الذي أُقيم بمناسبة ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وقد كُتب خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة بماء الذهب على الباب الرئيس الذي يؤدّي إلى الرواق الحسيني[4].

وفي هذه الفترة السياسية كان العراق يعيش على فوهة بركان من الثورة المرتقبة ضد الأوضاع القائمة آنذاك، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت الجماهير تطالب بالحريات السياسية، وتحسين الأوضاع الاقتصادية، وتعديل المعاهدة العراقية

(١) أُنظر: بيضون، حيدر توفيق، محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الأكبر: ص٢٢.
(٢) أُنظر: جحا، ميشال خليل، الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش: ص٢٩٥.
(٣) أُنظر: علوان، علي عباس، تطوّر الشعر العربي الحديث في العراق: ص٢٥٧.
(٤) أُنظر: الجواهري، محمد مهدي، ديوان الجواهري: ج٤، هامش ص٤٩١.

البريطانيـة (١٩٣٠م)، وعليـه؛ فإنّ هذه القصيدة تعبّر عن حالة الاحتقان السـياسي آنذاك، وقد سـخّر الجواهري إمكانيته الشعرية في استلهام الثورة الحسينية، واتّخاذها رمزاً للتحرّر الفكري والعقائدي.

المبحث الأوّل: اللوحة الافتتاحية (الاستذكار)

(١)

فِـــداءٌ لَمـثـواكَ مِـن مَضْجَعِ ... تَـــنَـــوَّرَ بـالأبـلَـج الأروَعِ
بـأعـبـقَ مـن نَـفـحـاتِ الجِنا ... نِ رَوحـــاً ومـن مِسكِها أضـوع
ورَعـيـاً ليومِـكَ يـومِ الطُفـوف ... وسَقياً لأرضِـكَ مِن مَصْـرَع[1].

بـدأ الجواهري قصيدته باسـتهلال اسـتذكاري واضـح مرتبط بالمـاضي، إذ أدّى المـكان والزمـان دوراً مميّـزاً في إبراز عنصـر المأسـاة ـ اليوم المـكان (الطفوف) ـ وفي هـذا الابتـداء دخول مبـاشر إلى الموضوع من دون تمهيـد تقليدي. بـدأ المطلع بلفظة (الفـداء)، واللفظ إنّما يُشـير إلى قداسـة الشيء المُفتدى، ومن ثمّ تنثـال علينا الألفاظ المكانية للمفدّى وهي (المثوى، المضجع، الأرض).

وينسـاق الشـاعر في اسـتذكار المفدّى من خلال التذكير بيـوم (الطفوف)، وهذا اليـوم وإن كان محـدّداً بيوم الطفوف، إلّا أنّـه ممتدّ عبر الأزمنة، فلا يُحـدّد بمدّة زمنية ثابتة، والدعاء بالسـقيا، وهـو دعاء تقليدي متوارث، حيث يقف الشـاعر على القبر ويدعـو للقبر بالسـقيا؛ إذ كانـت العرب تحبّ نزول المطر على القـبر، وقد اختُلف في سـبب استسـقائهم لها، فقيل: ليكثر الخصب حولها؛ فيقصدها كلّ مَـن يمرّ بها دعاءً لها بالرحمة[2].

فهنا ارتباط عقائدي بمسألة القبر والسقي بالماء أو المطر النازل من السماء؛ إذ يكثر

(١) المصدر السابق: ج٤، ص٤٩١.
(٢) أُنظر: الجارم، محمد نعمان، أديان العرب في الجاهلية: ص٩٦.

الزرع حول القبر، ومن ثمّ يتوافد عليه الناس، وفي هذا إشارة وصورة جميلة حول ما يحدث حول قبر الإمام الحسين عليه السلام وتوافد الناس عليه، وطلب الرحمة والمغفرة من الله بمساعدة صاحب القبر.

(٢)

وحُزناً عليك بحَبْسِ النُّفوسِ ... على نهجِكَ النَّيِّرِ المَهْيَعِ
وصَوناً لمجدِكَ مِنْ أنْ يُذالَ ... بما أنت تأباهُ مِن مُبدعِ[1].

هنا انتقل الشاعر من الاستذكار إلى خطاب داخلي، وتحفيز للنفس، ودعوة للتمسّك بالمجد (الإرث الحسيني الثوري)، من خلال السير على خُطى النهج الحسيني النير، والاقتداء به، وفي ذهن الشاعر بدأت تدقّ أجراس الثورة (صوت المجد)، والتي لا يمكن إسكاتها؛ لأنّ الإبداع الحسيني يأبى الخنوع.

وفي استعمال الشاعر للفظة الإبداع ترميز خفي؛ فالبديع هو «**المُحدَث العجيب... والبديعُ من أبدعتُ الشيء: اخترعته لا على مثال**»[2]، والتجديد فيه إثارة وتحفيز للثورة والنهوض ضدّ الواقع القديم الفاسد، وبناء حاضر جديد يخالف الماضي، وذلك مستحصل بالسير على نهج الإمام عليه السلام، وعدم الخضوع والانكسار.

(٣)

فيا أيُّها الوِتْرُ في الخالِدينَ ... فذّاً إلى الآنَ لم يُشْفَعِ
ويا عِظَةَ الطامحينَ العِظامِ ... للاهينَ عن غَدِهِمْ قُنَّعِ
عاليتَ مِن مُفْزِعٍ للحتُوفِ ... وبُورك قبرُكَ مِن مَفْزَعِ
تلوذُ الدُّهورُ فمِنْ سُجَّدٍ ... على جانبيه ومِنْ رُكَّعِ[3].

(١) الجواهري، محمد مهدي، ديوان الجواهري: ج٤، ص١٩٤.
(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج٨، ص٦، مادة (بدع).
(٣) الجواهري، محمد مهدي، ديوان الجواهري: ج٤، ص٤٩١.

هنـا بدأ الجواهري بالتوجّه إلى خطـاب الإمام عليه السلام مباشرةً: «**فيا أيّها الوتر...**»، من خلال أُسلوب النداء و«**يا عِظة الطامحين...**».

ومـن معاني الوتر اللّغوية: الفردُ. و**الوِتْرُ** من العدد: ما ليس بشَـفْع[1]. وقد أُطلق على الإمام الحسـين عليه السلام؛ لأنّه بقيَ وحيداً فريداً في معركة الطف، فقد ورد في الزيارة: «**السلام عليك أيّها الوتر الموتور**»[2].

وهنا يكمن استلهام العبر في هذا الخطاب، فنَعتُ الإمام الحسين عليه السلام بهذا الوصف إنّما يعطينا درساً بليغاً في أنّ التفرّد وقلّة الناصر والمعين لا تعني الخنوع والاستسلام، فالإمام عليه السلام بالرغم من بقائه وحيداً، إلّا أنّه ظلّ صامداً ولم يخنع للطغاة؛ بدليل قوله: «**إلى الآن لم يشفعِ**»، أي: إنّ الإمام عليه السلام ما زال إلى الآن ينتظر منّا العون والنصـرة، وما زال الخطاب الاسـتنهاضي مستمرّاً، وقد جاء بأُسلوب التضادّ (الطامحين ـ اللاهين ـ القنـع)، فالطمـوح واللهو نقيضـان لا يجتمعان، كذلك الطمـوح والقناعة عنصران متنافران، وقد أراد الشـاعر من هذا التضاد شـحذ الهمم، وعدم الاستسـلام للواقع المزري.

ومـن ثمّ يخاطب الشـاعر الإمام عليه السلام واصفاً إيّاه بالعلـو، ولكنّه تعالٍ على الظالمين والطغـاة، وينعتـه بصيغة اسـم الفاعل (مُفـزِع)؛ لأنّ ذكره يُخيـف ويُرهب الظالمين، بـل تعـدّى الأمر حتى وصل إلى الحتوف، فحتى الحتـوف ـ أي: الموت ـ كذلك تهابه وتخافه، ومن الشواخص التي أضحت مفزعاً للظالمين قبر الإمام عليه السلام، فهذا الشاخص المـكاني فيه تذكـير للبطولة والإباء؛ ولذا يفزع الطغاة منه، فحاولوا بشـتّى الطرق أن يُخمـدوا نوره. وتأكيده على صيغـة (المفزع) من خلال التكرار في الصدر والعجز ينمّ عن شـغف واضح لدى الشـاعر في اسـتلهام المد الثوري من خلال الاستذكار، وقد

(١) أُنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج٥، ص٢٧٣، مادة (وتر).

(٢) النوري، ميرزا حسين، مستدرك الوسائل: ج١٠، ص٤١٣. وأُنظر: المجلسـي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٩٨، ص٢٢٣. البروجردي، حسين، جامع أحاديث الشيعة: ج١٢، ص٤١٨.

أضحى القبر مفزعاً وفي الوقت ذاته رمزاً للشموخ، فيأتيه المناصرون ويتبرّكون به سجوداً وركوعاً.

(٤)

شَممتُ ثراكَ فهبَّ النسيمُ ... نسيمُ الكرامةِ مِن بَلقعِ
وعفَّرتُ خدي بحيثُ استرا ... حَ خدٌّ تفرَّى ولمْ يَضرَعِ
وحيثُ سنابكُ خيلِ الطُغا ... ةِ جالتْ عليهِ ولم يَخشعِ
وخِلْتُ وقد طارتِ الذكرياتُ ... بروحي إلى عالمٍ أرفَعِ[1].

يعود هنا الشاعر لاستلهام الثورة الحسينية، فيتشبّث بعنصر المكان، ويرى أنّ في الأرض التي ضمّت القبر الشريف عطر الثورة المباركة، فراح الشاعر يشمّ الثرى ويستنشق عطر الدماء التي سالت عليه، وفي هذا التحديد المكاني دعوة لأهالي العراق وسكّانه بأن يكونوا على تواصل مع تلك الثورة؛ لأنّهم قد سكنوا هذه الأرض المباركة، وتنفّسوا عطر الحرية والكرامة.

تبلغ اللوحة الافتتاحية الذروة، حينما تبدأ الصور المختزلة في الذاكرة التاريخية للشاعر تتلاحق تباعاً من خلال العنصر المكاني (الواقعة)، فحينما يعفّر الشاعر خدّه بالتراب فإنّما يريد إعادة المشاهد والواقعة والصور التي حصلت، من خلال استدعاء صورة الخيل وهي تدوس على صدر الإمام عليه السلام، فقد ورد في الروايات أنّ عمر بن سعد نادى في أصحابه: «**مَن ينتدب للحسين فيوطئ الخيل ظهره وصدره. فانتدب منهم عشرة... فداسوا الحسين عليه السلام بحوافر خيلهم حتى رضّوا صدره وظهره. قال الراوي: وجاء هؤلاء العشرة حتى وقفوا على ابن زياد، فقال أسيد بن مالك أحد العشرة (عليهم لعائن الله):**

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر ... بكلّ يعبوبٍ شديد الأسر

(١) الجواهري، محمد مهدي، ديوان الجواهري: ج٤، ص٤٩١.

فقال ابن زياد: مَن أنتم؟ قالوا: نحن الذين وطئنا بخيولنا ظهر الحسين حتى طحنّا حناجر صدره. فأمر لهم بجائزة يسيرة»[1].

وهذه الصورة من أكثر الصور تفجيعاً وأكثرها إيلاماً، وهي في الوقت نفسه ترمز إلى الكبرياء والسمو، بدلاً من أن تكون رمزا للذلّة والمهانة، فالموروث الاجتماعي اعتاد على إذلال الخصم في المعركة إذا ما سقط أرضاً وداست عليه الخيل، لكن المفارقة هنا أنّ صورة الخيل وهي تدوس على صدر الإمام قد أخذت بُعداً جديداً في تصوير الأنفة والكبرياء، فالإمام برغم ما حدث له من قتلٍ وعدم اعتراف بحقّه لم يخنع للأعداء، ولم يخشَ منهم أيّ شيء، فهذه الصورة تدلّ على عدم خشوعه للأعداء، وتنازله عن الحقّ، وإن داست سنابك الخيل ظهره وصدره.

المبحث الثاني: لوحة الاستنهاض (المزواجة بين الماضي والحاضر)

بعد التهيئة العقائدية والفنية بدأ الشاعر مرحلة جديدة، هي المزواجة بين الماضي المتمثّل بالإرث الحسيني، وبين الواقع المرير الذي يعيشه مجتمعنا، وهذا الربط هدفه دفع المجتمع نحو النهوض والثورة.

(١)

وطُفْتُ بقبرِكَ طوفَ الخَيالِ ... بصومعةِ المُلْهِمِ المُبْدعِ
كأنَّ يداً من وراءِ الضريـ ... ـحِ حمراءَ مَبتُورَةَ الإِصْبَعِ
تُمَدُّ إلى عالمٍ بالخُنو ... ع والضيمِ ذي شَرقٍ مُتْرَعِ
تَخبَّطَ في غابةٍ أطبَقَت ... على مُذئبٍ منه أو مُسْبِعِ
لِتُبدِلَ منه جديبَ الضمير ... بآخَرَ مُعَشوشِبٍ مُمرِعِ
وتدفعَ هذي النفوسَ الصِغا ... رَ خوفاً إلى حَرَمٍ أمنَعِ[2].

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص٨٠. وأُنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٥٩. الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج١، ص٦١٢.
(٢) الجواهري، محمد مهدي، ديوان الجواهري: ج٤، ص٤٩١ـ٤٩٢.

وهنا يحدث الانتقال من الماضي إلى الحاضر، في صورة مجازية مركّبة من ذكريات الماضي ومجريات الواقع العراقي الأليم، فصورة الضريح وقد خرجت منها يد الإمام عليه السلام مبتورة الإصبع، تُشير إلى أنّ الحقّ ما زال مهتضماً؛ بدليل بتر الإصبع، وأنّ الإمام عليه السلام إلى الآن ينتظر إعادة الحقّ إلى أهله، والثأر من ظالميه من الطغاة والظلمة، فضلاً عن أنّ هذه اليد المبتورة قد مُدّت إلى عالم الخنوع، وعالم الخنوع هو الواقع المرير المليء بالذلّ والسكوت على الظلم، فالشاعر هنا زاوج بين أحداث الطف وما جرى فيها، وبين الحاضر وما يجري به.

وهذه الصورة الثأرية المؤجّجة بعبق الماضي تثير الألم والحسرة، وهي في الوقت نفسه تدعونا إلى الثورة ضدّ الطغاة والفاسدين، فهي ترمي إلى تحريك الضمائر الميتة، فهو يدعو أصحاب (النفوس الصغيرة) من المصلحيين الانتهازيين الخائفين إلى الثورة وعدم الاتكاء على الآخرين، وهنا نرى بوضوح نبرة الخطاب السياسي قد ارتفعت بشكل ملحوظ وهي تختفي وراء الحدث التاريخي.

(٢)

تعاليتَ مِن صاعِقٍ يلتظي ... فإنْ تَدْجُ داجيةٌ يَلمعِ
تأرّمُ حِقداً على الصاعقاتِ ... لم تُنْءِ ضَيراً ولم تَنْفَعِ
ولم تَبْذُرِ الحَبَّ إثرَ الهشيمِ ... وقد حرَّقَتَهُ ولمْ تَزرعِ
ولم تُخِل أبراجَها في السماءِ ... ولم تأتِ أرضاً ولم تُدْقِعِ
ولم تَقْطَعِ الشّرَّ مِن جِذْمِهِ ... وغِلَّ الضمائرِ لم تَنْزِعِ
ولم تَصْدِمِ الناسَ فيما هُمُ ... عليهِ من الخُلُقِ الأوضَعِ[1].

في هذا المقطع يتحوّل الشاعر بالخطاب إلى الإمام الحسين عليه السلام ومناجاته، والإشادة بالموروث الحسيني، فقد أصبح هذا الموروث كالصاعق الذي يُشعل الثورات ضدّ

(١) المصدر السابق: ص٤٩٢.

الطغاة، وهذه الصورة المستحدثة المعاصرة حاول فيها الشاعر إضفاء دلالة جديدة، وهي توحي من طرف خفي بمعادلة منطقية بين طرفين متناقضين، هما: (الظلم والثورة)، فحيثما كان هناك ظلم كانت هناك ثورة في المقابل، وهذا ما تحقّق في الجملة الشرطية: «**فإن تدجُ داجية يلمعِ**» فالدجى (الظلم)، يقابله الثورة (اللمعان)، وقد وظَّف الجواهري أُسلوب النفي وكرّره في عدّة أبيات لتحريك المشاعر: (لم تئن)، و (لم تنفعِ)، و(لم تبذر)، و(لم تزرعِ)، و(لم تخل)، و(لم تأتِ)، و(لم تدقعِ)، و(لم تقطعِ)، و(لم تنزعِ)، و(لم تصدم)، وهذا النفي يخرج إلى باب الإنكار والتحدّي والرفض.

(٣)

تعاليتَ من «فَلَكٍ» قُطْرهُ ... يدورُ على المِحوَرِ الأوسعِ

فيا بنَ «البتولِ» وحَسْبي بها ... ضَماناً على كلّ ما أدَّعي

ويا بنَ التي لم يَضَعْ مِثْلها ... كمِثلِكَ حَملاً ولم تُرْضِعِ

ويا بن البطينِ بلا بِطنةٍ ... ويا بن الفتى الحاسرِ الأنْزَعِ

ويا غُصْنَ «هاشِمَ» لم ينفَتحْ ... بأزهرَ منكَ ولم يُفْرِعِ[1].

يعود الشاعر في هذا المقطع إلى الخطاب المباشر للإمام عليه السلام، مكرّراً كلمة (تعاليت)، على الرغم من الدلالة السلبية المرتبطة بهذا اللفظ؛ ولكن هنا اكتسبت معنًى إيجابياً جديداً، وهو السمو والرفعة، بدليل تشبيهه للإمام الحسين عليه السلام بـ(فلكٍ) تدور حول قُطره الأكوان. وفي أُسلوب الخطاب هنا نجد تسلّلاً نسبياً وزمنياً في مناداة الإمام عليه السلام:

- يا بن البتول.
- يا بن البطين.
- يا بن الفتى الحاسر.
- يا غصن هاشم.

(١) المصدر السابق.

وهكذا تجد أنّ هذا الخطاب النسبي ابتدأه الشاعر بالزهراء عليها السلام، ثمّ الإمام علي عليه السلام.

والشاعر قد عمد إلى تقديم الزهراء عليها السلام على الإمام علي عليه السلام؛ للتأكيد على صلة القربى من الرسول صلى الله عليه وآله للإمام الحسين عليه السلام؛ باعتبار أنّ الزهراء أقرب إلى الرسول صلى الله عليه وآله من أبيه؛ ولورود أحاديث كثيرة رُويت عن محبّة النبي صلى الله عليه وآله للزهراء عليها السلام، كقوله صلى الله عليه وآله: **«يا سلمان، مَن أحبّ فاطمة ابنتي فهو في الجنة معي، ومَن أبغضها فهو في النار. يا سلمان، حُبّ فاطمة ينفع في مائة من المواطن، أيسر تلك المواطن: الموت، القبر، والميزان، والصراط، والحساب. فمَن رضيتْ عنه ابنتي فاطمة رضيتُ عنه، ومَن رضيتُ عنه رضي الله تعالى عنه، ومَن غضبت ابنتي فاطمة عليه غضبتُ عليه، ومَن غضبتُ عليه غضبَ الله عليه. يا سلمان، ويلٌ لَمن يظلمها ويظلم بعلها عليّاً، وويلٌ لَمن يظلم ذرّيتها وشيعتها»**[1].

وعلى الرغم من هذه المكانة العالية للإمام عليه السلام لم يقف مكتوف اليد ضدّ الظلم والطغيان، وفي هذا إشارة إلى المتلقّي بأن لا يقبل بالظلم، وأن ينتفض على السلبيات، فهذا الرمز على ما فيه من سمو ورفعة لم يرتضِ الظلم، فكيف بمَن هو دونه؟!

وفي خطابه للإمام الحسين عليه السلام فإنّه يستلهم من موروثه الديني، ويلبسه ثوباً فنّياً، ففي خطابه: **«يا بن البطين بلا بطنةٍ»**، تأكيدٌ لصفة تعارف الناس عليها؛ ولكن بنفي الدلالة السلبية لهذه الصفة، مؤكّداً على بطلان أقاويل المغرضين لإطلاق هذا النعت، فمن الكُنى التي عُرفت عن أمير المؤمنين عليه السلام: الأنزع البطين، و الأنزع لغةً: **«يُوصف بها مَن انحسر الشعر عن جانبي جبهته، أي: لم يكن على جانبي جبهته شعر، فلكلِّ إنسان نزعتان وناصية، فالناصية هي الشعر الذي يكون في مقدّم الرأس محاذياً للجبهة التي تتوسّط الجبينين، والنزعتان هما الموضعان اللذان يكونان عن يمين الناصية وشمالها**

(١) القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودة لذوي القربى: ج٢، ص٣٣٢. وأُنظر: البحراني، هاشم، غاية المرام: ج١، ص٧ـ٧٢.

في مقدّم الرأس، فمَن لم يكن على نزعتيه شعر يُقال له: الأنزع. ويُقابله: الأغم، وهو مَن كان الشعر بالغاً حدّ جبينه»[1].

وأمّا كلمة البطين فتُطلق على أكثر من معنى، فمن موارد إطلاقها ما أفاده ابن منظور في لسان العرب: أنّه وصفٌ للرجل العريض البطن، وإن لم يكن منتفخ البطن[2].

وبهذا فالمفسّرون قد فسّروا هذه الكنية (الأنزع البطين) على ظاهرها اللغوي، ولم ينظروا إلى ظاهرها الباطني، وهي: أنّ الأنزع (كناية عن امتناع الشرك فيه)، والبطين (كناية عن كثرة العلم والإيمان واليقين)، لا ضخامة البطن، والدليل على ذلك روايات كثيرة:

منها: ما رواه ابن المغازلي الشافعي في المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا علي، إنّ الله قد غفر لك ولأهلك ولشيعتك ولمحبّي شيعتك، فأبشر فإنّك الأنزع البطين، المنزوع من الشرك البطين من العلم**»[3]. وهذا التفسير ينسجم مع زهد الإمام عليه السلام وأقواله، حيث يقول: «**ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة ـ ولعلّ بالحجاز أو باليمامة مَن لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع ـ أو أبيت مِبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكبادٌ حرّى**»[4].

فالذي هذه صفاته من أين تأتي له البطنة؟!

ثمّ يسترسل الشاعر في خطابه النسبي، ذاكراً صورةً مجازية في التعريف بنسبه «**يا**

---

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين: ج١، ص٣٩٥. وأُنظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج٥، ص٤١٥.

(٢) أُنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١٣، ص٥٢ـ٥٥، مادة (بطن).

(٣) ابن المغازلي، علي بن محمد، مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام: ص٤٠٠. وأُنظر: الجويني، إبراهيم بن محمد، فرائد السمطين: ج١، ص٣٠٨. الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٥٢. زيد بن علي، مسند زيد: ص٤٥٦، وغيرها.

(٤) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج١٦، ص٢٨٧.

غصن هاشم...»، وهنا الخطاب تحوّل من خصوص القرابة من (الرسول) إلى العموم (بني هاشم)، وفيه دلالة على الكرم الذي تواجد في هذا البيت، والرئاسة التي كانت فيه، فالإمام عليه السلام فضلاً عن كونه ابن فاطمة الزهراء عليها السلام، وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وحفيد الرسول صلى الله عليه وآله، فهو من بيت عزٍّ وفخرٍ، لينتقل الخطاب إلى المرحلة الأخيرة مرحلة الإيمان واليقين.

المبحث الثالث: لوحة الختام (الإيمان واليقين)

(١)

ويا واصِلاً مِن نشيدِ الخُلود ... خِتامَ القصيدةِ بالمطلعِ
وأنتَ تُسيِّرُ ركْبَ الخلو ... دَ ما تستَجِدّ له يَتْبَعِ
تَمَثَّلتُ «يَومكَ» في خاطري ... وردَّدت صوتَكِ في مَسمعي
ومَحَّصتُ أمرَكَ لم أرتَهِبْ ... بنقلِ «الرُّواة» ولم أُخدَعِ
وقلتُ لعلَّ دويَّ السنين ... بأصداءِ حادِثِكَ المُفْجِعِ
وما رتَّلَ المخلِصونَ الدُّعا ... ةُ مِن مرسِلينَ ومن سُجَّعِ
ومِنْ ناثراتٍ عليكَ المساءَ ... والصُبْحَ بالشَّعْرِ والأدمُعِ[1].

ما زال الشاعر مستمرّاً في خطابه الثوري المؤجّج، متسمدّاً النفس الثوري الحسيني، وهو يرى أنّ الثورة الحسينية ما زالت إلى يومنا هذا تُسيّر ركاب الثائرين، وتقود مسيرة الخالدين، من خلال استعمال الزمن: (اليوم، السنين، المساء، الصبح)، وفي هذه الأبيات تحوّلت أداة الخطاب من حرف النداء (الياء)، إلى ضمير المتكلم (التاء)؛ للتّأكيد على أهمّية الحدث مهما مرّ عليه من زمن، ومن ثمّ يدخل الشاعر مرحلة جديدة في الحوار الداخلي مع الذات والنفس، لإقناعها بالحقيقة الثابتة التي لا تقبل الشك.

(١) الجواهري، محمد مهدي، ديوان الجواهري: ج٤، ص٤٩٢.

وفي هذا الموضع فإنّ الشاعر يدخل في صراع نفسي حاد من أجل إثبات مشروعية الثورة الحسينية ؛ لأنّ هذه الثورة تعرّضت للتشويه التاريخي والزيف الإعلامي السياسي الموجّه فيقول:

(٢)

لعلَّ السياسةَ فيما جَنَتْ ... على لاصِقٍ بكَ أو مُدَّعي
وتشريدَها كلَّ مَنْ يدَّلي ... بحبلٍ لأهليكَ أو مَقطعِ
لعلَّ لِذاكَ و«كونِ» الشَّجيِّ ... وَلُوعاً بكلِّ شَجٍ مُولعِ
يَداً في اصطباغِ حديثِ ... الحُسين بلونٍ أُريدَ لهُ ممتعِ
وكانتْ ولَمَّا تَزَلْ بَرْزَةً ... يدُ الواثقِ المُلْجَأ الألمعي
صَناعاً متى ما تُرِدْ خُطَّةً ... وكيفَ ومهما تُرِدْ تَصنعِ[1].

وهنا الشاعر يتّهم السياسة ورجالها بصورة مباشرة في خداع الناس وتضليلهم، وتشويه أسباب وأهداف الثورة الحسينية بحسب ميولهم؛ ولكنّه يتّهم أيضاً بعض الجهات من المحسوبين على أهل البيت ـ شكلاً لا مضموناً ـ بأنّ لهم دوراً في تشويه حقيقة الثورة الحسينية؛ خدمةً لمصالحهم الشخصية، فهناك اتّجاهان لهما دور في تحريف تلك الثورة: المبغضون لها من السياسين على مدى العصور والدهور. والطرف الآخر من الجهلة المنتفعين.

لكن مع ذلك يبقى اتّجاه قوي مخلص يسعى نحو الحقيقة فحسب لا غير، والذي عبّر عنه بـ(يد الواثق)، فاليد تُعطي دلالات عديدة، منها: العطاء والعمل. زِد على ذلك فإنّ الشاعر قد استعملها للدلالة على التغيير، فكلّ شيء تحاول تغييره تكون اليد وسيلة له، وليست أيّ يد، بل هي يد الواثق بالتغيير، المضحّي لأجل الدين، فهذه الكناية أُريد منها الطرف الملتزم بالثورة الحسينية السائر على منهاجها، وهذه اليد

(١) المصدر السابق: ج٤، ص٤٩٢ـ٤٩٣.

(ماهـرة)؛ لذا أطلق عليهـا الجواهري (صناعاً)، وهذه اللفظـة تُطلق على كلّ «**رجلٍ ماهر أو امرأةٍ ماهرة في العمل باليدين**»[1]، وهي كناية عن المخلصين للثورة الحسينية.

(٣)

ولَّـا أزَحْـتُ طِـلاءَ الـقُـرونِ ... وسِـتْرَ الخِـداع عـنِ المـخْـدعِ
أُريـدُ الحـقـيـقـةَ في ذاتِهـا ... بـغـيرِ الـطـبـيـعـة لم تُـطْـبَـعِ
وجـدتـكَ في صُـورةٍ لم أُرَعْ ... بـأعـظـمَ مـنـهـا ولا أرْوَعِ
ومـاذا أأروعُ مِـنْ أن يكو ... نَ لحـمُـكَ وَقْـفـاً عـلى المِـبْـضَـعِ
وأنْ تَتَّقي دُون مـا ترتأي ... ضـمـيـرَكَ بـالأسَـلِ الـشُـرَّعِ
وإنْ تُطْعِم الموتَ خيرَ البنينَ ... مِـنَ الأكـهـلـينَ إلى الـرُّضَّـع
وخـيرَ بني الأُمِّ مِـن هاشمٍ ... وخـيرَ بـنـي الأب مِـن تُـبَّـعِ
وخيرَ الصِّحاب بخيرِ الصدو ... رِ كـانـوا وِقـاءكَ والأذْرعِ[2].

والشـاعر هنا يعود مرّةً أُخرى إلى الاستذكار، وإلى إطلالة جديدة مستوحاة من موقع الحدث الدامي، والزمن الذي توقّفت عنده الأشياء، فيستدرك زيف المؤرِّخين عـلى مـرّ القرون الذي شـبّهه بالطـلاء، وكلّ طلاء لا بـدّ من أن يتقـادم عليه الزمن، فينقشـع ويظهـر ما يخفيه، ويخـرج كلّ مستور تمّ طلاؤه بأقـلام المزيّفـين للحقيقة، كاشـفاً لها من غير إضافة ولا تشـويه فيها، فهو يريد الحقيقة فحسـب، وهنا الشـاعر يبـدو باحثـاً عـن الحقيقـة، وهـذه الحقيقـة قد وجدهـا في عمـق التضحية الحسـينية الرائعة، وقد ذهب الشـاعر يرسـم لنا صوراً متلاحقة من التشـبيهات والاستعارات لتلك التضحية، فجسـدٌ (تقطّعت أوصاله حتى أصبـح وقفاً على المبضع)، ففي هذه

(١) الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: ج٢، ص١٢٤٦. وأُنظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج٣، ص٣١٣.

(٢) الجواهري، محمد مهدي، ديوان الجواهري: ج٤، ص٣٩٣.

الصورة الاستعارية تشمّ رائحة المأساة المفجعة، وعمق المصيبة المزرية، ويُلحقها بصورة استعارية أُخرى أشدّ حزناً، وهي إطعام بنيه وأهله للموت «**تُطْعِم الموتَ خيرَ البنينَ مِنَ الأكهلينَ إلى الرُّضَّع**»، وهذا الامتداد في التضحية من الكهول إلى الرضّع ـ وهما أكثر أصناف البشر حاجة للرعاية والحنان ـ يصوّر عمق المأساة، لكن مع ذلك لم يكونا بمنأى عن التضحية، وهؤلاء الذين أصبحوا طعاماً للموت لو عدنا إلى أعماق التاريخ لوجدناهم الصفوة؛ لذلك أشاد الشاعر بنسب الإمام عليه السلام وأهله الذين ضحّى بهم من أبناء فاطمة الزهراء عليها السلام، ممَّن يرجع نسبه إلى بني هاشم وإخوته من أبيه ممَّن يرجع نسبهم إلى قريش، موغلاً في أنسابهم التي تعود إلى ملوك اليمن (التبابعة)[1].

وفي نهاية هذا المقطع يصوّر لنا الجواهري دفاع واستماتة أصحاب الإمام عليه السلام عنه، مشبّهاً إيّاهم بالدرع (الوقاء) في صدّ الأعداء عنه، وبالذراع التي يصول بها في الحرب.

(٤)

تَقَحمْتَ صدري وريبُ الشكوكِ ... يَضِجُّ بجدرانِه الأرْبَعِ
ورانَ سَحابٌ صَفيقُ الحجاب ... عليَّ من القَلَقِ المُفزِعِ
وهبَّتْ رياحٌ من الطيّبات ... والطيبينَ ولم يُقْشَعِ
إذا ما تزحزحَ عن مَوضعٍ ... تأبَّى وعادَ إلى مَوضعِ
وجازَ بيَ الشكُّ فيما معَ الجدو ... دِ إلى الشكِّ فيما معي
إلى أن أقمتُ عليه الدليلَ ... من مَبدَأ بدمٍ مُشْبَعِ
فأسلَمَ طَوعاً إليكِ القِياد ... وأعطاكَ إذعانَهَا المُهْطِعِ

(١) التبابعة: هم ملوك حمير من ذرّية قحطان. وقِيل: إنّ هذه السمة لم يستحقّها منهم إلّا مَن ملك اليمن وحضرموت، واجتمعت له طاعتهم. وإنّ التُّبع في أصل اللغة: الظل؛ إذ كان الملوك ظلاً لرعيتهم. اُنظر: المسعودي، علي بن الحسين، التنبيه والإشراف: ص١٥٧.

فـنَـوَّرْتَ ما اظْـلَـمَّ مِـن فِكرتي ... وقـوَّمـتَ ما اعـوجَّ مِـن أضلُعي
وآمـنـتُ إيـمـانَ مَـن لا يَـرى ... سِوى العقل في الشكِّ مِن مَرْجعِ
بـأن (الإبـاء) ووحـيَ السماء ... وفـيـضَ الـنـبـوَّةِ مِـن مَـنْـبـعِ
تجـمَّـع في (جـوهـرٍ) خـالـصٍ ... تَـنَّـزهَ عن (عَـرَضِ) المَـطْـمَـعِ[1].

في هذا المقطع الأخير من القصيدة اتّبع الشاعر أُسلوباً جدلياً منطقياً في خطاب المتلقّي؛ لإقناعه بحقيقة الثورة الحسينية وأهدافها، فقد ارتفع صوت الرفض عند الجواهري ليلتقي مع الفلسفات التي اعتمدت الشك منهجاً[2]، فكان المنهج الديكارتي الشكّي وسيلته، والشكّ هو الخطوة نحو الإيمان بالشيء والتسليم به، ولكنّه ليس بالشكّ الإنكاري، بل هو شكٌّ إيجابي، غايته الوصول إلى الحقيقة والمعرفة، فبدأ متسائلاً في داخله قلقاً: «**تَقَحمتَ صدري وريبُ الشكوكِ**»، وهذه الشكوك كانت تُزعج الشاعر إلّا إذا قام الدليل عنده، وهذا الدليل الدم المسفوح: «**إلى أن أقمتُ عليه الدليلَ من مَبدأ بدمٍ مُشْبَع**»، فهل هناك دليل أوضح من التضحية؟! فاستقرّت نفس الشاعر، وآمن قلبه، وتيقّن عقله، وآمن بالحسين منهجاً وفكراً وسلوكاً، وكان العقل دليله، حتى تحوّل إلى معتزلي لا يؤمن إلّا بسطوة العقل، ومضى الشاعر متأثّراً بثقافته التراثية الفكرية، متّخذاً من ألفاظ المعتزلة (الجوهر) و(العرض) طريقاً للإيمان.

الخاتمة

وفي نهاية المطاف توصّلنا إلى جملةٍ من النتائج، منها:

١ ـ ظهر بشكلٍ جليّ تأثّر الجواهري بأفكار الثورة الحسينية؛ من خلال دعوته للثورة ضدّ الظلم والطغيان، والتضحية بكلّ شيء في سبيل العقيدة وتحقيق الحق.

(١) الجواهري، محمد مهدي، ديوان الجواهري: ج٤، ص٤٩٣.
(٢) أُنظر: سويلم، أحمد، الشعراء والسلطة: ص٦٥.

٢ ـ وردت في القصيدة ألفاظ كثيرة لها ارتباط وثيق بالثورة الحسينية، كالثورة على الظلم، وعدم السكوت على الظالم، وكان يقتنص الصور المؤلمة ويوظّفها بصورة إيجابية في عرض الأحداث التاريخية، وأخذ الجانب النير منها لتحقيق ما يبتغيه الشاعر.

٣ ـ وردت في قصيدة الجواهري أساليب عديدة، ولعلّ من أهمّها الخطاب الداخلي (المنولوج)، والخطاب الخارجي، وقد تنوع هذا الخطاب ما بين سياسي وتاريخي.

٤ ـ إنّ الشاعر قد اختار قافية العين، وهي قافية تعبّر عن الوجع والتفجّع، والحسرة والألم والأسى، فكان موفّقاً في هذه القافية؛ لارتباطها الصميميّ بموضوع القصيدة.

٥ ـ اعتمد الشاعر على الحوار والجدل، وقد صاغ هذا الحوار بأُسلوب ملحمي ونَفَس قصصي مترابط.

٦ ـ ظهرت ثقافة الشاعر الدينية والتاريخية بشكلٍ بارز على مستوى الألفاظ والمعاني، كما بدت معرفته واطّلاعه على المذاهب الدينية والفِرق الإسلامية من خلال طرحه لأفكارها.

٧ ـ مزج الشاعر بين الماضي والحاضر بشكلٍ لافت للنظر، واعتمد الحقائق التاريخية في الوصل بين الماضي والواقع.

٨ ـ كان خطاب الشاعر نحو المتلقّي ينمّ عن تفهّم لطبيعة المخاطب، وقد تجاوز خطابه التّمذهب الديني والسياسي.

٩ ـ شكّلت القصيدة وحدة موضوعية متناسقة ومترابطة الأجزاء ومتسلسلة الأفكار.

١٠ ـ إذا ما تأمّلنا شعر الجواهري فسنجد فيه تمثيلاً حقيقياً لصدق التجربة الشعرية، والأمانة في نقل الموروث والإفادة منه.

فهرست المصادر

١ ـ أديان العرب في الجاهلية، محمد نعمان الجارم، مطبعة السعادة، ط١، ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م، مصر.

٢ ـ أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

٣ ـ الإمام الحسين بن علي في الشعر العراقي الحديث (دراسة موضوعية فنية)، د. علي حسين يوسف، إصدار وحدة الدراسات التخصّصية في الإمام الحسين عليه السلام، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدّسة، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، كربلاء، ـ العراق.

٤ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، محمد باقر المجلسي، مؤسّسة الوفاء، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، بيروت ـ لبنان.

٥ ـ تطوّر الشعر العربي الحديث في العراق، علي عباس علوان، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٥م، بغداد، الجمهورية العراقية.

٦ ـ التنبيه والإشراف، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٦هـ)، دار صعب، بيروت ـ لبنان.

٧ ـ جامع أحاديث الشيعة، الحاج آقا الحسين الطباطبائي البروجردي، طُبع في المطبعة العلمية، ١٣٩٩هـ. ق، قم ـ إيران.

٨ ـ حينما تتوهّج الكلمة دراسات في الأدب الكربلائي المعاصر، د. علي حسين يوسف، دار ومطبعة الروسم، بغداد ـ العراق.

٩ ـ ديوان الجواهري، محمد مهدي الجواهري، الأعمال الكاملة، دار الحرية للطباعة والنشر، ط٢، ٢٠٠٨م، بغداد.

١٠ ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ط٢، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، قم ـ إيران.
١١ ـ الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي الى محمود درويش، ميشال خليل جحا، دار العودة، ط١، ١٩٩٩م، بيروت.
١٢ ـ الشعراء والسلطة، أحمد سويلم، مطابع الشروق، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، القاهرة.
١٣ ـ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق وضبط: شهاب الدين أبو عمرو، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، بيروت ـ لبنان.
١٤ ـ عيون أخبار الرضا، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، صحّحه وقدّم له وعلّق عليه: الشيخ حسن الأعلمي، طبع على مطابع مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.
١٥ ـ غاية المرام وحجّة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاصّ والعام، السيد هاشم البحراني الموسوي، تحقيق السيد علي عاشور.
١٦ ـ فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمّة من ذريتهم عليهم السلام، شيخ الإسلام المحدث الكبير إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن عبد الله بن علي بن محمد الجويني الخراساني (ت٧٢٢هـ)، حقّقه ونشره: محمد باقر المحمودي، مطبعة مؤسّسة المحمودي للطباعة والنشر، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
١٧ ـ كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م، بغداد.
١٨ ـ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت٧١١هـ)، اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي.

١٩ ـ اللهوف على قتلى الطفوف (مقتل الإمام الحسين عليه السلام)، علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسيني (ت٦٦٤هـ)، منشورات الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

٢٠ ـ ماضي النجف وحاضرها، الشيخ جعفر باقر آل محبوبة، دار الأضواء، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان.

٢١ ـ محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الأكبر، حيدر توفيق بيضون، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م، بيروت.

٢٢ ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الميرزا حسن النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٢٣ ـ مسند الإمام زيد، الإمام الشهيد زيد بن علي بن الحسين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ـ لبنان.

٢٤ ـ معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، عبد السلام محمد هارون، ط٢، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٢٥ ـ مناقب أمير المؤمنين عليه السلام، علي بن محمد بن محمد بن الطيب الشهير بابن المغازلي (ت٤٨٣هـ)، تحقيق وتعليق: محمد باقر البهبودي، الناشر دار الأضواء، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، بيروت ـ لبنان.

٢٦ ـ ينابيع المودة لذوي القربى، الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت١٢٩٤هـ)، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، مطبعة الأُسوة، ط١، ١٤١٦هـ.

السمو الإنساني في الشعر الحسيني عند شعراء القرن الرابع الهجري

أ. م. د. سناء هادي عباس*

تقديم

السمو في لسان العرب من السما، و«**السمو: الارتفاع والعلو، تقول: منه سموت وسميت مثل علوت وعليت.. وعن ثعلب: سما الشيء يسمو سمواً، فهو سامٍ، ارتفع... ويقال للحسيب والشريف: قد سما**»(١).

ولم يظهر تعريف لمصطلح الإنساني أو الإنسانية في الثقافة العربية، وقد استعملها أحد علماء التربية الألمان، وكان يقصد بها: «**نظام تربوي تعليمي يهدف إلى تكوين الناشئة عن طريق الثقافة والآداب**»(٢)، والإنسانية في الموسوعات الفلسفية: «**اتجاه فكري يركز على قيمة الإنسان وكفاءته، يشترك فيه العديد من المذاهب الفلسفية والأدبية والأخلاقية والعلمية**»(٣)، وتؤكّد العلوم الاجتماعية على الطبيعة البشرية لمعنى الإنسان خلاف اللاإنسانية(٤).

«**ومن خلال المفاهيم التي وردت أعلاه للسمو وللإنسانية، ممكن أن نصل إلى أنّ مفهوم السمو الإنساني هو قابلية الإنسان للكمال الروحي والتربوي، من خلال الوعي**

---

* الجامعة المستنصرية/ كليّة التربية الأساسية.

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١٤، ص٣٩٧، مادة (سما).

(٢) النزعة الإنسانية في الآداب الأوربية، ترجمة نبيل الحفار: ص٢٠.

(٣) الداوي، عبد الرزاق، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر: ص١٧٩.

(٤) أُنظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة: ص١١٤.

الفـردي، وإمكان حـدوث التقدّم المسـتمر»[1]، **«وفي الوقـت ذاته يُعنى بأهمية الإنسـان في الكـون، وتحـرّره مـن الأغـلال والعبودية بـكلّ صورها الماديـة، ويرفع شـعار الحرية والإخـاء، والمسـاواة والعدل، ورفض الانحطاط البشري، وتشـديد على قيمة الإنسـان الفكرية والخلقية»**[2].

فالسمو الإنساني رؤية متعدّدة الجوانب، مركزها الإنسان، وإطلاق جميع إمكاناته وقدراته الإيجابية الفكرية، والتربوية والأخلاقية، والقيمية والروحية.

ولما كان الشـعر الحسـيني يتحدّث عن قضية الحسـين عليه السلام الخالدة، المفعمة بالقيم الأخلاقيـة والتربويـة والدينية، وصيحـة تدعو للنهـوض بالأُمّة، وإحيـاء ضميرها الإنساني، والحفاظ على المبادئ الإنسانية السامية التي تدعوها للتوجه إلى الله خالقها توجهـاً صادقـاً، خاليـاً من غـرور الدنيا، ومتاع الحيـاة ولهوها وزبرجهـا وزخرفها، عزمت على بحث السمو الإنساني الذي يشيد بالقيم الأخلاقية التي تسمو بالإنسان في الشـعر الحسـيني، ووجدت أنّ شعراء الأدب الحسيني في القرن الرابع الهجري قد سـمت أنفسـهم، وهم يحاولون إبراز أهداف الثورة الحسـينية، ونشر مظلومية سـيّد الشهداء وأهل بيته عليهم السلام، فلم يقف البحث على الكشف عن جوانب السمو الإنساني في الشعر الحسيني، بل تعدّاه إلى سمو أصحابه، وإلى دعوتهم إلى التمسك بالأهداف السامية والنبيلة لأهل البيت عليهم السلام.

وكان معظـم شـعراء الأدب الحسـيني في القـرن الرابـع الهجـري مـن الشـعراء المغمورين، ممّن لم تعرفهم السـلطات والوزراء والأُمراء آنذاك، ولهذا ظلوا في الظلّ؛ لأن الأدب يكتبه الخلفاء، وهؤلاء لا يُخلّدون إلّا الذين يمدحونهم.

اسـتوعب الشـعر الحسيني المعاني الإنسانية السـامية التي ترقى بالإنسان إلى أعلى درجات السـمو الإنسـاني، ولا سـيّما التضحية بالنفس، وأغلى ما جاد به إنسـان هو نفسه التي بين جنبيه.

---

(١) *Studies in Humanism By. F.c.s .Schiller. Macmillan. London 19122nd*.

(٢) الداوي، عبد الرزاق، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر: ص١٨٩.

الحق والعدل

وهذا الشاعر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ)[١]، له قصيدة غرّاء يمدح فيها أهل بيت النبوة كوكباً فكوكباً، ويصف السمو الإنساني عند أهل البيت عليهم السلام، ومن أهمّ السمات التي أشار إليها اتصافهم بالحق والعدل والإنصاف، ومن جهة ثانية يوازن بين الحق الذي هم عليه، وبين باطل الذين زاغت أعينهم عن رؤية الحق، فظلّوا معاندين، قال ابن دريد:

يا صاح ما أبصرت من عجب ... بالحق زاغت عنه عُنَّده

أَإلى الضلال تحيد عن نهج ... يهدي إلى الجنات مرشده

إن البرية خيرها نسباً ... إن عُدّ أكرمه وأمجده

نسب محمّده معظمّه ... وكفاك تعظيماً محمّده[٢].

يتعجب الشاعر من المعاندين، وممّن زاغت أبصارهم وبصائرهم؛ لأنّهم حائدون عن الهدى إلى الضلال، والمرشد الهادي خير البرية محمد صلى الله عليه وآله بين أظهرهم، أو أنّهم كانوا قريبين عهد به، ويأخذ ابن دريد بتعداد الأدلة والبراهين؛ ليقطع حجج المعاندين، فيبدأ بما يقنع هؤلاء من الحجج، فيقدم الأُمور الدنيوية؛ لأنّ المخاطب خصم، حاججه بما يؤمن به ويعتقده، فاختار قضية النسب، لشدّة اهتمام العرب به، وإيثاره على كلّ القضايا الاجتماعية الأُخرى، فإن كان الخصم يحتجّ على الرسول بأنّه اختير للنبوة وهو يتيم، فإنّ نسبه صلى الله عليه وآله من خيرة أنساب قريش، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وهم من كرام

(١) هو ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، شاعر من القرن الرابع الهجري، وُلد بالبصرة، وهو عالم فاضل أديب ونحوي ولغوي، له مؤلفات كثيرة، منها: جمهرة اللغة، وكتاب الخيل الكبير، وكتاب الاشتقاق، من تلامذته أبو حاتم السجستاني.

(٢) شبر، جواد، أدب الطف: ج٢، ص١١. ولم أجد القصيدة في ديوانه.

رجال مكة[1]، والرسول الكريم صلى الله عليه وآله هو خير البرية، وقد وصفه الله (جلّ شأنه) في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3]، فالرسول صلى الله عليه وآله هو الرحمة المهداة للعالمين إنسهم وجنّهم، وهل يوجد في البرية مَن هو أكثر سمواً من رسول الله وخاتم الأنبياء؟ لم يختلف في خلقه ومصداقيته المشركون فضلاً عن المسلمين، فقد كان يلقّب بالصادق الأمين ولما ينزل عليه الوحي بعد.

الفداء والدفاع عن الإسلام

ثمّ يتلو ذكر الرسول صلى الله عليه وآله ذكر ابن عمّه وأخيه علي بن أبي طالب عليه السلام، ولم يرقَ إلى سموه بشر خلا رسول الله صلى الله عليه وآله، ذلك البطل الصنديد، المؤمن صاحب اليقين الكبير؛ إذ بات في فراش الرسول صلى الله عليه وآله، وهو يعلم أنّ القوم عازمون على قتله في فراشه، قال ابن دريد واصفاً هذا السمو الكبير:

وأخو النبي فريد محتده	لم يُكبه في القدح مُصلده
حلَّ العلاء به على شرف	يتكأد الراقين مَصعده
أو ليس خامس مَن تضمنّه	عن أمر روح القدس برجده
أو لم يبت أبو حسن	والمشركون هناك رُصّده
متلفّفاً ليردّ كيدهم	ومهاد خير الناس مَهده
فوقى النبي ببذل مهجته	وبأعين الكفار منجده
وهو الذي اتّبع الهدى يفعاً	لم يستمله عن التقى دده[4].

فمَنْ مِنَ البشر لديه هذه الشجاعة السامية، افتدى رسول الله ودين الله بروحه

(١) أُنظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج١، ص٩٨.
(٢) القلم: آية٤.
(٣) الأنبياء: آية١٠٧.
(٤) شبر، جواد، أدب الطف: ج٢، ص١١ـ١٢.

ونفسه، وكان فتىً يافعاً، أقرانه يعشقون الحياة، ويغرمون بغرورها، محاولين استمالته وردّه عـن دينه، أمّا عليعليه السلام فنفسـه تمانع الملذّات والدنيـا الدنية، فأصبح فريد عصره بشـجاعة، سـما فيها على كلّ دنيّة ورذيلة، فاستحق العلى بشـجاعة لا نضير لها، بات في فـراش الرسـولصلى الله عليه وآله، وهو يعلم أنّ القوم عازمون عـلى قتله وعلى الغدر به، رضي أن يكـون البديـل للقتلة، فـداءً لمهجة النبيصلى الله عليه وآله غـير خائف ولا آبه، مـراده التقوى، ومقصده الوحيد الدفاع عن الإسلام ونبيّه.

«**إنّ الشـجاعة من السمو الإنسـاني، فهي الاستعداد لمواجهة المصائب التي لا مهرب منها إلّا برباطة الجأش**»[1]، «**وهي من أهم الصفات الإنسانية؛ لأنها تضمن باقي صفات الإنسان**»[2]، وهي دليل التقوى الصادقة، ونفهم ذلك من الصفة المضادّة لها (الجبن)، فالجبـن صفـة دالة على الخذلان والغي والمهانة، وعلى الباطل، والشـجاعة لا تتحقق إلّا عندما يكون الإنسـان على حق، فهذا عليعليه السلام لا يشـبهه أحد في شجاعته، قال ابن دريد:

خـــوّاض غمرة كـلّ معترك ... سيّان أليسـه ورعـــدده[3]
فسقى الوليد بكأس منصله ... كـأساً تـؤهله وتـصخـده[4]
فهـوى يمـج نجيع حشـرته ... والمـوت يلفتـه ويقصـــده[5].

استخدم الشاعر صيغة المبالغة (خوّاض) دلالة على أنّه لم يدع معتركاً إلّا خاضه، لم يتسـلل الخوف إلى قلبه، وهو يخوض كلّ المعارك شـديدها وخفيفها، لا يهاب شيئاً غير الله، ذلك السمو الإنساني الذي يعطي للحياة معنى، وللوجود قيمته، وهو قتّال

(١) الماوردي، علي بن محمد، الأمثال والحكم: ص٣٥.
(٢) المصدر السابق: ص٣٤.
(٣) الأليس: «وهو الشجاع الذي لا يُبالي الحرْبَ ولا يَرُوعُه». ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج٦، ص٢١١.
(٤) الصخد: شدّة الحر. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج٣، ص٢٤٤.
(٥) شبر، جواد، أدب الطف: ج٢، ص٢١.

أبطال العرب العصاة واحداً تلو آخر، الوليد، وعمرو بن عبد ود، وأبطال أُحد، وقد وافته كلّ تلك الشجاعة من إيمانه العالي بربّه وثقته بخالقه، أنّه لا يخذله وهو على الحق المبين، ذلك هو السمو الإنساني الراقي، مزيج من الإيمان والثقة والتوكّل والشجاعة:

وسما بأُحد والقنا قصد ... كالليث أمكنه تصيّده
فأباد أصحاب اللواء فلم ... يترك له كفّا تُسنّده
ثمّ ابن عبد ودّ يوم أورده ... شر يذوق الموت وُرّده
جزع المداد فذاده بطل ... لله مرضاه ومعتده
وحصون خيبر إذ أطاف بها ... لم يثنه عن ذاك صُدّده[1].

نعم لم يكن علي عليه السلام مُعتدّاً بنفسه وشجاعته حينما أقبل على قتل فارس العرب ابن عبد ودّ، ولو كان كذلك لم يسمُ ذلك السمو الذي نال به الولاء من الله ورسوله والناس، فالشجاع يسمو ويجابه الأخطار ويواجهها، كما شبّهه الشاعر، كالليث تصيد القنا والرماح، وذكاؤه وتخطيطه وراء الشجاعة واليقين؛ فعليٌّ نجم سطع في سماء الشجعان، لا ينافسه أحد، فعقد له الولاء سمواً وارتفاعاً وارتقاء يقلقل الحَسَدَة.

ونجم قد عقد الولاء له ... عقداً يقلقل منه حُسّده
ما نال في يوم مدى شرف ... إلّا أبرّ فزاده غده[2].

من المؤكّد أنّ ابن دريد يسمو حينما يقدّم ولاءه للحق ولآل بيت النبوة عليهم السلام، ومن المحال أن يُخذل، وذلك مصداق فِعال عليٍّ عليه السلام، ففي كلّ غدٍ شرف جديد يسمو وتسمو به أُمّة الإسلام والمسلمين، ولولاه ولولا أبناء فاطمة عليهم السلام كان الورى بُهماً، وحار السبيل بهم، واستولى الضلال عليهم، تلك رؤية ابن دريد فيهم، وهي حق،

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

فالله تعالى اختصهم وشرّفهم بنسبتهم إلى جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال ابن دريد:

مَـنْ ذا يُساجل أو يُناجب في نســـــب رسول الله محتــده[1].

التصديق والولاء

من سمو الإنسان المسلم الإيمان بالله وأنبيائه، وما جاء به النبيّون، إنّ أهم عقائد الإسلام الإيمان بالولاء لأهل بيت النبوة عليهم السلام، فإنّه سمو إنساني يُشرّف الإنسان، ويبعده عن الكبرياء والعناد، ويدله على الطريق المستقيم الذي يستمد منه منهجه الحياتي السليم، إيمان بأنّ الامتداد الحقيقي للنبوة هي فاطمة وبعلها وبنوها، والشاعر يسمو بذكر أبناء فاطمة (عليها وعليهم السلام) وصفاتهم والتصديق بولائهم؛ ولذا يقول:

أبـنـاء فـاطـمـة الـذيـن إذا مجـد أشـار بـه مـعـددّه
والمـجـد يـعـلـم أنّ أيـديهـم عـنـهـا إذا قـادتـه مـقـوده
لـولاهـم حـار الـسـبـيـل بنا عـمّا نـحـاولـه ونـقـصـده
لـولاهـم اسـتـولى الـضـلال على منهاجنا واشـتـدّ موصده
هـم حـجّـة الله الـتـي كُندت والله يـنـعـم ثـمّ تكنده
هـم ظـل ديـن الله مـدّده أمـنـاً عـلى الدنيا ممـدده[2].

أمناء على الدنيا فإذا تولوا أُمور الناس أمنوا العدل والأمن والإنصاف والحق، ولكن لعن الله من أبعدهم عن مناصبهم فمُلِئت الدنيا جوراً وظلماً.

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

وهـــم قـــوام لا يـــزيـــغ إذا ما مال ركن الدين يعمده[٣].

الحزن

ويصل ابن دريد إلى مصاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فتتنوّع منابع السمو الإنساني، فما أن يذكر المؤمن مصاب سبط الرسول صلى الله عليه وآله، ويتأمل فيما جرى عليه من قلّة الناصر وكثرة الحاقد، حتى يصيبه الحزن والألم الشديدان، وللحزن والألم أثر كبير في تطهير الإنسان وتوبته ورقة قلبه، فما يرقّ قلبُ فرِحٍ ولا مختال ولا متكبّر ولا حقود، وهذا ما أصاب أعداء أبي عبد الله عليه السلام، فخسروا الدنيا والآخرة، ولكن الموالي حينما يحزن تشتدّ عاطفة الإيمان في قلبه، وهذا ابن دريد يتفكّر ويتذكّر ما فعله أبناء الأدعياء من غدر وطعن بابن بنت رسول الله، وقلبه يقطر دماً حزناً:

سار جند الكفر يقدمه متسربلاً غدراً يُجنّده
في محفل يُسجى الفضاء به كرهاء بحر فاض مزبده
طلاب ثار الشرك آونة تحتثه طوراً وتحشده
لو أنّ صنديد الهضاب به يرمى لزلزل منه صنده[١].

ولكن صنديد الهضاب علياً عليه السلام غير موجود، فطافوا بأبي عبد الله.. إنّ هذا المصاب حينما يُذكر تتفطّر له القلوب، وتتمنى أن يعود الزمن لتنصر أبا الشهداء، فأيّ سموٍّ لذكرك يا أبا الشهداء:

حتى أطافوا بالحسين وقد عطف البلاء وقلّ منجده
صفاً كما رصّ البنا وعلى ميدانه بالسِّيد[٢] مُرهده

(١) المصدر السابق: ص١٣.
(٢) السيد: الأُسد.
(٣) شبر، جواد، أدب الطف: ج٢، ص١٣.

قـرنـين مضطغن ومكتسب ومـكـاتـم لـلـوغـد يحـقـده
فـرمـوه عـن غـرض ولـيـس له مـن ملجأ إلّا مـهـنـده[٣].

كل ذلـك وابـن بنت الرسـول صلى الله عليه وآله غريب لم يشـهد مصابـه لا أبـوه ولا جدّه ولا أعمامه، إنّ ذكر الرسـول صلى الله عليه وآله هنا تقريع للكفرة الذين لم يحفظوا للرسـول صلى الله عليه وآله ذمّة ولا عهـداً ولا بيعـة، بل آذوه في ذريته، وهذا دليل كبير على أنّ حفظ ذمام الرسـول صلى الله عليه وآله، واكتنـاه الحـب والنصـرة لذريته، سـمو إنسـاني يرقى بالإنسـان عن الخيانـة والغدر وحبّ الدنيا.

وصـمـيـم أُسرتـــه وخُلصته ونـــأى فـلـم يـشـهـده أحمـده
لـــو أنّ حمـزتـه وجـعـفـره وعـلـيّـه إذ ذاك يشهده
مـا رامـــت الـطـلـقـاء حـوزتـه بـل عمّها بـالـذعـر منهده
مـنـعـوه ورد المـــاء ويلهم وحمـاه لم يمنع تـــورّده[١].

لقد منع الطلقاء وأبناء الطلقاء ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الماء، وهو أرخص موجود وأغـلى مفقـود، إنّ المـاء نعمة وهبهـا الله البشرَ كرامة للرسـول صلى الله عليه وآله وأهـل بيته، وهو مصـداق قول حديث الكسـاء: «**ما خلقت أرضـاً مدحية، ولا قمراً منيراً، ولا شمسـاً مضيئـةً، ولا بحـراً يجري، إلّا في محبّة هؤلاء الخمـس**»[٢]، فأيّة قلوب من حجر حاربت الحسـين عليه السلام، ما يمنـع الماء إلّا أبناء الطلقـاء، حتى الطفل منعوه المـاء؛ ولذا تثير هذه الحادثة على مسـتوى السـمو الإنسـاني قضية متضادة الأطراف، الطرف الأوّل يمثله الحضور في القصيدة الغائبون عن الحسين في الطف، وهم أهل النصرة والسمو:

لـو أنّ حمـزتـه وجعـــفره وعـليّه إذ ذاك يـشهـده[٣].

(١) المصدر السابق.
(٢) الجوهرجي، محمد صالح، ضياء الصالحين: ص٣٦٠.
(٣) شبر، جواد، أدب الطف: ج٢، ص١٣.

والطرف الثاني هم الطلقاء أصحاب الدنس.

إنّ معركة الطف لها الأثر الكبير في التسامي الخلقي؛ إذ إنّ كلّ حادثة حصلت جسّدت سمواً إنسانياً، ومن أهمها عطش الحسين عليه السلام، ومنعهم الحسين عليه السلام الماء، ووحشية سلوكياتهم، وفي الوقت ذاته حقّقت سمواً عالياً لكلّ مَن شهد أو سمع الحادثة فرفضها وأنكرها ومقت فاعليها، بل إنّها حادثة عجيبة لفاعليتها على مدى الدهور، فإنّها ظلّت تلد الأحرار وتخلّدهم، ويروي ذلك السمو أبياتٌ قالها الحسين عليه السلام تركت لكلّ محبّ متعاطف الحظوة والمنزلة عند الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وذلك قول أبي عبد الله:

شيعتي ما إن شربتم ماء عذب فاذكروني

أو سمعتم بغريب أو شهيد فاندبوني

فأنا السّبط الذي من غير جرم قتلوني

وبجرد الخيل بعد القتل عمداً سحقوني[1].

إنّها أبيات تفيض بالرحمة والعاطفة وتثير الشفقة، وتسمو بالروح الإنسانية إلى مراقي الدرجات، فتترك النفس أنانيتها، وتنزع منها أثرتها، فترق للبشرية، وتهفو إلى المحمدية البيضاء، حيث التآخي البشري، وحبّ الخير للغير، والتيقن من بشاعة الفعل الشنيع وكرهه، والغيظ من فاعليه، واللعنة عليهم، من قلوب غليظة جفّت من أدنى حدود الإنسانية.

الشاعر أحمد بن محمد بن الحسن الصنوبري

إنّ الحزن هو السمة العامّة لشعر شعراء الأدب الحسيني، وقد تجلّى السمو الإنساني لدى شعراء الأدب الحسيني؛ لأنّ السمو الذاتي للإنسان مرتبط بالمعاناة

(١) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة شهادة المعصومين عليهم السلام: ج٢، ص٣٢٥.

مـن الأفكار الروحية[1]، الحزن والأسـى من منظور نفسي قد يحـدث تبديلاً في حياة الإنسـان، وهو تجربة قاسية ومريرة تختلف عن باقي تجارب الحياة، والحزن إحساس إنساني طبيعي، تشعر به عند فقد شخص عزيز، لكن يختلف الناس فيما بينهم في حدّة مشاعرهم، وأساليب تعبيرهم عن آلامهم.

والشعراء من أرهف الناس حسّاً وامتلاكاً للألفاظ الموحية والمعبّرة؛ لذا فحزنهم لا يقف عند السـمو الذاتي لديهم، فالمتلقون داخلون في جو السمو النفسي، وإذا كان الحزن يرتبط بمدى علاقة الإنسـان الحي بالفقيد وشـدّة الحزن عليه، فعلاقة شـعراء الأدب الحسيني بالإمام الحسين عليه السلام تعبّر عن ارتباط كبير ووثيق، وكلّ قارئ لشعرهم يشعر بهذا الارتباط.

إنّ السـمو الإنسـاني والإيجابية في العلاقات تؤدّي بدورها إلى السـمو الإنساني، فكلّـما كان الفقيـد أقـرب من النفـس كان الحزن عليه أكـبر، وذرفت الدمـوع أكثر، والدموع على أبي عبد الله لم تنقطع إلى اليوم، ويعود بعض الفضل في ذلك إلى إحساس شـعراء الأدب الحسـيني ورهافتهم، ورؤيتهم لمواقف الطف، وكأنّها تتجدّد الآن في كلّ قصيدة ينظمونها.

إنّ لحظات الحزن أكبر في حياة الإنسان من لحظات الفرح، فالحزن جزء من تركيبة الإنسـان التي مـا علمنا منها إلّا القليـل ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2]، وهو في ضمن مجموعة الأحاسـيس التي تشـكل التركيبة العجيبة للنفس الإنسانية مع الحب والبغض والسـرور، وهي صفات ملازمة للإنسان، يستمد منها مع تناقضها توازنه.

ونجـد شـعراء الحسـين عليه السلام يجـدون متعـة روحية وأُنسـاً بالحـزن عـلى قضية أبي الشهداء عليه السلام، وكأنّ هذا الشعور يُطهّر النفس كما يرى أرسطو[3]، ويشعرها بالانتشاء،

(١) أُنظر: صالح، قاسم حسين، الإنسان مَن هو: ص٤٣.
(٢) الإسراء: آية٨٥.
(٣) أُنظر: صالح، قاسم حسين، الإنسان مَن هو: ص٤٢.

وهم يستدرّون دموع الآخرين، وهم واقعون تحت ضغط نفسي في تذكرهم مصاب أبي عبد الله عليه السلام من تحشد الجيوش عليه، وقلّة الناصر، وإذا فاتهم الزمن ولم يحضروا معه كي ينصروه، فإنهم ينفّسون عن أنفسهم بتلك العبرات، وهذا إحساس عظيم يسمو بالنفس الإنسانية، لا يفهمه مَن لم يجربه، ومَن لم يؤت نفساً رقيقة صادقة ومرهفة، يقول الصنوبري:

ذكر يوم الحسين بالطفّ أودى ... بصماخي فلم يدع لي صماخا
منعوه ماء الفرات وظلّوا ... يتعاطونه زلالاً نقاخا
النقيّون حيث كانوا جيوباً ... حيث لا يأمن الجيوب اتساخا
خلقوا أسخياء لا متساخين ... وليس السخي مَن يتساخى[1].

ومن شعراء القرن الرابع عشر قال الشاعران الكبيران الشيخ حسن الشيخ علي الحلي والعلامة الحجة السيد محمد حسين الكيشوان:

با حسن شكوى إليك وإنّها ... لواعج أشجان يجيش بها الصدرُ
أتدري بما لاقت من الكرب والبلا ... وما واجهت بالطفّ أبناؤك الغرُّ
أُعزيك فيهم إنّهم وردوا الردى ... بأفئدة ما بلَّ غلَّتها قطرُ[2].

وعادةً ما يتضمّن الحزن التحسّر والشكوى لعلي عليه السلام بطل الغبراء، وقتّال العرب من الكفرة.

التفكر

التفكر وطول النظر في الحياة من السمو الإنساني، يقول أحمد بن أبي منصور القطان:

لا تغترر بالزمان واعلم ... أنّ يد الدهر تستطيلُ

(١) الصنوبري، أحمد محمد، ديوان الصنوبري: ص٥٦.
(٢) شبر، جواد، أدب الطف: ج٢، ص٧٣.

فـــإنّ آجـالـنـا قـصـار ... فـيـه وآمـالـنـا تـطـولُ
لا صـاحـب منصف فأسلو ... بـه ولا حـافـظ وصـولُ
وكـيـف أبـقـى بـلا صـديـق ... بـاطـنـه بـاطـن جـمـيـلُ
هـيـهـات قـل الـوفـاء فيهم ... فـلا حـمـيـم ولا وصـولُ
يـا قـوم مـا لـنـا جفينا ... فـلا كـتـاب ولا رسـولُ.

إلى أن يقول:

كـمـا سـطـت بـالحـسـين قـوم ... أراذل مـا لهـم أُصـولُ
يـا أهـل كـوفـان لم غـدرتـم ... بـنـا وكـم أنـتـم نـكـولُ
أنـتـم كـتـبـتـم إليّ كُـتـبـاً ... وفي طـويـاتهـا ذحـولُ[1].

الوفاء

خلق نبيل يدعو إلى التسامي والسمو النفسي، على العكس من الغدر الذي يُنبئ عن باطن خبيث دنيء، والشاعر هنا يتحسّر على أبي عبد الله الحسين، إذ انقطع به الزمن عن الأصحاب الأوفياء إلّا القلّة القليلة، وامتلأ زمنه بمَن لا أصل لهم ولا حسب، أدعياء يسهل عليهم الغدر والخيانة، يميلون حيث الدنيا تميل.

إنّ الشاعر يظهر التحسّر على ذهاب الوفاء، وهو من القيم الإنسانية الأصيلة، وظلّت تلك أمنية الشاعر:

لا صـاحـب منصف فأسلو ... بـه ولا حـافـظ وصـولُ
وكـيـف أبـقـى بـلا صـديـق ... بـاطـنـه بـاطـن جـمـيـلُ
هـيـهـات قـلّ الـوفـاء فيهم ... فـلا حميم ولا وصـولُ[2].

(١) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة شهادة المعصومين عليهم السلام: ج٢، ص٤٧٠.
(٢) المصدر السابق.

وإنّ التنكر للغدر من التسامي ومن السمو الإنساني والترفع عن الصفات الرذيلة التي لا يتصف بها إلّا الأدنياء، ولا سيّما إذا كان الغدر بابن بنت الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام، ولم يكتفِ الشاعر بالتنكر لغدرهم، بل راح يحاججهم مستفهماً عن عذرهم، فلا عذر في قتل مَن ناغاه في المهد جبرائيل عليه السلام، وقبّله أحمد الرسول صلى الله عليه وآله؛ إنّها أدلّة دامغة لعجرفة القتلة وباطلهم وحبهم وعشقهم للحياة:

أيــن الــذي حــين أرضــعــوه ... نــاغــاه في المــهــد جـبرئـيـلُ

أيــن الــذي حــين غــمــدوه ... قــبّــلــه أحمــد الــرســولُ

أيــن الــذي جــدّه الــنــبــيّ ... وأُمّــه فــاطــم الــبــتــولُ[1].

إنّ تكرار اسم الاستفهام (أين) يراد به التذكير، وتنبيه القاتلين إلى نسب القتيل، نسب خير الأنبياء صلى الله عليه وآله، وكيف تلقاه الروح جبرائيل عليه السلام.

نعم، إنّ الإنسان قد لا يقوم به نسبه، ولكن فعل الرسول صلى الله عليه وآله لا يأتي من باطل ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2]، فليس يُعقل أن يُقبّل النبي صلى الله عليه وآله إنساناً في صغره وهو في علم الله ليس بعادل، أو ليس بمؤمن في شبابه وشيبته.

ويعدّ استجماع تلك الأدلة من لدن الشاعر، ومحاججة الكفرة العتاة الغادرين سمة إنسانية، وتفكّر وتدبر في آيات الحق والإنصاف، والوقوف بجانبه الحق والدفاع عنه، والرفض للانغماس في اللذات الدنيوية والتكالب عليها، من أيّ طريق جاءت سواء قتلاً أم غدراً، وذلك سمو نفسي عن الدنايا.

حبّ أهل البيت عليهم السلام

إنّ حبّ أهل البيت عليهم السلام من السمو الإنساني؛ إذ يُوقف الإنسان نفسه وفكره على معرفة فضائلهم، وإنما يُلهم حبُّهم مَن كان ذا نفس نقية صافية طاهرة، ويؤكّد

(١) المصدر السابق.

(٢) النجم: آية٣.

ذلك أنّ الكره لأهل البيت عليهم السلام صفة لا تأتي إلّا من النفس الحقود، الغارقة في بحر العصبية والجهل، وقد جُعِل ميزان المؤمن حبُّ علي عليه السلام، الحب الصادق، وليس الحبّ القشري المزخرف، ومن هنا ترك الشاعر الصنوبري حبّ النساء والرغبة فيهن ـ مما شغل الشعراء ـ إلى حبّ أهل البيت عليهم السلام، قال الصنوبري:

لا خير في وصف النساء فاعفني ... ممّا تكلفينه من وصفيها
يا ربّ قافية حلى إمضاؤها ... لم يحل ممضاها إلى ممضيها
لا تطمعن النفس في إعطائها ... شيئاً فتطلب فوق ما تعطيها
حبّ النبيّ محمّد ووصيه ... مع حبّ فاطمة وحبّ بنيها
أهل الكساء الخمسة الغرر التي ... يبني العلا بعلاهم بانيها
كم نعمة أوليت يا مولاهم ... في حبّهم فالحمد للموليها
إنّ السفاه بترك مدحي فيهم ... فيحق لي أن لا أكون سفيها
أرجو شفاعتهم وتلك شفاعة ... يلتذ برد رجائها راجيها[1].

إنّ الإيمان بولاية أهل البيت عليهم السلام، وأنّهم أئمّة المسلمين بعد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، وأنّ طاعتهم كطاعة الرسول صلى الله عليه وآله، وشفاعتهم من شفاعته، هو الفارق بين المؤمن الحق والمخالف للحقيقة.

والشاعر الصنوبري قد سمت روحه بحبّ أهل البيت عليهم السلام، وطاعته لله تعالى ولرسوله الكريم صلى الله عليه وآله، فاستجاب لقوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾[2].

وكيف لا تسمو روحه وهو يرى الرشد في مدح أهل البيت أصحاب الكساء عليهم السلام؟ والسفاهة في ترك مدحهم، فما هو المستوى والدرجة التي وصل إليها في حبّهم؟

(١) الصنوبري، أحمد محمد، ديوان الصنوبري: ص١٩٧. وأُنظر: الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج٣، ص١٤٣. شبر، جواد، أدب الطف: ج٢، ص٢١.
(٢) الشورى: آية٢٣.

إنّ أهـل البيـت عليهم السلام هم رحمة الله التـي أنزلها على الأرض، وحبّهـم والإيمان بولائهم والعمل على نشـر هديهم كلّه خير تَسمو به النفوس، أليس هو القائل:

إنّ السفاه بـترك مدحي فيهم فيحق لي أن لا أكـون سفيها.

ومَن لا يريد أن يكون سفيهاً، فهو الراشد صاحب النفس السامية، وإنّ طلب الشفاعة بذاته سمو إنساني؛ لأنّه يعلم أنّه بشر معرّض للذنوب، ويعلم أنّ أعماله قد لا تسعفه في النجاة، فهو بحاجة إلى الشفاعة.

وكم الفرق كبير بين مَن يعرف قدر نفسه ومَن لا يعلم ذلك؟ المتكبر الذي يعمل بالمعـاصي ليل نهار، ثمّ ينسـيه جهله وغروره، فلا يرى لـه ذنوباً، ولا يرى أنّه بحاجة إلى الشفاعة، وتبلغ به الوقاحة أحياناً أن لا يرى أهل البيت عليهم السلام أهلاً للشفاعة؛ تكبراً وجهلاً وعتواً، وهم كُثر وليسوا بالقليل.

مـن هنـا أرى أنّ الصنوبـري لـه نفس تسـمو وترقى؛ لعلمـه بقدر نفسـه، ومثله الشاعر السـري الرفاء، إذ عرف حق أهل البيت عليهم السلام، وأكبر شأنهم وعظّمهم بقوله:

والسابقـون إلى الخيرات ينجدهـم عتـق النجار إذا كـلّ المجارونـا
قـوم نُصلّي عليهم حيـن نذكرهـم حبّاً ونلعـن أقوامـاً ملاعينـا
آل النبـيّ وجدنـا حبّكـم سببـاً يرضـى الإله به عنّـا ويرضينـا
فمـا نخاطبكـم إلّا بساداتنا ولا نناديكـم إلّا موالينـا
وكم لنا من فخار فـي مودّتكـم يزيدكـم فـي سـوادالقلب تمكينـا
ومـن عـدوّ لكم مخفٍ عـداوته واللّـه يرميه عنّا وهـو يرمينـا[1].

يقول الرسـول صلى الله عليه وآله: «**مَن رزقه الله حبّ الأئمّة من أهل بيتي، فقد أصاب خير الدنيا والآخـرة، فلا يشـكّن أحد أنّـه في الجنة، فإنّ في حـبّ أهل بيتي عشرين خصلة، عشـر**

(١) الرفاء، السري، ديوان السري: ج٢، ص١٨٧. شبر، جواد، أدب الطفّ: ج٢، ص٦٦.

منهـا في الدنيـا وعشر منهـا في الآخرة»[1]. وقـد أورد الصدوق خصـال الدنيا، وهي: «**الزهد، والحرص على العمل، والورع في الدين، والرغبة في العبادة، والتوبة قبل الموت، والنشاط في قيام الليل، واليأس ممّا في أيدي الناس، والحفظ لأمر الله ونهيه**عزّ وجلّ**، والتاسعة بغض الدنيا، والعاشرة السخاء**»[2]، فمحبو أهل البيت**عليهم السلام** يفخرون بولائهم لهم، بل يرون أنفسهم كباراً بولائهم، وكأنّ أرواحهم اتّحدت بأرواح أوليائهم، وكأنّما جبلت قلوبهم على الحب والطاعة، فارتقت نفوسـهم بذلك العشـق الروحاني؛ لأنّهم أحلّو أولياءهم سـواد القلوب، فنسـوا أنّ لهم نفوسـاً منفردة عن أوليائهم، فتواضعوا لهم تواضعاً رفعهم عند ربّهم، وأنالهم رضاه، فما يخاطبونهم إلّا (بساداتنا، وبموالينا).

ومـن جهة أُخـرى نجد أنّ أصعب الأُمـور التي كانت تواجههـا قريش، هي أن تعـترف بـأنّ محمداً**صلى الله عليه وآله** نبيّهم وسـيّدهم، وهم يعرفون جلالة نسـبه، وحسـن خُلقه؛ لأنّ السـيادة عقيمة لا تحبّ الشراكة، ويشـبه فعل أعداء الرسـول**صلى الله عليه وآله** ما فعله أعداء أهل بيته**عليهم السلام**، فهم لا يعادونهم إلّا لأنّهم يريدون السـيادة؛ ولهذا يتنكرون، ويزيغون عن الحق، وقلوبهم عارفة، لكنّهم معاندون، وشـتان بين سمو النفس المحبّة الراضية برضـا الله، وبـين مَن لُعن من الله ورسـوله**صلى الله عليه وآله** والنـاس؛ لغيّهم وعدائهـم أهل بيت النبوة**عليهم السلام**.

ومن السـمو الإنساني التفكّر في مظلومية أهل البيت**عليهم السلام**، ونجد الشاعر كشاجم ابن السـندي بن شـاهك الرافض للظلم، والمدافع عن المظلومين بالسيف واللسان، لا يرضى لنفسـه إلّا أن يكـون من النفوس الأبية التي تعبـت في تربية ذاتها، وقد قال رسول الله**صلى الله عليه وآله**: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[3]، ومحبوا أهل البيت**عليهم السلام** محارَبون في كلّ زمان؛ لدفاعهم عن قضية الحسين**عليه السلام**، قال كشاجم:

(١) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص٢٥٦.
(٢) المصدر السابق: ص٥١٥.
(٣) الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج١، ص٦٥٧.

جـل هـو الـرزء جـلّ فادحه ... بـاكـره فـاجـع ورائـحـه
فـجـائـع لـو درى الجـنـين بها ... لـعـاد مـبـيـضّـة مـسـالحه
يـا بـؤس دهـر عـلى آل رسـو ... ل الله تجتاحهم حوائجه
إذا تـفـكّـرت في مصابهم ... أثقب زند الهموم قادحه[1].

إنّ الهموم الكبرى تسمو بالنفس دون الهموم الصغرى، فحين تتلاشى هموم الأنا المفـردة أمام هموم المجموعة، ترتقي إلى الإيثار، وتقدّم الغالي والنفيس، وتترك إثرتها وهواهـا، وهنـا تحلّق النفس في سـماء الجـود والكرم، وتصل أقصى غايات التسـامي والسمو.

بعضهم قُـرِّبـت مـصـارعـه ... وبعضهم بوعدت مطارحه
أظـلـم في كـربـلاء يومهم ... كـلّـهـم جمّـة فـضـائـحـه
لا يـبرح الغيث كـلّ شارقة ... تهمي غواديه أو روائحه[2].

وعندما تتأسـى النفس الإنسـانية لهـول المصـاب، وحينما تُفجـع بمصاب حفيد رسـول الله صلى الله عليه وآله وحبيبه، وجوارحه مجرّحة، تكاد الروح تُنزع من الجسـد، ليس يأساً، بل سمواً وتحنناً؛ لأنّها تفيض رحمة وعطفاً:

عـلى ثـرى حـلّـه غـريـب رسو ... ل الله مجروحة جـوارحـه[3].

من العجب أن نسمع بمصائب أبي عبد الله عليه السلام، وندّعي السمو والرفعة بحبنا سيّد الشهداء عليه السلام، ولا نموت ألماً لمّا نسمع (ذل حماه وقلّ ناصره)، والمصاب الأكبر

(١) الشاعر كشاجم: هو أبو الفتح كشاجم بن الحسين بن السندي بن شاهك، نسبه يعود إلى أرض رملة من فلسطين، كان كشاجم أديباً وحكيماً ومؤلفاً في أفاضل العلوم، توفّي (٣٦٠هـ)، وقيل: (٣٥٠هـ). اُنظر: ابن العماد، عبد الحي، شذرات الذهب: ج٣، ص٧٦. الزركلي، خير الدين، الأعلام: ج٣، ص٥٧. ابن السندي، كشاجم، ديوان كشاجم: ج١، ص٩٥.
(٢) ابن السندي، كشاجم، ديوان كشاجم: ج١، ص٩٥.
(٣) المصدر السابق.

أن تطال المصائب نساءه المخدرات، والحياة بعد السماع والصبر على المصائب من أعلى درجات السمو؛ إذ يجعل الإنسان من نفسه جيشاً جرّاراً يقاوم أعداء الإنسانية والدين، يقول الشاعر:

ذلّ حمـــاه وقـــلّ نـــاصره ... ونـــال أحـــلى مـــناه كاشحه
وســـيـــق نـــســـوانـــه طـلائـح ... أحسن أن تهادى بهم طلائحه
وهـن يُمنعن بالوعيد من الن ... وح والمـلأ الأعـــلى نوائحه
يـا شيع الغي والـضـلال ومَـن ... كـلّـهـم جمّـــة فـضـائـحـه
غششتم اللّه في أذيّـــة من ... إلـيـكـم أُدّيـــت نصائحه
عـفـرتـم بـالـثـرى جـبـين فتى ... جبريل قبل النبي ماسحه
ســيـان عـنـد الإلـــه كلكم ... خـاذلـه مـنـكـم وذابـحـه
وفي غـد يعرف المخالف مَن ... خـاسر ديـن منكم ورابـحـه
وبـــين أيـديـكـم حـريـق لظى ... يلفح تلك الوجوه لافحه[1].

ولا شيء يهوّن المصاب غير التوعّد بنار لظى تلفح تلك الوجوه خالدة فيها أبد الآبدين.

وكلّ ذلك السمو أصله وسببه ومبدؤه معرفة فضل أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم، يقول كشاجم:

إن عبتموهم بجهلكم سفهاً ... ومـا ضرّ بـدر السماء نائحه
أو تكتموا فـالـقـرآن مشكله ... بفضلهم ناطـق وواضحـه[2].

ومن شـعراء القرن الرابع الهجري الذين سـمت نفوسـهم بذكر مصاب أبي عبد الله عليه السلام الشاعر طلحة بن عبيد الله المصري، قال:

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

فيا بضعة من فؤاد النبي بالطفّ أضحت كثيباً مهيلا
ويا كبداً من فؤاد البتول بالطفّ شلّت فأضحت أكيلا
قتلت فأبكيت عين الرسول وأبليت من رحمة جبرئيلا[1].

يكرر الشعراء في الأشعار التي تصف مظلومية أبي عبد الله عليه السلام ناحية قربه من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وعناية السماء والملائكة به؛ ليبينوا للقتلة الناكثين لعهد الله والرسول صلى الله عليه وآله قبح سلوكهم، وعدم رعايتهم لوديعة الرسول صلى الله عليه وآله عندهم، فلم يحفظوا ذمّةً ولا عهداً، فلعلّ التقريع يوقظ الضمائر النائمة، وتلك مهمّة أخذ شعراء أهل البيت عليهم السلام على عاتقهم القيام بها، فإنّ للشعر فعلاً وسحراً وتأثيراً كبيراً في التغيير من حال إلى حال، وهذه السمة تزيدهم سمواً إلى سمو، لما لتذكر المصاب والألم من أثر في تطهير النفوس وردها إلى طريق الحق والنور والهداية.

ذلك لأنّ هؤلاء الشعراء يعتقدون أنّ الحسين عليه السلام وأهل بيته هم سفينة النجاة للبشر، ينجو مَن تمسّك بها وركب، ويغرق مَن تركها، هم أهل التقوى ودلائلها، قال كشاجم في ذلك موضحاً:

أعاذلتي إنّ برد التقى كسانيه حبّي لأهل الكساءِ
سفينة نوح فمَن يعتلق بحبّهم معلّق بالنجاءِ
لعمري لقد ضلّ رأي الهوى بأفئدة مَن هواها هوائي
وأوصى النبيّ ولكن غدت وصاياه منبذة بالعراءِ
ومن قبلها أمر الميّتون برد الأُمور إلى الأوصياءِ[2].

إنّ التقوى رأس الخير، ولا تقى إلّا بالعلم، وأهل العلم محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأوصياء عليهم السلام، فمَن اهتدى بهديهم يسمو، وينفتح على المحجة البيضاء، لا ضلالة

(١) طلحة بن عبيد الله المصري من شعراء أهل البيت عليهم السلام في القرن الرابع الهجري. أُنظر: القيرواني، ابن رشيق، العمدة: ص١٤١. الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج٤، ص٧٤.
(٢) ابن السندي، كشاجم، ديوان كشاجم: ج١، ص٢.

ولا قتمة في طريق الهدى؛ لأنّهم نجوم السماء، هديهم القرآن، والاقتداء بهم سبيل الجنة ورضا الإله، ومَن تمسّك بهم تمسّك بحبل متين، ولكن الغل لمّا ملأ صدور القوم تكتموا وطووا الأمر، فغلبهم هوى الدنيا، وشهوات النفس، ولم يستطيعوا ترك ملذاتهم، فما بقي لهم من حيلة غير كتمان المعرفة:

ولم ينشر القوم غل الصدور ... حتى طواه الردى في الرداءِ
ولو سلموا لإمام الهدى ... لقوبل معوجهم باستواءِ
هلال إلى الرشد عالي الضياء ... وسيف على الكفر ماضي المضاءِ
ذِكرٌ تدفق بالمعجزات ... كما يتدفّق ينبوع ماءِ
علوم سماوية لا تُنال ... ومَن ذا ينال نجوم السماءِ[1].

يُعدّ البكاء وذرف الدموع من السمو الإنساني، ومن مطهّرات النفوس، قال طلحة المصري:

لم أنسَ يوماً للحسين وقد ثوى ... بالطفّ مسلوب الرداء خليعا
ظمآن من ماء الفرات معطشاً ... ريّان من غصص الحتوف نقيعا[2].

إنّ الجمع بين المتضادات يخلق صورة متكاملة للفعل الإجرامي في الطف الحسيني، الفئة الأُولى فئة الشر، وتمثل جريمة إنسانية؛ إذ حرمت الحسين عليه السلام الماء (ظمآن من ماء الفرات)، وتتكامل أبعاد الصورة في الجانب المضاد بالجريمة الجنائية (ريان من غصص الحتوف).

إنّ فعلهم يعكس الإيجابي من القيم الإنسانية إلى السلبي، وبُدّلت قيمتا (الري والعطش) الإنسانيتين إلى قيم وحشية، حيث الري للماء وليس للدم، وبدورها أنبأت الأبيات عن تضاد آخر انطوت عليه نفوس الشرّ، فقلوبهم ارتوت وعطشت

(١) المصدر السابق.
(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٢٤٧.

من الخير:

يرنو إلى ماء الفرات بطرفه فيراه عنه محرَّماً ممنوعا[1].

حرّم الله عليهم جنته، وسقاهم كأساً من حميم، فابن بنت الرسول صلى الله عليه وآله يرنو إلى الماء، فلا يرحمه أحد بشربة ماء.

العتاب

خُلق إنساني كريم؛ لأنّه يهيّئ النفس للاعتراف بتقصيرها تجاه الآخر، ولا سيّما إذا كان العتاب موجهاً للذات، حيث تؤنب نفسها؛ لتقصيرها مع مولاها سيد الشهداء أبي الأحرار عليه السلام، يقول الشاعر أبو القاسم الزاهي، وهو من شعراء أهل البيت عليهم السلام في القرن الرابع الهجري:

أعاتب نفسي إذا قصّرت وأفني دموعي إذا ما جرت[2].

فالشاعر يستذكر ما جرى على أبي عبد الله عليه السلام، ولا يريد التقصير، وهذا سمو، فإنّ في ذلك إرادة للتكامل الخلقي.

وعندما يأخذ الشاعر على عاتقه الذكر الدائم لمصاب أهل البيت عليهم السلام، مواسياً لهم، يبعد عن نفسه أُفق النسيان، وذلك سمو إنساني:

لست أنسى الحسين في كربلا وهو ظامٍ بين الأعادي وحيد[3].

وقال أبو فراس الحمداني في تقريع العصاة من المسلمين:

يا عصبة شقيت من بعد ما سعدت ومعشراً هلكوا من بعد ما سلموا

لبئسما لقيت منهم وإن بليت بجانب الطفّ تلك الأعظم الرممُ[4].

(١) المصدر السابق.

(٢) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء: ج١٤، ص١١٠. شبر، جواد، أدب الطف: أدب الطف: ج٢، ص٧٨.

(٣) الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج٣، ص٣٩٨.

(٤) المصدر السابق: ص٤٠١.

والغضب لله عنوان أكيد البرهان على السمو الإنساني، فلا يغضب لله إلّا الغيور المؤمن الحق، يبين ذلك قول الفارس أبي فراس:

لا يغضبون لغير الله إن غضبوا ... ولا يضيعون حكم الله إن حكموا
تنشى التلاوة في أبياتهم سحراً ... وفي بيوتكم الأوتار والنغمُ
ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم ... ولا يُرى لهم قرد ولا حشمُ[1].

وقال الشاعر علي الحلي محمد حسين الكيشوان متأسفاً وحزيناً:

لذا أرخصت بالطفّ صحب ابن فاطم ... نفوساً لخلق الكائنات هي السرُّ
هم القوم من عليا لؤي وغالب ... بهم تكشف الجلّى ويستدفع الضرُّ
يكرّون والأبطال نكصاً تقاعست ... من الخوف والآساد شيمتها الكرُّ
وما وقفوا في الحرب إلّا ليعبروا ... إلى الموت والهنديُّ من دونه جسرُ
وماتوا كراماً تشهد الحرب أنّهم ... أُباة إذا ألوى بهم حادث نكرُ[2].

وقال ابن هانئ الأندلسي متألماً:

ولا عذب الماء القراح لشارب ... وفي الأرض مروانية غير أيم
ألا إنّ يوماً هاشمياً أظلّهم ... يطير فراش الهام عن كلّ مجثمِ
كيوم يزيد والسبايا طريدة ... على كلّ موّار الملاط عثمثمِ
وقد غصّت البيداء بالعيس فوقها ... كرائم أبناء النبي المكرمِ
فإن يتخرّم خير سبطي محمد ... فإن ولي الثأر لم يتخرّم[3].

وقال الرفاء:

نمضي ونترك من ألفاظنا تحفاً ... تنسي رياحينها الشرب الرياحينا
وما نبالي بذم الأغبياء إذا ... كان اللبيب من الأقوام يطرينا
فلست أمدحهم إلّا لأرغم في ... مديحهم أنف شانيهم وشانينا[4].

(٥) الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج٤، ص٣٤٢.
(٦) شبر، جواد، أدب الطفّ: ج٢، ص٧٣.
(٧) الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج١٠، ص٨٧.
(٨) الرفاء، السري، ديوان السري: ج١، ص٨٨٣.

ويقول الناشئ الصغير (ت٣٦٥هـ) متحسراً وذاكراً مصرع أبي عبد الله الحسين عليه السلام:

مصائب نسل فاطمة البتول ... نكت حسراتها كبد الرسولِ
أَلا يا يوم عاشورا رماني ... مصابي منك بالداء الدخيلِ
كأنّي بابن فاطمة جديلاً ... يلاقي الترب بالوجه الجميلِ
وقد قطع العداة الرأس منه ... وعلّوه على رمح طويلِ[1].

وقال أيضاً:

بني أحمد قلبي لكم يتقطع ... بمثل مصابي فيكم ليس يسمعُ
فما بقعة في الأرض شرقاً ومغرباً ... وليس لكم فيها قتيل ومصرعُ
ظُلمتم وقُتِّلتم وقُسِّم فيئكم ... وضاقت بكم أرض فلم يحمَ موضعُ[2].

وقال الشاعر الأمير محمد بن عبد الله السوسي (ت٣٧٠هـ)[3] شاكياً لله ما جرى على أبي عبد الله الحسين عليه السلام متحسراً ومتلهفاً:

لهفي على السبط وما ناله ... قد مات عطشاناً بكرب الظما
لهفي على النسوان إذ أُبرزت ... تُساق سوقاً بالعنا والجفا
لهفي على تلك الوجوه التي ... أُبرزن بعد الصون بين الملا[4].

---

(١) الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج٨، ص٢٨٤.

(٢) الناشئ الصغير: هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن الوصيف الناشئ الصغير البغدادي، وهو من علماء الشيعة ومحدثيها، توفي(٣٦٥هـ). أُنظر: السمعاني، عبد الكريم بن محمد، الأنساب: ج٣، ص٨٩. الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج٨، ص٥٧.

(٣) الأمير محمد السوسي: هو أبو عبد الله بن عبد العزيز توفّي (٣٧٠هـ) دُفن في حلب، والسوسي كوره بأهواز فيها قبر دانيال عليه السلام، كان فاضلاً أديباً كاتباً بحلب. أُنظر: القمي، عباس، الكنى والألقاب: ج١، ص٣٨.

(٤) أُنظر: شبر، جواد، أدب الطفّ: ج٢، ص١١٦. ابن شهر آشوب، محمد بن علي، المناقب آل أبي طالب: ص٦٨.

لقد أخذت شعراء الأدب الحسيني الغيرة والحمية على أبي عبد الله عليه السلام، وهذا ديدن مَن بنى أُسسه الأخلاقية على السمو الأخلاقي والإنساني.

إنّ الإنسان الغيور من الطبيعي أن يغار على نسائه من الناظرين والمارّين، ولكنّ المصاب هنا جلل؛ إذ تتعرض نساء أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله إلى السَّوق والغلظة، تلك الوجوه التي طالما صانها علي وأبناؤه عليهم السلام، فقد كنَّ مخدرات محمولات، وهذا الشاعر يؤكّد على لفظ (لهفي)، كدليل على الألم والحسرات، ولفظة (أُبرزت)، وكذا (تساق سوقاً)، فللمفعول المطلق دلالة التوكيد أيضاً.

ويرتفع سموه الإنساني بغيرة مثالية للأخذ بثأر سيد الشهداء عليه السلام، فيقول:

لا عذر للشيعي يرقأ دمعه ... ودم الحسين بكربلاء أُريقا
يا يوم عاشورا لقد خلّفتني ... ما عشت في بحر الهموم غريقا
فيك استُبيح حريم آل محمد ... وتمزّقت أسبابهم تمزيقا[1].

ومن شعراء القرن الرابع الهجري ممّن سما بذكر نساء أبي عبد الله عليه السلام، سعيد بن هاشم الخالدي قال[2]:

وحمائم نبهنني ... والليل داجي المشرقين
شبهتهن وقد بكين ... وما ذرفن دموع عين
بنساء آل محمد ... لما بكين على الحسين[3].

وقد شبّه نساء أبي عبد الله ببكائهن بنوح الحمام الذي لا يذرف الدموع ببكائه، وأراد بالتشبيه صبر نساء الحسين، فلم يذرفن دموعاً؛ كي لا يشمت بهن الأعداء.

(١) شبر، جواد، أدب الطفّ: ج٢، ص١١٧.
(٢) سعيد الخالدي: شاعر يُنسب إلى قرية الخالدية من الموصل، توفّي (٣٧١ هـ)، وروى ياقوت في معجم الأُدباء أنّ اسمه سعد. أُنظر: الثعالبي، عبد الملك، يتيمة الدهر: ج٢، ص١٥٦. الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج٢، ص٣٤. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الإرب: ج٢، ص٦٧.
(٣) الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج٧، ص٢٥٦.

فهرست المصادر

* القرآن الكريم.

١ ـ أدب الطفّ وشعراء الحسين، جواد شبر، دار المرتضى، بيروت، ١٩٨٨م.

٢ ـ أعيان الشيعة، محسن الأمين العاملي، تحقيق: السيد حسن الأمين، الناشر: دار التعارف للمطبوعات.

٣ ـ الأنساب، عبد الكريم محمد بن منصور السمعاني، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، ط١، ١٩٦٢م، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، .

٤ ـ الإنسان مَن هو، قاسم حسين صالح، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٤م.

٥ ـ الأمثال والحكم، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: فؤاد عبد المنعم، ط١، ١٩٩٩م، دار الوطن، مصر.

٦ ـ البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار عالم الكتب، بيروت، ٢٠٠٣م.

٧ ـ الخصال، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، صححه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم المقدسة.

٨ ـ ديوان ابن دريد، تحقيق: عمر بن سالم، ط١، ٢٠١٢م، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، دبي.

٩ ـ ديوان أبي فراس الحمداني، المطبعة السلمية، بيروت، ١٨٧٣م.

١٠ ـ ديوان السري الرفاء، طبعة القاهر، حجرية، ١٣٢٣هـ .

١١ ـ ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت، ١٩٦١م.

١٢ ـ ديوان الصنوبري، تحقيق: إحسان عباس، ط١، ١٩٩٨م، دار صادر، بيروت.

١٣ ـ ديوان كشاجم، أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بـ(كشاجم)، تحقيق: خيرية محمد محفوظ، مطبعة الجمهورية، بغداد ١٩٧٠م.

١٤ ـ ديوان محمد بن هانئ الأندلسي، تحقيق: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة، ١٩٨٠م، بيروت.

١٥ ـ سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١ م، بيروت.

١٦ ـ ضياء الصالحين، محمد صالح الجوهري، ط١، ٢٠٠٤م، دار المرتضى، بيروت.

١٧ ـ الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الشيخ عبد الحسين الأميني، دار الكتاب العربي للمطبوعات، ١٩٦٧م، بيروت ـ لبنان.

١٨ ـ الكنى والألقاب، عباس القمي، تقديم: محمد هادي الأميني، طبع مكتبة الغدير، طهران.

١٩ ـ لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، ١٩٦٨م، بيروت.

٢٠ ـ الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل ورفاقه، دار صادر، بيروت.

٢١ ـ موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ترجمة عبد الرزاق الداوي، مكتبة الطليعة، ١٩٩٢م، بيروت.

٢٢ ـ معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الحزب الإسلامي، ١٩٩٣م.

٢٣ ـ مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي ابن شهر آشوب المازندراني، طبعة الراشد بن علي، ١٣١٣هـ، الهند.

٢٤ ـ ميزان الحكمة، محمد الريشهري، تحقيق: دار الحديث، ط١، ١٤١٦هـ.

٢٥ ـ النزعة الإنسانية في الآداب الأوربية، ترجمة: نبيل الحفار، الموسوعة العربية، ٢٠١٣ م.

٢٦ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، تحقيق: مفيد قميحة، وآخرون،

ط١، ٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان الإربلي، تحقيق: إحسان عباس، ط٧، ١٩٩٧م، دار صادر، بيروت.

٢٨ ـ يتيمة الدهر، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ١٩٥٦م، القاهرة.

٢٩ ـ *Studies in Humanism By. F.c.s .Schiller. Macmillan. London 19122nd*.

المجاز في كلام الإمام الحسين عليه السلام

أ. م. د. حسن عبد المجيد عباس الشاعر*

مقدّمة

للإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام كلام يطول أو يقصر، تداولت ذكره كتب التاريخ والأخبار، والآثار والحديث، سواء كان خطبةً أم رسالةً أم كلاماً قصيراً، في المدينة المنورة، أو مكة، أو في طريقه إلى الكوفة، أو في كربلاء، وفيه بلاغة تسحر الألباب، وتُطيّر القلوب، وتُشنّف الآذان، وتجعل المستمعين يتسمّرون بالأرض حيثما يبلغهم، ولكن لو حال بينهم وبينه الشيطان، فماذا ستكون الحال؟

ومن مواطن الجمال ـ التي يذهل بها أهل اللغة من أهل الدراية بسحر اللغة العربية الفصحى، ودقة أدائها، ونظم كلماتها، مع اختيار الأُسلوب المناسب، والوقع الموائم، والصور البديعة، التي تجعل مَن يجهل أداء الفصحى وأدواتها مشدود الذهن، منتبه الفكر، لا يصبو لشيء سوى رونق التعبير، ونغم الكلمات التي ترقى على أهل الصنعة والتحبير ـ استعمال المجاز بقسميه العقلي والمرسل.

وسيعرض الباحث مواطن المجاز في كلام الإمام الحسين عليه السلام بمبحثين، أولهما يختص بعرض المجاز في اللغة والاصطلاح، وثانيهما الدراسة التطبيقية.

وسيُقدّم الباحث على هذين المبحثين خطب الإمام ورسائله، وكلماته القصيرة، التي جمعها من مظانها؛ ليكون القارئ قريباً منها إذا أعوزه القرب. ومن الله التوفيق.

---

* جامعة الكوفة/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية.

الخطب والرسائل

يحرص الباحث على تقديم الخطب والرسائل بروايتها المطمئن بها، فلربما ترد رواية مخدوشة أو موضوعة، ومثل هذه الرواية لا تستحقّ الذكر، على نحو ما ورد في رسالة مسلم بن عقيل للإمام الحسين عليه السلام وردّ الإمام عليه؛ لأنّها تُقلّل من شأن سفير الإمام الذي لو لم يتحلّ بمميزات كبيرة لما أوكله الإمام بهذه المهمّة الكبيرة[1]، وهي: «**فكتب مسلم بن عقيل رحمه الله من الموضع المعروف بالمضيق مع قيس بن مسهّر: أمّا بعد، فإنّني أقبلت من المدينة مع دليلين لي، فجارا عن الطريق فضلّا، واشتدّ علينا العطش، فلم يلبثا أن ماتا، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء، فلم ننجُ إلّا بحشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يُدعى المضيق من بطن الخبت، وقد تطيّرت من وجهي هذا، فإن رأيت أعفيتني منه وبعثت غيري، والسلام. فكتب إليه الحسين بن علي عليهما السلام: أمّا بعد، فقد خشيت أن لا يكون حملك على الكتاب إليّ في الاستعفاء من الوجه الذي وجّهتك له إلّا الجبن، فامضِ لوجهك الذي وجّهتك له، والسلام**»[2].

رسالة الإمام لأهل الكوفة بيد سفيره مسلم بن عقيل: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى مَن بلغه كتابي هذا من أوليائه وشيعته بالكوفة، سلام عليكم، أمّا بعدُ، فقد أتتني كتبكم، وفهمت ما ذكرتم من محبّتكم لقدومي عليكم، وإنّي باعث إليكم بأخي وابن عمّي وثقتي من أهلي مسلم بن عقيل؛ ليعلم لي كُنْه أمركم، ويكتب إليّ بما يتبيّن له من اجتماعكم، فإن كان أمركم على ما أتتني به كتبكم، وأخبرتني به رسلكم، أسرعت القدوم عليكم إن شاء الله، والسلام**»[3].

خطبة الإمام في مكة متأهباً للخروج: «**الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، صلّى الله على رسوله وسلّم، خُطّ الموت على وِلد آدم مخطّ القلادة على جيد**

(١) أُنظر: القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج٢، ص٣٤٣ـ٣٤٤.
(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٤٠.
(٣) الدينوري، أحمد بن داوود، الأخبار الطوال: ص٢٣٠.

الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخِير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عُسْلان الفلوات بين النَّواويس وكربلاء، فيملأنّ منّي أكراشاً جوفاً وأجْرِبة سُغْباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تُقرّ بهم عينه، ويتنجز لهم وعده، مَن كان فينا باذلاً مهجته، وموطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله. وخطب عليه السلام، فقال: يا أيّها الناس، نافسوا في المكارم، وسارعوا في المغانم، ولا تحتسبوا بمعروف لم تعجلوا، واكسبوا الحمد بالنجح ولا تكتسبوا بالمطل ذماً، فمهما يكن لأحد عند أحد صنيعة له رأى أنّه لا يقوم بشكرها فالله له بمكافاته، فإنّه أجزل عطاء وأعظم أجراً، واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم، فلا تملّوا النعم فتحورَ نِقَماً، واعلموا أنّ المعروف مُكسِب حمداً ومُعقِب أجراً، فلو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسرّ الناظرين، ولو رأيتم اللؤم رأيتموه سَمْجاً مشوّهاً تنفر منه القلوب، وتغضّ دونه الأبصار، أيّها الناس، مَن جاد ساد، ومَن بخل رَذَل، وأنّ أجود الناس مَن أعطى مَن لا يرجو، وأنّ أعفى الناس مَن عفا عن قدرة، وأن أوصل الناس مَن وصل مَن قطعه، والأُصول على مغارسها بفروعها تسمو، فمَن تعجّل لأخيه خيراً وجده إذا قدِم عليه غداً، ومَن أراد الله تبارك وتعالى بالصنيعة إلى أخيه كافأه بها في وقت حاجته، وصرف عنه من بلاء الدنيا ما هو أكثر منه، ومَن نفّس كربة مؤمن فرّج الله عنه كرب الدنيا والآخرة، ومَن أحسن أحسن الله إليه، والله يحبّ المحسنين»[1].

رسالة الإمام لبني هاشم: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى بني هاشم، أمّا بعد، فإنّه مَن لحق بي منكم استُشهد معي، ومَن تخلّف لم يبلغ الفتح، والسلام»[2].

(١) الإربلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ج٢، ص٢٣٩ـ٢٤٠.
(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٨١. البحراني، عبد الله، العوالم: ص٣١٨.

قال الإمام في رسالته لأهل الكوفة: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإنّي أحمد إليكم الله الذى لا إله إلّا هو، أمّا بعدُ، فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يُخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصرنا، والطلب بحقّنا، فسألت الله أن يُحسن لنا الصنع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية، فإذا قدِم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم، وجدّوا، فإنّي قادم عليكم في أيّامي هذه إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته**»[1].

خطبة الإمام في جيش الحر: «**أيّها الناس، إنّها معذرة إلى الله عزّ وجلّ وإليكم، إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدِمت عليّ رسلكم، أن أقدِم علينا فإنّه ليس لنا إمام، لعلّ الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدِم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم**»[2].

خطبة الإمام في جيش الحر بعد الفراغ من صلاة العصر: «**أمّا بعدُ، أيّها الناس، فإنّكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أوْلى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أنتم كرهتمونا وجعلتم [وجهلتم] حقّنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم، وقدِمت به عليّ رسلكم، انصرفت عنكم**»[3].

خطب في أصحابه في طريقه إلى كربلاء، فقال: «**إنّ هذه الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفُها، فلم يبقَ منها إلّا صَبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوَبيل، أَلا ترون أنّ الحق لا يُعمل به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله**

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٢٩٧.
(٢) المصدر السابق: ج٤، ص٣٠٣.
(٣) المصدر السابق.

محقاً، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً، إنّ الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّتْ معائشهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قلَّ الديّانون»[1].

بعث الإمام رسالة إلى أخيه محمد بن الحنفية وبني هاشم ممّن يليه، ينعى فيها نفسه، قال فيها: «فكأنّ الدنيا لم تكن، والآخرة لم تزلْ، والسلام»[2].

خطب الإمام يوم عاشوراء، فقال: «أيّها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما الحق [يحقّ] لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدّقتم قولي وأعطيتموني النَّصَف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر، ولم تعطوا النَّصَف من أنفسكم، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثمّ اقضوا إليّ ولا تنظرون، إنّ وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين... أمّا بعدُ، فانسبوني فانظروا مَن أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي، وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وآله، وابن وصيه وابن عمّه، وأوّل المؤمنين بالله، والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟! أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟! أو ليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمّي؟! أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟! فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحق، والله ما تعمّدت كذباً مذُ علمتُ أنّ الله يمقُت عليه أهله، ويضرّ به مَن اختلقه، وإن كذّبتموني، فإنّ فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك، يخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!... فإن كنتم في شكٍّ من هذا القول

(١) ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٢٤٥. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٧٥، ص١١٦.

(٢) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص١٥٨.

أفتشكّون أثراً ما أنّي ابن بنت نبيكم؟! فو الله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصّة، أخبروني أتطلبوني بقتيل منكم قتلته؟! أو مال لكم استهلكته؟! أو بقصاص من جراحة؟!... فنادى: يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أن قد أينعت الثمار، واخضرّ الجناب، وطمت الجمام، وإنّما تقدم على جند لك مجنّد فأَقبِل؟!... ثمّ قال: أيّها الناس، إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض. قال: فقال له قيس بن الأشعث: أوَلا تنزل على حكم بني عمّك، فإنّهم لن يروك إلّا ما تُحب، ولن يصل إليك منهم مكروه. فقال له الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أُعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد، عباد الله، إنّي عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كلّ متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»[1].

ومن هذه الخطبة جزء لم يذكره الطبري (ت ٣١٠هـ)، وهو قوله عليه السلام: «الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور مَن غرّته، والشقي مَن فتنته، فلا تغرّنكم هذه الدنيا، فإنّها تقطع رجاء مَن ركن إليها، وتخيّب طمع مَن طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمرٍ قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته، وجنّبكم رحمته، فنعم الربّ ربّنا، وبئس العبيد أنتم! أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمد صلى الله عليه وآله، ثمّ إنكم زحفتم إلى ذرّيته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان، فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبّاً لكم ولما تريدون، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم، فبُعداً للقوم الظالمين»[2].

قال عليه السلام في خطبة له يوم الطفّ: «تباً لكم أيّتها الجماعة وترحاً، استصرختمونا

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٢٢ـ٣٢٣.
(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٥.

والهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلْباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، فهلّا لكم الويلات، تركتمونا والسيف مَشيم، والجأش طامِن، والرأي لما يُسْتحصف، ولكن أسرعتم إليها كطَيْرة الدَّبا، وتداعيتم إليها كتهافُت الفَراش، فسحقاً يا عبيد الأُمّة، وشُذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الآثام، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن، أهؤلاء تعضدون، وعنّا تتخاذلونظ! أجل والله، الغدر فيكم قديم، وَشَجَت إليه أُصولكم، وتأزرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر شجا للناظر، وآكلة للغاصب، أَلا وإنّ الدعي ابن الدعي، قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، أَلا وإنّي زاحف بهذه الأُسرة مع قلّة العدد، وخذلة الناصر...

فإن نَهزم فهزّامون قُدماً وإن نُغلب فغير مُغلبينا...

ثمّ أيمُ الله، لا تلبثون بعدها إلّا كرَيْث ما يركب الفرس، حتى تدور بكم دور الرحى، وتقلق بكم قلق المِحْور، عهد عهده إليّ أبي عن جدّي، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثمّ اقضوا إليّ ولا تنظرون، إنّي توكلت على الله ربّي وربّكم، ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها، إنّ ربي على صراط مستقيم، اللهمّ احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف، فيسومهم كأساً مصبّرة، فإنّهم كذّبونا وخذلونا، وأنت ربّنا، عليك توكّلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير»[1].

قال عليه السلام لأصحابه حينما نظروا شدّة ما نزل بهم، ورأوا ما به من البأس والإشراق: «صبراً بني الكرام، فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص ٥٨ـ٦٠.

والنعيم الدائمة، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، وما هو لأعدائكم إلّا كمَن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب. إنّ أبي حدّثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، والموت جسر هؤلاء إلى جنّاتهم، وجسر هؤلاء إلى جحيمهم، ما كذبت ولا كُذبت»[1].

دعا عليه السلام على أعدائه، وأخذ يصبّر أهل بيته بقوله: «**اللهمّ احصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ولا تغفر لهم أبداً، صبراً يا بني عمومتي، صبراً يا أهل بيتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً**»[2].

خطب عليه السلام بعد رؤية مصارع أهل بيته وأصحابه، فقال: «**هل من ذابٍّ يذبّ عن حُرم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ هل من موحّدٍ يخاف الله فينا؟ هل من مغيثٍ يرجو الله بإغاثتنا؟ هل من معينٍ يرجو ما عند الله في إعانتنا؟**»[3].

خطب عليه السلام بعد هجوم الخيل على معسكره، فقال: «**ويلكم يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عُرُباً كما تزعمون**»[4].

خطب عليه السلام يوم الطفّ خطبة عظيمة، قال فيها: «**عباد الله، اتقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر، فإنّ الدنيا لو بقيت لأحد وبقي عليها أحد كانت الأنبياء أحق بالبقاء، وأوْلى بالرضا، وأرضى بالقضاء، غير أنّ الله تعالى خلق الدنيا للبلاء، وخلق أهلها للفناء، فجديدها بالٍ، ونعيمها مُضْمَحِل، وسرورها مُكْفَهِر، والمنزل بُلْغة، والدار قلْعة، فتزوّدوا، فإنّ خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلّكم تُفلحون**»[5].

خطب عليه السلام بعد قتاله الأعداء وتفجّر جراحه، فقال: «**استعدوا للبلاء، واعلموا**

(١) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص٢٨٩.
(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٣٦.
(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف: ص٦٩.
(٤) المصدر السابق: ص١٤٤.
(٥) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج١٤، ص٢١٨.

أنّ الله حافظكم وحاميكم، وسينجيكم من شرّ الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير، ويعذّب أعاديكم بأنواع البلاء، ويعوّضكم الله عن هذه البلية أنواع النعم والكرامة، فلا تشكو، ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص قدركم»[1].

خطابه الأعداء بعد تفجّر جراحاته بقوله: «يا أُمّة السوء، بئسما خلفتم محمداً في عترته، أما إنّكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله فتهابوا قتله، بل يهون عليكم عند قتلكم إيّاي، وأيمُ الله، إنّي لأرجو أن يكرمني ربّي بالشهادة بهوانكم، ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون»[2].

وفي خطابه الأخير، قال عليه السلام: «أعَلى قتلي تجتمعون! أما والله، لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم لقتله منّي، وأيمُ الله، إنّي لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله، لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثمّ لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم»[3].

المبحث الأوّل: المجاز في اللغة والاصطلاح

المجاز لغة

ذكر الخليل بن أحمد (ت١٧٥ هـ) في مادة (جوز): «جزت الطريق جوازاً ومجازاً وجؤوزاً. والمجاز: المصدر والموضوع، والمجازة أيضاً. وجاوزته جوازاً في معنى: جزته. والجواز: صكّ المسافر. وجائز البيت: الخشبة التي توضع عليها أطراف الخشب»[4].

وعقّبه ابن فارس (ت٣٩٥هـ) الذي جمع أطراف المعاني المعجمية للأُصول العربية وردّها إلى أصل واحد وأكثر، فقال: «الجيم والواو والزاء أصلان: أحدهما قطع الشيء، والآخَر وَسَط الشيء. فأمَّا الوَسَط فجَوْز كلِّ شيءٍ وَسَطه. والجَوْزَاء: الشَّاة

(١) الشريفي، محمود، وآخرون، كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٤٩١.
(٢) البحراني، عبد الله، العوالم: ص٢٩٥.
(٣) الأمين، محسن، لواعج الأشجان: ص١٨٦.
(٤) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين: ج٦، ص١٦٥، مادة (جوز).

يبيضُّ وَسَطُها. والجوزاء: نجمٌ؛ قال قوم: سُمِّيت بها لأنّها تَعترِض جَوْزَ السماء، أي: وَسَطها. وقال قوم: سُمِّيت بذلك للكواكب الثلاثة التي في وَسَطها. والأصل الآخَر جُزْت الموضع سِرْتُ فيه، وأجزته: خَلَّفْتُه وقطعته. وأَجَزْتُه: نَفَذْتُه»[1].

وللمـلم ابن منظور (ت٧١١هـ) كلّ ما يتّصل بهذه الكلمة في الكلام العربي، فذكر الآتي: «جزت الطريـق، وجاز الموضع جوزاً وجؤوزاً وجوازاً ومجازاً، وجاز به وجاوزه جوازاً، وأجازه وأجاز غيره وجازه: سـار فيه وسـلكه، وأجازه: خلفه وقطعه، وأجازه: أنفـذه... والاجتياز: السـلوك. والمجتاز: مجتـاب الطريق ومجيزه. والمجتـاز أيضاً: الذي يحبّ النجاء... والجواز: صك المسـافر. وتجاوز بهم الطريـق، وجاوزه جوازاً: خلّفه... وجوز لهم إبلهم إذا قادها بعيراً بعيراً حتى تجوز. وجوائز الأمثال والأشعار: ما جاز من بلد إلى بلد... والمجازة: الطريق إذا قطعت من أحد جانبيه إلى الآخر. والمجازة: الطريق في السبخة»[2].

والمجـاز على مَفْعَل اسـم مكان من الثلاثـي المجرد جاز يجوز جـوازاً[3]. ويلحظ بالنظـر في مـا ورد في المعاجم اللغوية المتقدّمة أنّ العلماء متّفقون على اشـتقاقه من (ج و ز)، وأنّـه متعلّق بالطريق إذا قطعته وسـلكته وتجاوزتـه، ويبدو أنّ ما ورد في كتاب العـين من أنّه المصدر والموضوع محرّف عن الموضـع، وأنّ المجازة بإلحاق تاء التأنيث بآخره أشهر من المجاز.

المجاز اصطلاحاً

وقـف الدكتور أحمـد مطلوب عـلى التعريف بالمجـاز، وذكر أنّ العلـماء القدامى عرّفوه، وسمّى أبو عبيدة (ت٢٠٧هـ) أحد مؤلفاته بمجاز القرآن، وعنى به التفسير. والمجاز في الاصطلاح على صلة وثيقة باللغة، فهو يعني الانتقال من موضع إلى آخر،

(١) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج١، ص٤٩٤، مادة (جوز).
(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج٥، ص٣٢٦ـ٣٢٧، مادة (جوز).
(٣) اُنظر: مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ج٣، ص١٩٣.

ثمّ انتقل ليدل على الاجتياز من معنى إلى آخر، ولم يُعرّف إلّا في القرن الثالث الهجري مقابلاً بالحقيقة، وكان سيبويه (ت١٨٠هـ) يُسمّيه السعة في الكلام، وسمّاه الفرّاء (ت٢٠٩هـ) الإجازة. ووقف الجاحظ (ت٢٥٥هـ) عليه ومثّل له وعدّه ممّا يفخر به العرب، وتابعه ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، وهو عند المبرّد (ت٢٨٥هـ) بمعنى التفسير كما هي الحال عند أبي عبيدة. وهو عند ابن جنّي (ت٣٩٢هـ)، وابن فارس (ت٣٩٥هـ) ما يضادّ الحقيقة، وهو وارد في كلام العرب، وعدّه ابن رشيق (ت٤٦٣هـ) من مفاخر العرب، ووقف عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، والرازي (ت٦٠٦هـ)، والسكاكي (ت٦٢٦هـ)، وابن الأثير (ت٦٣٧هـ)، والقزويني (ت٧٣٩هـ)، والعلوي (ت٧٤٩هـ)[1]. والمهم في الأمر الوقوف على آراء أئمّة البلاغة للوقوف على خلاصة ما وصلوا إليه في تبيين هذا الفن الراقي وأقسامه.

ذكر عبد القاهر الجرجاني: «**اعلَمْ أنَّ طريق المجازِ والاتّساعِ في الذي ذكرناه قبلُ أنّك ذكرتَ الكلمةَ وأنت لا تريدُ معناها، ولكن تريدُ معنى ما هو رِدفٌ له أو شبيهٌ، فتجوّزتَ بذلك في ذاتِ الكلمة وفي اللفظِ نفسه. وإذ قد عرفتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ في الكلامِ مجازاً على غيرِ هذا السبيلِ، وهو أن يكونَ التجوُّزُ في حُكمٍ يجري على الكلمة فقط، وتكونَ الكلمةُ متروكةً على ظاهرِها، ويكونَ معناها مقصوداً في نفسهِ، ومُراداً من غيرِ توريةٍ ولا تعريض. والمثالُ فيه قولُهم: نهارُك صائمٌ وليلكُ قائمٌ، ونام ليلي وتجلّى همي. وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾[2]... أنت ترى مجازاً في هذا كلِّه، ولكن لا في ذَواتِ الكلم وأنفُسِ الألفاظ، ولكن في أحكامٍ أُجريتْ عليها، أفلا ترى أنّك لم تتجوَّزْ في قولك: نهارُك صائمٌ وليلُكَ قائمٌ، في نفسِ صائمٍ وقائمٍ، ولكنْ في أنْ أجريتهما خبرينِ على النَّهارِ والليلِ. وكذلك ليس المجازُ**»[3].

(١) أُنظر: المصدر السابق: ج٣، ص١٩٣ـ١٩٩.
(٢) البقرة: آية ١٦.
(٣) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز: ص٢٢٦.

وذكر السكاكي أنّ المجاز: «**الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق، استعمالاً في الغير، بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة حقيقتها في ذلك النوع**»[1].

وذكر الخطيب القزويني: «**وأمّا المجاز: فهو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأويل. وللفعل ملابسات شتى: يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان والمكان، والسبب، فإسناده إلى الفاعل إذا كان مبنياً له حقيقةً كما مرّ، وكذا إلى المفعول إذا كان مبنياً له، وقولنا: ما هو له يشملها، وإسنادها إلى غيرهما لمضاهاته لما هو له في ملابسة الفعل مجاز، كقولهم في المفعول به: (عيشة راضية)، و(ماء دافق)، وفي عكسه (سيل مفعم)، وفي المصدر (شعر شاعر)، وفي الزمان (نهاره صائم)، و(ليله قائم)، وفي المكان (طريق سائر)، و(نهر جار)، وفي السبب (بنى الأمير المدينة)... وقولنا: بتأويل. يخرج نحو قول: الجاهل شفى الطبيب المريض، فإن إسناده الشفاء إلى الطبيب ليس بتأويل، ولهذا لم يُحمل**»[2].

والحاجة إلى المجاز وغيره من الفنون العقلية والذوقية يردّ إلى أنّهم: «**رأوا أنّه يضيقُ نطاقُ النُّطق عن استعمال الحقيقة في كل اسمٍ، فعدَلوا إلى المجاز والاستعارات**»[3].

ومجال المجاز واسع في اللغة بصرف النظر عمّن أنكره، فقد ذكر السيوطي أنّ: «**جميعُ أنواع الاستعارات داخلةٌ تحت المجاز... وكذلك قولك: (بنيتُ لك في قلبي بيتاً) مجاز استعارة لما فيه من الاتّساع والتوكيد والتشبيه، بخلاف قولك: (بنيت داراً)، فإنّه حقيقة لا مجازَ فيه ولا استعارة، وإنّما المجاز في الفعل الواصل إليه... ومن المجاز في اللغة أبوابُ الحذف والزيادات، والتقديم والتأخير، والحَمْل على المعنى، والتحريف: نحو ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[4] الاتّساع فيه أنّه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في**

(١) السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم: ص٣٥٩.
(٢) الخطيب القزويني، جلال الدين محمد، الإيضاح في علوم البلاغة: ج١، ص٨٢ـ٨٩.
(٣) السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة: ج١، ص٣٨.
(٤) يوسف: آية ٨٢.

الحقيقة سؤاله، والتشبيه أنّها شُبّهت بمَن يصحّ سؤاله لمّا كان بها، والتوكيد أنّه في ظاهر اللفظ أحالَ بالسؤال على مَنْ ليس من عادته الإجابةَ، فكأنّهم ضمنوا لأبيهم أنّه إن سأل الجمادات والجَمال أَنبأَتْهُ بصحة قولهم، وهذا تناهٍ في تصحيح الخبر»[1].

وفي ما يتصل بأقسام المجاز، فقد وقف عليها بصورة واضحة من البلاغيين القدماء السكاكي، فقسّمه على مجاز لغوي ويُسمّى (المفرد)، وعقلي ويُسمّى (الجملة)، وينقسم اللغوي على ما يرد لحكم الكلمة أو معناها، وما يتصل بمعنى الكلمة ينقسم على ما فيه فائدة، وما ليس بذي فائدة، والمتضمّن للفائدة ينقسم على ما فيه بلاغة وما يخلو منها[2].

ووقف على أقسامه من المحدثين والمعاصرين محمد الطاهر بن عاشور، والسيد أحمد الهاشمي، وأشارا إلى العلاقات الرابطة بين الحقيقة والمجاز[3]، نحو قول ابن عاشور: «**والعلاقة هي المناسبة التي بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، والعلاقات كثيرة أنهاها بعضهم إلى ثمان وعشرين وأشهرها المشابهة، والسببية، والمجاورة، والبعضية، ويُعبّر عنها بالجزئية نسبة للجزء، والتقييد، أي: إطلاق اللفظ الموضوع لمعنى مقيّد على المعنى المطلق والمثال. وأضدادها، ويمكن ردّها إلى المشابهة والتلازم؛ لأنّ المراد اللزوم عرفاً. فالمجاز إن كانت علاقته المشابهة سُمّي استعارة وإن كانت علاقته غير المشابهة سُمّي مجازاً مرسلاً وقد يختلط مجاز اللزوم بالكناية. وأهم أنواع المجاز هو الاستعارة لشدّة عناية بلغائهم بالتشبيه وتنافسهم فيه منذ زمن امرئ القيس؛ ولذلك سمّوا ما لم يُبنَ على المشابهة بالمرسل؛ لأنه المطلق عن التشبيه المعتبر عندهم**»[4].

---

(١) السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة: ج١، ص٣٥٧.

(٢) اُنظر: السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم: ص٣٦٢ـ٣٦٣.

(٣) اُنظر: عاشور، محمد الطاهر، موجز البلاغة: ص٣٥ـ٣٦. الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة: ص٢٩٠ـ٣٠٣.

(٤) عاشور، محمد الطاهر، موجز البلاغة: ص٣٥.

ووضح السيد أحمد الهاشمي المجاز بقسميه، فذكر أنّ المجاز المرسل هو: «**الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير (المشابهة) مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الوضعي. وله علاقات كثيرة، أهمها: السببية...**»[1]. والمجاز العقلي هو: «**إسناد الفعل، أو ما في معناه (من اسم فاعل، أو اسم مفعول، أو مصدر) إلى غير ما هو له في الظاهر، من المتكلّم، لعلاقة مع قرينة تمنع من أن يكون الإسناد إلى ما هو له**»[2].

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية في كلام الإمام الحسين عليه السلام

بعد أن اتضح المجاز بوصفه فنّاً بلاغياً رفيعاً، ننتقل إلى كلام الإمام الحسين عليه السلام (الرسائل والخطب)؛ إذ كان هذا النمط واضحاً في الرسائل والخطب الطوال، وخطبتين خطبهما في جيش الحر، وفي تصبيره أهل بيته وبني عمومته على البلاء.

ومواضع المجاز في كلامه عليه السلام هي:

١ـ «**إلى مَن بلغه كتابي هذا... فقد أتتني كتبكم... فإن كان أمركم على ما أتتني به كتبكم...**».

يُلحظ في هذه العبارات المتقدّمة إسناد الأفعال إلى غير فاعلها، فالكتاب، أو الكتب، بمعنى الرسالة أو الرسائل هي التي تبلغ (تصل)، أو تأتي، علماً أنّ هناك مَن قام أو يقوم أو سيقوم بإيصالها، أو الإتيان بها. وهذا النوع من المجاز يُدعى بالمجاز المرسل، علاقته اللازمية، فوصول الكتب، أو الرسائل، أو إتيانها يوجب وجود مَن جاء بها، وهو الرسول. ويُلحظ أنّ المجاز هنا قد خرج طلباً للإيجاز، فضلاً عن العناية والاهتمام بإظهار الأهم، وهو الكتب أو الرسائل.

٢ـ «**خُطّ الموت على وِلد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة... كأنّي بأوصالي تُقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء... واكسبوا الحمد بالنجح ولا تكتسبوا**

(١) الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة: ص٣٩٢.
(٢) المصدر السابق: ص٣٩٦.

بالمطل ذماً... واعلموا أنّ المعروف مكسب حمداً ومعقب أجراً، فلو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسرُّ الناظرين، ولو رأيتم اللؤم رأيتموه سمجاً مشوّهاً تنفر منه القلوب... وأنّ أوصل الناس مَن وصل مَن قطعه...».

يُلحظ في قوله عليه السلام: «**خُطّ الموت على وِلد آدم**»، استعمال المجاز العقلي القائم على الإسناد إلى المسبب، فالذي خطَّ الموت هو الله تعالى مسبب الأسباب، وما الموت إلّا سبب.

ويُلحظ في قوله: «**تُقطّعها عسلان الفلوات**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة المحلّية، أي: أنياب عسلان الفلوات، والأنياب هي التي تقوم بالتقطيع، وهي تحلّ في جسم كلّ حيوان مفترس، أو أنّ كلّ حيوان مفترس يحمل أنياباً يُقطِّع بها فريسته.

ويُلحظ في قوله: «**واكسبوا الحمد بالنجح ولا تكتسبوا بالمطل ذماً**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة الآلية، أي: إنّ النجح وسيلة إلى اكتساب الحمد، والذم وسيلة إلى اكتساب المطل.

ويُلحظ في قوله: «**واعلموا أنّ المعروف مكسب حمداً ومعقب أجراً**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة الآلية، أي: إنّ المعروف وسيلة إلى اكتساب الحمد واعتقاب الأجر. ويلحظ استعمال مجاز آخر فيه هو المجاز العقلي بالإسناد إلى المسبب، فالمعروف سبب والمسبب هو صاحب المعروف.

٣ـ «ومَن تخلّف لم يبلغ الفتح، والسلام».

يُلحظ في قوله: «**لم يبلغ الفتح**»، استعمال المجاز المرسل على اعتبار ما سيكون، ويقصد به استشراف المستقبل، وما سيؤول إليه مَن يسير معه لمجابهة بني أُميّة من المكانة العظيمة في الدنيا والآخرة.

٤ـ «أمّا بعد، فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يُخبرني فيه بحسن رأيكم... فإذا قدِم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجِدّوا».

يُلحظ في قوله عليه السلام: «**فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة اللازمية، فكتاب مسلم بن عقيل يلزم وجود حامله.

ويُلحظ في قوله عليه السلام: «**فاكمشوا أمركم**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة المحلّية، فالأمر عقدته النفوس، فهو يحلّ فيها، والنفوس تحمله.

٥ـ «إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم...».

يُلحظ في قوله عليه السلام: «**أتتني كتبكم**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة اللازمية، فكتب أهل الكوفة تلزم وجود حاملها.

٦ـ «وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم وقدِمت به عليّ رسلكم انصرفت عنكم».

يلحظ في قوله عليه السلام: «**أتتني كتبكم**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة المحلّية، فالقصد ما تضمنته هذه الكتب، وهذا المعنى يتحمّله الفعل أتى.

٧ـ «إنّ هذه الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها... إنّ الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم...».

يُلحظ في قوله عليه السلام: «**الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة المحلّية، فالقصد أنّ مَن يحلّ في الدنيا هم الذين يغيّرونها، ويجعلونها تتنكّر الطيبين، ويميلون إلى الباطل.

ويُلحظ في قوله عليه السلام: «**الناس عبيد الدنيا**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة المحلّية، فالناس عبيد أهل الدنيا، أي: مَن يطلبونها، وهم فيها، وغارقون في لذّاتها. وربما يكون هذا الكلام فيه استعارة، فشبّه الإمام الدنيا برجل ثري له عبيد يطيعونه، وقصد الإمام أنّ الناس غدوا متشبّثين بمغريات الحياة الدنيا، وهم طوع أمرها، كأنّها سيّدهم.

ويُلحظ في قوله عليه السلام: «**والدين لعقٌ على ألسنتهم**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة البدلية، فأبدل الكلام باللعق، فالدين على اللسان فقط، وسرعان ما يزول.

٨ ـ «**ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها...**».

يُلحظ في قوله عليه السلام: «**ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها**»، استعمال المجاز العقلي بالإسناد إلى المسبب، فالأنفس سبب للأمر بالسوء، ولكن العقل هو الفاعل فيها والمؤثر. وربما يكون في الكلام استعارة بتشبيه الأنفس بالأشخاص، وكأنّ كلّ نفس شخصٌ لم يتخيّر طريقاً صحيحاً لما دُعي إلى الحق، فيقوم الشخص المقابل بمعاتبته.

٩ ـ «**الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور مَن غرّته، والشقي مَن فتنته، فلا تغرّنكم هذه الدنيا، فإنّها تقطع رجاء مَن ركن إليها، وتُخيّب طمع مَن طمع فيها... ثمّ إنّكم زحفتم إلى ذرّيته وعترته تريدون قتلهم...**».

يُلحظ في قوله عليه السلام ميله بشدّة إلى استعمال المجاز العقلي بالإسناد إلى المسبب، ففي قوله: «**فجعلها دار فناء وزوال**»، الدنيا سبب، ولكن المسبب هو الله تعالى.

وقوله: «**متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال**»، هناك أسباب لتصريف أحوال الناس في الدنيا، والله تعالى مسبب الأسباب.

وقوله: «**فالمغرور مَن غرّته، والشقي مَن فتنته، فلا تغرّنكم هذه الدنيا**»، المغرور مَن غرّته نفسه، وما الدنيا إلّا سبب لتيسير حبائل الغرور.

ويُلحظ في قوله عليه السلام: «**زحفتم إلى ذرّيته وعترته تريدون قتلهم**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة البدلية، فزحفتم بمعنى مشيتم، واختيار الزحف لنكتة هي أنّ مَن يزحف يتنكّر ويتهيّب، فهم أدرى بمَن يُريدون قتلهم، ولكن سارعت نفوسهم إلى الدنيا فأغرتها.

١٠ ـ «**ولا أمل أصبح لكم فيهم... ألَا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة... ألَا وإنّي زاحف بهذه الأُسرة... وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف، فيسومهم كأساً مصبّرة...**».

يلحظ في قوله عليه السلام: «**ولا أمل أصبح لكم فيهم**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة

البدلية، فالقصد: ولا رأي أصحّ لكم فيهم.

ويُلحظ في قوله عليه السلام: «**أَلا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة البدلية أيضاً، فالقصد: قد حكم أو أمر أو رأى.

ويُلحظ في قوله عليه السلام: «**أَلا وإنّي زاحف بهذه الأُسرة**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة البدلية أيضاً، فالقصد: سائر بهذه الأُسرة، واستعمال الزحف هنا دليل على الحيطة والحذر، فالإمام يعلم ما الذي يدبّره بنو أُميّة له.

ويُلحظ في قوله عليه السلام: «**وابعث عليهم سنين كسني يوسف**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة المحلّية، فالمراد العذاب بالقحط في سنين، والقحط محلّه السنين، وربما تكون علاقته البدلية، والقصد عذاب كعذاب سني يوسف عليه السلام.

ويُلحظ في قوله عليه السلام: «**وسلِّط عليهم غلام ثقيف**»، استعمال المجاز العقلي بالإسناد إلى المسبب، فغلام ثقيف المسبب في تسليط العذاب، والقصد: عذاب غلام ثقيف.

ويُلحظ في قوله عليه السلام: «**فيسومهم كأساً مصبّرة**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة البدلية، فيسومهم بمعنى: يسقيهم. فغلام ثقيف يسقيهم كأساً بعد طول انتظار.

١١ـ « فما الموت إلاّ قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة...».

يُلحظ في قوله عليه السلام: «**فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء**»، استعمال المجاز العقلي بالإسناد إلى المسبب، فالموت سبب للعبور عن البؤس والضراء، والمسبب الله تعالى.

١٢ـ «اللهمّ احصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً...».

يُلحظ في قوله عليه السلام: «**اللهمّ احصهم عدداً، واقتلهم بدداً**»، استعمال المجاز المرسل بعلاقة التعليق الاشتقاقي، فالمصدر هنا أُطلق على اسم المفعول، (عدداً) بمعنى: معدودين، و(بدداً) بمعنى: مبددين.

الخاتمة

هناك نتائج يودّ الباحث عرضها، وهي:

١ ـ يلحظ أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يخرج على سمت العرب في استعمال المجاز في كلامهم، وهو ابن سادة البلاغة، فجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله خير مَن نطق بالضاد، وهو أفصح العرب لساناً، وأنطقهم بياناً، وأبوه أمير المؤمنين عليه السلام، أمير البيان، بان بنهجه ما انبهر به بلغاء العرب.

٢ ـ استعمل الإمام الحسين عليه السلام المجاز بقسميه المرسل والعقلي، وكان أميل إلى القسم المرسل، المتمثّل بعلاقات البدلية، واللازمية، والمحلّية، واعتبار ما سيكون، والتعليق الاشتقاقي.

٣ ـ يُلحظ أنّ الإمام الحسين عليه السلام استعمل المجاز بحسب ما يفرضه الواقع الذي يعيشه، واتضح هذا الأمر بصورة جلية فيما يتصل بالمجاز المرسل بعلاقة اللازمية، فالإمام عليه السلام يذكر إتيان الكتب إليه من دون ذكر حاملها.

٤ ـ يُلحظ من النصوص التي ورد فيها المجاز أنّه يخرج للإيجاز؛ بدليل أنّه يظهر شيئاً ويُخفي آخر هو المقصود، ولكن الذي ذُكر أهيب، أي: إنّ الميل إلى المجاز لو لم يكن أوقع في النفوس لكانت الحقيقة أحق بالاستعمال منه.

فهرست المصادر

* القرآن الكريم.

١ ـ الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داوود الدينوري (ت٢٨٢هـ).

٢ ـ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الشيخ المفيد (٣٣٦ـ٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد طباعة نشر وتوزيع.

٣ ـ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣، ١٩٩٣م، دار التوفيق النموذجية للطباعة، الناشر المكتبة الأزهرية للتراث، مصر.

٤ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت١١٠٦هـ)، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

٥ ـ تاريخ الأُمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، [قوبلت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة (بريل) بمدينة ليدن في سنة ١٨٧٩م]، راجعه وصححه وضبطه: نخبة من العلماء الأجلاء، منشورات مؤسسته الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

٦ ـ تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، بيروت ـ لبنان.

٧ ـ تحف العقول عن آل الرسول عليهم السلام، الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني رحمه الله (من أعلام القرن الرابع)، عنى بتصحيحه والتعليق عليه: علي أكبر الغفاري، ط٢، ١٣٦٣ش.ق، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المشرفة.

٨ ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، ط١٣، ١٩٦٣م، مطبعة السعادة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٩ ـ حياة الإمام الحسين بن علي دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي، مطبعة الآداب، ١٩٧٦م، النجف الأشرف.
١٠ ـ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، مطبعة المنار، ١٣٣١هـ.
١١ ـ العوالم، الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ عبد الله البحراني (قيل: إنّه كان حيّاً قبل ١٢٤٥هـ عن معجم المؤلفين، والأثبت ما ذكره أغا بزرك الطهراني، وهو عثوره على نسخة من أجزاء الكتاب بخط المؤلف فرغ منها سنة ١٢٦٦هـ).
١٢ ـ كامل الزيارات، الشيخ الأقدم أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي (ت٣٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، ط١، ١٤١٧هـ، المطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة (نشر الفقاهة).
١٣ ـ كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥ه)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ط٢، ١٤٠٩هـ، مؤسسة دار الهجرة، إيران.
١٤ ـ كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، أبو الحسن على بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي رحمه الله (ت٦٩٣هـ)، دار الاضواء، بيروت ـ لبنان.
١٥ ـ كلمات الإمام الحسين عليه السلام، إعداد: لجنة الحديث في معهد تحقيقات باقر العلوم عليه السلام، منظمة الإعلام الإسلامي، ط٣، مطبعة دانش، دار المعروف للطباعة والنشر، قم ـ إيران.
١٦ ـ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور الأفريقي المصري) (ت٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، ١٤٠٥هـ.
١٧ ـ اللهوف على قتلى الطفوف، على بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسينى (ت٦٦٤ه).
١٨ ـ لواعج الأشجان في مقتل الحسين، السيد محسن الأمين العاملي.
١٩ ـ المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ط٣، مكتبة أنوار التراث، القاهرة.

٢٠ ـ معاني الأخبار، الشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، عني بتصحيحه: علي أكبر الغفاري، الناشر انتشارات إسلامي وابسته بجامعة مدرسين حوزه علميه، قم، ١٣٦١هـ.
٢١ ـ معجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م.
٢٢ ـ معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.
٢٣ ـ مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: نعيم زرزور، ط٢، ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
٢٤ ـ مناقب آل أبي طالب، الإمام الحافظ ابن شهر آشوب شير الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب ابن أبي نصر السروي المازندراني (ت٥٨٨هـ)، قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته على عدّة نسخ خطية: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية في النجف، ١٩٥٦م.
٢٥ ـ موجز البلاغة، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت١٢٨٤هـ/ ١٨٦٨م)، ط١، المطبعة التونسية.
٢٦ ـ موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، إعداد: لجنة الحديث: محمود شريفي ـ سيد حسين سجادي ـ محمود أحمديان ـ سيد محمود مدني، معهد تحقيقات باقر العلوم عليه السلام منظمة الإعلام الإسلامي، ط١، ١٩٩٥م، دار المعروف للطباعة والنشر، ومطبعة دانش، الناشر: دار المعروف، قم ـ إيران.

المنظومة القيمية والأخلاقية في النهضة الحسينية

م. م. سنان سعيد جاسم*

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث ليتم مكارم الأخلاق وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد..

فإنّ علم الأخلاق من أشرف العلوم إن لم يكن أشرفها؛ إذ إنّ قيمة المرء في الحقيقة تُقدّر بأخلاقه وأعماله، لا بجسمه ولا بعلمه ولا بماله، ففي الحديث النبوي الشريف: «**إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١)، ومن كلام الإمام علي عليه السلام: «**قيمة كلّ امرئ ما يحسنه**»(٢).

وإنّـما الأُمـم الأخـلاقُ ما بقيتْ فإن هُم ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا(٤).

حيث اهتمّت الدراسات الإنسانية والاجتماعية والتربوية بدراسة الأخلاق في الطبيعة الإنسانية عبر التاريخ، وعلى مرّ العصور، وحتى الوقت الحاضر؛ لأنّها ترتبط بالممارسات السلوكية الأخلاقية للإنسان حيثما وُجِد؛ لذلك فقد اهتمّت الأديان السماوية والمذاهب الفكرية الفلسفية بدراستها، وتعددت حولها الآراء، واختلفت

---

* جامعة البصرة/ كلّية التربية ـ القرنة ـ/ قسم اللغة العربية، علوم تربوية ونفسية، الإرشاد النفسي والبرامج الإرشادية.

(١) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج٨، ص١١.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص٥٣٢.

(٣) شوقي، أحمد، الشوقيات.

مناهج البحث فيها، من حيث تنوّع طُرق وأساليب عرضها، والوسائل المتّبعة فيها.

وقد بذل العلماء والباحثون في شؤون التربية والقيم الدينيّة والأخلاقية، جهوداً كبيرة متواصلة للتوصّل إلى حلّ المشكلات الاجتماعية في ظل الظروف الراهنة لبناء الإنسان والمجتمع على أُسس سليمة وصالحة، ولم تتوقّف هذه الجهود قديماً وحديثاً ولا زالت مستمرّة، إلّا أنّها لم تتّفق على نقاط مشتركة يمكنها أن تكون ميزاناً ومعياراً للجميع؛ وذلك لاختلاف العلماء والمفكرين في عقائدهم الفكرية، ودراستهم للتاريخ والمجتمع، وفي واقعنا الإسلامي تعتبر القيم الأخلاقية والمفاهيم التربوية من أُصول الدين المبني على علاقات إنسانية طيبة في التربية والتعليم، وقال الحكماء: «**إنّ اعتدال الإنسان في الأخلاق قد يكون السبب وحده في سعادته**»، ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وآله الأخلاق أساس الدين بقوله: «**الدين حُسن الخلق**»[1]. بل ذهب عليه الصلاة السلام وآله الكرام أبعد من ذلك، فقد جعل مكارم الأخلاق الغاية من بعثته الشريفة: «**إنّما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق**»[2].

وتعتبر النهضة الحسينية هي امتداد لفكر الرسول صلى الله عليه وآله ومنهجه الأخلاقي، حيث تعتبر الملحمة الحسينية التي سُطِّرت بأنامل أخلاقية في كربلاء المقدّسة هي منهج مكمّل لأخلاق بيت النبوّة، امتدت أبعد من ذلك هي النهضة الأخلاقية، لتشمل كافة مفاصل الحياة التربوية والاجتماعية والدينية والأخلاقية والاقتصادية، وأصبحت دستوراً أخلاقياً يقتدي به الثوار الشرفاء في العالم؛ لأنّها تعكس واقعاً أخلاقياً يستفيد منه المفكّرون في عصر العولمة والحداثة، وبالإمكان اعتمادها في بناء منهج تربوي جديد ومعاصر، وفي التقنيات التربوية الحديثة وطرائق التدريس الجديدة.

(١) أُنظر: الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان: ج٨، ص٢٥٠.
(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١٦، ص٢١٠.

الحسين عليه السلام قائداً وشهيداً

نشأ الحسين عليه السلام نشأته المباركة في بيت النبوّة ومنزل الوحي، رضع درّ الإيمان من أُمّه فاطمة البتول عليها السلام، وتغذّى بغذاء التنزيل على مائدة جدّه الرسول صلى الله عليه وآله، وزُقّ العلم زقّاً من يد والده الكرار عليه السلام، وورث الشجاعة والنجدة والشمم والإباء من هؤلاء الكرام عليهم السلام؛ فكان عليه السلام مثالاً لكلِّ خُلُقٍ فاضل، ورمزاً لكلِّ صفة كريمة، وقد بلغ من إبائه وشهامته عليه السلام أنّه لـمّا بايع الناس معاوية في العام الذي سموه عام الجماعة، وبايعه الحسن عليه السلام على شروط شرحها التاريخ لم يفِ له معاوية ولا بواحدة منها. طلب معاوية البيعة من الحسين عليه السلام، فامتنع ولم يبايع، واكتفى منه معاوية بالسكوت والسكون، ولما آل الأمر لولده الفاجر يزيد ترفّع الحسين عليه السلام عن بيعته، وشرح للناس مساوءه، حتى إذا كان من أمر الكوفيين ما كان وخرج عليه السلام من الحجاز إلى العراق، وأخذ الطريق الأعظم في سيره فقيل: لو تنكبت الطريق كما فعل ابن الزبير؟ فأجاب: «**لا والله، لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاضٍ**»[1]. فأبت نفسه الكريمة أن يفارق الطريق المألوف عزّة وإباء، وسار فيه بالرغم على الأُمويين وأذنابهم.

قصد الحسين عليه السلام الكوفة وعلى وجهه الكريم نور النبوّة وأُبّهة الرسالة ووقار الولاية، وهيبة الإمامة، وسيماء جدّه المصطفى بين عينيه، ونفس أبيه المرتضى بين جنبيه، في ذلك الموكب تحف به أسرته وإخوته وبني أعمامه، وكفاك بموكب يسقي ألف فارس وألف فرس، مما كان يحمله من الماء، وذلك عند ملاقاة الحر بن يزيد الرياحي وأصحابه الكوفيين في الأرض القاحلة التي لم يكن فيها ماء ولا كلاء، نادى الحسين عليه السلام أهل بيته وأصحابه: «**اسقوا القوم وأرووهم من الماء، ورشفوا الخيل ترشيفاً**»[2].

كان أعداء الحسين عليه السلام على يقين من إبائه، وعدم خضوعه لطاغيتهم، ولكنّهم لما

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٣٥.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٧٨.

رأوه عليه السلام بقي وحيداً فريداً بينهم بعدما قتلوا أصحابه وإخوته وأولاده وبني أعمامه أرادوا أن يبرّروا أعمالهم أمام الرأي العام من أنّهم لا يريدون قتله، وإن جلّ إرادتهم منه البيعة ليزيد فحسب، فعرضوا عليه الأمان، عرض ذلك عليه عمر بن سعد عن عبيد الله بن زياد، فأبى عليه السلام ذلك، وقال: «**لا والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد**»(١). ثمّ خاطب القوم وقال في خطبته: «**ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون**»(٢).

وهكذا كانت عزّة الحسين عليه السلام، هكذا كان إباء الحسين عليه السلام دعامة قائمة بذاتها، وعمود من الإسلام وهو محوط بنسب كريم ليس في الدنيا أزكى وأطهر وأطيب منه ما دام الله قد نزهّه وطهّره، ودرج في حجور المصطفى صلى الله عليه وآله والمرتضى والبتول عليهما السلام، وترعرع في بيت الرسالة ومهبط الوحي، وكان ريحانة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في دنياه وسيد شباب أهل الجنة في آخرته، حاول معاوية أن يقيد الإمام الحسين عليه السلام ببيعة ليزيد، أو يضمن على الأقل سكوت الإمام الحسين عليه السلام عن يزيد، فلم يُغنى بطائل.

ويروي المؤرّخون عدّة مواقف للحسين عليه السلام مع معاوية حين أخذ يعدّ الأمر لابنه يزيد من بعده، وقد أراد معاوية أن يحمل الحسين عليه السلام على البيعة ليزيد بحرمان بني هاشم جميعاً من عطائهم، حتى يبايع الحسين عليه السلام، فلم يتحقق له ما أراد حتى مات معاوية والحسين عليه السلام باقٍ على موقفه من الإنكار لبيعة يزيد، حين مات معاوية وكثير من الناس ـ وعامّة أهل العراق بنوع خاص ـ يَرون بغض بني أُمية وحبّ أهل البيت عليهم السلام لأنفسهم ديناً.

فقد اكتشف المجتمع الإسلامي ما فيه الكفاية من عورات الحكم الأُموي، وذاق طعم عذابه وخبر ألوانه من تعسّفه وظلمه بالأرزاق، ولم يكن يزيد في مثل تروي أبيه

(١) الأزدي، أبو مخنف، مقتل الإمام الحسين عليه السلام: ص١١٨.
(٢) ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، مثير الأحزان: ص٤٠.

وحزمه واحتياطه للأُمور، ولم يلتزم أُسلوب أبيه في الاحتفاظ بالغطاء الديني، مدلاً على أفعاله وتصرّفاته، ولم يكن بين الحسن والحسين عليهما السلام من جهة وبين يزيد من جهةٍ أُخرى أيّ عهد أو ميثاق، وهكذا؛ فقد انزاحت بموت معاوية جميع الأسباب التي كانت تحول بين الحسين عليه السلام وبين الثورة والنهضة في عهد معاوية، لقد كان يزيد من أبعد الناس عن الحذر والحيطة والترويّ، كان إنساناً صغير العقل متهوراً سطحي التفكير، لا يهمّ بشيء إلّا ركبه. وأُسلوبه في معالجة المشاكل التي واجهته خلال حكمه يعزز وجهة النظر هذه، وتدل بعض الملاحظات التي ذكرها المؤرّخون عن حياته العاطفية، إنّ هذا النزق والتهور هي سمات أصيلة في شخصيته، ونشأة يزيد المسيحية جعلته أضعف ما يمكن بالعقيدة التي يريد أن يحكم الناس باسمها ـ أعني الإسلام ـ وحياة التحلّل التي عاشها قبل أن يلي الحكم، وقد جعل تلهُّف يزيد على أخذ البيعة له من كبار وزعماء المعارضة له وعلى رأسهم الحسين عليه السلام، فقد كان أكبر همّه حين آل الأمر إليه بعد موت أبيه، هو بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعة يزيد، فكتب إلى الوليد بن عتبة والي المدينة كتاباً يخبره بموت معاوية، وكتاباً آخر جاء فيه: «**وأمّا بعد، فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذاً ليس فيه رخصة، يبايعوا والسلام**»[1].

وقد آثر أن يتخلّص من الوليد بالحسنى حين دعاه إلى البيعة، وقال له: «**مثلي لا يبايع سرّاً، ولا يجتزأ بها منّي سرّاً، فإذا خرجت للناس ودعوتنا للبيعة معهم كان الأمر واحداً**»[2].

ما كانت هجرة الحسين عليه السلام إلّا لمحض الدعوة الإصلاحية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودلّ على هذا صريح قوله عليه السلام: «**وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، بالأمر بالمعروف والنهي**

(١) ابن الأثير، عليّ بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج٤، ص١٤.
(٢) المصدر السابق: ص١٥.

عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي رسول الله»[1]. هاجر إلى مكّة المكرمة وهي مهبط الوحي ومبعث الرسالة، وفيها موسم الحج العام، ويجتمع فيه كلّ عام من البلاد الإسلامية جمع غفير، فقصدها ليبثّ هناك دعوته وينشر رسالته، فيحملها عنه كلّ مسلم، ويبلغ بها الجهات النائية لينقذ الإسلام من الهوّة التي أنزلها به الأُمويون وأتباعهم، فإنّ معاوية ابتدع في الدين وشق عصا المسلمين، ووضع الأحاديث الكاذبة، وجعل أمر الأُمة الإسلامية بيد رجال ذوي مطامع قادهم إلى الشهوات لا إلى الدين، لم تثنهم عن ذلك خشية من الله.

أيزيد يتقلّد زمام الخلافة؟! ما أعظمها من محنة! ليقف أبو الأحرار في وجه جيش الشرك الذي يريد القضاء على الدين الإسلامي، ويطلب يوماً بيوم بدر، وفتحاً بفتح مكّة، وهيهات صرخ أبو عبد الله عليه السلام صرخة الحق، ونشر راية الإخلاص، ووقف محامياً عن دين جدّه، الذي تحمل الأذى في نشره وإبلاغه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

قُتِل الحسين عليه السلام فأكبر الناس مقتله واستعظم الجميع تلك الحادثة، واستبشع الكل تلك المجزرة حتى الذين اشتركوا في ذلك الإثم وأشهروا السلاح على آل الرسول أحجموا عن الإقدام، وأعظموا حزّ رأس الإمام من أجل ذلك، خشي خلفاء بني أُميّة ثورة الناس عليهم، واتخاذ أعدائهم لتلك الحادثة المروعة سلاحاً عليهم، فخنقوا كلّ صوت ارتفع بالشكوى، ولم يكفّهم ذلك، بل جعلوا من شتم الحسين عليه السلام وأشياعه على المنابر قبل كلّ صلاة وبعدها سُنّةً يتوارثونها خَلَفهم عن سَلَفِهم، محاولين بذلك ستر تلك الجريمة، وإلقاء التبعة على المقتول، وإفهام السذّج والبسطاء أنّه قُتِل بحق؛ لئلّا ينتبهوا إلى فظاعة الجريمة وجسامة الذنب بلا ريب.

---

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢٩.

(٢) التوبة: آية ١١١.

القِيَم: معناها ومفهومها وأهمّيتها

لمحة تاريخية

يعود تاريخ القِيَم إلى قدم الإنسان، فقد غرست الجماعات الاجتماعية في نفوس صغارها قيمها وآراءها عن الصواب والخطأ، وإن نقل القِيَم هي جزء من حياة الإنسان، فالأفراد أو الجماعات يعلمون الخَلَف السلوك المناسب والسلوك الطيب أو غير الطيب أو غير المرغوب فيه، هذا التعليم يكون شعورياً أو لا شعورياً، «**ويتّفق الفلاسفة ـ ومنهم إفلاطون وسقراط وأرسطو ـ منذ القدم وحتى الآن على أنّ الهدف من التعليم هو جعل الإنسان ذكيّاً وطيّباً**»، وفي القرن التاسع عشر أصبحت القيمة مبحثاً أساسياً من مباحث الفلسفة يعرف بمبحث القِيَم، وكان ذلك على يد الفيلسوف الألماني نيتشه والبراجماتيين، حسب ما أجمع عليه أغلب مؤرّخي الفلسفة كمبحث قائم.

ويُطرح سؤال هنا: هل كان مبحث القيم موجوداً قبل القرن التاسع عشر كمبحث قائم بذاته، أم كانت تطاله دائرة الإنكار؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يمكن القول: إنّ القيم قديمة بقدم الإنسان نفسه، ولكنه لم يجعل لها الصدارة في أقواله أو تفكيره، رغم ما لها من أهمّية في حياته، لذلك في الفلسفات القديمة للقيم لا نعثر على مشكلتها المحورية.

إنّ الفلاسفة القدماء عالجوا مشكلات تندرج تحت مبحث القيمة، مثل: الخير والصواب والالتزام والفضيلة، فإذا رجعنا إلى فلسفات الإغريق ـ مثلاً ـ وجدنا هذه القيم موجودة ضمنياً في فلسفاتهم، فقد اهتمّ سقراط بالفلسفة عامة والأخلاق خاصة، كما ونجد القيمة في فلسفة إفلاطون في حديثه عن الخير الأقصى تتويجاً لعالم المُثل، ونراها عند أرسطو في محاولته تنسيق الكائنات على أساس غائي، وعليه؛ فإنّ القيمة لم تحتل مكان الصدارة في فلسفات الإغريق، أمّا العصور الوسطى، فنجد

القيمة في فلسفة توما الأكويني تندرج تحت اسم الخير الأقصى أو الكمال، وتحتل القيم مكاناً بارزاً في الفلسفات الإسلامية متمثلة في فكر الفارابي وابن سينا، وفي التفكير الأخلاقي عند ابن مسكويه والغزالي وفلاسفة الصوفية، وكان همّهم أن يقيموا سلّماً هرمياً للقيم على أساس ديني، بحيث ينظر للقيمة على أنّها تشكّل الأساس العام لكلّ مجالات العلوم والمعرفة الإنسانية.

أمّا في العصر الحديث، فلأنّ خير ما يعبّر عن فلسفة القيم مذهب كانْت، فالبعض يعدّه فيلسوفاً للقيمة على الأُصول؛ لأنّه يؤكّد على أنّ عالم القيم عالم مغلق على ذاته بالنسبة للعقل الخالص، وليس مقفلاً بالنسبة للعقل العملي؛ ولذا كانت فلسفة القيم هي وراثة التراث الكانْتي، إنّ القيم تمثّل جانباً رئيسياً من ثقافة أيّ المجتمع، فهي تمثّل لبّ الثقافة وجوهرها، وأنّ القيم يمكن أن تُحدِّد وتُنظِّم النشاط الاجتماعي لكافّة أفراد المجتمع.

إنّ مفهوم القيمة من المفاهيم التي أهتم بها الكثير من الباحثين في مجالات مختلفة كالفلسفة، والتربية، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم النفس وغير ذلك من المجالات، وما يهمّنا هو مفهوم القيمة في علم النفس، فقد اهتم علماء النفس الاجتماعي بكلّ جوانب سلوك الفرد في المجتمع، فعلم النفس الاجتماعي يركّز عناية على سمات الفرد، واستعداداته واستجاباته، فيما يتّصل بتعاملات مع الآخرين، فموضوع القيم من المواضيع الأساسية في علم النفس الاجتماعي؛ ذلك لأنّ القيم تُعد من المحددات المهمة للسلوك الاجتماعي، إذ إنّ لكلّ مجتمع من المجتمعات فلسفته التي يتعامل بموجبها، وهكذا نجد أنّ القيم موجهات لسلوك الأفراد في المجتمع، وبها يحكم على أفعال الأفراد، وما هو مقبول اجتماعياً لدى المجتمع وما هو غير مقبول؛ ولذا عُرِّفت القيم بأنّها: أفكار أو تصورات توجّه أفعال الأفراد في المجتمع وتحكم سلوكهم وتكتسب صفة العمومية لديهم.

مفهوم القيم

لسان العرب عرّف القيمة بأنّها: مفرد القِيَم، «**والقيمة: ثمن الشيء بالتقويم، تقول: تقاوموه فيما بينكم، ويُقال: كم قامت ناقتك؟ أي: كم بلغت؟... والاستقامة التقويم، لقول أهل مكّة: استقمت المتاع، أي: قومتهن، وفي الحديث الشريف: يا رسول الله، لو قومت لنا... فقال: (الله هو المقوّم). لو سعرت لنا، وهو من قيمت الشيء، أي: حددت قيمتها**»[1]. فإنّ كلمة قيمة في اللغة العربية مشتقة من القيام، وهو نقيض الجلوس، والقيام بمعنى آخر هو العزم.

وللقيم مفاهيم متعدّدة، منها:

١ ـ المفاهيم التي يتبنّاها الأفراد لتحديد ما هو مرغوب فيه ممّا يؤثِّر أخيراً في عملية انتقائهم واختيارهم للمثيرات للخارجية.

٢ ـ معتقدات أساسية بموجبها يفضل سلوك معيّن على سلوك آخر على مستوى شخصي أو اجتماعي.

٣ ـ المفاهيم الضمنية أو الصريحة الخاصّة برغبة معيّنة يمتلكها الفرد أو المجموعة، وتؤثِّر في عملية تفضيل خيار معين من بين الخيارات أو الأهداف المتاحة.

٤ ـ وهناك مَن يرى أنّ القيم معتقدات أساسية حول ما صح أو خطأ.

٥ ـ الأهداف التي يسعى الفرد إلى تحقيقها، وهي مرجع حكم للأفراد على أنماط سلوكهم.

٦ ـ مجموعة من الأحكام المعيارية المقبولة والخبرات المختلفة.

٧ ـ جمع قيمة، وتدلّ على أنواع المعتقدات التي يحملها شخص أو مجموعة أو مجتمع ويعتبرها مهمّة ويلتزم بها وتحدِّد له عادةً الصواب من الخطأ.

٨ ـ أنّها عبارة عن تنظيمات لأحكام عقلية انفعالية مصممة نحو الأشخاص والأشياء والمعاني وأوجه النشاط.

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١٢، ص٥٠٠.

٩ ـ أنّ القيمة تكوين افتراضي يُستدلّ عليه من خلال التعبير اللفظي والسلوك الاجتماعي، وهي عبارة عن تنظيمات لأحكام عقلية انفعالية مصممة نحو الأشخاص والأشياء والمعاني وأوجه النشاط.

١٠ ـ أنّها الشيء الذي يدلّ على أهمّية وقيمة أمر مهم من ناحية التقدّم والتأخّر، وهي نوع من المعايير والملكات لتشخيص الثمن المادي أو المعنوي للأشياء.

على الرغم من اختلاف التعاريف لمصطلح القيمة اختلافاً واسعاً، كان هناك إجماع واتّفاق على أنّ القيمة مجموعة الأحكام يصدرها الفرد على بيئته الإنسانية والاجتماعية والمادية، فهي نتاج اجتماعي استوعبه الفرد وتقبّله بحيث نستخدمها كمحكمات أو مستويات أو معايير، ويمكن أن تُحدّد إجرائياً في صورة مجموعة استجابات القبول أو الرفض إزاء مواضيع أو أشخاص أو أشياء أو أفكار.

أهمّية القيم

القيم تشكّل قضية مهمّة شغلت الفكر الإنساني عامّة والتربوي خاصة، واهتمّت فيها الديانات والفلسفات والتنظيمات الاجتماعية، وكانت مركز اهتمام الأنبياء والرسل والمصلحين عبر التاريخ الإنساني؛ لأنّها تمثّل جانباً رئيساً من الثقافة في أيّ مجتمع؛ لذلك لا يمكن أن ينهض مجتمع ويزدهر دون أن يعتمد على مجموعة من قيم الأخلاق التي تؤيده وتدعمه، فإنّ تنمية المجتمع مرهون بتنمية الثروة البشرية فيه، فالإنسان هو أساس ودعامة المجتمع ووسيلة تطويره، وهو أكرم المخلوقات على الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

فالثروة البشرية لا تنمو إلّا بواسطة أداة رئيسة هي التربية، التي تعتبر محور التقدّم وحجر الزاوية في كلّ تطوير وإصلاح، لأنّ أيَّ إصلاحٍ أو تغييرٍ لا يستند

(١) الإسراء: آية ٧٠.

إلى التربيـة يـزول ويضمحل، والتطوير واجب وضروري لمسـايرة تقـدم الحياة، ولا تسـتطيع التربية القيام بهذا الدور إلّا في ظل التعديل المسـتمرّ لنظم التعليم وأسـاليبه وأدواتـه، فعصرنا هو عصر ثورة المعرفة وتفجّرهـا، والناس لا ينمون ولا ينضجون فيـه إلّا بالتعليـم والتربيـة، كيف لا وتعتبر التربيـة بأنّها إعداد الفـرد للحياة، بل هي الحياة نفسها؟!

ولقـد لقيـت دراسـة القيم اهتماماً كبـيراً منذ زمـن بعيد على يد العديـد من علماء الاجتماع وعلماء النفس، وروّاد الفكر، والدراسـات الإنسـانية، وقد بدأت تعريفات القيمـة مجرّدة عـن طريق مفاهيم الخير والكمال والعلـو والغايات وما يجب أن يكون عليـه، كـما نجـد أنّ عـدداً من علـماء النفـس الاجتماعي يعرفـون القيمـة من خلال مصطلحات مرتبطة بالمفهوم، مثل الاهتمامات والسرور، والتفضيلات، والرغبات، والحاجـات، وعوامل الجـذب، وقد اهتمّ الباحثون خلال القرن التاسـع عشر بتنوّع ظواهـر القيـم ونسـبتها وتوقّفهـا على الأفـراد وحالاتهم، أكثـر ممّا اهتمّـوا بوحدتها وطبيعتها الميتافيزيقية، ولقد احتلت نظريات القيمة المكانة الأُولى في ألمانيا حوالي عام (١٩٠٠م)، وفي إنجلـترا وأمـيركا حوالي (١٩١٠م)، أمّا فرنسـا فقـد ظل الأمر على عكـس ذلك، بالرغم من بعض البحوث الهامّـة التي نُشرت متفرّقة وكانت متضمّنة لهذا المفهوم.

القيم من المفاهيم الجوهرية في جميع ميادين الحياة التربوية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهي تمس العلاقات الإنسـانية بكافّة صورها؛ لأنّها ضرورة اجتماعية، ولأنّ لهـا معايـير وأهداف لا بدّ أن تجدها في كلّ مجتمع منظّم، سـواء أكان متخلفاً أم متقدّمـاً، فهي تتغلغـل في الأفراد في شـكل اتّجاهات ودوافـع وتطلّعات، وفي بعض المواقف الاجتماعية تعبِّر القيم عن نفسها في شكل قوانين وبرامج للتنظيم الاجتماعي والنظم الاجتماعي.

معايير لتنمية القيم الأخلاقية في الأساليب التربوية الحديثة

إذا كانت مجتمعاتنا الإسلامية والعربية بحاجة ملحّة إلى التقدّم العلمي والمعرفي وإلى التطوّر المادّي في مجالات شتّى من الحياة، فإنّها أحوج ما تكون إلى الأخلاق المشتقة من القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، وإنّ ما يصيب المجتمعات بشكلٍ عام من مفاسد، وما يفشو بين أفرادها من الجرائم والموبقات، إنّما يرجع إلى نقص القيم وخلل في البناء الخلقي أكثر من أن يكون نتيجة نقص في مجالات العلم والمعرفة، ولما كانت التربية تحتل الدور الأساس في بناء الجانب الأخلاقي للإنسان ووقايته من الأمراض الخلقية التي أصبحت ظاهرة تقتضي تجنيد المؤسسات التربوية لمقاومتها والانتصار عليها.

ونظراً لازدياد الشكوى العامّة على جميع المستويات من اهتزاز القيم وضعف المستوى الأخلاقي للطلاب، بل والأجيال الجديدة بصفة عامة، ولافتقار قسم كبير من المعلّمين إلى مواصفات المربِّي الناجح، واستجابة للدعوات والاستغاثات التي تنطلق من هنا وهناك، والداعية إلى العودة إلى أُصولنا الإسلامية والحضارية لنبني عليها مؤسساتنا التعليمية ولنقف بوجه التيارات الفكرية والعلمانية والاستشراقية الوافدة، ولتحقيق أهداف مجتمعنا الإسلامي الأصيل، لما كان مدرسو التربية الإسلامية في مقدمة مَن يُنتظر منهم تربية الناشئة تربية أخلاقية قويمة، وإنّ قسماً كبيراً من مدرسي مادة التربية الإسلامية لا يربّون الناشئة بالقدوة الحسنة في مجال الأخلاق، فقد أكدت أكثر من دراسة أنّ قسماً من المعلّمين لا يجعلون من أنفسهم قدوة حسنة لتلاميذهم؛ إذ إنّ هؤلاء المعلّمين يحدّثون طلابهم في موضوع ولكن ذلك لا يظهر في سلوكهم.

ونظراً لضعف أساليب التدريس المعتمدة من أغلب المدرسين في الوقت الحاضر، فقد وجد الباحث أنّ هناك مشكلة تستحق الدراسة، ألا وهي ضرورة استلهام الأساليب التربويّة من حضارتنا الإسلامية الأصيلة، وعبر عصورها المشرقة،

وبيـان فاعليتها في مجال تدريس الأخلاق الإسـلامية؛ وذلك لتكوين جيل قادر على مواجهة الهجمة الغاشـمة التي تسعى إلى حجب نور الإسلام عن الإنسانية التعيسة، ومحاولـة صرف بني البشر عن شـاطئ الأمـان الذي ما زالت تبحـث عنه في ظلمات التيـه والضياع، والتقليل من أثر تلك الهجمة الغاشـمة، وضرورة الارتقاء بالتلاميذ لتمكّنهم من فهم الأخلاق الإسـلامية الأصيلة، وجعلهـا قيماً ثابتة توجّه بها حياتهم اليومية في البيت والمدرسة والمجتمع.

إنّ الفوز في السـباق المعـاصر بين الأُمم يعتمد على قدرتها عـلى تربية أبنائها تربية تنبـع من عقيدتها وقيمها، وتقـي أبناءها من التلوث الفكري، وتتيح لهم حرية الفكر والتعبير والتطبيق في حدود النظم والقيم المرعيّة، وتسـتثمر أساليب العصر وتقنياته في إطلاق طاقاتهم الإبداعية، وتكون أجيالاً لا تقنع باستيعاب المعاصر فقط، ولكنّها تتطلّع أيضاً إلى المسـتقبل لتسـهم في صنعـه، فللعملية التربوية أهمّيـة خاصة في حياة المجتمـع والأفـراد، فالمجتمعـات بحاجـة إلى التربية لتعديل سـلوكهم، وإكسـابهم القـدرات والمهـارات المختلفة؛ وبذلك تسـهم العملية التربوية بتأثـير هام وفاعل في تقدّم الأُمم والشعوب من خلال بناء الإنسان ليتحمّل مسؤوليته في المجتمع والتربية في فراغ، ففي العملية التربوية يقوم أفراد إنسانيون بتوجيه أفراد إنسانيين نحو غايات معيّنة، مسـتعملين في ذلك وسـائل معيّنة. ومن هنا كان تبايـن النظريات التربوية في المجتمعات المختلفة، فالتربية الماركسـية تربية مادّية تسـقط حسـاباتها كلّ المثل للقيم العليا؛ لأنّها لا تؤمن أصلاً بوجود مثل هذه القيم، فجلّ همّها إعداد الفرد ونموه نمواً متكاملاً، بحيث يصبح قادراً على مجابهة أيّ تغيير في وسـائل الإنتاج، وفي المجمعات الغربية إذ تسـود الديمقراطية تعد المهمة الأساسـية للتربية ـ حسب زعمهم ـ تسهيل سـبل تبادل الأفكار بين أفراد المجتمع الواحد، لكـن التربية الديمقراطية تربية نفعية في أُصولهـا؛ لـذا فإنّهـا لا تقيم وزنـاً للحقائق المطلقـة، وبدلاً من ذلك فأنّهـا ترى أنّ الخبرة هي محك صدقها أو كذبها.

فالإيمان بالله ـ حسب المذهب النفعي ـ حقيقة إذ أدّى إلى نتائج مرغوب فيها كأن يشعر أبناء المجتمع بالتماسك والنتيجة المنطقية لهذه المقدمات: «**أن يصبح الدين باطلاً في المجتمع الذي لا يجني أفراده فائدة منه**»[1]. ولا شك في أنّ هذه المقولة مغلوطة من أساسها؛ لأنّها تجعل النتائج معياراً للحكم على الأسباب التي أنتجتها، وترفض أن تكون النتائج تبعاً للأسباب.

وتُعدّ التربية الأداة الرئيسة والركيزة المهمة في المجتمعات كافّة، والتي تعتمد عليها في تنشئة وتربية الأجيال وإعدادهم للحياة، ويزداد أثر التربية في الوقت الحاضر نتيجة للخصائص العصرية والحضارية التي يتميّز بها عالمنا المعاصر؛ إذ تهتم الدول جميعاً بالتربية الشاملة من أجل التنمية والنهوض بالحياة الاجتماعية على مستوى الفرد والمجتمع. ولا يمكن للتربية أن تحقق أهداف التنمية الاجتماعية المتوقعة وأهدافها المنشودة إلّا بنجاح العملية التربوية، لأنّ التربية عملية اجتماعية ثقافية تستمدّ مقوماتها وأُسسها وأهدافها من عقيدة المجتمع ونظمه الاجتماعية؛ إذ تتولّى بناء شخصيات الأفراد ليقوموا بأدوارهم المستقبلية في المجتمع، كما أنّ للعملية التربوية أهمية خاصة في حياة المجتمعات والأفراد، فالمجتمعات بحاجة إلى التربية لتحقيق التنمية بجوانبها المختلفة ـ الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية ـ كما أنّ الأفراد بحاجة إلى التربية لتعديل سلوكهم وإكسابهم القدرات والمهارات المختلفة، وبذلك تسهم العملية التربوية بأثر مهم وفاعل في تقدّم الأُمم والشعوب من خلال بناء الإنسان ليتحمّل مسؤوليته في المجتمع، فالأُمم التي اعتمدت التربية والتعليم مدخلاً طبياً لتقدّم حضارتها وتطوير مجتمعاتها، حتى قال قائل: إنّ الألمان عندما انتصروا في الحرب السبعينية: «**لقد انتصر معلّم المدرسة الألمانية**». وقال قائل: إنّ فرنسا عندما انهزمت في الحرب العالمية الثانية: «**إنّ التربية في فرنسا متخلفة**».

(١) آل عمرو، محمد بن عبد الله، مقال: نحو التوجيه الإسلامي للعلوم التربوية.
.http://www.tarbyatona.net/include/plugins/article/article.php?action=s&id

وقال قائل: إنّ الأميركان لما غزا الروس الفضاء بإطلاقهم القمر الصناعي (سبوتنك): «**ما دهى نظامنا التربوي والتعليمي؟!**». فعادوا ينقحون ويطورون. وما نجاح اليابان المبكر ـ وهي الخاسرة في الحرب الكونية الثانية ـ في مختلف الميادين التكنلوجية والاقتصادية والاجتماعية بالدرجة الأساس، إلّا وهو اهتمامها في التربية والتعليم، وإلى نظام التعليم ومستوياته الممتازة، ولما كانت التربية تحتل المهمة الأساسية في بناء الجانب الأخلاقي للإنسان، ذلك لأنّ الأخلاق الفاضلة هي عنوان صلاح الفرد والمجتمع وسرّ بقائهما واستقامة حياتهما، ومصدر سعادتهما.

ولا شك أنّ المجتمع الذي يفتقر إلى الأخلاق الفاضلة بين أفراده هو مجتمع أقرب إلى قطيع الغاب، سرعان ما يلحق به الدمار والخراب، ولقد كانت في التاريخ البشري آيات وعبر إذ حمل التاريخ لنا في طياته أنّ أهم أسباب تقويض الأُمم القويّة ونهايتها كان في انحلال وتفكك نظامها الأخلاقي.

فالتربية هي التي تنقل إلى الأجيال الناشئة أخلاقيات آبائهم وأجدادهم ومثلهم وقيمهم، وتسهم بطابع خاص يميزهم عن غيرهم من أفراد المجتمعات الأُخرى في تصرّفاتهم وسلوكهم، وتعطيهم القدرة على التكيّف مع المواقف المختلفة على وفق مقتضيات النظام الأخلاقي السائد في مجتمعهم.

والتربية الأخلاقية في نظر الإسلام يعبّر عنها بأنّها تنشئة الطفل على المبادئ الأخلاقية وتكوينه تكويناً كاملاً من جميع النواحي، وذلك التكوين استعداد أخلاقي للالتزام بها في كلّ مكان وإشباع روحه بروح الأخلاق، وذلك بتكوين عاطفة وبصيرة أخلاقية ليكون سبّاقاً للخير أينما كان وحيثما وُجد، وذلك باستعمال جميع الأُسس والطرائق والأساليب التي تساعد على تحقيق وتكوين ذلك الإنسان الأخلاقي وتربيته على الخير، ولما كانت العملية التعليمية جزء من العملية التربوية التي تهدف إلى التنمية المتكاملة للشخصية الإنسانية بمختلف الأساليب والطرائق ليكون فرداً صالحاً في مجتمعه، وهي بذلك تشمل جميع الجوانب الروحية، والعقلية،

والخلقيـة، والاجتماعيـة والوجدانيـة والجمالية، والبدنيـة، فعملية التعليـم إذا زالت عنهـا السـمة التربوية أصبحـت مجرّد حشـو وتكديس لمعلومات لا تعيد في تشـكيل الشـخصية أو تعديل اتجاهاتها بالشـكل الإيجابي المرغوب فيها، والحاجة الماسّة تظهر دائماً (للمربّي الناجح) الذي يمكنه القيام بعمليتي التربية والتعليم معاً، فيسـاعد على تكوين الشـخصية السـوية المتكاملـة لا المعلّم الذي يقتصر أثـرة على تلقين الدروس والمعـارف، فللتعليم دور أسـاس في تحريك المجتمعات الإنسـانية عن طريق التنمية الاجتماعيـة والاقتصادية. فالمفكرون ينظرون إلى التعليم عـلى أنّه أهم مصادر إعداد الطاقات الإنسانية المدرّبة، هذا إن لم يكن مصدرها الوحيد في إعداد هذه الطاقات.

ومـن هنا؛ جـاء اهتمام الأُمم المتقدمة بإعداد المعلّـم وتدريبه لكونه المحرِّك الأوّل في المجتمـع، والـذي ينفـرد في حـالات تغيـير بنيته حتـى قيـل: «**أعطني معلّـماً جيداً أعطيك المجتمع الذي تريد**». ومن هنا؛ فإنّ المعلّم في مراحل التعليم العام بشكلٍ عام والابتدائي بشكلٍ خاصّ يبقى العنصر الفاعل والمتفاعل في العملية التربوية باعتباره يعمل على تربية وتنشئة الناشئة.

ولـذا يُعد المعلّم هـو حجر الزاوية في عمليـة التعلّم والتعليـم؛ لأنّ مهماته تتعلّق بمختلـف مجـالات العمليـة التعليميـة مـن إدارة وإرشـاد تعليمـي وفنّـي ومعالجة مشـكلات المتعلِّم، وسـدّ الثغرات في المنهـج الدراسي، والتوصّل مـع أولياء الأُمور ومختلف أعضاء المجتمع، فالمعلّم هو الحافظ لتراث الحضارة والمسؤول عن نقله من جيـلٍ إلى جيل، وهو الركن الأسـاس في العملية التربوية، إذ يسـتطيع اسـتغلال كلّ الفـرص في سـبيل تهيئة الظروف من أجل تكوين الخـبرات والمهارات عند التلاميذ، وإحـداث التغيـير في الأفـراد نحـو الاتجـاه الـذي يمكّنهم مـن التكيّف مـع ذواتهم ومجتمعهم ومتغيّرات العصر الذي يعيشـونه، فبإمكان الفرد أن يقوم بتأليف الكتب ووضـع البرامـج التعليمية، إلّا أنّ ذلك لم يكن ذا فائدة تُذكر ما لم يوجد المعلّم القادر عـلى تطبيق ذلـك في الحياة العمليـة، كما أنّ المعلّـم في أية مرحلة مـن مراحل التعليم

مسـؤول عـن تكوين جيل قـادر على تحمّل المسـؤولية لخدمـة وطنه، فالمعلّـم يؤدّي أثـراً مهمّاً في تكوين شـخصيات تلاميـذه، ومن ثمّ تحقيق نموهـم الكامل، ولـمّا كان المعلّـم عنصراً أساسـياً في العملية التربوية؛ فإنّ نجاح هـذه العملية مرهون بالدرجة الأُولى بتوفـير معلّم جيد الإعداد، يتمكّن من ترجمـة مناهج التعليم وبرامجه المختلفة إلى خـبرات تربويـة ناجحة، يتفاعـل معها المتعلمـون، فتنمو شـخصياتهم بجوانبها المختلفـة، المعرفية والمهارية والوجدانية والاجتماعية؛ لذا فـإنّ مهمة المعلّم في التربية الأخلاقيـة تحتاج إلى إعداد ومران ومعارف يتمكّن مـن خلالها إيصال المتعلمين إلى المرحلـة المطلوبة من التنشـئة الأخلاقية التي تتوافق مع عقيـدة المجتمع الذي يعيش فيه المعلّم.

أمّـا طريقـة التدريس، فهي واحدة مـن أركان العملية التربوية والتي لا تسـتغني عنهـا أيّ عملية تعليمية، فـإذا تصورنا أنّ العملية التربوية التعليمية تتطلّب مدرسـاً يلقي الدرس وطالباً يتلقّى الدرس، وبينهما مادّة دراسية، فالطريقة التدريسية تشكّل الركـن الرابع في هذه العملية، وإنّ نجاح التعليم يرتبط إلى حدّ كبير بنجاح الطريقة، وتسـتطيع الطريقة السديدة أن تعالج كثيراً ضعف المنهج وضعف الطالب وصعوبة الكتاب المدرسي، وغير ذلك من مشكلات التعليم.

وإذا كان المدرسـون يتفاوتـون بمادّتهـم وشـخصياتهم، فـإنّ التفـاوت بينهم من حيـث الطريقة أبعد أثراً وأجل خطراً، فالعملية التربويـة الثلاثة المذكورة بحاجة إلى وسـيلة أُخرى ينسـاب عبرها المنهـج وخبراته، وهي طريقة التدريـس التي تعبِّر عن حالـة التفاعل بين المـدرس والطالب، ومن خلال هذا التفاعـل يمكن إجراء عملية تقويم للعملية التعليمية كلّها؛ إذ يتحدّد الأداء الضعيف حتى يمكن تحسينه، ويمكن الوقـوف على الأداء السـليم حتى يمكـن تدعيمه، والأداء الخاطـئ إن وُجد يُحذف، ونصـل إلى أفضـل فاعلية ممكنة للعملية التعليمية، فالطريقة التي يسـتعملها المدرس تسـاعد على إيصال المعلومات والمهارات إلى المتعلِّم، وتمكينه من اسـتيعابها وتسـهل

العمليـة التعليميـة، ولكي نوازن بـين أفضلية المنهـج والطريقة، يمكن أن نشـير إلى القـول الآتي: «**منهـج فقير بمحتـواه، وجيد في طرائقه التدريسـية لهـو أفضل بكثير من منهج غني بمحتواه وجامد بطرائقه**»(١).

طرائـق التدريـس تهدف بصفـة عامة إلى تنظيـم المواقف التعليمية، بـما يؤدِّي إلى تنمية القدرة على التحكّم وتمكين المتعلمين من ممارسـته اعتماداً على جهودهم الذاتية لتنميـة شـخصياتهم بجوانبهـا كافّـة، وهـذه المواقف التعليميـة تقوم عـلى التواصل الفعّال وحوار نشـط بين المتعلِّم والمعلِّم بمهام الهداية والتوجيه وتنمية اهتمام المتعلِّم وبواعثه على التعلُّم وتمكينه من الإقبال عليه بشـوق، ومن استثمار قدارته في مواجهة مشـكلاته، وتنمية القدرات والمهارات والقيم الملائمة لها، وتطوير شخصية المتعلم. إنّ طرائـق التدريس تؤدِّي وظيفة مهمّة وأثراً أساسـياً في العملية التربوية؛ لأنّها تمثِّل حلقة الوصل بين المعلِّم والمتعلِّم.

والعملية التربوية والتعليمية لا تحقق النتائج المرغوب فيها، إلّا إذا توفّرت طرائق التوجيه والإرشـاد والتدريس المناسـبة، وعن طريق مربٍّ مؤهّل وقادر على توصيل المنهـاج الـدراسي إلى التلاميذ بطريقة ميسرة ومفهومه، ولـمّا كان أُسـلوب التدريس هـو الجزء الإجرائي من طريقـة التدريس التي يعتمدها المدرس لنقـل مادته العلمية وإيصالها، أو خبرات المنهج إلى التلاميذ كأُسلوب المحاضرة وأُسلوب المناقشة، التي يستعملها المدرس، وهي أساليب مشتقة من الأساليب الإلقائية، وإنّ مفهوم أُسلوب التدريس يمكن أن نعرّفه بأنّه: مجموعة الإجراءات والتدابير أو المسـار الذي يسـلكه المعلـم في عمليـة التفاعـل المتبادل بينه وبـين المتعلمين وعناصر البيئـة المختلفة، التي يهيؤها المعلِّم لإكساب طلابه المعارف والمعلومات والخبرات والمهارات والاتجاهات في مدّة زمنية محددة هي الدرس.

(١) العتابي، محمد خضر، أثر أُنموذج آشور في اكتساب المفاهيم التاريخية لدى تلاميذ الصف الخامس الابتدائي، مجلة الأُستاذ، العدد ٢٠٣: ص ١٣٥١.

يعد قسم من التربويين طرائق التدريس وأساليب التدريس مصطلحين يدلّان على شيء واحد، في حين يكون الواقع مختلفاً، فالمدرس في طرائق التدريس يعنى بالإجراءات العامة التي يقوم بها المدرس في موقف تعليمي معيّن، بينما مصطلح الأساليب إجراءات خاصة يقوم بها المدرس.

إنّ سلوك التدريس بحكم طبيعته موجود دائماً في إطار من التفاعل الاجتماعي بين المدرس وطلبته، ولهذا فإنّ الأعمال التي يقوم بها المدرس أثناء قيامه بالتدريس يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخصائص الشخصية للمدرس، وإنّ أساليب التدريس تؤثِّر في تحصيل الطلبة، فقد أُجريت دراسات أجنبية تناولت هذه العلاقة وأوضحت إحدى هذه الدراسات تأثير سلوك المدرس في تحصيل الطلبة، وإنّ أُسلوب التدريس الواحد ليس كافياً وليس ملائماً لكلّ مهام التعليم، وإنّ المستوى الأمثل لكلّ أُسلوب يختلف باختلاف طبيعة مهمة التعليم.

ومن كلّ هذا يتبين أنّ طرائق التدريس تُعد من الأدوات الفعّالة والمهمة في العملية التربوية؛ إذ إنّها تؤدّي أثراً أساسياً وفعالاً في تنظيم المواد الدراسية، وفي تناول المادة العلمية، ولا يستطيع المعلم أو المدرس الاستغناء عنها؛ لأنّ من دون طريقة تدريسية يتبعها المعلّم أو المدرس لا يمكن تحقيق الأهداف التربوية العامة والخاصة، وبما أنّ الطريقة تُحدَّد من المدرس أو المعلم معتمداً على قسم الأُسس مثل: المادة العلمية، المرحلة المدرسية، التلاميذ، والأهداف وغيرها من العوامل، وإن تفاعل المعلّم مع التلاميذ يعتمد على الطريقة التدريسية التي يبيّنها كلّ من المعلّم والمدرس. وهكذا فإنّ طرائق التدريس التي تُتّبع من قِبَل المعلّم وجميع ما لديه من أساليب وأنشطة تعمل على جذب انتباه التلاميذ، وجعلهم يرغبون في المادة العلمية ويترقّون إليها تُعدّ الأساس في نجاح المعلّم والمدرس في علمه، وعلى مدى إفادة التلاميذ من عمله.

أمّا المنهج، فهو من الأهمّية بمكان؛ إذ يُعدّ الأداة لتنشئة الأجيال تنشئة صالحة ومساعدتهم على تفتّح وتنمية استعداداتهم، ومواهبهم وقدراتهم، والمساهمة الفعّالة في تقدّم مجتمعهم.

المنظومة القيمية في النهضة الحسينيّة

جاءت النهضة الحسينية متكاملة المبادئ والقيم، تشكّل في مجموعها منهج حياة ملائماً لطبيعة الإنسان، ومنسجماً مع فطرته السوية، ومغذّياً لروحه، وملبياً لمتطلبات الإنسانية الكريمة.

وهي منظومة محكمة النسيج، مترابطة الحلقات، تقوم على أركان ثابتة من القرآن الكريم والسنّة النبويّة، لا تتغير بتغيّر صروف الدهر، ولكنّها تتجاوب مع المتغيرات من دون أن تفقد جوهرها وأصالتها ومشروعيتها، ولا تتطور مع تطور حياة الأفراد والجماعات، ولكنّها تتفاعل مع التحوّلات التي تطرأ على حياة الإنسان، من غير انصياع إلى الواقع، وإنّما بالتكيّف مع متطلباته التوجيهية نحو الأفضل وترشيد مساره.

ولـمّا كان من خصائص القيم ـ من حيث هي قيم ـ الثبات والرسوخ والاطّراد، فكذلك هي منظومة القيم التي جاءت بها النهضة الحسينيّة لا تفقد خصائصها، ولا تتراجع قيمتها، لا تُبلى مع الزمن؛ لأنّها قيم جوهرية ثابتة، مستقرّة بثبات الرسالة الإسلامية واستقرارها وخلودها، ولأنّها من الثوابت وليست من المتحولات، نزل بها الوحي الإلهي، وتجسّدت في حياة الرسول صلى الله عليه وآله، ولعل من الأُمور الواضحة لدى المشتغلين بالفكر في كلّ عصر أنّ الفكر من حيث هو تسخير لملكات العقل وللقدرات الذهنية، وتحريكها نحو الوصول بها إلى مقاصد وغايات يرصدها العقل، يخضع للإرادة الإنسانية التي تحكم اتجاهاته وتضبط مساراته، إن هي نزعت إلى الخير والحق والفضيلة والمصلحة العامة، أيدها وزكاها، وإن هي مالت إلى الشر والباطل والرذيلة والمضرة والمفسدة، قوّمها وردّها إلى الحق والصواب.

إنّ المنظومة القيمية في النهضة الحسينية هي منظومة متكاملة في الأخلاق والدين، وهي رافد مهم لبناء المجتمع وذلك من خلال الأُسس والمعايير التي جاء بها الإمام

الحسين عليه السلام في نهضته، هي ليست مجرّد معركة تاريخية حصلت يمرّ عليها الباحثون والمؤرّخون مرور الكرام، بقدر ما هي إصلاح مجتمع من خلال إرساء القواعد الأخلاقية الإسلامية فيه، حيث أثبتت الدراسات التربوية والنفسية المستفيضة الأثر الواضح للنهضة الحسينيّة في تكوين القيم الأخلاقية والدينية لبناء شخصية الإنسان، حيث تنعكس على جميع جوانبه الجسديّة والنفسية والروحية، ويسوق الباحثون في علم النفس والتربية أمثلة كثيرة على تأثير النهضة الحسينيّة على الخصائص والصفات الخلقية كون الارتباط الوثيق بين القيم الأخلاقية والتربوية، والنهضة الحسينية التي تصلح لكلّ زمان ومكان؛ لأنّ التجديد الذي اعتمدته النهضة الحسينية من خلال الرجوع إلى القرآن الكريم وسنّة الرسول محمد صلى الله عليه وآله كان ولا زال منهجاً واقعياً يراعي واقع الإنسان في حسن الخلق والسلوك، وإسهامه في مقارعة كلّ ما يفسد الأرض من شرٍّ وظلم.

إنّ المنهج الشمولي لنهضة الإمام الحسين عليه السلام راعى فيه كلّ مفاصل الحياة التربوية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية والفكرية، وجعل من كرامة الإنسان منطلقاً لثورته.

الأخلاق.. مفهومها أنواعها

في اللغة: «**الدين والطبع والسجية**»[1]. وفي الاصطلاح: «**عبارة عن هيئة راسخة في النفس، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية**»[2]. فإن صدرت عن الهيئة الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر هنا الأفعال القبيحة، سُمِّيت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.

وحقيقته أنّه صورة الإنسان الباطنية، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها، وهذا المعنى يؤكِّد أنّ الإنسان يحاسب في هذه الدنيا وفي يوم القيامة على سلوكه وأعماله؛

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١٠، ص٨٥.
(٢) الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين: ج٨، ص٩٦.

لأنّها أمران يصدران إرادياً عنه، وغير مفروضين عليه.

والخلق يُعرّف بحسن التقدير والحكمة، ويشتمل الخلق على هيئة جميلة. ومن هنا استُعمل للسلوك على نهج مستقيم جميل.

ويُعرِّف إخوان الصفا الأخلاق بأنّها: «**تهيؤ ما في كلّ عضو من أعضاء الجسد، ويسهل به على النفس إظهار فعل من الأفعال، أو عمل من الأعمال، أو صناعة من الصنائع، أو تعلُّم علم من العلوم، أو أدب من الآداب أو سياسة، من غير فكر ولا روية**»[1].

أنواع الأخلاق

تنقسم الأخلاق إلى: أخلاق حسنة، وأخلاق سيئة، وكذلك الأفعال التي يمكن تقسيمها إلى: أفعال جيدة، وأُخرى رديئة، انطلاقاً من الأُسس النفسية لهذه الأفعال أو السلوكيات، وانطلاقاً من الصفات الثابتة للأخلاق التي تنقسم بدورها إلى الصفات الحسنة والقبيحة، وبذلك تكون الممارسات إفرازاً طبيعياً للأخلاق، وكما يعبّر عنها في علم الأخلاق بالفضائل والرذائل:

أ ـ الأخلاق الحسنة: وهي ملكة نفسانية راسخة تصدر عنها السلوكيات الجيدة بسهولة ويسر، وتلك السلوكيات المقبولة طبقاً لموازين العقل والدين، والتي تتطابق مع ما يُسمى في علم الأخلاق بـ(الأخلاق الفاضلة)، التي تكون عادةً إحدى أبحاث علم الأخلاق، ويكون اكتسابها من الأهداف الغائية عند كلّ إنسان في سُلّم الصعود والسلوك الأخلاقي.

حسن الخلق، أو الخلق الحسن: هو ما أكّدت عليه كثير من النصوص القرآنية، والنصوص النبويّة، وكذلك النصوص الواردة عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

ـ مدح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم بسبب عظمة أخلاقه، فقال تبارك

(١) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا: ج١، ص٣٠٥.

وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

ـ وأكدت الأحاديث النبويّة الشريفة المروية على حسن الخلق بصورة خاصة، فجاء في الأحاديث الشريفة عن الرسول صلى الله عليه وآله: «**حسن الخلق نماء**»[2]، «**لا حسب كحسن الخلق**»[3]، «**إنّ أحسن الحسب الخلق الحسن**»، «**البر حسن الخلق**»[4]، «**من سعادة المرء حسن الخلق**»[5].

ـ وفي حديث آخر يوصي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله المسلمين بالتخلّق بأخلاق الله، فيقول: «**تخلّقوا بأخلاق الله، إنّ أكثر الناس يدخلون الجنّة بتقوى الله وحسن الخلق**».

ويصرّح الرسول صلى الله عليه وآله في حديث بأنّ الدين هو الخلق الحسن، وهو الهدف النهائي والغائي من بعثة الأنبياء، حيث يقول: «**إنّما بُعثت لأُتمم مكارم الأخلاق**»[6].

ـ وجاء في الأحاديث عن الإمام علي عليه السلام تأكيده الصريح والواضح على حسن الخلق في موارد كثيرة، من جملتها: «**حسن الخلق رأس كلّ برّ...**»[7]، «**حسن الخلق أفضل الدين...**»، «**لا قرين كحسن الخلق..**»[8]، «**أكرم الحسب الخلق**»[9].

ب ـ الأخلاق السيئة: فالخلق السيء (القبيح): هو ـ أيضاً ـ ملكة نفسية راسخة تصدر عنها السلوكيات والممارسات السيئة بسهولة ويسر وعفوية، وتلك الأفعال التي لا يرضى بها العقل ولا الشارع المقدّس أو الدين، والتي تعكس الصفات البذيئة والأخلاق الرذيلة عند الإنسان.

---

(١) القلم: آية ٤.
(٢) الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد: ج٨، ص٢٢.
(٣) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص٥٢٦.
(٤) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج٨، ص٧.
(٥) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال: ج٣، ص١٢.
(٦) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١٦، ص٢١٠.
(٧) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص٢٢٧.
(٨) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٦٦، ص٤٠٩.
(٩) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص١١٣.

تناول علم الأخلاق الرذائل الأخلاقية بالبحث والدراسة، وكذلك الحال بالنسبة للفضائل الأخلاقية؛ ذلك لأنّ علم الأخلاق الذي يُعبّر عنه بأنّه طب الأرواح والنفوس يجب أن يتناول الآلام من جهة، ومن جهةٍ أُخرى يصف لها العلاج الناجع، ومن هنا؛ فإنّ الرذائل الأخلاقية في الآلام والأوجاع وعلاجها يكمن في الفضائل.

لم نجد في القرآن الكريم آية تتناول الخلق السيئ بصورة صريحة، ولكن الروايات والأحاديث النبويّة قد تناولته بشكلٍ صريحٍ لا لبس فيه، فنُقل عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «**مَن ساء خُلقه عذّب نفسه**»(١)، وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**إنّ سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل**»(٢).

وجاء في الكلمات القصار المنقولة عن الإمام علي عليه السلام أربع وعشرون كلمة تتناول سوء الخلق جاء في إحداها بأنّ: «**كلّ داء يداوى، إلّا سوء الخلق**»(٣).

وهناك ما يشير في كلمته إلى أنّ سوء الخلق هو سبب التعاسة في الحياة حيث قال: «**مَن ساء خلقه ضاق رزقه**»(٤)، و«**سوء الخلق نكد العيش وعذاب القبر**»(٥)، ويعلل الإمام عليه السلام كلّ ذلك بالجهل، حيث يقول: «**الخلق المذموم من ثمار الجهل**»(٦).

أخلاق مهنة التعليم في الإسلام

حظيت أخلاقيات مهنة التعليم بالذات باهتمام خاص من قِبَل العلماء والمفكّرين التربويين المسلمين عبر العصور، والإسلام في تربيته قد أَوْلى عناية خاصة للجانب

(١) ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٥٨.
(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٣٢١.
(٣) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص٣٧٥.
(٤) المصدر السابق: ص٤٣١.
(٥) المصدر السابق: ص٢٨٥.
(٦) المصدر السابق: ص٤٧.

الأخلاقي في كلِّ ميادين الحياة، ومن هذه الميادين ميدان التربية والتعليم نفسه، بل إنّ الأخلاق مَعلَم بارز في كلّ مناحي الحياة الإسلامية، وقد كان رسول الهدى ونبي الرحمة وحامل رسالة الله إلى الإنسانية كافّة صلوات الله وسلامه عليه كما وصفه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وكان خير معلّم عرفته البشرية، وكان على هذا الخلق العظيم، ومن خلقه ذلك ما خاطبه به ربّه عزّ وجلّ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[2]، وما أخبرنا به تعالى عنه بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4]، ثمّ أرشدنا تعالى إلى التأسيّ به بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[5].

فهو بخلقه العظيم أُسوة عامّة للمسلمين أجمعين، وهو بتعليمه وتربيته في إطار هذا الخلق العظيم أسوة للمعلِّمين والمربِّين بشكل خاص، ومعنى ذلك أنّ المعلِّم المسلم مطلوب منه أن يمارس مهنته مقتدياً بالرسول صلى الله عليه وآله محاولاً أن يقتبس من خلقه وسيرته.

فقد وصفته زوجه عائشة حينما سُئلت عن خُلُقه، فقالت: «**كان خُلق نبيِّ الله القرآن**»[6]، أي: إنّه كان متخلقاً بكلّ الأخلاق والآداب الحسنة التي دعا إليها القرآن، وكان عاملاً بكلّ أوامر الله الواردة في القرآن منتهياً عن نواهيه، مباعداً لكلِّ

(١) القلم: آية ٤.
(٢) آل عمران: آية ١٥٩.
(٣) التوبة: آية ١٢٨.
(٤) الجمعة: آية ٢.
(٥) الأحزاب: آية ٢١.
(٦) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج٣، ص٣٨٠.

ما حذّر الله منه في كتابه، فكان يتحرّك عليه الصلاة والسلام حركة فعلية بأخلاق القرآن، وهو المعلِّم الفذّ الذي أدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأُمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده، وأقام أركان المجتمع المسلم، وأنشأ الدولة الإسلامية، وأرسى قواعد الأخلاق، ورسّخ بنيان التعليم على تلك القواعد، فهو في ذلك أُسوة للعالِم والمتعلِّم، بل هو أُسوة للناس كافّة، يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

فهو عليه السلام قدوة في حسن الخلق للناس كافّة، مَن كان منهم في مهنة التعليم أو غيرها من المهن، ومهنة التعليم بالذات كان لها نصيب كبير من الاهتمام في التربية الإسلامية، ولا سيّما فيما يتعلّق بالأخلاق التي تنتظم من خلالها العلاقة بين المعلِّم والمتعلِّم والتي استقاها المربّون المسلمون من هدي نبيّهم.

المنهج التربوي عند الإمام الحسين عليه السلام

يستند المدلول اللغوي لمفهوم التربية إلى مرتكزات نفسيّة وفكريّة وقيميّة، فالتربية في اللغة مأخوذة من ربّى ولده، والصبي يربيه، ربّاه: أي أحسن القيام عليه حتى أدرك. فالتربية بمدلولها اللغوي، تعني تعهد الطفل أو الابن أو المملوك بالرعاية والتغذية المادية والمعنوية حتى يشب، ولما لهذه المفردة من أهمّية في الحياة اليومية والفكرية للشعوب، فقد اهتم الفلاسفة والعلماء بهذا المفهوم، وجهدوا في سبر أغواره والكشف عن متبنياته الفكرية والعلمية، وصاغوا له عدداً من التفسيرات التي إن اختلفت في تعابيرها وارتكازاتها، فجاءت متّفقة في جوهرها، ونستعرض بشيء من الإيجاز أقوال بعض المفكرين القدامى والمحدثين، لنتبيّن من خلالها كنه المنهج التربوي بشكله العام وإطاره الفكري.

عبّر أفلاطون عن التربية بأنّها: «**إعطاء الجسم والروح كلّ ما يمكن من الجمال،**

(١) الأحزاب: آية ٢١.

وكلّ ما يمكن من الكمال»[1]، وهو هنا يعتمد على الجانب الكمّي من التربية، وذلك بمزاولة جميع الأنشطة العقلية والبدنية التي يعتقد أفلاطون بأنّها قادرة على إكساب الإنسان السلوكيات والأخلاق التي يمكن أن ترقى بالفرد للكمال.

بينما يقول أرسطو: «**إنّ الغرض من التربية هو أن يستطيع الإنسان الفرد عمل كلّ ما هو مفيد وضروري في الحرب والسِّلم، وأن يقوم بما هو نبيل وخير من الأعمال ليصل إلى حالة السعادة، وهذا يهتم بالناحية المهنية من التربية لما فيه منفعة الفرد وسعادته في الحياة**»[2]، أي: إنّ أرسطو ينظر إلى التربية عبر النتائج التي تتمخض عنها في أنّها تؤدِّي إلى جعل الإنسان قادراً على العطاء والإنجاز لكلّ الأفعال التي تكون محطّ الفائدة للفرد والمجتمع، وهو بذلك يحاول تصوير التربية على أنّها جهد فردي يصبّ في منفعة المجتمع لإيمانه بضرورة التفاعل بين الفرد والمجتمع.

في حين ينظر جولز سيمون، الفيلسوف الفرنسي إلى التربية على أنّها «**الطريقة التي بها يكون العقل عقلاً حُرّاً، ويكون القلب قلباً حرّاً**»[3]، وهو هنا يركِّز على النظر إلى النواحي الروحية من التربية، ويعتقد أنّها تسهم إسهاماً بالغاً في صناعة الشخصية الفردية المتميزة والمتفرّدة في المجتمع، فالتربية ـ بحسب ما يراه ـ تجعل العقل حُرّاً، وهو هنا يشير إلى القدرة على التفكير الموضوعي والتخلّص من المؤثرات التي تؤثِّر في الأحكام، ويكون القلب حُرّاً وهو هنا يشير إلى الحرية العاطفية ـ بحسب ما يراه ـ في الميول العاطفية غير المتأثّرة بالمثيرات البيئية التي تفيد حرية العاطفة. ويبدو من خلال استعراض الآراء أنّ إبراز الأفكار تمحورت حول جوانب تبدو أشبه بجوانب مكعب له نفس الجوهر، وهو ما أشار إليه الغزالي في معنى التربية، والذي شبه فيه التربية بفعل الفلّاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الضارة من بين الزرع،

(١) أُنظر: مفهوم التربية عند الإمام علي عليه السلام: *https://www.aqaed.com/ahlulbait/books/imam-nahj/*.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

ليحسن نباته ويكمل ريعه.

أمّا ما قاله جون ديوي واصفاً إيّاها بأنّها «**عملية صوغ وتكوين لفعالية الأفراد، ثمّ صبّها في قوالب معيّنة**»[1]، أي: تحويلها إلى عمل اجتماعي مقبول لدى الجماعة.

ومن هنا؛ جاءت الآراء التي ذكرناها تصوّر التربية في أبعاد وجوانب مختلفة الشكل، كلّ بحسب ما يراه، وبالمقابل ننظر في ما روي عن الإمام عليه السلام من أفكار تربوية تفسر حقيقة مفهوم التربية؛ إذ يرى الإمام الحسين عليه السلام أنّ الإنسان هو غاية الوجود، ومن أجله خلق الله ما خلق؛ إذ بعد أن خلق تعالى الكون ورتّبه أحسن ترتيب، ونظّمه أجمل تنظيم، وأتمّ مرافقه على أكمل وجه، وجمع فيه ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، أخرج إليه الإنسان، وأسكنه فيه على أن يكون خليفته في أرضه، يحيى في كنفها ويعيش من خيراتها، ويمضي في أقواله وأفعاله ونواياه ومقاصده وفق أحكام الله وإرادته، مطيعاً، مذعناً، شاكراً، إلّا أنّه خالف أمر الله، وسلك بوحي من نفسه الأمّارة بالسوء فجذبته الدنيا إليها وحجبت عنه الرؤية السليمة؛ فبات أسير أوهامه وشهواته.

إنّ ضعف الإنسان أمام إغراء المادة والإيمان بأنّ الشيطان الذي أغواه في الجنّة لن يتوانى عن إغوائه مرّة أُخرى وهو على الأرض، وبالتالي سوف لن يتمكن من ممارسة الخلافة كما أوجبها الله مَن كان ضعيف الحجة، مسلوب الإرادة، قليل الإيمان، هذه الأُمور أوجبت أخذه بالتربية والتعليم حتى تستقيم نفسه، ويقوى على مقاومة الضلالة والفساد. إلّا أنّ هذه التربية لا تستند فقط إلى مبادئ نظرية لا صلة لها بالواقع، بل تتخذ منها طريقاً ومنهجاً يعضده العلم والعمل والإيمان بهدف منفعة العباد وخيرهم.

وكثيرة هي الخطب والكلمات التي تضمّنت الروايات عن الإمام الحسين عليه السلام

(١) المصدر السابق.

والتـي تدعو إلى طلب العلم وأخذه من مصدره، كما وتحثّ على العمل حتى لا تبقى التربية مجرّد نظريات لا فائدة منها في عالم الواقع.

لذلك فإنّ الإمام عليه السلام يدعم القول بالعمل، وهذا هو الحقّ الذي يشهد به العمران والتقـدّم والتطور الحاصل في المجتمعات، من ذلك قوله: «**العلم لقاح المعرفة، وطول التجارب زيادة في العقل**»[1].

دور النهضة الحسينيّة في تشكيل القيم الأخلاقية

تُعتبر النهضة الحسـينيّة بيئة أخلاقية متكاملة تترك آثارها الملموسـة على الإنسـان حيـث تخلـق أجـواء تربويّة فكريّـة وسـلوكية تؤثّر تدريجيـاً على شـخصية الفرد من خـلال الالتزام الديني، وتأخذ أبعادها التربوية لإصلاح المجتمع ومواجهة الضلال الفكري والتعصّب الديني.

وبينـما أتنـاول النهضـة الحسـينية فـإنّ شـعوراً بالتردد يعترينـي؛ لأنّه مع بسـاطة الموضـوع الظاهـرة إلّا أنّـه لا يخلـو من اللبـس والحذر، ولا سـيّما حينـما تتدخل فيه الصراعات السياسـية، وحينما يمس مشاعر عدم التسامح والأحكام التقويمية، ولنا أن نحصي الورق المنشـور والمـداد المراق والأقلام والأفكار المسـموعة والفضائيات والإعـلام الملوث، وفي الصراعات والجمـود الفكري والعصبيات الضيقة، وتصوير هـذه الثقافة مـن زوايا رؤية تحجب النظـرة المتكاملة حتى لا تعطيهـا فرصة للظهور بحجمهـا ووزنهـا الموضوعـي، وأنـت قد تتفـق معي بأنّ هـذا النزف الثقافي سـبب ونتيجة للصراعات السياسية التي تحيط واقعنا.

ونحـن لـو تعمقنا في الأسـباب التي أفرزت هـذه الصراعـات لوجدناها في هذا المحيـط فكريـة عقائدية الطابـع، وهذا أقوى مظاهرهـا، ومع كلّ ذلـك يبقى القول الفصـل ثابتـاً: «**لمّـا كانت الحـروب تتولّـد في عقول البـشر، ففي عقولهم يجـب أن تُبنى**

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٢٨.

حصون السلام»[1].

إنّ هـذا البنـاء الـذي يحصّـن العقـل والفكر ويحيـي الثقافـة لا يتـمّ إلّا بخطاب حضاري ثقافي أخلاقي ينبع من النهضة الحسينيّة الراقية السامية، ويسعى إلى تكوين بصـيرة بأهمّيـة القيم الإسـلامية وقيمها الحيويّـة، وتفوّقها عـلى كلّ القيم الاجتماعية والحضاريـة الموجـودة لدى الأُمـم الأُخرى. ثـمّ لا يمكن تبديلهـا أو تعويضها بأيّ حال من الأحوال، وتبصيرهم كذلك بأسـاليب الهجـمات المضادة للآخرين بثوابت هـذه القيـم ودورهـا في إرسـاء الحقائق التـي لا تطالها الشـكوك، وكذلـك بتكوين البصيرة بكيفيّة ايضاح الحق لهم، لا باسـتخدام الأسـاليب الباطلة والوسائل الملتوية واسـتخدام الطرق الإعلامية على اختـلاف أنواعها ومسـمياتها؛ لأنّ هذا الإيمان في غايـة الأهمّية لإزالة الشـعور بالعجز وبعـدم الثقة بالمؤمنين وبعقيدتهـم، وهذا الأمر أيضاً لا يتمّ بالقوّة التعليمية والتربوية والنفسـية للخطاب في تنمية الإيمان ورسوخه وتنمية العقول وبناء الشخصية القادرة على الثبات على مبدأها.

وإذا كنّا ننسـى، فلا ننسـى العمل على إزالة الخرافات والأفـكار المظللة من عقل المتلقّي بسـبب النهضة الحسينيّة، واستخدام كلّ الوسـائل النفسية والتربوية لتثقيف المتلقّـين عـلى نحو تسـتطيع هذه العقـول في ضوئها أن تتشرب بالعقيـدة المطلوبة إلى أن يصبحـوا كـما وصفهم القـرآن الكريـم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[2].

(١) من نص ديباجة الميثاق التأسيسي لليونسكو، أُنظر: http: / /ar.unesco.org /node/ .

(٢) الفرقان: آية ٦٣ـ٦٨.

إنّ جوهر النهضة الحسينيّة هو إشاعة روح التعاطف والتراحم والمودّة؛ لأنّ الأُمّة التي لا تسود بين أفرادها هذه الروح لا توجد فيها حياة مطمئنة، وتتحكّم فيها العلاقات الرسمية والمصالح المادّية، ثمّ تكون الحياة الاجتماعية جافّة ومملة لا طعم فيها، ولهذا أراد الإسلام من أجل هوية واحدة لهذه الأُمّة أراد بناءها على أساس التراحم والمودّة لدرجة أن تكون الأُمّة كجسد واحد، كما قال الرسول صلى الله عليه وآله: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1]، وقال صلى الله عليه وآله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**»[2].

إنّ فعل هذه الروح إذا انتشرت في جسم الأُمة وبانت أخلاقياتها السلوكية وتصرفاتها العملية الواقعية؛ فإنها لا تنهار ولا تتفكك إن شاء الله.

وهذا الأمر يكون روح المواجهة للتحدّيات وروح الكفاح والمقاومة للتيارات والأفكار الغازية التي تريد احتلال مواطن القوّة في الهوية العقائدية والإنسانية، وهنا تتكوّن روح الخير التي تسعى لترقية الإنسانية إلى ازدهار الثقافة والحضارة والرفاهية، وقد قيل في هذا الصدد: «**لو بذل الإنسان في السيطرة على جماح نفسه بعض ما يبذله من الجهد في السيطرة على قوّة الطبيعة، لكان عالمنا اليوم عالم طهارة وسعادة**»[3].

وهذا لا يتمّ إلّا عندما تسعى تربية النهضة الحسينيّة وهي تشكّل محددات الهوية من خلال بثّ المرتكزات الأخلاقية، وحقيقة الأمر هو: لو أنّ الناس بذلوا لتطهير نفوسهم من الشرور والعدوانية كما يبذلون لتطهير المدن ومظهرهم لما رأينا هذه الشرور، علماً أنّ القذارة الأخلاقية لا تقل إطلاقاً عن القذارة المادية من خلال ما يشمئز منه الإنسان.

(١) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج٨، ص٢٠.
(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج١، ص٩.
(٣) داغستاني، بلقيس، التربية الدينية والاجتماعية للأطفال: ص١١.

الخاتمة

إنّ ما يجري في العالم من أزمة أخلاقية، وتأثيرها في القيم الإسلامية، يرجع في الكثير من أسبابه إلى اختلاف البيئات الاجتماعية، وهذا الاختلاف أدّى إلى عدم انسجام في المنظومة الأخلاقية القيمية لكلّ مجتمع؛ ومن هنا لا بدّ أن تكون الصلة قويّة بين القيم الأخلاقية والدين، وفي هذا الصدد لا بدّ أن نؤكد أنّ الدين مصدر كلّ القيم الروحية والخلقية، وهو الأساس في توجيه سلوك الفرد والمجتمع والناس، والتمييز بين الخير والشر، وبين الصواب والخطأ، ويكاد يتّفق المفكّرون والعلماء والمربّون على أنّ النهضة الحسينيّة تُعدّ الهدف الأسمى للتربية والتعليم، فليس ثمّة درس يتعلّمه الإنسان ولا عادة يكتسبها دون الرجوع إلى المنظومة الأخلاقية في النهضة الحسينيّة، حيث تسعى الأخلاق إلى تنمية الوازع الداخلي للضمير الإنساني، كما تهتم بتزويده بمعرفة الأخلاق القرآنية، وأخلاق الرسول صلى الله عليه وآله، ومن هذه الأخلاق المحمدية انبثقت النهضة الحسينية، حيث أصبحت الدرس الأوّل، في تربية الجيل على أساس الفضيلة والخلق القويم، بعيداً عن الانحلال والتفسّخ، فالنهضة الحسينيّة ضرورية جداً في بناء شخصية الفرد المسلم.

وفي هذا البحث تناولنا المنظومة الأخلاقية والقيمية ودورها في التربية والتعليم، وبناء الإنسان المعاصر، حيث تمثّل التربية والنهضة الحسينيّة وجهان لعملة واحدة، ولا يأتي النضج الأخلاقي إلّا بالتعليم والتثقيف، وإدراك الواجبات، حيث قال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «**المجاهد مَن جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر مَن هجر ما حرمه الله عليه**»[1]، وذلك يعني أنّ النهضة الحسينية نهضة أخلاقية غايتها ابتعاد المسلم عن محارم الله، وذلك بحد ذاته يخلِّص الإنسان من الشوائب ويرفعه إلى عالم أسمى، وهذا ما توخيته في بحثي، فإن أحسنت فمن عند الله، وإن قصّرت، فأرجو من القرّاء التصويب. والله من وراء القصد.

(١) الرواندي، قطب الدين، منهاج البراعة: ج٢، ص٤٤٥.

فهرست المصادر

* القران الكريم.

١ ـ إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزّالي (ت٥٠٥هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.

٢ ـ الإرشاد: الشيخ محمد بن محمد الملقب بالمفيد (ت٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان.

٣ ـ الإسلام يقود الحياة (فصل خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء): محمد باقر الصدر.

٤ ـ الأمالي: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، مؤسسة البعثة ـ قم، ط١، ١٤١٧هـ.

٥ ـ الإمامة والسياسة: ابن قتيبة.

٦ ـ بحار الأنوار: الشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

٧ ـ البناء الاجتماعي والشخصي: محمد سعيد فرج، الإسكندرية، دار المعرفة، ١٩٨٩م.

٨ ـ البناء القيمي للشخصية كما ورد في القرآن الكريم: (بحوث ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية): عبد الحميد وفاروق عبد السلام الهاشمي، ط٢، مكة المكرمة، مركز البحوث التربوية والنفسية.

٩ ـ تاريخ مدينة دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٠ ـ تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله: أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (ت ق٤هـ)، عنى بتصحيحه والتعليق عليه: علي أكبر الغفاري، ط٢،

١٣٦٣ش/ ١٤٠٤هـ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ـ إيران.
١١ ـ تطورات في قيم الطلبة (دراسة تربوية تتبّعية لقيم الطلاب في خمس سنوات): محمد إبراهيم كاظم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢م.
١٢ ـ تنمية الجانب الأخلاقي والتربوي لدى طلبة الجامعة: رياض أحمد الدباغ، مجلة آداب المستنصرية، العدد ٧، ١٩٨٩م، العراق.
١٣ ـ ثورة الإمام الحسين عليه السلام: محمد مهدي شمس الدين.
١٤ ـ رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء: أخوان الصفاء (ق٤)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
١٥ ـ سيكلوجية الشخصية: سيد محمد غنيم، دار النهضة: القاهرة، ١٩٧٣م.
١٦ ـ سمو المعنى في سمو الذات: عبد الله العلايلي.
١٧ ـ صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
١٨ ـ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت ـ لبنان.
١٩ ـ عيون الحكم والمواعظ: علي بن محمد الليثي الواسطي (ت ق٦هـ)، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، ط١، المطبعة والنشر: دار الحديث.
٢٠ ـ الفتنة الكبرى علي وبنوه: طه حسين.
٢١ ـ القيم الاجتماعية اللازمة لتلاميذ الحلقة الثامنة من التعليم الأساسي ودور مناهج المواد الاجتماعية في تنميتها: فتحي يوسف مبارك، المجلة العربية للتربية، المجلد (١٢) العدد (١)، ١٩٩٢م.
٢٢ ـ القيم والتربية: لطفي بركات أحمد، ط١، ١٩٨٣م، دار المريخ، الرياض.
٢٣ ـ القيم السائدة لدى طلبة جامعة صنعاء (فرع تعز): نبيل صالح سفيان، رسالة

ماجستير (غير منشورة) كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٥م.
٢٤ ـ الكافي: الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٤، ١٣٦٥ش، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية، طهران.
٢٥ ـ الكامل في التاريخ: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، المطبعة: دار صادر، بيروت، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
٢٦ ـ كنز العمال: علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي، الشهير بالمتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا، سنة الطبع: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان.
٢٧ ـ لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، المعروف بابن منظور الأنصاري الإفريقي (ت٧١١هـ)، ط٣، ١٤١٤ هـ، الناشر: دار صادر، بيروت.
٢٨ ـ مثير الأحزان: نجم الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلي (ت٦٤٥هـ)، الناشر: المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
٢٩ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٣٠ ـ مقتل الحسين عليه السلام: أبو مخنف الأزدي (ت١٥٧هـ)، تحقيق: حسين الغفاري، المطبعة العلمية، قم.

تجلّيات قِيم واقعة الطفّ في النصّ الشعري

أ. م. د. سجا جاسم محمد*
د. أنوار مجيد سرحان**

المقدّمة

لم تكـن واقعـة الطفّ واقعة تاريخية وحسـب، إنّما معركة حضارية تجسّـدت فيها تجارب البشرية من آدم إلى يوم استشهاد الإمام الحسين عليه السلام؛ إذْ لاحت منها كلّ معاني الحياة وقيمها وفلسفتها، ورسمت للمستقبل خطوطه، ووضّحت للأجيال أهدافها؛ إذْ كانت أعظم معركة في التاريخ بين الحقّ والباطل.

وبما أنّ النصّ الشـعري أكثر العناصر الثقافية تأثراً بالأحداث، وأكثر استيعاباً لها ولمجرياتها؛ لذا كانت واقعة الطفّ حاضرة وشاخصة بكلّ معانيها وقيمها وأفكارها ومبادئها في النصّ الشعري، الذي لخّص فيه الشعراء تلك العناصر والقيم، فظهرت بوضوح في نصوصهم الشعرية معبّرة عن تلك الواقعة؛ لذا يسعى البحث إلى الوقوف على قيم الطفّ في النصّ الشعري، وبيان أهمّ المؤشرات التي تكشف عن تلك القيم في النصـوص الشـعرية، وصولاً إلى مسـح تجليات تلـك القيم بصورهـا المختلفة في النصّ الشعري عِبر تحليل عدد من تلك النصوص الشعرية لعدد من الشعراء.

وخلاصة ما انتهى إليه هذا البحث: هو أنّ أدب الطفّ أدب مفعم بطيف واسـع مـن القيم العربية والإسـلامية، التـي تعكس العديد من القيم المبـادئ الأُخرى التي

* جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية ـ الأدب الإسلامي والأُموي ـ الأدب الأندلسي.
** جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية ـ الأدب الإسلامي والأُموي ـ الأدب الأندلسي.

تحويها تلك النصوص الشعرية؛ ممّا يدلّ بوضوح على عمق هذه الواقعة وعلى أبعادها ومبادئها التي ترسّخت في نفوس الشعراء، واستمرت إلى يومنا هذا، فكان النصّ الشعري أداة فعّالة للإفصاح عن تلك القيم بوضوحٍ كافٍ، وبقوةٍ وإصرار؛ إذ غدت تلك النصوص مصدراً مهماً من مصادر الاعتزاز بهذه الواقعة، وما تحمله من معانٍ وقيمٍ موضوعية وفنية تخلّد تلك الواقعة بمختلف الوسائل والأساليب، وليس أدلّ على ذلك سوى تلك الشعائر والمواكب التي تُقام سنوياً.

ممّا لا شك فيه أنّ واقعة الطفّ كانت رمزاً للشهادة والتضحية في الشعر العربي، وقد زادت نصوص الشعراء ثراءً بفضل تلك الواقعة، إذْ استلهم الشاعر المبدع مادته الشعرية من تلك الواقعة، وصاغها بأُسلوب فنيّ عكس فيها صدق المعاناة في الدفاع المستميت عن المبادئ والقيم الإنسانية الرفيعة في الثورة، والاستشهاد بأُسلوب محكم، واستطاع بمهارة وإبداع إظهار الصراع بين الإمام الحسين عليه السلام ويزيد، وما يعكسه من تناقضات في المبادئ والمصالح والأهداف، التي تعكس في الوقت نفسه فلسفة عاشوراء وأهدافها في الرفض والتضحية والفداء من أجل المبدأ والعقيدة[1].

كانت واقعة الطفّ خير درس معبّر عن إرادة الأُمّة وقيمتها في كلّ زمان ومكان، فقد كان الشاعر والأديب والفنان يعبّر عن شدّة ارتباطه بقضية الإمام الحسين عليه السلام، فيُشير بوضوح إلى حضور قيم عاشوراء في أعماله، فلم تكن عاشوراء مجرّد حادثة تاريخية عابرة، وإنّما كانت ثورة لها أبعادها الدينية والسياسية والفلسفية والفكرية، التي تضمّنت مفاهيم وقيماً إنسانية عُليا هي أساس خلودها عبر العصور، وقد انعكست هذه القيم والمفاهيم في الأدب والشعر والفنون الأُخرى، فاستحضرها الشعراء والأُدباء والفنانون بشكلٍ مباشرٍ أحياناً وغير مباشر أحياناً أُخرى، ووظّفوها في معالجة المشكلات الراهنة، إذْ أصبحت سمة بارزة من سمات الهوية الثقافية التي غذّت الحركة الأدبية والفنية بخبرات وتجارب غنيّة.

(١) أُنظر: هادي، حسن، واقعة كربلاء في الأدب العربي العاصر: ص٢٤.

إنّ واقعة الطفّ أثبتت للعالم أنّها ثورة ومسيرة حقّ من الحجاز إلى العراق، وكانت شهادة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء المقدّسة تحمل رسالة ناطقة بين طيّاتها منطق العقل والمنطق المستنبط من واقع الدفاع عن الحقّ، ورفض الظلم مهما كانت عقيدته ومذهبه وقوميته، فهي ثورة لا تموت، وحياة لا تموت؛ لأنّها وُلِدت لتبني وتُبدع، وهي ثورة عطاء لمستقبل زاهرٍ بأيدي المكافحين والثائرين، وهذا ما عبّر عنه الدكتور الوائلي بقوله: (من الطويل)

أرى كلَّ مَن يحيى يموتُ ويستوي ... على مسرحِ الدُّنيا مَغيبٌ ومطلعُ
وأَنت حياةٌ لا تموتُ على المدى ... توالدُ في خلقٍ وتُنشي وتُبدعُ
أبا الثَّورةِ الكبرى صليلُ سيوفِها ... نشيدٌ بأبعادِ الخلودِ مرجعُ
تشيرُ وإيماضُ القواضبِ مشعلٌ ... وتحدو بركبِ الثَّائِرينَ فيتبعُ[1].

إذْ صارت واقعة الطفّ شعلة وهّاجة أنارت درب الثائرين في تاريخنا الماضي، وهي شمس هدى لن تنطفئ تُنير وتضيء المستقبل بكلّ ما تحمله من معاني الخلود والانتصار «**وأصبحت ثورته النور الساطع الذي يُنير درب أصحاب الأقلام وأرباب الفكر والسياسة؛ لما لها من فضل كبير في تحرير البشرية جمعاء من العبودية والذل. فهي الثورة التي نادت: لا للذل، ولا للخنوع، ولا للعبودية، ولا للظلم، ولا للطغاة والجبابرة. ونادت: نعم للحرية، والمساواة، والعدل، وتطبيق الشريعة السمحاء. واستلهم منها الأُدباء والكتّاب والفلاسفة ورجال الحكم والسياسة العظات الكثيرة**»[2].

«**وممّا لا شك فيه أنّ أهل البيت عليهم السلام لهم دورهم الفعّال في إنقاذ الأُمّة الإسلامية من الانحراف، فقد كانوا على امتداد تاريخ الإسلام السياسي على قمة الهرم السياسي المعارض، والمستهدف للإصلاح، وتطبيق أحكام الإسلام، وإقامة العدل**»[3]، وهذا ما

(١) الوائلي، أحمد، ديوان الوائلي: ص٩٧.
(٢) القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينابع المودّة: ج٢، ص١٢.
(٣) مؤسسة البلاغ، أهل البيت عليهم السلام مقامهم منهجهم مسارهم: ص١٢٣.

عبّر عنه الشاعر طالب الحيدري بقوله: (من المتقارب)

فخيرُ الورى مَنْ يقودُ الورى ... إلى النورِ أو يُنهِضُ الراقدَا

يجودُ بما ملكتْ كفُّهُ ... ليُصلحَ مجتمعاً فاسِدا[1].

فأهل البيت عليهم السلام هم قادة المجتمع في الإصلاح، فهم يضحّون بكلّ ما يملكون من أجل صلاح المجتمع، والحفاظ عليه، ومقاومة الفساد وأكّد الشاعر الحيدري هذا المعنى بقوله: (من الكامل)

من أجل إصلاحِ البلادِ وأهلِها ... وصلاحِهِم ضَحَّى بأغلى الغالي[2].

وقوله: (من الكامل)

يا رائدَ الإصلاحِ ثُرتَ مجاهداً ... في الله سيفاً للضلالةِ ماحي

في كلِّ شبرٍ مِنْ دمائِكَ قطرةٌ ... تدعو إلى التطهيرِ والإصلاحِ[3].

وقوله: (من الكامل)

إنّ الدمَ القاني رسالةُ مصلحٍ ... وعتاد جنديٍّ وسِفرُ إمامِ[4].

فالإمام الحسين عليه السلام هو أوّل الثائرين المطالبين بالإصلاح، والداعي إلى إيقاظ الحس الوطني والحس الإنساني إلى العامّة؛ إذْ إنّ نهضة الإمام عليه السلام هي نهضة لإصلاح الواقع الفاسد السائد في ذلك الزمان، الذي لا بدّ له من ناهض للتغيير، وهذا ما أكّده الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «**إنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي**»[5]. وإن كان هذا في الأمس، فما أشبه ذلك بما

(١) الحيدري، طالب، ملحمة كربلاء (النور): ص٢٣.
(٢) المصدر السابق (عاشوراء): ص٤٦.
(٣) المصدر السابق (هالة الخلود): ص٨٧.
(٤) المصدر السابق (دم الشهيد): ص٢٨.
(٥) المقرّم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عليه السلام أو حديث كربلاء: ص١٣٩.

يحدث الآن من فساد في مجتمعٍ فقد أهله أبسط الحقوق في العيش، فهو يحتاج إلى ثورة تصلح ما فيه من تدهورٍ وفساد، ولعلّ صورة المجتمع هذه وما فيه من ظلم وفساد تنطبق مع قول الشاعر طالب الحيدري: (من الكامل)

أشكو أبا الشهداء جورَ مُخاتلٍ ... في الشعبِ مطبوع على الإجرام
الجاهليةُ قد أُعيدَتْ مرَّةً ... أُخرى فعادَ الحكمُ لل(أصنامِ)
والمرتشين المالئين بطونُهُم ... مِنْ ريبةٍ وخيانةٍ وحَرامِ
والساكبينَ الراحَ في أقداحِهم ... معصورةً مِنْ أدمعِ الأيتامِ[1].

وقوله: (من البسيط)

المسلمونَ جياعٌ في ديارِهم ... والملْكُ ينْعمُ في أكنافِهِ (نفرُ)
يا ساسةَ الشعبِ كفّوا عَنْ مظالِمِكُم ... رويَدكم ـ كلُّ هذا مَثلُكم ـ بَشَرُ[2].

فمجتمع بهذه الصورة يحتاج لثورة إصلاح تجعل منه مجتمعاً جديداً لا ظلم فيه، مجتمعاً ناهضاً، يتسم بالعدالة والمحبّة والمساواة، وهذه الصورة مستوحاة من نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وهذا ما عبر عنه الشاعر الحيدري بقوله: (من المتقارب)

وقُدّسَ ذاكَ الدُّمُ المرتجى ... لتكوينِ (مجتمعٍ) آخرِ
لتكوينِ (مجتمعٍ) ناهضٍ ... يُحلِّقُ تحليقةَ الطائرِ
لتكوينِ (مجتمعٍ) ينطوي ... انطواءً على طيبةِ الخاطرِ
لتكوينِ (مجتمعٍ) لا يقرُّ ... للبغيِ إقرارةَ الصاغرِ
لتكوينِ (مجتمعٍ) لا يسفّ ... إسفافةَ الماجنِ الفاجرِ
ولا يتخضعُ مِنْ ذلةٍ ... بأعتابِ ناهٍ ولا آمرِ

(١) الحيدري، طالب، ملحمة كربلاء (دم الشهيد): ص٣٠.
(٢) المصدر السابق (الظلم ليس له جاه): ص٣٩.

ولا يتصنّعُ ما يتقي بهِ سطوةَ (الحاكمِ) الجائرِ
ولكنْ يصارحُ ما يستطيع مصارحةَ (المصلحِ) الصَّابرِ[1].

واضح من النصّ أنّ مجتمعاً بهذه الصفات لا يتحقق إلّا عن طريق الإصلاح الذي وُجد في ثورة الإمام الحسين عليه السلام، ليس هذا فحسب، بل إنّه لا يتحقق إلّا عن طريق الموت، وهذا ما عبّر عنه الشاعر الحيدري بقوله: (من الخفيف)

وجدُوا الموت في سبيلِ المعالي أثراً باقياً وذكراً مجيدا
فاستماتوا ومَنْ يكنْ مستميتاً في الميادينِ يبلُغُ المقصودَا[2].

وعبّر عن المعنى نفسه الكاتب أحمد حسن لطفي بقوله: «**فأعظمُ بطلٍ ينتصرُ بالموتِ على الموتِ**»[3].

ومن بين قيم الطفّ قيم التضحية والفداء، إذْ أصبحت رمزاً وأُنموذجاً للتضحية والفداء والثبات على العقيدة والمبادئ، وغدت منهلاً ثورياً ينهل منه كلّ الذين يرسمون لمسيرتهم طريقاً لمقارعة الظلم والطغيان، ودك عروش الظالمين والطغاة وإسقاطهم، فلنتأمل قول الشاعر محمد حسين الصغير: (من البسيط)

قفْ في رُبَى الطفِّ وانشُدْ رسْمَ مَنْ بانوا فإنّها في جبينِ الدهرِ عنوانُ
واستَلهِمِ التربةَ الحمراءَ ناطقةً بها الدماءُ الزواكي فهيَ تبيانُ
حتى إذا نزلوا في (كربلَاء) سرت للحربِ فيهم مغاويرٌ وفرسانُ
تذرعوا الصبرَ، فالأبدانُ أضحيةٌ واستشعروا الموتَ فالأرواحُ قربانُ[4].

(١) المصدر السابق (سلام على البطل): ص٣٦ـ٣٧.
(٢) المصدر السابق (صليل السيف): ص١٩.
(٣) لطفي، أحمد حسن، الشهيد الخالد الحسين بن علي عليه السلام: ص٤٧.
(٤) الصغير، محمد حسين، ديوان أهل البيت: ص١٨٧.

خاطب الشاعر المتلقي وركّز على الصورة الحسيّة لأرض واقعة الطفّ، التي أصبحت رمزاً للتضحية والفداء، ثمّ عمد إلى الاستعارة لرسم صورته حين جعل التربة تفيض دماءً ناطقة، فجعل نطقها هو الدماء التي عليها. ثمّ يعمد إلى جعل الطفّ ساحة ترفل بالتضحية والعطاء قائلاً: (من البسيط)

الأرضُ ترمُل بالأبطالِ زاحفةً ... إلى المنايا.. ووادي الطفِّ ميدانُ[1].

ويرتبط بما تقدّم من قيم قيمة أُخرى من قيم الطفّ، حينما وقف الإمام عليه السلام وقفة الشموخ كالجبل الصامد، غير حافل بتلك الوحوش الكاسرة، وقد ألقى عليهم وعلى الأجيال أروع الدروس في الكرامة وعِزَّة النفس وشَرَف الإباء قائلاً عليه السلام: «**والله، لا أُعطِيكُم بِيَدي إعطاءَ الذَّليل، وَلا أفرُّ فِرارَ العَبيدِ..**»[2]، مصوراً قيمة الإيثار العظيم بالتضحية بالنفس من دون الغير، وهذا ما صوّره الشاعر السيد الحميري بقوله: (من الخفيف)

لستُ أنساهُ حينَ أيقنَ بالمو ... تِ دعاهم وقامَ فيهم خطيبا

ثمَّ قالَ ارجعوا إلى أهلِكم لَيـ ... ـسَ سوائي أرى لهم مطلوب[3].

ويستمر الشاعر ليقدّم لنا قيمة أُخرى من قيم الطفّ، قيمة التلاحم والترابط بين الإمام عليه السلام وصحبه قائلاً: (من الخفيف)

فأجابوهُ والعيونُ سكوبٌ ... وحشاهُمْ قد شبَّ منه لهيبا

أيَّ عذرٍ لنا حينَ نَلقَى ... جَدَّكَ المصطفى ونحُن حُروبا[4].

ولا غرابة أن نجد ذلك في خلق الإمام عليه السلام وصحبه، ولا سيّما أنّ غايتهم إعلاء كلمة الحقّ ضدّ الباطل، وكلّنا يعرف أنّ الغايات والأهداف النبيلة لا تتحقق إلّا

(١) المصدر السابق: ص١٨٨.
(٢) العسكري، مرتضى، معالم المدرستين: ج٣، ص١٠.
(٣) شكر، شاكر هادي، ديوان السيد الحميري: ص٧٤ـ٧٥.
(٤) المصدر السابق: ص٧٤ـ٧٥.

بالتضحية الكبرى، وهذا ما قدمه الإمام الحسين عليه السلام، الذي ضُربت فيه أمثالٌ بلغت أقصى حدود السمو في التضحية والفداء وأوضحت المعالم البارزة، التي يجب أن تكون منهجاً لعبور العقبات والصعاب في هذه الحياة.

ويرتبط بما تقدّم من قيمة التلاحم والترابط قيمة أُخرى توضح علاقة الحاكم بالمحكوم، فهي عند الإمام الحسين عليه السلام دعوةٌ بناءة ـ لا قوة ـ هدفها توحيد الصفوف لا التفريق، لا تميّز فيها ولا استعلاء، بل توحيد الصفوف وحسب، وتصبّ هذه القيمة في مصلحة المجتمع وتساعد على الإصلاح، وهذا ما عبّر عنه الشاعر بقوله: (من الكامل)

الحكمُ عندَك كالنبوَّةِ دعوةٌ ... بنّاءةٌ لا قوةٌ رعناءُ
الحكمُ توحيدُ الصفوفِ ورَصُّها ... لا ميزةٌ لِدمٍ ولا استعلاءُ
قد كنتَ تدعمُها حقيقةَ واقعٍ ... في الحكمِ أنّ المسلمينَ سَواءُ[1].

ويؤكد الشاعر عبد الأمير خليل مراد لنا قيمة من قيم الطفّ حين جعل ما حصل في الطفّ ما هو إلّا انتصار الدم على السيف، وانتصار الفضيلة على الرذيلة، وانتصار الحقّ ضدّ الباطل، انتصاراً واضحاً للعيان كالشمس الناصعة، وبشارة للحرية، قائلاً:

ذلكَ لأنَّ الدمَ دائماً يعلو على السيف
وهوَ بشارةُ الحريةِ الباقيهْ
إذ يتدلَّى الرأس
على الرمح
إنّه الشمس...
نعمْ...إنّه الشمسْ[2].

(١) الحيدري، طالب، ملحمة كربلاء، (ضحّيت حتى بالرضيع): ص٦٢ـ٦٣.
(٢) مراد، عبد الأمير خليل، الضحك من الأيام الآتية: ص٦٢.

إنّ «واقعة كربلاء لم تكن موقعةً عسكرية انتهت بانتصار وانكسار، بل كانت رمزاً لموقف أسمى لا دخل له بالصراع بين القوة والضعف، بين العضلات والرماح بقدر ما كانت صراعاً بين الشك والإيمان بين الحقّ والظلم»[1].

ونجد واقعة الطفّ قد مثلت للشاعر الوائلي ساحة للاندفاع نحو التضحية، فالحسين عليه السلام عنده نهضة نضالية لمعنى القوة والعزيمة والبطولة الخالدة، فقد بنى الحسين عليه السلام مجد كربلاء بقيمته الإنسانية الثورية مجداً يخلده التاريخ، وكربلاء ما انفكّت تترجمه بأصلها وشفقها قائلاً: (من المتقارب)

ويا كربلا يا هديرَ الجراحِ ... وزهوَ الدَّمِ العلَويِّ الأبي
ويا سِفرَ ملحمةِ الخالدينَ ... بغيرِ البطولةِ لم يُكتَبِ
ويا صرحَ مجدٍ بناهُ الحسينُ ... وأَبدعَ في رصفِهِ المُعجَبِ
سَيبقَى الحسينُ شعاراً على ... أصيلِكَ والشَّفَقِ المُذهَبِ[2].

أمّا الشاعر الحيدري، فيرى فيها ثورة قد هزّت الأجيال، وأيقظت الضمائر الغافلة، وحرّكت العزائم، وأنقذت مَن كانوا قد غرقوا في مستنقعٍ عكر، وقد أجلت للسارين الظلمة... وهذا واضح في قوله: (من البسيط)

يا ثائراً هزّت الأجيالَ ثورتُهُ ... قامتْ قيامَتُها تلوِي يدَ القدرِ
مِنَ الضَّمائرِ قد أيقظتَ غافيةً ... حارتْ خُطاها لِمَا فيها مِنَ الخدَرِ
ولا تزالُ تواسي كلَّ مُضطَهِدٍ ... تُحرّكُ الغرامَ تُضرِي كلَّ مُشتَجَرِ
في كلِّ مُستنقَعٍ غرقَى تصيحُ بهِمْ ... تطَهَّروا مِنْ خَطايَا مَائِهِ العَكِرِ
تجلو الغياهبَ للسارينَ تدفعُهم ... عَنْ كُلِّ أعوجَ أو عَنْ كلِّ مُنحدَرِ[3].

(١) بارا، انطوان، الحسين في الفكر المسيحي: ص١٢٢.
(٢) الوائلي، أحمد، ديوان الوائلي: ص١٠٣.
(٣) الحيدري، طالب، ملحمة كربلاء (القربان): ص١٣٣.

وعلى الرغم ممّا تعرّض له الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه ضدّ قوى الباطل من الظلم والجور، إلّا أنّ ذلك لم يمنعه من أن يبذل دمه الطاهر، موقناً أنّ هذا الدم هو الذي سيحقق لقضيته الانتصار والخلود، ويبث الحياة للمستقبل. وهذا ما عبر عنه الدكتور الوائلي حين جعل الطفّ رسالة حسينية تتخطى القرون وتهدم السدود لتصل إلى القلب، وتبعث الحياة في كلّ ضمير، يغطي نورها وسناها مشارق الأرض ومغاربها قائلاً: (من الخفيف)

يا أبا الطفّ يا نجيعاً إلى الآ ... نَ تهادى على شذاهُ الرُّمولُ
توَّجَ الأرضَ بالفتوحِ فللرَّمْـ ... ـلِ على كلِّ حبَّةٍ إكليلُ
أَرجفوا أنَّك القتيلُ المدَمَّى ... أَوَ مَنْ ينشئُ الحياةَ قتيلُ
كَذَبُوا ليسَ يُقتلُ المبدأُ الحرُّ ... وَلا يَخدعُ النُّهى التَّضليلُ
كَذَبُوا لنْ يموتَ رأيٌ لنورِ الشْـ ... ـشَمس مِنْ بعضِ نورِهِ تعليلُ
كَذَبُوا كلُّ ومضةٍ مِنْ سيوفِ الـ ... ـحَقِّ في فاحمِ الدُّجَى قنديلُ
كلُّ عِرقٍ فَرَوهُ لَهو بوجهِ الـ ... ـظُلمِ والبغْيِ صارمٌ مسلولُ
ويموتُ الرَّسولُ جسماً ولكنْ ... في الرِّسالاتِ لَنْ يموتَ الرَّسولُ[1].

ونقف عند الشاعر الحيدري، وهو يستلهم قيمة من قيم الطفّ، فيرى أنّ ما حدث في واقعة الطفّ هو صرخة مدوية للإصلاح، يدعو فيها الجيل الجديد إلى الثورة ضدّ الظلم للتحرر، وبناء المجد الجديد، والأخذ بيد الشعب الأسير الذليل للنهوض، ولصنع الحرية، متخذاً من واقعة الطفّ مثالاً للبطولة وصنع المجد، قائلاً: (من الطويل)

ويصرخُ بالنشءِ الجديدِ ألا انتفضْ ... ويسّر لإدراكِ المنى ما تعسرا

(١) الوائلي، أحمد، ديوان الوائلي: ص١١٩.

وخـذْ بيـدِ الشـعبِ الأسـيرِ محـرراً فـأقـصَى مُـنَـاهُ عَيشهُ متحرَّرَا
كفى ذلـةً أن يخضع العـربُ للعدى وأن يستطيعَ الناهضونَ تصبّرا
وفي الصفحـاتِ اللامعـاتِ بطولـةٌ تـقـودُ إلى الحـريـةِ المتعثرا[1].

إنّ ترجمة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بحقّ إرادة ربانية، فقد كان محتضناً أرض الطفّ كمسرح المأساة وسرى الحدث؛ إذْ رفرفت أرواح الشهداء من أرض كربلاء إلى عنان السماء، وتعلّمت البشرية دروساً كيف يصون الإنسان مبادءه ومعانيه، وتنوعت الرؤى والحيثيات كون الإمام الحسين عليه السلام قِبلة الثائرين في ملحمته الخالدة في واقعة الطفّ الكبرى أرض الشهادة والفداء[2]، فلا غرابة من أن يجعل الشاعر وقفة الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطفّ صفحة من صفحات العروبة المشرقة، جاعلاً الإمام عنواناً للشهادة، بل معطياً للشهادة مولداً جديداً: (من الكامل)

هُـو أنـتَ عنـوانُ الشـهادةِ سـيدِي بل أنتَ أعطيتَ الشهادةَ مولدَا[3].

فالشـهادة موقف وعقيدة وقلـم يَخُطُّ، ومعول جرّاف، وشـعلة لا ينطفئ نورها، وهـذه الشـهادة جسّـدها الإمـام الحسـين عليه السلام في ثورتـه الإصلاحية، وعبّر الشـاعر الحيدري عن هذا بقوله: (من الكامل)

معنَـى الشـهادة فاتَهُـم لم يُدركُـوا أنَّ الـشـهـادةَ جـوهـرٌ شـفّـافُ
أنَّ الشـهادةَ موقـفٌ وعقيـدةٌ قـلـمٌ يَخُـطُّ ومـعـولٌ جـرّافُ
أنَّ الشـهادةَ شـعلةٌ لا تنطفـي يجلو العمايةَ نورُها الكشّافُ[4].

(١) الحيدري، طالب، ملحمة كربلاء (في لهوات الحرب): ص٢٦.
(٢) أُنظر: الطوايجي، محمد سعيد، أمير المنبر الحسيني: ص٤٥.
(٣) الأسدي، صدام فهد، ديوان الحسين عليه السلام منقذ البشرية: ص٣٤١.
(٤) الحيدري، طالب، ملحمة كربلاء (لولا عطاء الخالدين): ص١٠٩.

ولهذا يجعل الدكتور الوائلي واقعة الطفّ خالدة عِبر العصور بكلّ ما فيها من قيم ومعطيات، قائلاً: (من الخفيف)

يا أبا الطفّ ساحةُ الطفّ تَبقى وعليها مشاهدٌ لا تَــزُولُ[1].

ويبقى الإمام الحسين عليه السلام بما قدّمه خالداً عبر لعصور، قائلاً: (من البسيط)

فارِ الخلودَ فما كانَ الخلودُ سِوَى وثيقةٍ وقعَتْهَا باسمِكَ العُصُرُ[2].

إذْ إنّ لواقعة الطفّ آثاراً مهمّة في حياة الأُمّة الإسلامية، فإنّها جعلت الإسلام يزداد تألقاً ونوراً[3]، وأنهّا حملت قيم البطولة التي ما زال الجيل يستسقي منها التجارب والعِبر في مواجهة الظلم والعدوان من أجل حماية العقيدة، وبما أنّ الشاعر يُعدّ ترجماناً لوجدانه الفردي، ووجدان أُمّته[4]؛ لذا استطاع التعبير عن تلك القيم، وهذا ما نجده في قول الشاعر طالب الحيدري: (من البسيط)

في كلِّ عامٍ ويومُ الطفِّ يبعثُنا تلـمُنا فيه آلامٌ وآمالُ
حيثُ البطولةُ في صمتٍ تُعَلِّمُنا كيفَ النزيفُ الجرحُ يختالُ
وكيفَ فردٌ يُحامي عن عقيدتِهِ في كلِّ عضوٍ من الأعضاءِ رِئبالُ[5].

ولم يكتفِ الشاعر عند ذلك فحسب، وإنّما جعل من الطفّ ومن الإمام الحسين عليه السلام مشعلاً يضيء درب الثائرين؛ ليعطي الحياة نهجاً جديداً عن طريق إغناء الفكر الإنساني بمعاني الإسلام الجهادية من الفداء، والتضحية، والصمود، والشهادة، والإيمان بالقضية السياسية والدفاع عنها، وهذا ما عبّر عنه الدكتور الوائلي قائلاً:

(١) الوائلي، أحمد، ديوان الوائلي: ص١٢٠.
(٢) المصدر السابق: ص١٠٧.
(٣) أُنظر: آل سيف، فوزي، ديوان في رحاب الإمام الحسين عليه السلام: ص١٠.
(٤) أُنظر: الموفي، عثمان، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد الحديث: ص١٦٣.
(٥) الحيدري، طالب، ملحمة كربلاء (بكم جُنّنا): ص١٣٩.

(من الخفيف)

أَنـــواحٌ في الـطـفِّ أم تغريدُ ... ولـظًـى سـالَ أم دمٌ وصـديـدُ
ودمُ الـثـائـريـنَ وهـــوَ دَوِيٌّ ... يُـرهـبُ الـظـالمينَ فـيـهِ وعيدُ
مِشعلٌ لم يـزلْ يـضيءُ وإن حاو ... ل إخمـــادَهُ الـظـلامُ الـشـديـدُ
ونـزوعٌ حـرٌّ وكـم ساومتَ كَيْ ... تحتوي نزعةَ النفوسِ العبيدُ
إنّهـا عـزمـةُ الـنـبـواتِ تمشي ... ولـو الـدربُ فيهِ جهدٌ جهيدُ
فـدمُ الـثـائـريـنَ أقـصى مـنـاهُ ... أن يحـاذي أهـدافَـهُ التجسيدُ
فـتـألـقْ يـا شعلةً تهـزمُ الظلما ... ءَ حتى يبينَ نهْـج سـديـدُ[1].

وفي أبيات أُخرى للشاعر نراه يصوغ فكرته التي أكّدت بقاء ذكرى الطفّ وأيام عاشوراء وقيمها خالدة مستمرة على الرغم من تباعد الحقب بوصفها درساً متجدداً ومستمراً باستمرار الصراع بين الخير والشرّ، وهو بهذا «**لا يحاول أن يُنفّس عن عاطفته فحسب، بل يحاول أن يؤديها في نوع من الأداء، كفيل بأن ينفعل به متلقيه**»[2]، قال الشاعر: (من الطويل)

ويا ربواتِ الطفّ ألفُ تحيّةٍ ... لأيامِ عاشوراءَ تختالُ خُرَّدَا
ورعياً ليومٍ كلَّما طالَ عهدُهُ ... أراهُ بما أعطى يعودُ كما بدا[3].

وهكذا أضحت ثورة الإمام الحسين عليه السلام درساً للأجيال يُعلّمهم كيف تُصنع الكرامة، وكيف تكون التضحية سبيلاً للحرية، وكيف يدافع عن فكرة يقدّسها درساً يعلمهم معنى الإباء، ومعنى الحياة، ومعنى الردى، وهذا ما عبّر عنه الشاعر الحيدري بقوله: (من الكامل)

(١) الوائلي، أحمد، ديوان الوائلي: ص١١٥ـ١١٦.
(٢) النويهي، محمد، وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي: ص٢٦.
(٣) الوائلي، أحمد، ديوان الوائلي: ص١١٤.

يـا يـومَ عاشـوراءَ درسُـكَ عـالِ ... حـرّكـتَ فيه ضـمائـرَ الأجيـالِ
وصرخـَت بالأفـكارِ تطـرحُ ظلمـةً ... وتـزيـحُ كابوساً مِـنَ الأغـلالِ
وأنـرتَ للبـشرِ الطريـقَ فأدركـوا ... أشـيـاءَ لم تخـطـرْ لهـم في بـالِ
وقتلـتَ جرثـومَ الفسـادِ بـما جَـرَى ... في الطفِّ مِـن ذاكَ الـدَّم القتَّالِ
علّمتَهُـم معنـى الحيـاة كرامـةُ ال ... إنـسـانِ فـوقَ الجـاهِ فـوقَ المـالِ
وصعـدتَ بالأفكارِ نحـوَ مبـادئٍ ... زهـــراء إنـسـانـيـة الآمـــالِ
كهربـتَ حباتِ القلـوبِ وسرتَ في ... تيارِهَا مثلاً مِـنَ الأمـثـالِ[1].

وقوله: (من المتقارب)

تُلِّمُنـا كيـف يحيـى وكيـف يمـو ... تُ الـفـتـى شـامخـاً أصـيـدا
وكيف يصولُ القليلُ النصيرُ ... وكيف يجـولُ الكثيرُ العدَى
وكـيـفَ يُـدافـعُ عـن فـكـرةٍ ... يُقدّسُها وهـو يشكو الصدَى
وكـيـف يُـضـحّـي بـما في يـديـهِ ... ليبلغَ مِـنْ دهـــرِهِ مَقصدا
وكـيـفَ يُـصـيّـرُ مِـنْ روحِـهِ ... مـنـاراً ومِـنْ جـسـمِـهِ مَعبدا
وكـيـفَ يَخُـطُّ بـقـانِي الـدمـا ... ءِ درســاً بـه لـلـبرايـا هُـدَى
يُـعلِّمـهـم فيـهِ معنَـى الإبـاءِ ... ومَعَنى الحياةِ ومَعنَى الـرَّدَى[2].

وواضـح مـن النصّين مـدى المعاني التي تحملهـا واقعة الطفّ، فهي بـكلّ ما فيها مـن قيـم وأبعاد بحق ثـورة إصلاحية هدفها الأسـاس الإصـلاح في المجتمع، وهذا الإصلاح لم يقتصر على وقتها فحسـب، وإنّما امتدّ ليشـمل المسـتقبل، وليكون درساً للأجيـال عـلى مرّ العصـور، تأخذ منه العِبر والمعاني السـامية لتبني لها مجـداً قائماً على الإصـلاح والعـدل، فهي حرّكت الأجيـال، وأيقظت الأفكار نحو مبادئ إنسـانية،

(١) الحيدري، طالب، ملحمة كربلاء (عاشوراء): ص٤٤.
(٢) المصدر السابق (سلام عليك): ص٢٠.

وأنارت الطريق للأجيال نحو الإصلاح والخير، وعلّمتهم معنى الحياة، ومعنى كرامة الإنسان، ومعنى أن يموت الفرد من أجل مبدأ وغاية؛ لإصلاح الفساد وإقامة العدل.

نتائج البحث

وبهذا نرى أنّ واقعة الطفّ قد أصبحت عند الشعراء أساساً لمادة شعرية خصبة، تجلّت عنها العديد من القيم؛ فكانت مرآةً وأداةً للتعبير عن تلك القيم، فنجد أنّ الشعراء الذين ذكروا واقعة الطفّ ووقفوا عندها في أشعارهم كُثُر، كلٌّ واحد منهم يستلهم قيمة من قيم الطفّ بكلّ ما تحمله من مضامين كثيرة، عبّر الشعراء فيها عن حبّهم وتقديسهم لهذه الواقعة التي يرون أنّها قد أصبحت رمزاً بوجه الظلم والطغيان والفساد. وقد أرادوا بكلّ تلك القيم التمسّك بالنهج الحسيني حتى أصبح المجتمع نهباً للحركات الهدامة التي تحاول تخريب الإسلام، وسفك دماء الأبرياء.

فثورة الإمام الحسين عليه السلام الصوت المجلجل الذي يتصاعد يوماً بعد يوم، بأناشيد وطنية وأشعار تسري على ألسنة الجماهير، تردد تلك الملحمة الخالدة الرائعة بكلّ ما تحمله من قيم إصلاح جاءت لتبني مجتمعاً جديداً، يقوم على العدل والمساواة، بعيداً عن التعصب والتفرقة، مجتمعاً يعرف معنى الجهاد والتضحية من أجل الكرامة والعقيدة.

فهرست المصادر

١ ـ أمير المنبر الحسيني، محمد سعيد الطوايحي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (د.مط)، (د.م).

٢ ـ أهل البيت عليهم السلام مقامهم منهجهم مسارهم، مؤسسة البلاغ، ط٩، ٢٠٠٤م.

٣ ـ الحسين في الفكر المسيحي، انطوان بارا، فاروس للنشر، ط١، ٢٠٠٤م، قم.

٤ ـ ديوان الحسين عليه السلام منقذ البشرية، د. صدام فهد الأسدي، دار الاعتماد، ٢٠٠٦م، البصرة.

٥ ـ ديوان السيد الحميري، تحقيق: شاكر هادي شكر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

٦ ـ ديوان الضحك من الأيام الآتية، عبد الأمير خليل مراد، دار الفرات، ٢٠٠٩م، بابل.

٧ ـ ديوان الوائلي، الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، شرح وتدقيق: سمير شيخ الأرض، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر.

٨ ـ ديوان أهل البيت عليهم السلام، د. محمد حسين الصغير، مؤسسة البلاغ، ط١، ١٤٣هـ/ ٢٠٠٩م، بيروت.

٩ ـ ديوان في رحاب الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ فوزي آل سيف، دار المحجة البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م بيروت ـ لبنان.

١٠ ـ الشهيد الخالد الحسين بن علي عليه السلام، أحمد حسن لطفي، مطبعة المعارف.

١١ ـ في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد الحديث، عثمان الموفي، ط٢، ٢٠١٠م، دار المعرفة الجامعية.

١٢ ـ معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري، دار النعمان للنشر والتوزيع، ١٩٩٠م، بيروت.

١٣ ـ مقتل الحسين عليه السلام أو حديث كربلاء، عبد الرزاق الموسوي المقرّم، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م، مطبعة النجف.

١٤ ـ من وحي آل الوحي (ملحمة كربلاء)، طالب الحيدري، ط١، ٢٠٠٨م، العدالة

للطباعة والنشر.

١٥ ـ واقعة كربلاء في الأدب العربي العاصر، حسن هادي، الوصال للطباعة والنشر، ٢٠١٠م، بغداد.

١٦ ـ وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي، د. محمد النويهي، مطبعة الرسالة، ١٩٦٦م ـ١٩٦٧م، القاهرة.

١٧ ـ ينابع المودّة لذوي القربى، الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (١٢٩٤هـ)، تحقيق: سيد علي جمال أشرف، دار الأسوة للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٢٢هـ، إيران.

(مَا رَأَيْتُ إلّا جَمِيلاً)
دراسة في أبعادها الإصلاحية

م. د. كواكب باقر الفاضلي*

المقدّمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلّى الله على محمد الصادق الأمين والمرسَل المبلّغ من لدن ربِّ العالمين، وجدّ الحسين الشهيد الذي استقام بدمه الدين الحنيف، والذي جعله سفينة نجاتنا، وحبّ أبيه مقياس إيماننا، وبعد.

تمرُّ علينا في كلِّ عام ذكرى الحزن الجميل الذي يجمع الأُمّة الإسلامية ويوحّدها؛ لتُحيي الرسالة المحمدية بالتجمع الحسيني لرجالها ونسائها، وشيبها وشبابها، وتسابق الصبية والأطفال تحيي الشعائر وتستذكر المصاب، وتستنبط منها ما ينهض بها إلى واقعها، تستلهم الدروس والعبر من هذه الملحمة العظيمة، فكثيراً ما نستمع باهتمام ما يردده الخطباء والشعراء من نصوص الطفّ سواء ما رافق الواقعة، أو ما قبلها، أو ما بعدها، ويتمّ تناولها بالتحليل والدراسة، ونكاد نشعر بالزهو من النشاط العلمي والأدبي، وحتى الاجتماعي في البحث في سيرة وثورة الإمام الحسين عليه السلام، كلٌّ بحسب إسقاطاته المعرفية على الموضوع، ممّا يُعدد الرؤى وتختلف الآراء، وتحتدم النقاشات، ورغم هذا تتوحّد الأقلام والأفواه والصور على أمرٍ واحدٍ، هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام بدمه وسبي أهله، كتب الله للدين الإسلامي البقاء.

---

* جامعة الكوفة / كلّية التربية.

وهكـذا خرجت المجلدات العظيمة، والموسـوعات الكبـيرة، والكتب الرصينة، والمجـلات المرموقة، والمواقع الإلكترونية المحترمـة، فتقام المؤتمرات والندوات التي تحيي هذه النصوص بالدراسـة والتحليل، والتفحص والتمعن؛ للوصول إلى حقائق جديدة، ومفاهيم أُخرى عظيمة.

ومـن أبرز النصـوص التي بقيت خالدة، هـي المحاورة التي جـرت بين ابن زياد وبـين سـليلة بيت النبوة وعقيلة بني هاشـم السـيدة العظيمة زينب بنـت علي بن أبي طالـب عليهما السلام، والتـي لا يمكن أن يمرّ منصف على اسـمها دون ذكر فضائل وصفات هذه السـيدة الجليلة ـ وهذا ليس من البعد عن الموضوعية البحثية ـ وأهمّ ما دار فيها مـن حوار يحتاج كلّـه إلى التأمل والتدقيـق، والفحص والتحليـل، ولكن يكفيني أن أقف على جملة واحدة منه وردت على لسان السيدة زينب عليها السلام.

ففـي هذا البحث نرى أنّ هنالك أهمية لخوض غمار الطفّ في الوقت الحالي، كون ما يحدث حولنا من أحداث مؤلمة هي بذاتها اسـتمرار لواقعة الطفّ، والأذى على آل بيت النبوة من جهة، وبين أنّ الأحداث نفسها بدأت تتشابه مع واقعة الطفّ نفسها، مـن قتـلٍ على الدين والهوية والمعتقـد، ومن تهجيرٍ وتشريدٍ من الـدار والوطن، ومن ثكالى لأربع أو يزيد من الشـباب، الذين هم من المتمسكين بدينهم وأخلاقهم، ومن أيتامٍ تركوا مقاعد الدراسة لتوفير لقمة العيش، كلّ هذا من جهةٍ أُخرى؛ ولهذا نحن بحاجة إلى إشـاعة هذه الروح بيننا، وإشعال النور المحمدي في دروبنا؛ لتبقى الخطى مستمرة في طريق الهدى، طريق محمد وآله عليهم الصلاة والسلام.

وأمّـا اختيـار هـذا النـص دون غيره مـن نصوص الطـفّ؛ فيأتي لمحتـواه العظيم والكبـير الـذي لا يصـدر إلّا عن ابنة سـيد البلاغـة وإمامها علي بـن أبي طالب عليه السلام، وسـنأخذ بالتحليل منه ما ينسـجم ومحـاور المؤتمر، مثيرين في البحـث اختيار الأبعاد الإصلاحيـة التي تناولها النـص، وهي الجملة المقتطعة من المحـاورة، وإلّا يمكن أن

نتناولها بالتحليل أكثر من هذا، ونصل فيها إلى نتائج أُخرى في محاور ثانية.

أمّا خطة البحث، فتكون كالآتي:

المبحث الأوّل: تناولنا (الجانب الفني للنص): وفيه عرض مناسبة النص، ومصادره التاريخية، مع تحليل لبعض المقامات من المحاورة، ثمّ تعريف الجمال بشكلٍ موجز.

المبحث الثاني: أثر صناعة الجمال في تصحيح مسار العنف، وفيه عرضنا تأثير دعوى السلم والعمل بها في وقف مسار العنف، والمنع من الاستمرار في الأعمال التي لا تؤدي إلّا إلى الخراب والدمار والمزيد من الدماء.

المبحث الثالث: الإصلاح النفسي والأخلاقي في تحقيق السلم والأمان، فعرضنا أثر هذا النص من الناحية النفسية والاجتماعية.

ندعو الله أن يوفقنا بعد هذا العرض الموجز للبحث والمستخلص لفكرته المستوحاة من ربط الواقع الحالي بواقعة الطفّ العظيمة؛ لأنّه محاولة لوضع علاج لحالة التوحش وسيادة العنف على الأرض الإسلامية ـ ولا نقول: على المسلمين ـ إنّه بمثابة العلاج لثقافة العنف والإرهاب، هذا من جهة، ومن جهةٍ أُخرى، فإنّ ما يحصل في الطرف المناوئ والمواجه للارهاب التكفيري، ما هو إلّا استمرار لخط السيّدة الطاهرة زينب عليها السلام، وهو ثمرة صدق الانتماء لمدرستها ومدرسة أخيها الحسين عليه السلام، لذلك لا بد أن نرى الواقع بعيون سيدة الطفّ زينب عليها السلام؛ لتحقق كل ما جاءت لأجله واقعة الطفّ.

المبحث الأوّل: الجانب الفني للنصّ

في هذا المبحث نحاول أن نعرض الجوانب الفنية للنص، ودراسة ما يحتويه النص من التفافات وإثارات دلالية من مناسبته، ودراسة جوانبه الظاهرة من الدلالات البلاغية والإبداعية، وسيكون المبحث كالآتي:

المطلب الأوّل: مناسبة النصّ

جاءت مقولة بحثنا في مواجهة مريرة بين ابن زياد المنتصر ـ كما يرى هو ـ المتشفي بآل بيت محمد صلى الله عليه وآله، وبين السيدة المسبيّة مع بعض الأطفال والنساء السبايا، من الثكالى والأرامل، تتقدّمهم رؤوس الشهداء المحمولة على الرماح.

روى السيّد ابن طاووس: «أَنَّ ابْنَ زِيَادٍ جَلَسَ فِي الْقَصْرِ لِلنَّاسِ وَأَذِنَ إِذْناً عَامّاً، وَجِيءَ بِرَأْسِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأُدْخِلَ نِسَاءُ الْحُسَيْنِ وَصِبْيَانُهُ إِلَيْهِ، فَجَلَسَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ عَلِيٍّ عليها السلام مُتَنَكِّرَةً، فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقِيلَ: هَذِهِ زَيْنَبُ بِنْتُ عَلِيٍّ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: الْحَمْدُ لله الَّذِي فَضَحَكُمْ وَأَكْذَبَ أُحْدُوثَتَكُمْ. فَقَالَتْ: إِنَّمَا يَفْتَضِحُ الْفَاسِقُ، وَيَكْذِبُ الْفَاجِرُ، وَهُوَ غَيْرُنَا. فَقَالَ ابْنُ زِيَادٍ: كَيْفَ رَأَيْتِ صُنْعَ الله بِأَخِيكِ وَأَهْلِ بَيْتِكِ؟ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ، فَبَرَزُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَسَيَجْمَعُ الله بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَتُحَاجُّ وَتُخَاصَمُ، فَانْظُرْ لِمَنِ الْفَلْجُ[1] يَوْمَئِذٍ، ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا بْنَ مَرْجَانَةَ.

قَالَ: فَغَضِبَ وكَأَنَّهُ هَمَّ بِهَا، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ حُرَيْث: إِنَّهَا امْرَأَةٌ، وَالْمَرْأَةُ لَا تُؤَاخَذُ بِشَيْءٍ مِنْ مَنْطِقِهَا. فَقَالَ لَهَا ابْنُ زِيَادٍ: لَقَدْ شَفَى الله قَلْبِي مِنْ طَاغِيَتِكِ الْحُسَيْنِ وَالْعُصَاةِ الْمَرَدَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكِ. فَقَالَتْ: لَعَمْرِي، لَقَدْ قَتَلْتَ كَهْلِي، وَقَطَعْتَ فَرْعِي، وَاجْتَثَثْتَ أَصْلِي، فَإِنْ كَانَ هَذَا شِفَاءَكَ فَقَدِ اشْتَفَيْتَ. فَقَالَ ابْنُ زِيَادٍ: هَذِهِ سَجَّاعَةٌ، وَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ أَبُوكِ سَجَّاعاً شَاعِراً. فَقَالَتْ: يَا بْنَ زِيَادٍ مَا لِلْمَرْأَةِ وَالسَّجَاعَةِ»[2].

هذا هو النص، ولكن ممّا فاجأنا في البحث عنه أنّ الرواية غير موثّقة في أغلب

(١) «الفلج: الظفر والفوز». الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين: ج٣، ص٤٢٥.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١١٥ـ١١٦. ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص١٠ـ١١.

كتب التاريخ، كالطبري، والكامل، ومروج الذهب، واليعقوبي، وابن الأثير، فذكروا تفاصيل المحاورة بين ابن زياد والسيدة زينب عليها السلام إلّا أنّهم يغفلون هذا المقطع، فالرواية عند الطبري ترد «**فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك! قالت: كُتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم...**»[1]، وكذلك عند ابن الأثير بنفس الرواية[2]، أمّا المسعودي فلم يمرّ على الحادثة مطلقاً[3]، وأمّا اليعقوبي ذكر في تاريخه: «**... وبادر القوم فاحتزوا راسه، وبعثوا به إلى عبيد الله بن زياد، وانتهبوا مضاربه وابتزوا حرمه، وحملوهنّ إلى الكوفة، فلمّا دخلن إليها خرجت نساء الكوفة يصرخن ويبكين، فقال علي بن الحسين: هؤلاء يبكين علينا فمَن قتلنا؟**»[4]. ولهذا الأمر دلالتان مختلفتان تماماً عن بعضهما:

الأُولى: أنّ الرواية لم تُذكر في الكتب المعتبرة عند المؤرّخين، ولهذا لا يجب أن نعتني بها بهذا القدر، ولو كانت الرواية صحيحة معتبرة لاهتمّت بها المصادر المعتبرة القديمة.

الثانية: أنّ للرواية أهمية وخطورة ممّا جعل المؤرّخين القريبين إلى عصر النص، أو حكام بني أُميّة وبني العباس يغفلونها، إمّا خوفاً أو طمعاً.

ولمناقشة الرأيين لا بدّ أن نقدّم مقدّمات:

الأُولى: أنّ القيم الدلالية اللغوية والبلاغية والمؤثرة على المخاطب واضحة بيّنة لا تحتاج إلى مَن يرشد إليها.

الثانية: أنّ تاريخنا الإسلامي ومدونات الحديث والفقه والكلام، كانت قد دونت ونُسخت ووزعت كلّها بإشراف الدولتين الأُموية والعباسية: الأُولى في أواخرها والثانية في بدايتها.

---

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك: ج٤، ص٦٥١ـ٦٥٢.
(٢) أُنظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج٣، ص٣٦٧.
(٣) أُنظر: المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب: ج٣، ص٨٠ـ٨٢.
(٤) اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص١٥٨.

الثالثة: أنّ هاتين الدولتين وما قبلهما وما بعدهما كلّها كانت على عداء واضح لآل البيت عليهم السلام.

الرابعة: أنّ هذه الرواية ليست الوحيدة التي أخفاها المؤرّخون، أو رواة السير! وأوّلها فضل آل البيت عليهم السلام.

تنتهي بنا النتيجة إلى أنّ خطورة هذا النص جعلت المؤرّخين لا يجرؤون على تقديمها ضمن الأحداث المذكورة؛ لأنّها ستقدّم السيدة زينب عليها السلام بهذه الوقفة الصلبة، يتجللها البهاء والعظمة، فيكون مفعول كلامها سارياً في تأثيره على مجرى الأحداث في تاريخ الأُمّة العربية والإسلامية، الأمر الذي يتنافى مع سياستهم في دفع التهم عن البيت الأُموي والعباسي فيما ارتكبوه بحق آل بيت محمد صلى الله عليه وآله، وهذا بذاته يجعلنا نؤمن بأنّ هذه الكلمات لا تخرج إلّا من فم زينب بنت علي عليهما السلام لِما فيها من بلاغة لا تصدر إلّا من أبناء علي عليه السلام.

لذلك لم يبقَ لنا إلّا أن نأخذها عن طريق كتب الشيعة، مثل: بحار الأنوار للعلامة المجلسي، ومثير الأحزان لابن نما الحلي، واللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس، ثمّ توالى نشر الرواية وكتابتها في المصادر المتأخرة.

أمّا السيدة زينب عليها السلام، فهي لا تحتاج إلى تعريف، ونكتفي بأنّ تكون الدراسة على المقولة وحدها دون الخوض في سلسلة رواتها؛ لذلك نقف على تحليلها دون الخوض في مقدّمات طويلة، أو إحاطة بما حول النص، ولكن هكذا وردت الرواية في أغلب الكتب التي وردتنا.

وقد أخذنا العمل على جزء صغير من الرواية وتركنا الخوض في الاختلافات التي تنقل بين راوٍ وآخر؛ لأنّ مقولتنا لا اختلاف فيها مطلقاً، وهذا مهم جداً في أنّ النص الذي نذكر مدى أهميته لم نسجل عليه اختلافاً أبداً، وهذا ممّا يسهل عملية البحث.

بعد أن ناقشنا نسبة النص إلى السيدة زينب عليها السلام، وأنّها قالتها في حضرة ومحفل،

وقـصر، وزهو وشـماتة، وعنجهية ابن زيـاد، وهي امرأة منكوبـة بأولادها وإخوتها، وعشـيرتها وأصحاب أخيهـا، وقبل كل ذلك هي مفجوعة بإمـام زمانهاعليه السلام، ومعها الأطفال، والنساء الثكالى، والإمام العليل، وهي ترى هلع الكبار والصغار من هول ما أصابهم من نهبٍ وحرقٍ للخيام وعطشٍ يذيب الفؤاد، وأطفال تحت ضغط الجوع تناولوا شـيئاً من صدقات أهل الكوفة، فتمنعهم (سلام الله عليها) من ذلك، موبخة أهل الكوفة على ذلك الفعل، إذ ورد في التاريخ: «**وصار أهل الكوفة يناولون الأطفال الذين على المحامل بعض التمر والخبز والجوز، فصاحت بهم بنت أمير المؤمنين عليعليه السلام، وقالت: يا أهل الكوفة، إنّ الصدقة علينا حرام! وصارت تأخذ ذلك من أيدي الأطفال وأفواههم، ثمّ قالت: صِه يا أهل الكوفة، تقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم، فالحاكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء**»[1].

ويعلّـق بعض الباحثين أنّه «**أرادتعليها السلام من ردّ عطايا أهل الكوفة، أن تعرّف الناس بـأنّ سـبايا هـذا الركب ليسـوا مـن أيّ الناس، بـل هم آل رسـول الله الذيـن فرض الله مودّتهم واتّباعهم**»[2]. في حين إنّنا نرى أنّ القضية لا تتمثّل في هذا فحسـب، بل كيف يصـبر الأطفـال الجياع على جوعهـم، ويمتثلون لقول قائدة الركـب؟ ـ ولأنّ الإمام السجادعليه السلام ما زال عليلاً، ولو لم يكن كذلك بمشيئة الله لقُتل مع أبيه ـ والسـرُّ يكمن في الأطفال وتربيتهم، وفي شـخص السـيدة زينبعليها السلام، التي تفـرض هيبتها على كلّ شيء، ولـو كانـت غيرها لقالت: إنّ هذه الحالة من الضرورات، فإن اسـتطاع الكبار الصبر فكيف يمكن للصغار أن يتحملوا الجوع في رحلة السـبي؟! وكانوا قد تحملوا العطش في واقعة الطفّ.

هـذا هو الظرف المتأجـج والملتهب والصعب، ولا يمكن أن ننسـى كيف تركت

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١١٤.

(٢) معهد سيد الشهداءعليه السلام للمنبر الحسيني، رحلة السبي: ص١٤.

السيدة زينب (عليها السلام) أخاها، إذ وصفت هي ذلك بقولها: «**يا محمداه، صلّى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء، مرمّل بالدماء، مقطّع الأعضاء، وذريتك مقتّلة، تسفي عليها الصبا!**»[1]. عندها سنعلم كيف كانت الحال التي هي عليها، وهو حال كلّ مَن معها ممّن تركن من الشهداء مع الإمام الحسين عليه السلام، وهو حال يجمع كلّ أنواع الأسى والحزن، والأذى والغضب، إلّا الجمال، فكيف كانت السيدة زينب عليها السلام تصف كلّ ذلك بوصف الـ(جميل) دون غيره من الأوصاف؟

ونضع عدّة احتمالات وتساؤلات لنرى لماذا اختارت وصف الجمال لما رأته؟

- هل كانت السيدة زينب عليها السلام تريد أن تكابر أمام عدوها؟
- هل خانتها لغتها ولم تجد بديلاً عن هذا الوصف؟
- هل كانت تريد أن تواسي مَن معها في ركب السبايا؟
- هل كانت لا تعني هذا بسبب الذهول أو غيره؟
- أم أنّها كانت تقصد كلّ حرف وكلمة قالتها في تلك الجملة العظيمة في جوابها.

وللرد على هذه الاحتمالات، نقول: إنّ الاحتمال الأوّل غير وارد؛ لأنّها لم تكن في حال يدعو للمكابرة؛ لأنّ جوابها فيه من الكبرياء الكامل الذي لم يترك لمحاورها مجالاً، إضافة إلى أنّها قدِمت إلى الكوفة وتعلم ما سيجري لها؛ لأنّ المنطق يقول: إنّ التي جرى عليها ما جرى في كربلاء لن يكون الطريق أمامها مليئاً بالزهور، بل سيكون استمراراً للطفّ وواقعتها، وربّما أكثر؛ لأنّها في كربلاء كانت بحماية إخوتها وأهلها، فهي متهيأة لهذا الظرف.

أمّا الاحتمال الثاني، فتفنّده اللغة الجزيلة التي تحدّثت بها على مدار واقعة الطفّ وما بعدها، ولا سيّما في مجالس أعداء رسول الله، كان منطقها منطق علي بن أبي طالب عليه السلام، فيسقط هذا الاحتمال بمجرّد النظر إلى بلاغة وفصاحة كلامها عليها السلام.

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج٤، ص٨١.

أمّـا احتمال المواسـاة، فهذا بعيد أيضـاً كون مَن معها أثبتوا أنّهـم على ثبات ويقين تامّين، أمّا الاحتمال الآخر من أنّها قد تكون مذهولة أو غيره من الأُمور التي تُصيب النـاس عند فواجع الدهر ـ وحاشـاها ـ فالنصوص تُثبت العكس، والروايات تؤكّد أنّها كانت هي التي تسيطر على الموقف بعد الحسين عليه السلام، وعليه لم يتبقَ لنا إلّا أن نُسلّم أنّ السيدة زينب عليها السلام كانت قاصدة لكلّ ما قالته: «**مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً**».

المطلب الثاني: تحليل مفردات النصّ

بعد عرض مناسـبة النص والحال الذي كان عليه المتحاوران، سـنختزل التحليل للنـص بالموقـف الذي يبـدأ من: «**قَالَ ابْـنُ زِيَادٍ: كَيْفَ رَأَيْـتِ صُنْعَ اللهِ بِأَخِيـكِ وَأَهْلِ بَيْتِكِ؟ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً**»، وهنا سـنختار من كلام ابن زياد (كيف، ورأيتِ، وصنع الله)، ونختار من كلام السيدة زينب عليها السلام (ما، وإلّا، ورأيت، جميلاً):

فالسـؤال من ابن زياد بـ (كيف) إنّما هو ـ كما يقول النحاة ـ للدلالة عن السـؤال عـن الحال[1]، أمّـا (رأيت)، فيقول الزبيدي: «**أصل الراء**» مع الـواو والياء «**(الرؤية) بالضـم إدراك المرئي؛ وذلـك أضرب بحـس قوى النفـس: الأوّل (النظـر بالعين) التى هـي الحاسـة وما يجـري مجراها، ومن الأخـير قوله تعـالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ فإنّه ممّا أجري مجرى الرؤية بالحاسة، فإنّ الحاسة لا تصح على الله تعالى، وعلى ذلـك قولـه: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾، والثاني بالوهـم والتخيل نحو أرى أنّ زيـداً منطلق، والثالث بالتفكر نحـو: إنّي أرى ما لا ترون (و) الرابع (بالقلب)، أي: بالعقـل، وعلى ذلك قوله تعـالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾، قـال الجوهري: الرؤية بالعين يعـدّى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم**

(١) تعرّف أدوات الاستفهام بأنّها: أدوات مبهمة، تُستعمل في طلب الفهم بالشيء، والعلم به. (كيف): اسم استفهام مبني على الفتح، لتعيين الحال. نحو: كيف حالك؟ ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ آل عمران: آية١٠١. موقع موضوع، قسم اللغة العربية: http://mawdoo3.com.

يتعـدّى إلى مفعولين، يقـال: رأى زيداً عالماً، وقال الراغـب: رأى إذا عُدّي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم وإذا عدّي بـ (إلى) اقتضى معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار»[1].

ويقول صاحب اللسـان: «**الرُّؤيَـة بالعَيْن تَتَعدّى إلى مفعول واحـد، وبمعنى العِلْم تتعدّى إلى مفعولين، يقال: رأَى زيداً عالماً، ورَأَى رَأْياً ورُؤْيَةً ورَاءَةً مثل راعَة، وقال ابن سيده: الرُّؤيَةُ النَّظَرُ بالعَيْن والقَلْب**»[2].

وبهـذا يتفق أصحـاب المعاجم على أنّ الرؤيـة الحقيقية بالعين لهـا مفعول واحد، ونـرى أنّ النـص البليـغ الذي قالته السـيدة زينـب عليها السلام في جوابها على ابـن زياد، إنّما يتطلّـب إمّـا أن يكـون بأكثر من مفعـول؛ كون ما رأتـه كثير من الحقائـق التي تُدرك بالعين وبالقلب وبالفكر، فالسـائل نفسه ينتظر منها جواباً مليئاً بالكلمات المعبّرة عمّا رأته ـ سواء ما رأته بالعين المجرّدة، أو ما رأته بالقلب والفكر ـ لكن الذي يفاجئُنا في الأمر أنّها ببلاغتها قد ردّت عليه بأن يتعدّى الفعل بمفعول به واحد فحسب، وتريد بـه الرؤيـة العينية والقلبية والفكرية معاً، وهذا لا يتحقق إلّا ببلاغة تشـبه بلاغة علي ابن أبي طالب عليه السلام؛ لأنّها لو كانت تقصد الجمال العيني ـ كما يفترضه أصحاب معاجم اللغـة ـ لتحتم على للسـيدة زينب عليها السلام أن تعبّر بلفظ غـير الجمال، وإن كانت تقصد به المجـاز، وهـي رؤية القلب والفكر يكـون عليها التعبير بمفعولـين أو ثلاثة مفاعيل، وهنـا تكمـن البلاغة في التعبـير بـ (رأى) العينيـة، والقصد منها القلبيـة؛ لأنّ الجمال بذاته هو أمر حسي ويختلف من فرد لآخر ـ كما سـنبين ـ إضافة إلى أنّ السـائل ما كان يقصد بالسؤال بـ(رأى)العينية؛ لأنّ السؤال بكيف أصلاً للدلالة على الحال، والحال أمر معنوي لا يُدرك بالجوارح، بل بالقلب والعقل والفكر.

أمّا سـؤاله عن صنع الله، فالصنـع كما يقول الزبيدي: «**صَنَعَ الـشيءَ صَنْعَاً وصُنْعاً بالفَتْـح والضـمِّ، أي: عَمِلَه فهو مَصْنُوعٌ وصَنيعٌ. وقال الراغـبُ: الصُّنْع: إجادةُ الفِعلِ،**

(١) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج١٠، ص٨٢٥٧.
(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١٤، ص٢٩١.

وكلُّ صُنْعٍ فِعلٌ، وليسَ كلُّ فِعلٍ صُنْعاً، ولا يُنسَبُ إلى الحَيواناتِ والجَمادات، كما يُنسَبُ إليها الفِعلُ. انتهى»[1]، وهنا تكمن أيضاً دقة سؤال ابن زياد في اختيار لفظ (صنع)، وفي الإضافة إلى لفظ الجلالة، كي يُبيّن أنّ ما جرى على أهل بيت النبوة هو بأمر الله، ومنسوب إلى الله، والبلاغة في الإجابة على نسبة الأمر لله، فلو كان السؤال عن صنعه هو، أو صنع جيشه، أو صنع بني أُميّة، ربّما ما كانت ستُجيب بهذا الجواب؛ لأنّ الصناعة التي نسبها لله، والتي أراد أن يحرجها بها، كان سرّ جمالها كونها منسوبة لله تعالى، أضف إلى أنّه هنا يقصد إجادة الفعل وتمامه وإتقانه، كما يقول أصحاب اللغة، فكما حاول أن يكون سؤاله فيه أكبر قدر من التشفي والشماتة واللؤم على آل بيت محمد عليهم السلام ـ هذا فضلاً عن الأفعال المرافقة لها من الإساءة لهم ـ كانت حاضرة في ردّ السؤال بصاعقة تزلزل عرشه وقصره، ومَن كان حوله، عندما ردّت عليه: «**مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً**»، وهنا تكمن الروعة والبلاغة في قولها من عدّة أُمور:

١ ـ الإيجاز فلو حذفنا (ما وإلّا) تبقى كلمتان فقط.

٢ ـ سرعة الإجابة، ولو تأخرت أو تلكأت لفقدت الكلمة تأثيرها.

٣ ـ استخدامها للفعل رأيت، وبيّناه قبلاً، من حيث المعنى والاستخدام، ولكن ردها على ابن زياد بنفس اللفظ الذي استخدمه هو، كان أقوى وقعاً

٤ ـ استخدام (ما وإلّا) أدوات الحصر التي تُفيد التوكيد كما هو معروف، أي: إنّها حصرت ما رأت كلّه بصفة الجمال.

٥ ـ استخدام أدوات الحصر (ما وإلّا) تمنع أيّ إجابة يحتملها السائل أن تكون ردّاً لجوابه[2]. بقي أن نفهم معنى الجمال الذي ذكرته السيدة العظيمة وسنطيل فيه قليلاً:

---

(١) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج١١، ص٢٤٨.

(٢) أدوات الحصر إنّما، إلّا، وتقديم المعمول نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتقديم المسند. وفي أدوات القصر، يقول الأخضري في الجوهر المكنون: وأدوات القصر (إلّا، إنّما، حصر وتقديم) كما تقدَّما، والحصر، والقصر سواء. موقع منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية:
.http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=11191

الجمال في اللغة: يقول ابن منظور: «**والجَمال: مصدر الجَمِيل، والفعل جَمُل، وقوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: بهاء وحسن. ابن سيدة الجَمال: الحسن يكون في الفعل والخَلْق، وقد جَمُل الرجُل بالضم جَمالاً، فهو جَمِيل وجُمَال... والجَمال يقع على الصُّوَر والمعاني، ومنه الحديث: إنّ الله جَمِيل يحب الجَمال. أي: حَسَن الأَفعال كامل الأَوصاف**»[1]، فالجمال واضح في اللغة من حسن الأفعال وكمال الأوصاف، أمّا في القرآن الكريم فقد ورد لفظ الجمال في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[2]، وفي تفسيرها وتوضيح معنى الجمال يقول الزمخشري في تفسيره: «**منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها؛ لأنّه من أغراض أصحاب المواشي، بل هو من معاظمها، لأنّ الرعيان إذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة ـ فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ـ آنست أهلها، وفرحت أربابها، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس**»[3].

أمّا مفهوم الجمال عند الحضارات القديمة قبل الإسلام، فقد كان أبرزها عند فلاسفة اليونان؛ لأنّ الجمال من وجهة نظرنا هي أحلى مراحل الحضارة، وقد ترك لنا التراث اليوناني عدداً من الآراء حول الجمال لا نوردها جميعاً، بل نختار منها بعضاً، فسقراط مثلاً: قد غلبت عليه الآراء الأخلاقية في مفهوم الجمال، فعدّ الجميل مرادفاً للنافع[4]، أمّا أفلاطون فيرى أنّ «**الجمال شيء إلهي يرادف الخير، وأنّه معنى مطلق مجرّد غير قابل للتغيير، وقرر أنّ روح الإنسان تمتعت بالجمال الأزلي في الحياة الأُولى، قبل أن تحل بالأجسام في هذا العالم، ومن أجل هذا إذا رأى شيئاً فيه نفخة من الجمال، أخذته**

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١١، ص١٢٦.
(٢) النحل: آية ٦.
(٣) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف: ج٢، ص٥٧١. وفي المكتبة الشاملة: http://www.altafsir.com.
(٤) لمزيد من التفصيل في آراء وتعاريف الجمال عند المفكرين العرب وغيرهم، اُنظر: حسن، ماجد محمد، مفهوم الجمال في الفكر الإسلامي، عن موقع: http://www.rezgar.com.

الروعة لتذكر ما كان فيه. ومن رأي أفلاطون أنّ الجمال معنى في الشيء مستقل عن حواسنا»[1].

والجمال في الاستعمالات العربية قبل الإسلام يختلف عنه بعد نزول القرآن الكريم، فقد كان العرب قبل الإسلام يستعملون ألفاظ الجمال على الصور المادية في وصف المرأة، والسيف، والناقة، والخيل، وفي هذا السياق يؤيد الدكتور شوقي ضيف هذا الرأي: «**ونراهم يقفون عند المرأة، فيصفون جسدها، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف لها، إذ يتعرّضون لجبينها وخدها، وعنقها وصدرها، وعينها، وفمها وريقها، ومعصمها وساقها، وثديها وشعرها، كما يتعرضون لثيابها وزينتها، وحليها وطيبها، وحيائها وعفتها...**»[2]، بينما نجد أنّ الجمال بعد الإسلام أخذ منحىً آخر، فهو أضاف إلى الكمالات المادية المفاهيم والمعاني المعنوية والروحية من غير إفراط ولا تفريط بين الصورة والمعنى الحسي، ونجد هذا في فعل الرسول صلى الله عليه وآله عندما كان يهتم بالنظافة ويدعو إليها، ويهتم بالمسجد، وأخذ الزينة عند دخول المسجد رغم نهيه عن التبرج والمبالغة والإسراف، وغيرها من كمالات الأُمور التي تملأ كتب السيرة النبوية.

وقد عرف الفكر العربي ولا سيّما فلاسفة العرب فلسفة الجمال، فبدأت في الظهور في مطلع القرن الثالث، ولم تتبلور نهائياً إلّا في القرن الثامن الهجري، بعد أن ساهم فيها أعلام كُثر، من أبرزهم التوحيدي(٤١٠هـ)، وابن سينا(٤٢٨)، والسهروردي(٥٨٨هـ)، وابن عربي(٦٣٨هـ)، وابن سبعين(٦٤٩هـ)، وابن الدباغ(٦٩٦هـ)، وابن الخطيب(٧٧٦هـ). وكانت هذه الفلسفة نتيجة لكلّ العلوم العربية الإسلامية التي ظهرت بعد الفقه، وهي: علم الكلام، والفلسفة، والفكر العرفاني، يضاف إليها كلّ العلوم التطبيقية الأُخرى، مرتبة ترتيباً زمنياً، ومرتبطة في

(١) المصدر السابق.

(٢) ضيف، شوقي، العصر الجاهلي: ص٢١٢ـ٢١٣.

ظهورها بحاجات المجتمع العربي الإسلامي وتطوره[1].

أمّا سرّ الفلسفة التي جاءت بها السيدة زينب عليها السلام، فهو هذا الانتماء إلى مدرسة علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء عليهما السلام، وهما الامتداد إلى الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، وبلا شك هم الطريق إلى الله، والله هو عنوان الجمال، وهو الذي من أسمائه الجميل؛ لذلك ما يأتي من الله عند السيدة زينب عليها السلام بلا شك سيكون جميلاً.

المبحث الثاني: أثر صناعة الجمال في تصحيح مسار العنف

ما نعني بالعنف هنا هو: كلّ ما هو غير جميل، كلّ ما يحتوي على شيء من القبح في النفوس والطباع والسلوك، هنا تعطينا السيدة زينب عليها السلام دروساً في ذلك، وسنفصّل البحث بما يناسبه من المطالب التالية:

المطلب الأوّل: أثر الجمال في ردّ العدو وإصلاحه

من أهمّ المفاهيم التي جاء بها القرآن الكريم هو إصلاح الآخر بالحكمة والموعظة الحسنة، ودفع السيئة بالحسنة، فقال (جلّ وعلا): ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[3]، وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[4]، فكان المسلمون أوّل مَن أضاع هذا المبدأ بعد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ودخلت الأُمّة في حروب ونزاعات وعنف لها أوّل وليس لها آخر، فبدأت منذُ حروب الردّة إلى حروب داعش، فكان العنف يقابله العنف الأقوى ليقضي عليه، ولكن السيدة العظيمة عليها السلام في موقفها هذا أعادتنا إلى هذا المبدأ من

(١) أُنظر: ابن الخطيب، لسان الدين، روضة التعريف بالحبّ الشريف.
(٢) المؤمنون: آية ٩٦.
(٣) فصلت: آية ٣٤.
(٤) النحل: آية ١٢٥.

جديد؛ فلو راجعنا قليلاً في الرواية نجد أنّ السائل الذي قد وجّه السؤال إلى السيدة زينب عليها السلام، ولم يكن عدواً لها وحدها، بل هو عدو لله ولرسوله، وإنّما كان يدّعي الدين؛ لأنّه لا مفرّ اليوم من الإسلام بعد أن أصبح دولة ومكاسب، يسعى له المرتزقة ممّن يدّعون أنّهم من حماة الدين، المهم من هذا أنّ العدو مهما كانت درجة عنفه وقوته وتوحشه لا بدّ من وجود حلّ لهدِّ البناء القوي الذي يتحصن خلفه، هذا البناء كان في داخله خواء وفراغ مجوّف ينكسر من أوّل ضربة على قشرته الزائفة، لذلك يجب مواجهته، لا السكوت عنه أو تركه يعيث في الأرض فساداً؛ لذلك فقد تصدّت له بكبرياء الحق، وبالصدق، وبالإيمان، لم تخشَ من بطشه وسطوته، إنّها قوة الجمال الحقيقي الذي يقهر كلّ قوى الشر والظلام.

في مراجعة قصيرة أيضاً لواقعة الطفّ ولرحلة السبي، وللوقوف بين يدي ابن زياد نجد أنّ الأمر كان مهولاً على سيدة جليلة، لم يكن يجرؤ أحد للنظر إلى خيالها، فكيف بالوقوف في مثل هذا الموقف المهين والمشين على كلّ المسلمين؟! كيف وصلت بهم الأُمور من الإساءة إلى بيت النبوة؟ في الوقت الذي ينظر لها على أنّها سبية خارجية أو كما يصفها ابن حريث في الرواية: «**فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ حُرَيْثٍ: إِنَّهَا امْرَأَةٌ، وَالْمَرْأَةُ لَا تُؤَاخَذُ بِشَيْءٍ مِنْ مَنْطِقِهَا**».

إنّ هذا الموقف الذي سجلته هذه السيدة العظيمة عليها السلام يجب أن يكون درساً تتعلّمه الأجيال، وهو أن يكون الرد على عالم العنف والتوحش والقبح لا بنفس منطقه، بل يكون بالمنطق المعاكس له؛ لأنّ الاستمرار في العنف لا يولد إلّا مزيداً من العوالم الموتورة، من تشريد، ويتامى وأرامل، وجوع وفقر، وثارات لا متناهية، إنّ الرد على هذا الطاغية كان فيه من السلم بمقدار ما فيه من القوة التي بقيت على مدى الدهور تذكرها الأجيال، إنّ الصوت الخافت الهامس النقي الصافي، ينتصر على كلّ أصوات الفوضى والهذيان والصراخ، هكذا هي المسألة.

ولعلّنا نحن اليوم نحاول أن نتوصل إلى نظرية المقاومة بالسلم، أو المقاومة بصناعة الجمال، أو إشاعة ثقافة الجمال في قبال ثقافة العنف، ولتتحقق هذه النظرية يجب أن يكون حاملها على قدر من الإيمان بقدر ما تحمله هذه السيدة، وكثيراً ما يُذكر نماذج من الذين استطاعوا تغيير العالم الطاغي، والوقوف أمام الجبابرة، وما كان سلاحهم سوى الكلمة أو حتى الصمت، ولعلّ غاندي الذي انتصر بثورته على المستعمرين لا بشيء سوى صمته وصيامه، ومناهضته للعنف، فأصبح ممّن يخلدهم التاريخ لمواقفهم السلمية، ونيلسون مانديلا لم يكن ليصل بجنوب أفريقيا إلى ما وصلت إليه، لو تعامل بمنطق السلاح والقوة المادية، نحن اليوم في عالم العنف والإرهاب والتوحش والفوضى التي صنعها الجهلة من المسلمين بأمس الحاجة إلى قوة ومنطق المثقف، والصوت الذي يصنع السلام بالجمال، لا بالسلاح.

ولننهض بعالمنا الإسلامي الذي دمرته الحروب والصراعات، لا بدّ من توفر بعض الشروط، والتي يجب أن يتحلّى بها مَن وقع عليه الظلم أوّلاً؛ لينهض بنفسه.

أوّلها أن يكون حكيماً، وأن يكون صادقاً؛ ليكون له أثره الذي يتركه على نفوس العدو كما فعلت السيدة زينب عليها السلام، وأن يكون سريعاً مباغتاً قوياً، لا مهادنة لديه ولا تقلب في المواقف، عندها يكون كنقاط المطر التي تسقط تباعاً على صخرة في مكانٍ واحدٍ؛ لذلك نحن لم نشاهد السيدة زينب عليها السلام قد تقلّبت في مواقفها بوجود الحسين أو بعد غيابه، إنّما الموقف واحد والقوة واحدة، وإن تغيّرت المواقف، هكذا نحن نحتاج إلى الثبات في مواقفنا، وإن كانت بسيطة، وأن تكون غير مسلحة وغير مدعومة من محاور القوة في الأرض وشرارها؛ ليكون البقاء للخير للجمال؛ لأنّ الشرّ يأكل بعضه بعضاً، ولا بدّ للقاتل من أن يُقتل، بينما مَن يزرع الجمال يحصد الخير، الجمال هو الحل الوحيد لنا في مقابل العنف الذي يسود العالم.

المطلب الثاني: أثر القيادة في تحقيق النصر

إنّ من أهم المواقف التي مرّت بها السيدة زينب عليها السلام هي قيادة ركب مفجوع، كلّ أفراده من الفاقدين، ما بين أيتام وثكالى، وما من قائد لهم سواها حيث كان الإمام السجاد عليه السلام وقتها عليلاً لا يقوى على أن يقوم هو بإدارة الركب، وأيّما فرد غيرها قد واجه من المواقف التي واجهتها من العطش، والقتل، وحرق الخيام، وهلع الصغار، ربّما لا يلومه أحد لو كان ردّة الفعل عنده هي البكاء والعويل، والندب والنواح، ولكن هي لم تكن امرأة وحسب، بل كانت قائدة لمَن تبقّى من بيت علي وفاطمة عليهما السلام، وأدركت أن بقوتها بقاء هذا البيت واستمراره، وبانهيارها ينهار كلّ شيء؛ ولهذا كانت واقفة تدافع عن قضيتها ودينها واسمها، ولو كانت نطقت بكلمة غير الذي قالته في مواجهة ابن زياد ربّما انهار الجميع من نساء وأطفال، سواء من العلويات، أو من نساء الأصحاب، إنّ موقف السيدة زينب عليها السلام كان قد منح القوة لكلّ مَن معها، وسلب الظفر والفوز من العدو الذي بطش ببيت محمد صلى الله عليه وآله، هذا الموقف الرسالي تُعلّمنا إيّاه السيدة زينب عليها السلام، بأن نتعالى على الجراح ونكبر على المواقف، فننتصر ونستمر، ويهزم الأعداء.

وهذا سرّ بقاء النساء والأطفال على مواقفهم، رغم الجوع والعطش وقسوة الجند ووجع السياط، ورغم قسوة رؤية الرؤوس المرفوعة على الرماح تتقدّم الركب المسبي إلى الشام، هكذا تقاد الجيوش، وهكذا تنتصر ولا تستسلم، وتعلّمنا أنّ المعارك الرسالية والأهداف النبيلة لا تنتهي بموت أصحابها، بل تصنع من موتهم حياة لهم وللأجيال من بعدهم، ربّما لو كانت قد استسلمت السيدة زينب عليها السلام لما بقيَ من الطفّ إلّا أن تكون معركة غير متكافئة، انتهت بقتل الأخيار على يد أشرار الأرض، وطواغيت الظلام، وهكذا كلّ المعارك هي صراع بين إرادتين إحداها تمثّل الخير والثانية تمثّل إرادة الشرّ، ولكن لماذا بقيت هذه المعركة دون غيرها يتجدد ذكرها

ليُلهم النفوس صناعة النصر، كما صنعته السيدة زينب عليها السلام، وهي ما زالت تعلو ثيابها دماء أُسرتها من الإخوان والأولاد والأهل والأصحاب.

إنّه درس في قلب الخسارة فوزاً، والهزيمة انتصاراً، والموت حياةً، وهذا هو ما قالته بنفسها في ردّها على شماتته وتشفيه: «**لَعَمْرِي! لَقَدْ قَتَلْتَ كَهْلِي، وَقَطَعْتَ فَرْعِي، وَاجْتَثَثْتَ أَصْلِي، فَإِنْ كَانَ هَذَا شِفَاءَكَ فَقَدِ اشْتَفَيْتَ**». هكذا انتصرت السيدة زينب عليها السلام، بكلمة واحدة استطاعت أن تقلب الطاولة على رأس صاحبها ابن زياد، واستطاعت أن تجعل منه قزماً ضئيلاً، أمام قامة التحدي التي تملكها هذه المرأة البالغة من العمر على مشارف الستين[1]، وعبثاً حاول أن يتهمها بالسجاعة ولم ينجح، «**قَالَ ابْنُ زِيَاد: هَذِهِ سَجَّاعَةٌ، وَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ أَبُوكِ سَجَّاعاً شَاعِراً**».

يحاول أن يوجّه الحوار إلى اتجاه آخر كما فعل القرشيون قبلاً، بأن يتهموا الرسول صلى الله عليه وآله بكونه شاعراً وكاهناً وساحراً، وهذا ديدن أصحاب الباطل عندما تكون معهم القوة المادية، يوجهون كلّ أسلحتهم لشغل الرأي العام بأكاذيبهم، وينسبونها للآخر؛ ليكسبوا الحرب الباطلة، وتتبعهم أصحاب النفوس الضعيفة، والمنافقون، والمرتزقة، ممّن يبحثون عن المكاسب، ولكن حين قالت له: «**يَا بْنَ زِيَادٍ مَا لِلْمَرْأَةِ وَالسَّجَاعَةَ**». هكذا وقف كلّ مَن كان تحت لواء السيدة زينب عليها السلام منتبهاً يقظاً متحدياً؛ لأنّ هذه الكلمات القصيرة الثابتة، لها أثرها في نفوس النساء والأطفال، ولأنّ مقاييس النصر والهزيمة لا تقاس بمقياس مادي؛ فما تراه انتصاراً أو انكساراً ليس بالضرورة أن يكون كذلك في نظر الآخر المقابل، لكن الموقف هنا واضح في أنّ مشاعر القوة والتضحية والفداء، قد عادت من جديد إلى أصحاب الركب الحسيني، أو مَن بقيَ منهم حيّاً، ليشهد النصر مرّة ثانية على يد السيدة الجليلة، التي استطاعت

(١) وُلدت السيدة زينب عليها السلام في السنة السادسة للهجرة في الخامس من جمادي الأُولى. القزويني، محمد كاظم، زينب الكبرى عليها السلام من المهد إلى اللحد: ص٣٥.

أن تـزرع الثقـة في قلـب كلّ مَن كانت منكوبة وكسـيرة واسـتطاعت أن تشـبع أفواه الأطفـال الصغـار من طعم الكبرياء الـذي أطعمتهم، أعطتهم الـدرس في أنّ الموت جوعاً بكبرياء خير من الموت على شبع الذل، وهكذا قادت السيدة زينب عليها السلام الرحلة لتكمل المسيرة إلى الشام.

المبحث الثالث: الإصلاح النفسي والأخلاقي في تحقيق السلم والأمان

إنّ الهدف الذي يعمل عليه البحث هو الارتفاع بالسلوك الإنساني من العنف إلى السـلم والصـلاح والإصلاح، من خلال إثارة الصفات الحميـدة المخبوءة في الذات الإنسـانية، والتـي غطتها القسـوة التـي تقابل بها الحيـاة لهذه النفوس الهشـة، محاولة البحث في داخل الذات من صفات الجمال الإنسـاني، وزرعها في المجتمع، وسينتظم المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأوّل: البحث عن الجمال في إصلاح الآخر

في المرحلـة الثالثـة مـن دروس الإصلاح نجـد أنّ الإصلاح لا يـأتي من الخارج، فكثـيراً ما يتسـاءل مَن يسـتمع إلى هذه المحـاورة، أين الجمال الذي تراه هذه السـيدة ولا يراه غيرها؟ كيف لا يرى المتعاطفون مع القضية الحسـينية سوى الحزن والأسى والغدر والعطش والقتل؟ كيف يمكن لهذه السـيدة أن تحصر ما تراه بالجميل؟ لا بدّ من أنّ في هذا عمق الرؤية التي تراها السيدة العظيمة، والتي لا يراها غيرها، خاصّة في نشـوة الظفر للحاقدين على آل بيت الرسـول عليهم السلام، وفورة الحزن والغضب لمحبي آل البيت عليهم السلام.

غالباً ما تكون المواقف تُنظر من عدّة جهات، وتُحلل من عدّة وجهات نظر وآراء، فالسـيدة زينـب عليها السلام صادقة تمامـاً في قولها، ولكن لنفهم هذا الصـدق يجب أن نتحلّى بهـذه الـروح وهـذا القلب المؤمن، هـي لم ترَ الخيانة مـن أهل الكوفة كـما يرى الذين

اتهموهم، بل رأت أنّ من خيرة أصحاب الحسين عليه السلام الذين استُشهدوا معه هم من أهل الكوفة[1]، كحبيب بن مظاهر الشيخ الجليل[2]، وزهير بن القين[3]، وكثير ممّن نالوا هذا الشرف.

إنّ السيدة زينب عليها السلام لم تشاهد الدماء والجراح، بل كانت ترى الشهادة وريح الجنة، والأجر الذي يناله الشهداء، السيدة زينب عليها السلام كانت ترى معاني الوفاء والحب لأخيها الحسين عليه السلام من قِبل أهل بيته، ولا سيّما من إخوته، وكيف ضحّت السيدة أُمّ البنين[4] بأولادها لنصرة أخيهم[5]، ومن أبناء أبي طالب[6]، كانت ترى شجاعة الفرسان وقتالهم البطولي أمام جيش جرّار من أعداء الله، كانت ترى شباباً يتسابقون

(١) كان عدد أصحاب الحسين عليه السلام في واقعة الطفّ، على أشهر الروايات في كتب السير والتارخ والمقاتل، اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً. القصير، علي، حياة حبيب بن مظاهر: ص١٣٢.

(٢) من أصحاب الحسين عليه السلام، وُلد في نجد، ونشأ في الكوفة، أدرك الرسول صلى الله عليه وآله، ولازم أمير المؤمنين عليه السلام، جليل القدر، عظيم الشأن، واستُشهد عن عمر خمس وسبعين سنة مع الإمام الحسين عليه السلام. أُنظر: المصدر السابق: ص٤٥ـ٥١.

(٣) ذَكَر أهلُ السِّيَر أنّ زهيراً هذا كان رجلاً شريفاً في قومه، نازلاً فيهم بالكوفة، شجاعاً، له في المغازي مواقفُ مشهورة، ومواطن مشهودة. المامقاني، عبد الله، تنقيح المقال في علم الرجال: ج١، ص٤٥٢.

(٤) اسم أُمّ البنين هو: فاطمة الكلابية من آل الوحيد، وأهلُها هم من سادات العرب، وأشرافهم وزعمائهم وأبطالِهم المشهورين، وأبوها أبو المحل، واسمُه: حزام بن خالد بن ربيعة، وقع اختيار عقيل عليها؛ لأن تكون قرينةَ أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. أُنظر: الإصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبيين: ص٥٢.

(٥) كان مع الحسين عليه السلام من إخوته من أبناء أُمّ البنين: العباس، وجعفر، وعثمان، وعبد الله، أولاد علي بن أبي طالب. أُنظر: المصدر السابق: ص٥٢ـ٥٥، وأمّا عدد أبنائه عليه السلام فهم: علي زين العابدين، وأُمّه شاه زنان ابنة يزدجر الثالث كسرى إيران، وعلي الأكبر الشهيد بكربلاء أُمّه ليلى الثقفية، وعلي الأصغر، وهو المشهور بعبد الله الشهيد، أُمّه الرباب من قبيلة كندة.

(٦) كان مجموع أبناء أبي طالب مع الحسين عليه السلام (٢١) كما في رواية الحصين بن عبد الرحمان، عن سعد بن عبيدة، قال: «إنّ أشياخاً من أهل الكوفة لوقوف على التل يبكون ويقولون: اللهمّ أنزل نصرك، قال: قلت: يا أعداء الله، ألا تنزلون فتنصرونه... وإني لأنظر إليهم، وإنّهم لقريب من مائة رجل، فيهم لصلب علي بن أبي طالب عليه السلام خمسة، ومن بني هاشم ستة عشر، ورجل من بني سليم حليف لهم، ورجل من بني كنانة حليف لهم، وابن عمر بن زياد». الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الملوك والأمم: ج٤، ص٥٩٥.

للفوز بالجنة، وفضل الاستشهاد بين يدي إمامهم، كانت ترى النساء[1] وهن يدفعن برجالاتهن من الأزواج والأبناء للقتال مع ابن بنت رسول الله، كانت ترى كيف أنّ أخاها العباس عليه السلام رمى الماء من يديه عندما تذّكر عطش الحسين عليه السلام، كانت ترى صبر بنات[2] وزوجات الحسين عليه السلام[3]، كيف وقفن في نصرة الإمام وتحملن كلّ ما أصابهن من الأحداث الأليمة والمفجعة، وغيرها من المعاني السامية والمواقف الجليلة التي يمكن لها وحدها أن تراها؛ لأنّها ليست من النساء اللاتي جئن لأجل النصر والفوز بكرسي الخلافة، أو ملك الكوفة، أو غيرها، بل إنّها خرجت في أمر رسالي يتحتّم عليها القيام به، بوصفه واجباً شرعياً طاعةً لإمام زمانها، وقد حققت هذا الغرض كاملاً غير منقوص منه شيئاً، ولهذا ما كانت لتنظر إلى سيئات الآخرين وإساءاتهم، بل كانت تبحث كيف تؤدي رسالتها على أكمل وجه، فكان أن رأت الجمال بكامله.

في هذا تُعلّمنا السيدة زينب عليها السلام درساً هو أن نترك الاتكالية والبحث عن السقطات والهفوات والزلات، ونتقاعس عن أداء دورنا، بل نحن ملزمون أمام الله وأمام إمام زماننا أن نكون على قدر مستوى النداء لأداء الواجب الذي يتطلبه واقعنا الحالي، دون النظر إلى الوراء.

---

(١) عدد النساء اللاتي شاركن في نصرة الإمام الحسين عليه السلام: لا توجد إحصائية تفصيلية عن عدد النساء اللاتي كنَّ في كربلاء في جانب المخيم الحسيني، غير ما ذكره المحدّث القمي في كتابه (نفس المهموم)، ناقلاً عن (الكامل) للشيخ البهائي، وقد ورد فيها أنّ عددهن كان عشرين امرأة. وغير ما ذكره في وسيلة الدارين في أصحاب الحسين عليه السلام، وسوف نتعرض إليه في آخر البحث. أمّا النساء اللاتي ورد لهن ذكر صريح في الروايات التاريخية، أو اشتُهر حضورهن من خلال مواقفهن مع أقاربهن (الزوج، الأب، الولد ..). فأُنظر لمزيد من التفصيل بشكلٍ موجز ووافٍ في المقال المنشور في شبكة رافد للتنمية الثقافية، في ٢٩/ ك١/ ٢٠١٠.

(٢) بنات الحسين عليه السلام هنّ: سكينة، فاطمة، زينب، رقية، خولة.

(٣) كان عدد زوجات الحسين عليه السلام في الطفّ: ١ـ ليلى أو برة بنت أبي عروة بن مسعود الثقفي أُمّ علي الأكبر الشهيد بكربلاء. ٢ـ شاه زنان بنت يزدجر أُمّ السجاد متوفاة قبل الطفّ. ٣ـ الرباب بنت أمرئ القيس ابن عدي أُمّ سكينة وعلي الأصغر المشهور بعبد الله الرضيع الشهيد بكربلاء.

نتعلّم درساً من السيدة زينب أن نترك الآخر لنفسه له ما له وعليه ما عليه، وأن نبحث عن مواطن الجمال في الآخر، عن الصفات الحسنة، وعن المواقف الجيدة، وعن الخير الذي يمتلكه كلّ إنسان، فليس من المعقول أن يكون إنسان كلّه خير مطلق، ولا أن يكون آخر كلّه شرّ مطلق، فابحث عن الخير والجمال واترك ما عداه.

المطلب الثاني: الجمال الروحي والنفسي وموقعه من إصلاح الذات

بدأنا في رحلتنا مع السيدة زينب عليها السلام من العدو إلى الأصدقاء، وعرّجنا على الأهل، ونحن الآن مع النفس، إن لم تكن النفس صافية جميلة لن تشعر بالجمال، وهذا مصداق قول الشاعر إيليا أبو ماضي:

أيّها الشاكي وما بك داء ... كن جميلاً ترَ الوجود جميلا[1]

وكذلك قول المتنبي:

ومَن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ ... يجدْ مرّاً به الماءَ الزلالا[2]

وليتحقق ما قلناه سلفاً لا بدّ من أن تكون النفس والروح هي الأجمل؛ لتستشعر الجمال المحيط بها، فلو كانت النفس مريضة لن تعرف الصحة، لا بل ستعمل على إصابة الآخر السليم بالعدوى، وهنا دعوة من السيدة العظيمة أن يكون مذاقنا سليماً، بالكلمة والإحساس بالآخرين، والتعامل بالطيب والحسنى، وقبل كل هذا لا بدّ أن

---

(١) ديوان إيليا أبو ماضي، المولود في إحدى قرى لبنان في ١٨٩١: من قصيدته اللامية (فلسفة الحياة) التي مطلعها:

أيّها الشاكي وما بك داء ... كيف تغدو إذا غدوت عليلا

(٢) الواحدي، أبو حسن، شرح ديوان المتنبي: ج١، ص١١٣، والمتنبي هو: أحمد بن الحسين بن الحسين ابن عبد الصمد الجعفي الكوفي أبو الطيب (٣٠٣-٣٥٤ هـ)، المولود في الكوفة في محلّة تسمّى كندة. ومطلع القصيدة:

بَقائي شاءَ لَيسَ هُمُ اِرتِحالا ... وَحُسنَ الصَبرِ زَمّوا لا الجمالا

يكون تعاملنا مع الخالق الواهب للحياة تعاملاً جميلاً، ولعلّ هذا مصداق ما جاء على لسان زينب عليها السلام حينما سارت إلى أخيها بعد أن سقط في ساحة المعركة، ووقفت عند رأسه، ورفعت طرفها إلى السماء وقالت: «**اللّهمّ تقبل منّا هذا القربان**»[1]، وهذا هو عين الصفاء مع الله عندما يكون الإنسان في رحاب رضا الله، لا يفكر في ما دونه، وهكذا نتعلّم أنّ كلّ ما ينزل بالإنسان من نوازل تهون ما دامت في عين الله، وفيها رضا وقرب من الله؛ ولذلك لا يأتي من الجميل إلّا الجميل.

إنّ المؤمن إذا ما استطاع أن يحافظ على رباطة جأشه في مقابل الحوادث المؤلمة، بالتأكيد تجعله متعاوناً ومتسامحاً ومحباً ومتفائلاً، ويحاول أن لا يظلم الناس، ولا يؤذي خلق الله، بل سيكون مسالماً أكثر منه قبل المآسي والنوازل، وهكذا هو درس في الأخلاق وإصلاح الذات، والمصالحة مع النفس، وكلّ هذا بفضل الرضا بحكم الله وقضائه. هكذا تكون آخر الدروس الإصلاحية التي تكون بين المرء ونفسه، وهذا هو أصعب الدروس؛ لأنّ الصلاح يبدأ من الداخل من النفس، فمَن صلحت سريرته يمكنه أن يتصالح مع العالم أجمع.

وهنا نؤكد أنّ السيدة زينب عليها السلام، هي العالمة العارفة التي تعيش حالات العشق مع الله، فترى كلّ ما يأتي من الله هو الجمال بعينه، ولعلّك قد لا ترضى بأن يكون مصابها أقل من هذا المصاب، ولو كان ما أصابها أقل ممّا جرى لما علا شأنها كما هو حاصل لها، إنّ سرّ صمودها وبقائها لاعتقادها إنّ ما أصابها هو من عند الله، ولا تبحث السيدة زينب عليها السلام مثل باقي الناس عن أمر يصبرها؛ لأنّه عين الجمال لديها.

في هذا الدرس الروحي العظيم نتعلّم من السيدة زينب عليها السلام أنّ التسليم لله يجعل الإنسان أكبر وأقوى وأعلى شأناً، إذا ما تقبلنا هذا الأمر بالتسليم له، وبهذا نتوصل

(١) القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج٢، ص٣٠١. الحسيني، هاشم معروف، سيرة الأئمّة الاثني عشر: ج٢، ص٨٧. محدّثي، جواد، موسوعة عاشوراء: ج١، ص٥٤٣، وغيرها كثير.

إلى أنّ الإنسان عندما يسلّم أنّ ما يقدّر له هو من الله بالتأكيد لن يؤذي مَن حوله، وسيكون مصدر فخر لمَن حوله، عندما يكون القدوة في التحدي والصبر، فإن الله سبحانه وتعالى لن يخذله، وسيكون مصدر احترام وتقدير للآخر.

ومن نفس النص هنالك درس واضح أنّ التسليم لله لا يعني الضعف والاستسلام، بل أن يكون الصبر مغمساً بنفس المقدار من القوة والتحدي بوجه الظالم العاصي لله ولرسوله؛ ليكون مذاق الصبر جميلاً: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۞ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾(١)، ﴿... فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(٢)، ويقول الزمخشري في تفسيره «[أنّه الذي لا شكوى فيه» ومعناه الذي لا شكوى فيه إلى الخلق] ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] وقيل: لا أعايشكم على كآبة الوجه، بل أكون لكم كما كنت. وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه، فكان يرفعهما بعصابة، فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: يا رب، خطيئة فاغفرها لي ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ أي: أستعينه ﴿عَلَىٰ﴾ احتمال ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه»(٣).

أمّا صاحب الميزان، فيقول: «وقوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ مدح للصبر، وهو من قَبيل وضع السبب موضع المسبب والتقدير: سأصبر على ما أصابني، فإنّ الصبر جميل، وتنكير الصبر وحذف صفته وإبهامها للإشارة إلى فخامة أمره، وعظم شأنه، أو مرارة طعمه، وصعوبة تحمله. وقد فرّع قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ على ما تقدّم؛ للإشعار بأنّ الأسباب التي أحاطت به وأفرغت عليه هذه المصيبة، هي بحيث لا يسمع له معها إلّا أن يسلك

(١) المعارج: آية ٥ـ٧.
(٢) يوسف: آية ١٨.
(٣) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف.

سبيل الصبر...»[1] ويضيف «ومن هنا يُعلم أنّ الصبر نعم السبيل على مقاومة النائبة وكسر سورتها، إلّا أنّه ليس تمام السبب في إعادة العافية وإرجاع السلامة، فهو كالحصن يتحصّن به الإنسان لدفع العدو المهاجم، وأمّا عود نعمة الأمن والسلامة وحرية الحياة، فربّما احتاج إلى سبب آخر يجر إليه الفوز والظفر، وهذا السبب في ملة التوحيد هو الله عزّ سلطانه، فعلى الإنسان الموحد إذا نابته نائبة، ونزلت عليه مصيبة أن يتحصن أوّلاً بالصبر حتى لا يختل ما في داخله من النظام العبودي، ولا يتلاشى معسكر قواه ومشاعره، ثمّ يتوكل على ربّه الذي هو فوق كل سبب، راجياً أن يدفع عنه الشر ويوجه أمره إلى غاية صلاح حاله، والله سبحانه غالب على أمره، وقد تقدّم شيء من هذا البحث في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]»[2].

بينما كان صاحب الأمثل يرى: «وبالرغم من احتراق قلبه ولهيب روحه لم يجرِ على لسانه ما يدل على عدم الشكر، أو اليأس، أو الفزع، أو الجزع، بل قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ثمّ قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وأسأله أن يبدل مرارة الصبر في فمي إلى «حلاوة»، ويرزقني القوة والقدرة على التحمّل أكثر أمام هذا الطوفان العظيم؛ لئلا أفقد زمامي، ويجري على لساني كلام غير لائق. ولم يقل: أسأله أن يعطيني الصبر على موت يوسف؛ لأنّه كان يعلم أن يوسف لم يُقتل... بل قال: أطلب الصبر على مفارقتي ولدي يوسف... وعلى ما تصفون»[3]، وآراء وأقوال المفسرين في هذا الأمر كثيرة وجميلة في وصف الصبر بالجمال، وهو برأينا أنّ جمال الصبر إذا كان فيه مرضاة الله تعالى، وأنّ ما يتبع الصبر هو الجمال؛ لأنّ فيه الرفعة والسلم والأمان، الذي ينشده الإنسان ويسعى إليه.

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج١١، ص١٠٧.
(٢) المصدر السابق: ص١٠٨.
(٣) الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزل: ج٦، ص٢١٧.

الخاتمة

بعد هذا التجوال في نفحة من نفحات سيرة السيدة زينب عليها السلام، يمكن أن نلخّص أهمّ نتائج البحث:

١ ـ أنّ موقف السيدة العظيمة في قصر ابن زياد يمكن أن يتكرر مع كلّ إنسان منذُ الطفّ إلى هذه الأيام، وربّما يستمر أكثر، مَن فقد الأهل والدار والوطن، والتعرّض لمواقف الشماتة، والمواقف التي مرّت بها السيدة زينب عليها السلام أصبحت تتكرر كلّ يوم، وهذا يجعل النص خالداً حيّاً، يمكن أن يتسلّح به المؤمن في كلّ وقت محزن ومؤلم.

٢ ـ أنّ السيدة زينب عليها السلام سبقت الأجيال في فهم الجمال، وصناعة الجمال، وبادرت به في موقفها ضد الطغاة، الجمال بالكلم، والجمال بالحزن، والجمال بالموقف، إنّه ثقافة وعلم توصّل إليه العلماء متأخرين عنها بعشرات القرون.

٣ ـ إزدياد الحاجة إلى سيادة موقف المثقف الذي يبحث عن الجمال، ويفتش عنه بين ركام الجراح، وقد يكون هذا الموقف بكلمة أو فعل، أو أيّ شيء يبعث الأمل في النفس.

٤ ـ ليس كلّ عنف يمكن أن يجابه بالعنف؛ لأنّ العنف يولد آخر، فيزيد من تأجج نيران الحقد بين الناس، بل يمكن أن يقابل العنف بالسلم القوي لا السلم الخانع؛ لأنّ الخنوع خيانة للمواقف، وبالتالي تؤدي إلى عودة العنف من الداخل، بينما السياسة القوية الحكيمة الثابتة الرؤيا والموقف، تكف الحروب وتُعيد الأمان والبناء من جديد.

٥ ـ أنّ القوة الداخلية التي يمتلكها الإنسان يمكن لها أن تؤدي إلى قلب الموازين من الخسارة إلى الفوز، ومن الهزيمة إلى النصر.

٦ ـ قوة الجمع بقوة القيادة، والعكس أيضاً، لذلك على القائد أن يكون ذا إمكانات عالية من القوة والصبر والتحمل.

٧ ـ ثقافة الجمال تبدأ من السلوك الفردي، ومتى كان الجمال سلوكاً لدى الأفراد أصبح ثقافة مجتمعية.

٨ ـ المعاني السامية يفضي بعضها إلى بعض، والمفاهيم السيئة إذا ما تُركت تصبح جرائم تؤدي إلى العنف.

٩ ـ أنّ الجمال فيه إصلاح للذات، وإصلاح الذات أهم ما يمكن أن يختصر الطريق للوصول إلى السلام.

١٠ ـ الأمان والسلام النفسي ينعكس على التعامل مع الآخر بالسلام والأمان، والعكس صحيح؛ لأنّ القلق والتوتر يجعل الإنسان يعيش في مضنّة الشك، وسوء الظنّ، وبالتالي خلق المشاكل والأذى، والشتائم، والسب، والقذف.

فهرست المصادر

* القرآن الكريم.

١ ـ تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر بن جرير الطبري (٢٢٤ـ٣١٠هـ)، تحقيق وتعليق: عبد الأمير علي مهنا، منشورات الأعلمي للمطبوعات، ط٢، ٢٠١٢م، بيروت.

٢ ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزل مع تهذيب جديد، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة الأعلمي، ط١ مصححة، ٢٠١٣م، بيروت.

٣ ـ بحار الأنوار (الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار عليهم السلام)، للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي، المولود بإصفهان سنة ١٠٣٧، (ت١١١٠هـ)، طبعة مؤسسة الوفاء، ١٤١٤هـ، بيروت ـ لبنان.

٤ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزبيدي، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٥ ـ تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المعروف باليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير مهَنَّا، منشورات الأعلمي، ط١، ٢٠١٠م، بيروت.

٦ ـ تنقيح المقال في علم الرجال: عبد الله المامقانيّ، تحقيق واستدراك: محي الدين المامقاني، ط١، ١٤٢٣هـ، مؤسسة أهل البيت لإحياء التراث.

٧ ـ حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام دراسة وتحليل، الشيخ باقر شريف القرشي، ط٤، ١٩٩٢م، انتشارات مدرسة الإيرواني.

٨ ـ حياة حبيب بن مظاهر، السيد علي القصير، ط١، ٢٠١٠م، إصدار قسم الشؤون الفكرية في العتبة الحسينية ـ شعبة التحقيق.

٩ ـ المجموعة الشعرية الكاملة، إيليا أبو ماضي، مكتبة نرجس الألكترونية.

١٠ ـ رحلة السبي، إعداد ونشر معهد سيد الشهداء عليه السلام للمنبر الحسيني، ط١، ٢٠٠٦م.

١١ ـ روضة التعريف بالحب الشريف، ابن الخطيب، لسان الدين، تحقيق: محمد الكتاني،

ط١، ١٩٧٠م، دار الثقافة، بيروت.
١٢ ـ زينب الكبرى عليها السلام من المهد إلى اللحد، محمد كاظم القزويني، تحقيق: مصطفى القزويني، ط١، ١٤٢٣هـ، منشورات دار الغدير.
١٣ ـ سيرة الأئمّة الاثني عشر، هاشم معروف الحسيني، دار التعارف للمطبوعات.
١٤ ـ شبكة رافد للتنمية الثقافية، الموقع الألكتروني.
١٥ ـ شرح ديوان المتنبي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت٤٦٨هـ)، نشر مطاح، إصدار ٢٠١٣م.
١٦ ـ مفهوم الجمال في الفكر الإسلامي، ماجد محمد حسن عن موقع: http://www.rezgar.com.
١٧ ـ العصر الجاهلي، دكتور شوقي ضيف، نشر دار المعارف بمصر.
١٨ ـ الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، ٢٠١١م، نشر الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
١٩ ـ الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، وفي المكتبة الشاملة: http://www.altafsir.com.
٢٠ ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت.
٢١ ـ مجمع البحرين، الشيخ فخر الدين الطريحي (ت١٠٨٥هـ)، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.
٢٢ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (٣٤٦ـ٩٥٧هـ)، ش: عبد الأمير علي مهنّا، ط٢، ٢٠١٠م، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٢٣ ـ مقاتل الطالبيين، أبو الفرج علي بن الحسين الإصفهاني (٣٥٦هـ)، ط١، ب ت، منشورات الفجر، بيروت.

٢٤ ـ موسوعة عاشوراء، الشيخ جواد محدّثي.
٢٥ ـ موقع منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية: http://www.m-a-arabia.com.
٢٦ ـ موقع موضوع، قسم اللغة العربية: http://mawdoo3.com.
٢٧ ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، ط١، ١٩٩٧م، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٢٨ ـ اللهوف في قتلى الطفوف، أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت٦٦٤هـ)، تحقيق: الشيخ فارس تبريزيان «الحسون»، سلسلة الكتب المؤلفة في أهل البيت عليهم السلام (٤٢)، إعداد مركز الأبحاث العقائدية.

المؤسسة الجامعية وأهمّيتها في غرس القيم التربوية والأخلاقية المستوحاة من النهضة الحسينية

م. د. ميثم عبد الكاظم هاشم الساعدي*

المقدّمة

تُعدّ القيم الدينية، وما ينبثق عنها من قيم تربوية في النظام التعليمي، ضرورية ولازمة لنجاح سير العملية التعليمية وتوجيهها نحو تحقيق أهدافها النبيلة، وهي بناء الإنسان وتعديل سلوكه وفقاً للنهج الديني الإسلامي، فالقيم مصدر رئيس في بناء شخصية الفرد وتأكيد لهويته، «**ومن هنا؛ فعلى التربية أن تجد القيم اللازمة لتوجيه أفرادها نحو التعليم الصحيح**»(١).

ويعيش المجتمع الإسلامي في الوقت الحاضر مرحلة من الغزو الفكري الموجّه وبشكلٍ مدروس من قِبل أعداء الإسلام، وفي كافة المجالات الإعلامية والتعليمية والاجتماعية والسياسية؛ من أجل إضعافه وإفساده، ونشر الرذيلة بين أفراده عن طريق وسائل التقنية الحديثة، كالإعلام المرئي والسمعي الموجّه عبر الفضائيات، ووسائل الاتصال الحديثة التي غزت كافة المؤسسات التعليمية النظامية وغير النظامية حتى المنازل، والتي تنشر الفاحشة بين كافة المستويات الاجتماعية وبشكلٍ رخيصٍ وسهلٍ.

يتداخل مفهوم القيم لدى العديد من المجالات والعلوم، كالفلسفة، والاقتصاد،

---

* الجامعة المستنصرية/ كلّية التربية الأساسية/ قسم الإرشاد النفسي والتوجيه التربوي.

(١) النجيحي، محمد لبيب، في الفكر التربوي: ص١١٦.

والاجتماع، وعلم النفس، والتربية، وينظر أصحاب كلّ مجال إلى القيم بمفهوم يختلف فيما بينهم في المعنى، ولكنّا سنركز على القيم التربوية والأخلاقية، وهو محور هذه الدراسة.

إنّ القيم التربوية هي المصدر الرئيس لاشتقاق الأهداف، ووضع الفلسفة والسياسات التربوية في أيّ نظام تربوي، والتي في ضوئها يتحدد السلوك المرغوب من الأفراد والجماعات حسب تلك الفلسفة، «**وتقوم نظرة علماء التربية للقيم على أساس أنّ التربية في جوهرها عملية قيمية، ما دام هدفها تنمية الفرد والجماعة نحو الأفضل، والمؤسسات التربوية بحكم ماضيها وحاضرها، ووظائفها وعلاقاتها بالإطار الثقافي الذي نعيش به، تسعى إلى بناء القيم في كلّ المجالات الخُلقية والنفسية، والاجتماعية والفكرية والسلوكية**»[1].

ومن هنا؛ نرى أنّ فقدان التربية لقيمها يعني فقدان الشخصية لروحها وأهميتها المميّزة لها، وقد أكّد البعض أنّ (التربية في جوهرها عملية قيمية) سواء عبّرت عن نفسها في صورة واضحة أو ضمنية، فالمؤسسة التعليمية بحكم ماضيها وحاضرها، ووظائفها وعلاقاتها بالإطار الثقافي الذي تعيشه، مؤسسة تسعى إلى بناء القيم في كلّ مجالاتها النفسية، والاجتماعية، والخُلقية، والفكرية، والسلوكية[2].

«**وقد حظي موضوع القيم التربوية اهتماماً كبيراً من قِبل المتخصّصين في عدّة ميادين، مثل: الفلسفة، وعلم الاجتماع، والتربية؛ إذ تُعدّ القيم من أهداف التربية؛ وذلك لأنّ من أهم وظائف التربية هو الحفاظ على التراث الثقافي ونقله من جيل لآخر، فالمعرفة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ينبغي أن يتعلّمها الجيل الجديد في المجتمع؛ لضمان استمراره في الحياة. فالتراث هو الذي يحمل عناصر الأصالة، وهو الذي يمنح الثقافة التواصل مع الماضي، والقدرة على المعاصرة والتطور في المستقبل، وهو الذي يمنح الإنسان أُسلوب**

(١) بركات، أحمد لطفي، القيم والتربية: ص٣٢.

(٢) أُنظر: عبد الملك، أنور، الفكر العربي في معركة النهضة: ص٣٢.

الحياة، وأنماط السلوك والقيم، والعادات والتقاليد»[1].

«وتعني التربية: الحفاظ على المُثُل العليا للمجتمع، الأخلاقية والإنسانية النابعة من تاريخ الأُمّة، ومن حضارتها وثقافتها، ومن خبراتها الماضية، ومن دينها، وعن طريق تعاملها وعلاقتها بالأُمم الأُخرى، وعلاقات الأفراد فيها، وغيرها»[2].

«والتربية تعوّد الطفل على التفكير الصحيح والحياة الصحيحة، بما تزوده من معارف وتجارب تنفع عقله، وتغذي وجدانه، وتنمّي ميوله ومواهبه، وتعوّده العادات الحسنة، وتجنبه العادات السيئة، فينشأ قوي الجسم، حسن الخُلق، سليم العقل، متزن الشخصية، قادراً على أداء رسالته في الحياة»[3].

إنّ هذه الاهتمامات التي تجتمع حول التربية تصاحبها في كلّ مكان وزمان، وفي كلّ مرحلة من مراحل التحوّل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي؛ فهي وثيقة الصلة بالفلسفات والاتجاهات الكبرى التي عرفتها الإنسانية عبر العصور، وهي تسعى دوماً إلى تحقيق غاياتها ومبادئها في ضوء المجتمع الذي تنتمي إليه، بحيث تُعتبر المصدر الأساسي الذي يعتمد عليه التغيّر الاجتماعي إلى حياة أفضل، **«والتربية بمعناها الكامل: هي وسيلة الاستمرار الاجتماعي للحياة، وهي السبيل كذلك لتجديد الحياة بمستوياتها الاجتماعية والخلقية، وعن طريقها يكتسب الفرد المهارات والاتجاهات التي تساعدها على مواكبة متطلبات الحياة»**[4].

ويستهدف البحث الحالي التعرّف على مفهوم القيم ومفهوم التربية والتربية في الإسلام، وما هي القيم التربوية في النهضة الحسينية، ودور الجامعات في غرس قيم النهضة الحسينية لدى الطلبة، وتحقيقاً لذلك تم استخدام المنهج الوصفي القائم على التحليل والتفسير، إذ إنّ لكلّ ظاهرة وصفاً وتفسيراً، إذ يعمل هذا المنهج على

(١) بركات، أحمد لطفي، القيم والتربية: ص٣٢.
(٢) عاقل، فاخر، معالم التربية: ص١٤.
(٣) مدكور، علي أحمد، منهج التربية أساسياته ومكوّناته: ص١٢٠ـ١٣٥.
(٤) عفيفي، محمد الهادي، الأُصول الثقافية للتربية: ص٥.

وصف ظواهر أو أحداث أو أشياء معينة، وجمع الحقائق والمعلومات والملاحظات عنها، ووصف الظروف الخاصّة بها، وتقرير حالتها كما توجد عليه في الواقع[1].

ويشتمل البحث مجموعة من المباحث، وهي كالآتي:

المبحث الأوّل: مفهوم القيم.

المبحث الثاني: مفهوم التربية.

المبحث الثالث: التربية ومهمتها في الإسلام.

المبحث الرابع: القيم التربوية في النهضة الحسينية.

المبحث الخامس: دور الجامعات في غرس قيم النهضة الحسينية لدى الطلبة.

المبحث الأوّل: مفهوم القيم

تعدّ القيم من المفاهيم الأساسية في ميادين الحياة جميعها، وهي تمسّ العلاقات الإنسانية بكافة صورها؛ إذ إنّها ضرورة اجتماعية، وهي معايير وأهداف لا بدّ أن نجدها في كلّ مجتمع منظم، سواء كان متأخراً أو متقدّماً، فهي تتغلغل في نفوس الأفراد على شكل اتجاهات ودوافع وتطلعات، وتظهر في السلوك الظاهري الشعوري واللاشعوري، وفي المواقف التي تتطلب ارتباط هؤلاء الأفراد، ولا يمكن أن نفرضها على الأفراد، وإنّما تكتسب من خلال تأثير المنزل والمدرسة والمسجد، ومن خلال الأصدقاء والأقران والقادة خارج المنزل[2].

تحتل القيم التربوية الأخلاقية مكانة ومنزلة عظيمة في الدين الإسلامي، فهي غاية الإسلام وهدفه، تسعى إلى بناء الشخصية السوية للإنسان المسلم، من خلال التعاليم والمبادئ الإسلامية التي تؤكّد على الالتزام بالفضائل والأخلاق النبيلة، والابتعاد عن الرذيلة والفحشاء، وتزكية النفس وطهارتها، والابتعاد عن الشهوات

(١) أُنظر: سمارة، عزيز، مبادئ القياس والتقويم في التربية: ص١٣٨.

(٢) أُنظر: بكر، عبد الجواد السيد، فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف: ص٨١.

والهفوات، والفسوق والرفث والجدال. وتقوى الله، ورَبَطَ الله تعالى درجة الإيمان بمدى الالتزام بالأخلاق الفاضلة؛ لقول رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**».

ويقول رسولنا الكريم ﷺ: «**إنّما بُعثت لأُتمم مكارم الأخلاق**». ويقول الله في حقّه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

ومن خلال ما تقدّم يتضح أنّ القيم لها أهمية بالغة بالنسبة للأفراد والجماعات والمجتمع على حدّ سواء؛ لأنّها تتصل اتصالاً مباشراً بالأهداف التي يسعى المجتمع إلى تحقيقها عن طريق التربية، إذ ترتبط القيم بالتربية، وذلك من خلال أهمية القيم في صياغة الأهداف التربوية المبنية على فلسفة التربية، والتي تنبثق أصلاً عن فلسفة المجتمع، وتأتي أهمية القيم في تعبيرها عن فلسفة مجتمعٍ ما وإطار حياته، وتوجيهه للتربية وفلسفتها وأهدافها التي تعتمد في بلورتها وصياغتها على وضوح القيم؛ لاختيار نوع المعارف والمهارات، وتعيين الأنماط السلوكية المرغوبة[2].

وبذلك يمكن القول: إنّ لكلّ مجتمع تربيته الخاصّة، والتي تعكس فلسفته وأهدافه وظروف حياته، وألوان نشاطه، وقيمه ومعتقداته، أي: تعكس عموماً آيديولوجيته في الحياة، لتجعل الصغار يشبّون على هذه الآيديولوجية، فينضمّون إلى حملتها من الكبار[3].

وللقيم تعريفات عديدة منها:

«**مجموعة من الأحكام المعيارية المتصلة بمضامين واقعية، يتشربها الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات المختلفة، بشرط أن تلقى هذه الأحكام قبولاً من جماعة اجتماعية معينة؛ حتى تتجسّد في سياقات الفرد السلوكية، أو اللفظية، أو اتجاهاته، أو اهتماماته**»[4].

---

(١) القلم: آية ٤.

(٢) أُنظر: أبو العينين، علي خليل، القيم الإسلامية والتربية: ص٣٦.

(٣) أُنظر: النوري، عبد الغني عبود، نحو فلسفة عربية للتربية: ص٢٣.

(٤) زاهر، ضياء، القيم في العملية التربوية: ص٢٤.

وتعـرّف بأنّها: «**مجموعـة من المعايير والأحـكام التي تتكون لـدى الفرد، من خلال تفاعلـه مـع المواقف والخـبرات الفرديـة والاجتماعية؛ بحيـث تمكّنه من اختيـار أهداف وتوجهات حياته**»[1].

وتعـرّف أيضـاً بأنّهـا: «**مجموعة من المبـادئ والقواعد والمُثـل العليا، التـي يؤمن بها النـاس ويتفقون عليها فيما بينهـم، ويتخذون منها ميزاناً يزنون بـه أعمالهم ويحكمون بها على تصرفاتهم المادية والمعنوية**»[2].

خصائص القيم التربوية

مـن خلال ما أمكن عرضه، نسـتطيع أن نتبيّن أنّ هناك بعض السـمات المشـتركة لمفهوم القيمة، وهذه السمات يمكن الإشارة إليها على النحو الآتي:

١ـ مكتسبة من خلال التنشئة الاجتماعية وتفاعل الفرد مع البيئة.

٢ـ إنسـانية، لارتباطهـا بالإنسـان دون غيره مـن الكائنات الحيّة، والإنسـان هو الذي يعطي القيمة للأشياء.

٣ـ غـير خاضعـة للقياس الدقيـق أو المحدد؛ لأنّها وجدانية تعتمد على الشـعور، والذوق، والمزاج، والانفعال، وبالتالي فهي مسألة شخصية.

٤ـ تترتـب فيما بينها هرميـاً، فهي تتطلب الاختيـار والتفضيل من خلال وضعها في مراتـب ودرجـات معينة حسـب أهميتهـا، ومن ثَمّ تبنـي القيم التي تحقـق رغباته وحاجاته.

٥ـ أنّ النسـق أو السـلّم القيمي ليس جامداً، فهي ترتفع وتنخفض وتعلو وتهبط وتتقدّم وتتأخر فيما بينها؛ بسـبب ظروف الفرد وأحواله واهتماماته، أو حسـب نموّه ونضجه العقلي، والجسمي، والاجتماعي، والانفعالي.

(١) أبو العينين، علي خليل، القيم الإسلامية والتربية: ص٣٤.

(٢) طهطاوي، سيد أحمد، القيم التربوية في القصص القرآني: ص٤٢.

٦ـ نسبية وثابتة في آنٍ واحدٍ، فهي تتصف بالثبات النسبي نظراً للتغيّرات والتطورات في المجتمع.

٧ـ تهتم القيم بالأهداف البعيدة التي يضعها الإنسان لنفسه، لا بالأهداف الفرعية[١].

المبحث الثاني: مفهوم التربية

التربية: هي عملية تكيّف ما بين الفرد وبيئته الاجتماعية والطبيعية، باعتبار أنّ الإنسان مثل غيره من الكائنات الحيّة، يسعى دوماً إلى المحافظة على بقائه، والبحث على الوسيلة التي تساعده على تعديل سلوكه، وتنمية قدراته، وتكوين عادات ومهارات تفيده في حياته، فالوظيفة الأساسية للتربية هنا أنّ الإنسان يصبح قادراً بواسطتها على ملاءمة حاجاته مع الظروف المحيطة به، وإمكانية تسخيرها بما يستجيب لدوافعه ومتطلباته؛ ليحقق له النمو المتوازن، كما أنّ التربية هي عملية نمو، أيّ: إنّها تكفل للطفل نمواً منسجماً في جوانب مختلفة من شخصيته الجسمية والعقلية، والنفسية والاجتماعية، من خلال ما توفره الأُسرة، والمؤسسات التربوية من إمكانيات مادية ومعنوية من شأنها أن تضمن له الارتقاء النفسي والاجتماعي الضروريين[٢].

١ـ التربية لغةً

جاء في لسان العرب: «**ربا الشيء: زاد ونما، وربيته: نمّيته**»[٣].

وفي القرآن الكريم: ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٤]، أي: يزيدها. وربوتَ في بني فلان: نشأت فيهم.

(١) أُنظر: حافظ، نبيل، علم النفس الاجتماعي: ص٢٣٦ـ٢٣٩.

(٢) أُنظر: حداد، توفيق، التربية العامّة: ص٦٣ـ٦٥.

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١٤، ص٣٠٤.

(٤) البقرة: آية ٢٧٦.

وفي المعجم الوسيط: «**تربى: تنشأ وتغذى وتثقّف. وربّاه: نمّى قواه الجسمية، والعقلية، والخلقية**»[1].

وهكذا؛ فإن المعنى القاموسي في لغتنا العربية لكلمة تربية، يتضمّن العناصر الآتية: النمو، التغذية، التنشئة، والتثقيف.

٢ـ التربية اصطلاحاً

لقد حاول كثير من المرّبين، قديماً وحديثاً أن يعرّفوا التربية تعريفاً جامعاً، لكنّهم اختلفوا في ذلك اختلافات كبيرة؛ لاختلافهم في تحديد الغرض من التربية وأهدافها في المجتمع. ومن بين التعاريف التي يمكن اقتراحها في هذا الصدد:

ـ أفلاطون(٣٤٨ـ٤٢٧ ق م)، ومن آرائه: «**إعطاء الجسم كلّ جمال وكمال ممكن، ودور المعلّم لا يقوم على فرض العلوم، إنّما بتوجيه التلميذ بالمناقشة والأسئلة**».

ـ أرسطو(٣٢٢ـ٣٨٤ ق م)، ومن آرائه: «**التربية: إعداد العقل للكسب، كما تُعِد الأرض للنبات والزرع**»[2].

ـ إمانويل كانت(١٧٢٤ـ ١٨٠٤)، ومن آرائه: «**الغرض من التربية الوصول بالإنسان إلى الكمال الممكن، ومهمّة التربية أن تحترم حرية الفرد الطبيعية، وتساعده على تحقيق إنسانيته**».

ـ جون جاك روسو(١٧٧٨ـ ١٨١٢)، ومن آرائه: «**الغاية من التربية، ألّا نحشو رأس الطفل بالمعلومات، إنّما نهذّب قواه العقلية، ونجعله قادراً على تثقيف نفسه بنفسه**».

ـ بيستالوتزي(١٧٤٦ـ ١٨٢٧)، ومن آرائه: «**التربية: هي تنمية كلّ قوى الطفل تنمية كاملة ومتكاملة**». وهو يذهب مذهب روسو: أنّ التربية الناجحة تلك التي تحترم مؤهلات الطفل.

---

(١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: ج١، ص٣٢٦.

(٢) حداد، توفيق، التربية العامّة: ص١٨.

ـ جون ستيوارت ميل(١٨٠٦ـ ١٨٧٣)، ومن آرائه: «**إنّ التربية هي انتقال تأثير شخص إلى شخص آخر، وأنّ هذا التأثير هو دائماً متجه من عقل إلى عقل، أو من طبع إلى طبع، وبصفة عامّة من شخصية إلى أُخرى**»[١].

المبحث الثالث: التربية ومهمّتها في الإسلام

معنى التربية، كما ورد في القرآن هي: إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى التمام، والتربية في الإسلام منهج يستهدف صياغة كيان الإنسان في كليته: عقلاً وروحاً، جسداً ونفساً. والإنسان ليس جديراً بهذه التسمية إلّا بالتربية، وليست التربية في الإسلام إلّا اتّباع الأُصول التي جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحِكم والتعاليم، وهي المبادئ الحقيقية التي تأخذ بيد الإنسان إلى أعلى مراتب القيم الحميدة وحسن الأخلاق[٢].

وجاء الإسلام بقيم ومبادئ تربوية هادئة تقصد إلى الخير والإحسان، تحيي الضمائر وتنير العقول وتبني حس المسؤولية في الإنسان، فصارت من أُصول الإسلام كون الدين هو الموجّه لحركة المجتمع، ومصدر كلّ نظمه العاملة التي منها التربية بوسائلها المختلفة، ومن هذا الوجه يتبيّن أنّ الدين هو روح حركة الحياة في الإسلام، وروح العلوم والمعارف كلّها، وروح المجتمع[٣].

إنّ قيم التربية في الإسلام نظرياً وعملياً لا تجد مرجعيتها إلّا في الدين، ومفهوم العلوم ليس مقصوراً على علوم الدين، بل يشمل كلّ المعارف التي كشف الله عنها للبشر، وسريان روح الدين في كلّ شعاب الحياة، والمعارف في المنظور الإسلامي هو المفهوم الصحيح للتربية، كما فهمه الأقدمون من علماء الأُمّة قبل نشأة بدعة تفريق العلوم إلى ديني ودنيوي[٤].

---

(١) عبد الدائم، عبد الله، نحو فلسفة تربوية عربية: ص٢٣.
(٢) أُنظر: علي، سعيد إسماعيل، الأُصول الفلسفية للتربية: ص٢٢.
(٣) أُنظر: الأسمر، أحمد رجب، فلسفة التربية في الإسلام: ص٤٥.
(٤) أُنظر: قمبر، محمود، نحو رؤية موضوعية للتراث الإسلامي: ص٩٩.

وتمثّل التربية وقيمها في الإسلام منهجاً متكاملاً يُعنى بالجسم والروح والعقل، ومن أجل تكامل النظرة الإسلامية إلى الحياة والوجود والمجتمع، جمعت التربية الإسلامية بين تأديب النفس وتصفية الروح، وتثقيف العقل وتقوية الجسم، فهي تُعنى بالتربية الخلقية والصحية والعقلية دون إعلاء لأيّ منها على حساب الآخر؛ ولذلك ينشأ المسلم سوياً قوي الصلة بالله، محققاً لرسالته في الحياة، أمّا غاية القيم التربوية، فهي بناء الإنسان وصياغته بالصورة التي يتمكّن من حمل رسالة الاستخلاف في الأرض بالعبادة والتعمير[1].

ومع التقدّم والحداثة تزداد الحياة تعقيداً، وكأنّ هذا التلازم بين التقدّم والتعقيد في الحياة قاعدة عامّة، هي من طبيعة هذه الحياة المعاصرة، ولعلّها كبرى مشكلاتها، ومع تعقيدات الحياة المعاصرة تزداد العملية التربوية تعقيداً، إذ تنعكس هذه التعقيدات على التربية، فتجعل منها عملية متشعبة المشارب والمجالات لا ينحصر همها في التعليم والمعلّمين، وإنّما تتعداهم إلى جميع قطاعات العمل، حتى لا يبقى قطاع من قطاعات المجتمع إلّا ويقوم بدور تربوي، كبر شأنه أو صغر؛ لذلك يتحدّث المربّون اليوم عن دور الإعلام، والنادي، والسوق، والمصنع، والمتجر، فضلاً عن الأُسرة والمؤسسات التربوية، والدعوية، والمسجد، في العملية التربوية، كما يتحدّثون عن (المجتمع المتربي) أي: المجتمع الذي يشارك فيه جميع الناس في العملية التربوية[2].

إنّ التربية في الإسلام لها منافذ متعددة، منها: الأُسرة، والمسجد، والحسينيات، والمجالس الحسينية، والمجتمع، إلى جانب المؤسسات التربوية النظامية من المدارس، والجامعات، والنظر إلى واقع الحياة العصرية يبيّن لنا أنّ هذه المنافذ التربوية تتعرّض الآن لرياح العولمة وتحدياتها، فالإعلام الملوث بالأفكار المسمومة تغشى البيت والمدرسة، بل باتت معاني الأُسرة في خطر عظيم[3].

(١) أُنظر: الجندي، أنور، موسوعة مقدّمات العلوم والمناهج: ص٣٩٧.
(٢) أُنظر: الأسمر، أحمد رجب، فلسفة التربية في الإسلام: ص٤٧.
(٣) أُنظر: قمبر، محمود، نحو رؤية موضوعية للتراث الإسلامي: ص١١٥.

إنّ التربيـة في الإسـلام ليـس نظامـاً قائـماً بذاته، وإنّما هـي نظام ذو علاقـة وثيقة بالأوضـاع السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافية في المجتمـع الذي تخدمه التربيـة، ومهمّة التربية في الإسـلام عملية اجتماعية شـاملة تضمّ كلّ شرائح المجتمع وطبقاتـه، ابتداء بالنـشء في الأُسرة، مروراً بالعوام وأرباب المهـن، وانتهاءً بالنخب والمثقفين، فقوام الأُمّة وأساسـها هي التربية الخلقية التـي يصفها القرآن بـ(التزكية) ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]؛ ولذلـك فتطهـير النفس وتزكيتها من أفضـل الأعـمال والخصال، وتربيتها عـلى الفضائل إنّما هـو شرط جوهري لإحداث التغيـير الاجتماعـي المنـوط بـه نهضـة الأُمّـة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[2] [3].

والتربية بهذا المعنى إنّما هي غرس للمبادئ والقيم وأخلاق الفطرة السوية، من عدلٍ ومساواةٍ، وصدقٍ وإخلاصٍ، في صميم قلب الإنسان، والنشء خاصّة، لتُسقَى بماء التعارف والتواصل والتراحم بين الناس، فتؤتي أُكلها وثمارها سلاماً ووئاماً وتعاوناً في المجتمع الإنساني: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[4]. ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[5]، فالناس في كلّ الأُمم أكفاء فيما بينهم لا يتمايزون إلّا من جهة العقول ونوعية الأخلاق، وهي لا تكتمل إلّا بالتربية[6].

(١) الشمس: آية ٩ـ١٠.
(٢) الرعد: آية ١١.
(٣) أُنظر: كريم، محمد أحمد، بحوث ودراسات في التربية: ص١١٢.
(٤) آل عمران: آية ١٥٩.
(٥) المائدة: آية ٢.
(٦) أُنظر: الأسمر، أحمد رجب، فلسفة التربية في الإسلام: ص١٣٤.

الإمام الحسين عليه السلام هو الحل لتأصيل قيمنا التربوية الإسلامية

ففي تراثنا التربوي نظام شامل للتربية والإعداد للحياة، وتوجيه الشباب التوجيه التربوي الصحيح، وتقويم سلوكهم الذي يرتكز على أُسس تعليمية وتربوية سليمة نابعة من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، والذي جاء وافياً بمطالب الحياة كلّها، وإنّه لحري بكلّ مربٍّ مخلص أن يستبصر بجوانب الفكر التربوي الإسلامي، وإبراز إيجابياته، وما يزخر به من آداب وفضائل.

وذلك من خلال العودة إلى تراثنا وتأصيل قيمنا التربوية لدى أبنائنا، من خلال القدوة الحسنة والمتمثلة برجالات الإسلام الفذّة، والذين يمثلون قيمها بأعلى مستوياتها من خلال ربطهم النظرية بالتطبيق الفعلي، وعلى رأس تلك الرجالات الحسين عليه السلام، والذي يُعدّ في دنيا الإسلام قمّة من قمم الرجال الذين صنعوا العظمة في تاريخ الإسلام والإنسانية، وسكبوا النور في دروب البشرية، من خلال عطائه الفكري الفذّ والمتمثل بالمئات من الوصايا والحِكَم، والخُطب والأشعار، والأدعية، والتي ملأت كتب التاريخ فضلاً عن الرسائل والخطب والوصايا والمحاورات الصادرة عنه عليه السلام، نجد السلوك والممارسة العملية في حياته الشخصية التي توضح لنا جانباً من الفكر والتشريع وتجسّد الصيغة التطبيقية، والتي من خلالها يمكن أن نبني منهجاً تربوياً إسلامياً يحفظ لنا هويتنا العربية الإسلامية، ويرسخ قيمنا التربوية الخاصّة بنا[1].

المبحث الرابع: القيم التربوية في النهضة الحسينية

تجسيد الإمام الحسين عليه السلام للمفاهيم والقيم الأخلاقية الصالحة

وقد واصل الأوصياء والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام هذه المهمّة لتترجم في الواقع في أعمال وممارسات وعلاقات، ولهذا كانت القيم الأخلاقية هي المحور الأساس في حركاتهم، وقد جسّد الإمام عليه السلام في نهضته المباركة المفاهيم والقيم الأخلاقية الصالحة،

(١) أُنظر: الجبوري، محمد سعيد، أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام: ص١٠٥.

وضرب لنا وأصحابه وأهل بيته أروع الأمثلة في درجات التكامل الخلقي والتربوي.

والإسلام ثورة فكرية وأخلاقية، ثورة قيمية أبرزت حقائق وأقرّت تعاليم، وهو ثورة إنسانية إذا ما قيست بهمجية الحياة العربية الغابرة، وضيق الآيديولوجيات الدينية السابقة، مثل: الوثنية، واليهودية. وهذه الثورة الإسلامية الإنسانية تتميّز بأنّها ثورة مستمرة ومستجدة، آية ذلك إقرارها قيماً إنسانية تضع الإنسان في أسمى منزلة على الأرض، وتحلّه مرتبة منفردة لا يضاهيها سواها لدى سائر الكائنات الحيّة[1].

إنّ الثورات والحركات المقدّسة، قد ابتدأت في الحقيقة بالأنبياء العظام، وقد ورد ذكر تلك الثورات، والحركات المقدّسة، وجهاد الأنبياء المقدّس في سورة الشعراء؛ إذ يذكر القرآن الكريم قصص موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، ولوط، وصالح، وشعيب، وخاتم الأنبياء محمد (صلوات الله عليهم جميعاً)، بأنّهم قاموا في سبيل مكافحة عبادة الأصنام والنضال ضدّ الظلم والاستبداد، والجهل والتعصب، والإسراف والتبذير، والإفساد في الأرض، والفحشاء، والامتيازات الاجتماعية الوهمية.

وقد سلك الإمام الحسين عليه السلام الطريق نفسه الذي سلكه الأنبياء، لكنّه بالطبع واجه ظروفاً غير تلك التي واجهت الأنبياء، والسبب في سيره على خط الأنبياء والصالحين الذي دعا إليه الله سبحانه وتعالى ونبيّه الكريم محمد صلى الله عليه وآله، وقدّم نفسه الطاهرة قرباناً، هو الانحراف الذي حدث في ذلك الوقت على يد الحكام، والعزوف عن اتباع الحق، والأقوال الواردة في تاريخ عاشوراء خير دليل على ذلك؛ إذ قال عليه السلام وهو يخاطب الجموع من حوله ناصحاً لهم باتباع الحق والرجوع عن الباطل: «**ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه...**»[2]، وأمثالها الكثير، والتي تدعو إلى ضرورة التمسّك بالقيم الإسلامية والعمل بها.

(١) أُنظر: العواد، عادل، المؤتمر الفكري التربوي الإسلامي (الأُصول والمبادئ): ص٢٢٩.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٧٥، ص١١٧.

لقد أراد الإمام عليه السلام أن يسجّل اعتراضه وعدم رضاه، ومطالبته بالعدالة والحق ـ وبالتالي نشر راية الإسلام ـ بواسطة سيل من الدماء التي تدفقت من بدنه وأبدان أهله وأصحابه، والتاريخ يُثبت لنا أنّ الخطب والأقوال التي تسجَّل بالدم لا يمكن أن تُمحى من الوجود أبداً؛ ذلك أنّها تعبّر عن خلوص نيّة، وعمق إرادة، وكمال إخلاص، وصفاء فكر[1].

وإنّنا في هذا الزمان ـ كما كان الناس قَبْلَنا ـ بحاجة إلى فكر نوراني ملهب ورشيد في آنٍ واحدٍ كفكر الإمام الحسين عليه السلام، وإلى الانفتاح الإنساني الواسع على شخصيته عسى أنْ نستفيد من مخزونه الروحي والقيمي والثقافي، واستثماره في معالجة قضايانا الكؤود، وحلّ إشكاليات الإنسان العميقة في هذا العصر خاصّة في مجال التربية والتعليم.

فلم يَعُد الحسين عليه السلام مجرد ثورة وحركة جهادية، بل هو مشعل نور متوهّج ومتألق في كلّ شيء.

وإذا كان الناس قد أفرطوا في حبّ الحسين عليه السلام والتأثر بمواقفه السياسية والجهادية، فإنّنا نطالبهم بالإفراط في اتخاذه قدوة لهم في المعرفة والأخلاق، والإصلاح الاجتماعي، والأدب والتربية، والجهاد والانتصار على شهوات الذات، والمبالغة في الارتباط بكلّ جانب من جوانب حياته المضيئة، فالإنسان المؤمن وغير المؤمن بحاجة إلى معرفة الحسين الثائر، والحسين المصلح الاجتماعي، وبحاجة لروح الحسين العرفاني، والحسين الأديب، والحسين المربي، والحسين المرشد الأخلاقي، والحسين السياسي المتمكن، والحسين المجاهد المقاتل الذي لا يأبه الموت ولا يخافه[2].

وبذلك يمكن أنْ يتحوّل المنبر الحسيني في توظيف وتوضيح النهضة الحسينية إلى منظومة ثقافية واسعة، وحركة عقلانية منظمة تطلّ على شخصية الإمام عليه السلام من جوانبها جميعها دون تركيز على (الجانب المأساوي) وحده، نعتز به ميراثاً إنسانياً

(١) أُنظر: مطهري، مرتضى، الملحمة الحسينية: ص٣٣٣.
(٢) أُنظر: العواد، عادل، المؤتمر الفكري التربوي الإسلامي (الأُصول والمبادئ): ص٢٨.

لا فعلاً يختصر شخصية الحسين عليه السلام ويهمش فعّاليتها، بل ينبغي تفحّص تراث الإمام الحسين عليه السلام في الفكر والعلم، والتربية والأخلاق، والقيم، والأدب والشعر، والعرفان الروحي، والإصلاح الاجتماعي، والنشاط السياسي، وأنْ تعقد حواراً بين هذا التراث والواقع الإنساني، فتستنطقه الأُمّة في قضاياها الإنسانية المعاصرة، وتستمد منه معرفة مستنيرة قادرة على مواجهة إشكاليات العصر.

أخلاق الإمام الحسين عليه السلام مع نفسه ومع أصحابه

وقد تمثّلت أخلاق الإمام الحسين عليه السلام مع نفسه، التي كان حريصاً عليها؛ لأنّها أمانة الله عنده، من خلال حرصه على أن لا يعرضها للذل والهوان، وكان قوله الخالد في كربلاء: «**أَلا إنّ الدّعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذّلة، وهيهات منّا الذّلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون**». وقال عليه السلام: «**والله، لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد**»(١).

فقد كان حريصاً على أن يؤكّد سمو نفسه وعظمتها، حيث رفض أن يبيعها بثمن بخس أو بسيط، وإنّما بالثمن الأغلى الذي تستحقه وهو الجنّة، وقال عليه السلام: «**إنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برماً**»(٢). وهذا ما تعلّمه من والده أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، الذي قال: «**ليس لأنفسكم ثمن إلّا الجنّة فلا تبيعوها إلّا بها**»(٣).

كما تبرز لنا صورة القيم التربوية والأخلاقية للإمام الحسين عليه السلام في علاقته مع أصحابه، الذين وصفهم بقوله: «**فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي**»(٤).

ولذلك كان حريصاً على حياتهم، وقد خاطب أصحابه في ليلة العاشر من محرّم:

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٩٨.
(٢) الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء: ج٣، ص٣١٠.
(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٧٠، ص١٣٣.
(٤) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٩٠.

«**إنّ هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كلّ واحدٍ منكم بيد رجل من أهل بيتي، فإنّ القوم لا يريدون غيري**»[1]، كما أنّه في تعامله مع أصحابه لم يفرّق بين جون العبد الأسود مولى أبي ذر الغفاري، وبين أصحابه من الكبار في مواقعهم وعشائرهم، وكذلك لم يفرّق بين أصحابه وأهل بيته، بحيث كان يأتي إلى مصارعهم ويخفف عنهم ويتحدّث إليهم، ويبشرهم بما يردون عليه.

من خلال ذلك؛ قدّم الإمام الصورة الحقيقية للقائد الذي لا تزيده رفعة موقعه وعظمته إلّا تواضعاً وحبّاً، وإخلاصاً وحرصاً على أصحابه، وهذا ما نلاحظه في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «**اللهمّ لا ترفعني في الناس درجة إلّا حططتني عند نفسي بقدرها، ولا تُحدث لي عزّاً ظاهراً إلّا أحدثت لي عند نفسي ذلّة باطنة بقدرها**»[2].

وقد كان الإمام الحسين عليه السلام حريصاً على أن يستشير أصحابه فيما يريد الإقدام عليه، وكان واضحاً في إبراز أهدافه وخطّة حركته، فخاطبهم قائلاً: «**إنّه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكرت وأدبر معروفها، فلم يبقَ منها إلّا صُبابة كصبابة الإناء، ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربّه محقاً، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً**»[3].

أخلاقه مع أعدائه

وكما تجلّت أخلاق الإمام الحسين عليه السلام في علاقته مع أعدائه، من خلال تعامله الإيجابي معهم عند قدومه إلى كربلاء، حيث بادر إلى تأمين الماء لهم حين قدموا لمحاصرته وهم عطاشى، فقدّمه إليهم رغم قدرته على منعهم عنه، كما فعلوا بعد ذلك، كما تمثّلت رفعة أخلاقه في حزنه وأساه على ما سيُصيب أعداءه من خلال إغضابهم لله أثر ما سيقدمون عليه من قتله، وقد فتح الإمام عليه السلام كلّ قلبه وعقله

(١) المصدر السابق: ص٩١.
(٢) الإمام زين العابدين، الصحيفة السجادية: ص٩٢.
(٣) الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء: ج٣، ص٣١٠.

للحديث معهم ووعظهم وهدايتهم للرجوع عن غيّهم، وحذّرهم من غضب الله إن هم قاتلوه، وكان كلامه ناضحاً بالإشفاق عليهم.

ولم يصدّه عن أُسلوبه الأخلاقي ما كانوا عليه من غلظة وفظاظة وسوء، حتى أنّه طلب منهم أن يتركوه يواصل طريقه أو يعود من حيث أتى، لكنّهم رفضوا ذلك، وانطلق الإمام عليه السلام يواجه تحدي هؤلاء وغطرستهم وظلمهم مع ثُلّة من أصحابه الأوفياء، حيث كان على استعداد لأن يضحّي بكلّ شيء من أجل الرسالة.

وتمثّلت النهضة الحسينية بقيم تربوية وأخلاقية يمكن الإشارة إلى بعضها بالنقاط الآتية:

١ـ الإيثار

وهو من أبرز المفاهيم والدروس المستقاة من واقعة الطفّ، والإيثار يعني الفداء وتقديم شخص آخر على النفس، وبذل المال والنفس والنفيس فداءً لمَن هو أفضل من ذاته، وفي كربلاء شُوهد بذل النفس في سبيل الدين، والفداء في سبيل الإمام الحسين عليه السلام، والموت عطشاً لأجل الحسين عليه السلام، فأصحابه ما داموا على قيد الحياة لم يدعوا أحداً من بني هاشم يبرز إلى ميدان القتال، إيثاراً منهم على أنفسهم، وفي ليلة عاشوراء لمّا رفع الإمام عليه السلام عنهم التكليف لينجوا بأنفسهم، قاموا ـ الواحد تلو الآخر ـ وأعلنوا عن استعدادهم للبذل والتضحية... يروي الشيخ المفيد رحمه الله: «**أنّ الحسين عليه السلام قال لأتباعه: أَلا وإنّي لأظنّ أنّه آخر يوم لنا من هؤلاء... أَلا وإنّي قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ، ليس عليكم منّي ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً. فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: لِمَ نفعل ذلك؟! لنبقى بعدك؟! لا أرانا الله ذلك أبداً. بدأهم بهذا القول العباس بن علي (رضوان الله عليه)، واتّبعته الجماعة عليه، فتكلّموا بمثله ونحوه، فقال الحسين عليه السلام: يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، فاذهبوا أنتم فقد أذنت لكم.**

قالوا: سبحان الله، فما يقول الناس؟! يقولون: إنّا تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا ـ خير الأعمام ـ ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا!! لا والله، ما نفعل ذلك، ولكن نفديك أنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك.

وقام إليه مسلم بن عوسجة، فقال: أنخلّي عنك ولمّا نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقّك؟ أَما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك، والله لو علمت أنّي أُقتل، ثمّ أُحيى، ثمّ أُحرق، ثمّ أُحيى، ثمّ أُذرى، يُفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتى ألقى حمامي»[1].

ووقف بعض أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ظهيرة يوم عاشوراء عندما وقف لصلاة الظهر يقونه سهام العدو بصدورهم، وخاض العباس نهر الفرات بشفاه عطشى، ولما أراد تناول الماء تذكّر عطش الحسين والأطفال فلم يشرب منه، وقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبعده لا كنت أن تكوني
هذا الحسين وارد المنون ... وتشربين بارد المعين
تالله ما هذا فعال ديني

ورمت زينب عليها السلام بنفسها في الخيمة المشتعلة بالنار؛ لإنقاذ الإمام زين العابدين منها، وحينما صدر الأمر في مجلس يزيد بقتل الإمام السجّاد عليه السلام، فدته زينب عليها السلام بنفسها.

وهناك أيضاً عشرات المشاهد الأُخرى التي يُعدّ كلّ واحد منها أروع من الآخر، وكلّ موقف منها يُعطي درساً من دروس الإيثار للأحرار، فإذا كان المرء على استعداد للتضحية بنفسه في سبيل شخص آخر، أو في سبيل العقيدة، فهذا دليل على

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ص٩١ـ٩٢.

عمق إيمانه بالآخرة والجنّة وبالثواب الإلهي. قال الإمام الحسين عليه السلام في بداية مسيره إلى كربلاء: «**مَن كان باذلاً فينا مهجته، وموطِّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى**»(١).

كما أشارت زيارة عاشوراء إلى صفة (الإيثار) التي يتحلّى بها أصحاب الحسين، فوصفتهم بالقول: «**الّذين بذلوا مُهجهم دون الحسين عليه السلام**»(٢).

٢ـ الشجاعة

وهي الإقدام عند منازلة الخصوم وعدم تهيّب المخاطر، واقتحام الخطوب، وتُعدّ الشجاعة من الصفات المهمّة التي تميّزت بها شخصية الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته؛ إذ نقرأ عن الاندفاع والحماس المنقطع النظير، الذي جُسّد في سوح الوغى، والتسابق على بذل الأرواح رخيصةً؛ فداءً للدين والمبادئ، ورسمت ملحمة كربلاء ـ منذ انطلاقها وحتى مراحلها الأخيرة ـ مشاهد تتجسّد فيها معالم الشجاعة بشتى صورها، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالتصميم الذي أبداه الإمام الحسين عليه السلام في معارضة يزيد ورفض البيعة له، وعزمه الراسخ على المسير نحو الكوفة والتصدّي لأنصار يزيد من أمثال ابن زياد، وعدم انهيار معنوياته لسماع الأخبار والأوضاع التي كانت تجري في الكوفة، وإعلانه على الملأ عن الاستعداد لبذل دمه والتضحية بنفسه في سبيل إحياء الدين، وعدم الخوف من كثرة الجيش المعادي رغم كثرة عدده وعدّته، ومحاصرة هذا الجيش له في كربلاء مع عدم استسلامه، والقتال العنيف الذي خاضه بعد ذلك مع جنوده وأهل بيته، وصور البطولة الفردية التي أبداها أخوه العباس، وابنه علي الأكبر، وابن أخيه القاسم، وعامّة أبناء علي وأبناء عقيل، والخطب التي ألقاها الإمام السجاد وزينب عليهما السلام في الكوفة والشام، وغيرها من المواقف والمشاهد البطولية تعكس بأجمعها عنصر الشجاعة، الذي يُعدّ من أوّليات ثقافة عاشوراء.

---

(١) الإربلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة: ص٢٢.

(٢) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ٣٣٢.

وعلى وجه العموم كان آل الرسول أمثلة خالدة في الشجاعة والإقدام وثبات الجنان، وكانت قلوبهم خالية من الخوف من مواجهة الموت، وكانت ساحات القتال في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وحروب علي عليه السلام في الجمل، وصفّين، والنهروان شاهداً يعكس شجاعة آل البيت عليهم السلام.

وقد عدّ الإمام السجاد عليه السلام الشجاعة من جملة الخصال البارزة التي منَّ الله بها على هذه الأُسرة الكريمة، وذلك لما قال في خطبته في قصر الطاغية يزيد: «**فُضّلنا أهل البيت بستّ خصال: فُضلنا بالعلم، والحلم، والشجاعة، والسماحة، والمحبّة، والمحبّة في قلوب المؤمنين، وآتانا ما لم يؤتَ أحداً من العالمين من قبلنا، فينا مختلف الملائكة، وتنزيل الكتب**»[1].

وكان لهذه الشجاعة موارد مختلفة، فهي في مجال القول واللسان، وكذلك في تحمّل أهوال المنازلة ومقاتلة العدو، والإغارة الفردية على صفوف جيشه، وكذلك في تحمّل المصائب والشدائد، وعدم الانهيار والقبول بالدنيّة؛ بدليل أنّه لما اشتدّ القتال، قال: «**أَما والله لا أُجيبهم إلى شيء ممّا يريدون حتى ألقى الله تعالى وأنا مخضّب بدمي...**»[2]، حتى أنّ العدو والصديق قد أثنى على شجاعة الحسين عليه السلام وصحبه وأهل بيته، ألم يخاطب عمرُ بن سعد قومه بالقول: «**الويل لكم! أتدرون مَن تبارزون؟! هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتّال العرب، فاحملوا عليه من كلّ جانب**»[3].

وما أمر المجرم عمر بن سعد بالهجوم الشامل على أفراد جيش الإمام ورميهم بالحجارة، إلّا دليل على تلك الشجاعة الفريدة. وكنتيجة لما يتحلّى الحسين عليه السلام وأسرته من شجاعة حصلوا على أكبر عدد من أوسمة الشهادة، يقول عباس محمود العقاد: «**فليس في العالم أُسرة أنجبت من الشهداء مَن أنجبتهم أُسرة الحسين عدّةً وقدرةً، وحسبه**

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٧٥.
(٢) المصدر السابق: ج٤٥، ص١٢.
(٣) الجبوري، محمد سعيد، أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام: ص١٠٨ـص١١٠.

أنّه وحده في تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين»[1].

ومع أنّ الأرقام التي تذكرها المقاتل عن عدد قتلى العدو نتيجة لهجوم أصحاب الإمام عليهم قد تكون مبالغاً فيها، إلّا أنّ الأمر الثابت الذي لا يمكن إنكاره هو الشجاعة المثيرة لهذه الثلّة المؤمنة، التي بذلت نفسها في سبيل الله، ولم تطاوعها نفسها بترك قائدها في الميدان وحده.

٣ـ الشهامة والمروءة

تُعدّ من المعالم الأخلاقية والنفسية البارزة لدى الحسين عليه السلام وأنصاره، والتي تجسّدت في ملحمة عاشوراء، وهذه النفسية التي تجعل الإنسان يشمئز من الطغاة، ويرفض الانصياع لسلطان الظلم، ويحب الحرية والفضيلة، ويتجنّب الغدر، ونقض العهد، وظلم الضعفاء، ويدافع عنهم، ولا يتعرّض للأبرياء، ويقبل العذر، ويُقيل العثرة، ويعترف بالحق الإنساني للآخرين... هذه الأُمور كلّها تُعدّ من معالم (الشهامة، والمروءة) التي تجسّدت على أرض الطفّ.

لقد رفض سيد الشهداء عليه السلام عار البيعة ليزيد، ولما واجه جيش الكوفة في طريق كربلاء، رفض اقتراح زهير بن القين الذي أشار عليه بمحاربة هذه الفئة من قَبل أن يجتمع إليهم سائر الجيش، وقال عليه السلام: «**وما كنت لأبدأهم بالقتال**»[2]، وهذا نموذج رائع من شهامة الحسين عليه السلام.

ولمّا لقي جيش الحر وقد أضرّ بهم العطش، أمر بسقيهم الماء هم وخيلهم، رغم أنّهم جاءوا لمجابهته وإغلاق الطريق عليه، وكان من بينهم علي بن الطعان المحاربي الذي ما كان قادراً على شرب الماء من فرط عطشه، ويروي لنا القضية بنفسه، قال: «**كنت مع الحر يومئذٍ، فجئت في آخر مَن جاء من أصحابه، فلمّا رأى الحسين ما بي وبفرسي من العطش، قال: أنخ الراوية. ثمّ قال: يا بن أخي، أنخ الجمل. فأنخته. فقال:**

(١) البياتي، جعفر، الأخلاق الحسينية: ص٣٢٨.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٨٤.

اشرب. فجعلت كلّما شربت سال الماء من السقاء. فقال الحسينعليه السلام**: اخنث السقاء (أي: اعطفه). فلم أدرِ كيف أفعل، فقام فخنثه، فشربت، وسقيت فرسي**»[1]. وهذا مثال آخر على مروءته عليه السلام.

ولمّا عزم الحر الرياحي على مفارقة جيش عمر بن سعد والانضمام إلى معسكر الحسين عليه السلام وقف الحر بين يدي الحسين عليه السلام منكسراً مُعلناً توبته واستعداده للتضحية بنفسه قائلاً: «**هل لي من توبة؟ فقال له أبو عبد الله** عليه السلام: **نعم، يتوب الله عليك، فانزل**»[2]، وهذا نموذج آخر على مروءة الحسين عليه السلام، فهو يقبل عذر المعتذر، ولا يغلق باب التوبة في وجهه.

وفي قيظ يوم عاشوراء واشتداد حر الرمضاء، لما رأى الحسين عليه السلام هجوم الجيش على خيام عياله صاح بهم يعنّفهم: «**ويلكم! إنْ لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طغامكم وجهّالكم**»[3]. وهذا أيضاً شاهد آخر على مروءته وشهامته، فهو ما دام حيّاً لم يكن قادراً على رؤية العدو وهو يهجم على عياله، وقد شوهدت هذه الغيرة والحمية من الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره في ساحة القتال يوم العاشر من المحرّم.

وهذه السجية قد استقاها من أبيه أمير المؤمنين عليه السلام الذي غلب جيش الشام في صفّين، وانتزع منه شريعة الفرات، ثمّ قال لجنده: «**خلّوا بينهم وبينه**»[4]، ولكن لؤم معاوية الذي ورّثه يزيد دعاه إلى منع الماء عن جيش الحسين بن علي عليهما السلام.

روى الشيخ الصدوق رحمه الله أنّ عبيد الله بن زياد كتب إلى عمر بن سعد: «**إذا أتاك كتابي هذا، فلا تمهلنّ الحسين بن علي، وخذ بكظمه، وحل بين الماء وبينه**»[5]. فالحسين عليه السلام قد

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٧٨ـ٨٤.
(٢) الأمين، محسن، لواعج الأشجان: ص١٣٥.
(٣) مطهري، مرتضى، الملحمة الحسينية: ص٣٢.
(٤) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٣٢، ص٤٤٣.
(٥) الإربلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة: ص٣٥.

ورث الشهامة عن عليعليه السلام، ويزيد ورث الخسّة عن معاوية.

٤ـ العزّة ورفض الذّل

هي من أهم الدروس التربوية والأخلاقية التي ميّزت نهضة كربلاء، ومن أوّليات ثقافة عاشوراء... قال الحسينعليه السلام: «**موت في عزّ خيرٌ من حياة في ذلّ**»[١].

وقالعليه السلام لمّا عرضوا عليه الاستسلام والبيعة: «**لا والله، لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد**». وفي كربلاء حينما خيّروه بين البيعة أو القتال، قال: «**ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأُنوف حمية، ونفوس أبية، من أن نُؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام**»[٢]. وعند اندلاع معركة الطفّ كان يكرّ على صفوف العدو مرتجلاً:

القتل أوْلى من ركوب العار والعار أوْلى من دخول النار

لقد كانت نهضة كربلاء درساً عملياً من دروس العزّة والكرامة ورفض الذلّ، واستلهم الثوّار منها روح المقاومة والتحرّر.

دور المؤسسات التربوية الجامعية في غرس القيم لدى الشباب الجامعي

وتلعب المؤسسات التعليمية (الجامعة) دوراً مهماً في عملية غرس القيم لدى الفرد، ودورها لا يقل أهمية عن دور الأُسرة، حيث تمتاز المؤسسات التعليمية عن غيرها في عملية التنمية الأخلاقية، في أنّها بيئة تربوية مبسطة للمواد العلمية والثقافية، وتقوم بتعليم النشء بشكلٍ مباشر من خلال الخبرات الشخصية وخبرات الآخرين، وهي موحدة لميول واتجاهات الطلاب، وتصهرهم في ثقافة واحدة، ممّا ييسر عملية التعاون والتفاهم بينهم[٣].

---

(١) الجبوري، محمد سعيد، أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام: ص١١٨ـ١٢٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أُنظر: أبو العينين، علي خليل، القيم الإسلامية والتربية: ص١٧٣.

والجامعة هي: «**المؤسسة الاجتماعية التربوية العلمية الثقافية، التي أوجدها المجتمع من أجل تحقيق أهدافه وغاياته، من خلال إيجاد وسط منظم يساعد على تنمية شخصية الفرد من جميع جوانبها الجسمية، والعقلية، والانفعالية، والروحية، بشكل متكامل ومتوازن، وتمكّنه من اكتساب القيم والاتجاهات، والمعارف، والأنماط السلوكية التي تجعله فرداً سوياً، تحميه من الانحراف والفساد، والخلل القيمي، التي أوجدته عوامل الهدم في المجتمع**»[1].

فالجامعة هي جزء من المجتمع، بل هي عنصر هام وعامل من أكبر العوامل في التأثير الاجتماعي، خاصّة في هذه المرحلة العمرية من الشباب، والهمة المندفعة، ويمكن أن نعتبر الجامعة امتداداً للأُسرة والمدرسة، وهي بمثابة المؤسسة التي أُنشئت لتوجيه نمو الشباب، ونمو مهاراتهم المعرفية، وقدراتهم على اختراق سوق العمل، وذلك عن طريق نمو الدوافع والميول والاتجاهات، والقيم والمهارات الاجتماعية، بالإضافة إلى تقدير الشاب لذاته.

وقد تميّزت الجامعة عن باقي الحواضن التربوية الأُخرى بمجموعة من المميّزات، منها على سبيل المثال: اتساع البيئة المعرفية، كما أنّها تقوم على أساس تنقية وغربلة الثقافة، ممّا قد يتخلّلها من فساد وانحرافات، وأيضاً تميّزها بالانضباط والتنظيم[2].

ومع ذلك لا بدّ من الإشارة إلى أمرٍ هام، وهو أنّ الجامعة لا تستطيع لوحدها أن تصوغ حياة المجتمع صياغة خُلقية قائمة على أُسس وقواعد قيمية توجّه المجتمع وتدعم قواعده؛ إذ إنّ هذا العمل هو عبارة عن شراكة بين جميع مجالات الحياة وميادينها[3].

وتحتاج المؤسسات التعليمية بما فيها الجامعات للقيام بدورها الريادي في تنمية

(١) بركات، أحمد لطفي، القيم والتربية: ص١٢١.
(٢) أُنظر: حداد، توفيق، التربية العامّة: ص٩٠.
(٣) أُنظر: عفيفي، محمد الهادي، الأُصول الثقافية للتربية: ص٣٢٠ـ٣٢١.

القيم الأخلاقية إلى مراعاة ما يلي:

١ ـ مراعاة القائمين على تخطيط المناهج لأهمية وأهداف القيم التربوية والإسلامية التي تجسّدت في النهضة الحسينية.

٢ ـ ربط الأهداف التعليمية بالأهداف الأخلاقية التي جاءت بها النهضة الحسينية؛ حتى يكون التعليم وسيلة للترقية الأخلاقية التي تغرس قيم المثل العليا والفضائل، والتمييز بين الخير والشرّ والحق والباطل، والتي تساهم في الحفاظ على كيان المجتمع من التفكك والانحلال.

٣ ـ توفير الجو الاجتماعي المناسب الذي يلائم عملية اكتساب القيم، عن طريق توفير العلاقة الحميمة مع جميع العاملين في المؤسسة التعليمية ومؤسسات المجتمع المحلي.

٤ ـ توفير القدوة الحسنة والصالحة الممثلة في المعلّم أو الأُستاذ الجامعي القادر على تنمية القيم؛ لذلك يجب على المعلم أن يكون ملتزماً بتلك القيم ومراعياً لوظيفته، ومتمكناً من تخصصه العلمي والتربوي، وبأساليب التدريس المناسبة[1].

٥ ـ امتلاك المعلمين وأساتذة الجامعات المواقف العلمية لممارسة القيم الأخلاقية والتربوية، المستوحاة من قيم النهضة الحسينية، وأن لا تتم العملية عن طريق الوعظ والإرشاد أو التلقين، فلا بدّ من إتاحة الفرصة للمتعلمين للمشاركة وتحمل المسؤولية إزاء القيم المطلوبة، وهذا يحتاج إلى الاهتمام بالأنشطة التعليمية المتنوعة.

٦ ـ أن تُبنى المناهج والمقررات الجامعية في كليات التربية، على مجموعة من القيم الإسلامية الصحيحة النابعة من فكر آل محمد صلى الله عليه وآله، سيّما القيم التي عبّر عنها آل البيت عليهم السلام في النهضة الحسينية من أجل إكساب الطلبة المعلّمين لهذه

(١) أُنظر: حافظ، نبيل، علم النفس الاجتماع: ص٧٦ـ٧٧.

القيـم، وبالتالي نقلها إلى المدارس ليكونوا قدوة صالحة للطلبة في الممارسـات والسلوك التعليمي.

٧ ـ أن ترتكز المقررات التربوية في الجامعات علي تنمية وتعزيز القيم الإسـلامية لطلبتها بشـكلٍ عملي، والتي من خلاله يسـتطيع الطالب مواجهة التأثيرات والغزو الفكري للدين الإسلامي[١].

٨ ـ تطوير المقررات الجامعية حسـب المتغيّرات الحديثة؛ حتى تستطيع أن تواكب وتواجه التحديات العالمية، منها: التحديات الأخلاقية، والقيمية، والتربوية، التـي يتعرّض لها الشـباب عبر وسـائل الاتصالات الفضائيـة الحديثة المرئية والمسموعة، ومواجهتها من خلال تحصينهم بأفكار وقيم الإسلام الصحيح، ومنهج أهل البيت عليهم السلام، وقيم النهضة الحسينية المشرّفة.

الاستنتاجات

١ ـ أنّ بذر القيم التربوية التي هي قوام منهج الإسلام الشامل في نفوس الأفراد، هي الضمان لتحقيق أهداف التربية الإسلامية، ومن هنا؛ فتحديـد الأهـداف لا بـدّ أن يراعي صفة الشـمول التي تكتسـبها تلك القيم، بحيث تتكامل في كلّ نواحيهـا العقدية والروحية والأخلاقيـة، وتتمثل فيها كلّ العلاقات من حيث علاقة الإنسان بربـّه ونفسه وغيره.

٢ ـ أنّ القيـم التربويـة ترتبـط ارتباطـاً صميمياً بثقافـة الأُمّـة؛ لـذا فـإنّ فـصل القيـم التربويـة الإسـلامية عـن إطارهـا الثقـافي الـسليم، ودمجهـا فـي منـاخ مـن الازدواجيـة الثقافيـة، أو تركها تحت طائلة الغـزو الثقافي من خـلال التأثر بـالقيم الغربيـة، يعرضـها للذوبـان وينزع منهـا الفعاليـة فـي صـياغة الشـخصية الإسـلامية القويـة، وصـنع الواقـع الحضاري السليم، فثورة الحسـين عليه السلام عنوان كبير لأخلاقٍ إسلاميةٍ ونبويةٍ ساميةٍ، وهي المنطلق

(١) الزنتاني، عبد الحميد الصيد، أُسس التربية الإسلامية في السنّة النبوية: ص٦٦٣.

لبزوغ فجر الأُمّة؛ لأنّها منذ انطلقت في التاريخ لا تزال تبعث الحياة في نفوس المظلومين والمستضعفين على امتداد الزمن.

٣ ـ أنّ المصدر الذي استقى منه الحسين عليه السلام قيمه، هو القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة، والتي قام عليها النظام التربوي الإسلامي، بينما العقل لوحده الذي تستند إليه المذاهب المادية الوضعية في ذلك، وهو ليس مبرَّأً من الهوى، فضلاً عن كونه محدود الآفاق في علمه بحقيقة الإنسان والحياة.

٤ ـ أنّ الهدف من ثورة الحسين عليه السلام لم يكن هدفاً عادياً، إنّما كان هدفاً كبيراً يتجاوز بتأثيراته العصر الذي حدثت فيه، ذلك الهدف هو (الإصلاح)، فقد كان الإصلاح هدفاً سامياً من أهداف نهضته المباركة، وترجع فائدته للإنسان والمجتمع ككلّ، فإنّ الإصلاح ضدّ الفساد، وكما نعلم أنّ الأُمّة التي يُصيب مؤسساتها الفساد والظلم أُمّة ضعيفة أو مستضعفة، وعلى كلا التقديرين فإنّ مناداة الإمام السبط عليه السلام بهذا المفهوم السامي لم يكن إلّا لأجل الإنسانية ورفع الظلم عنهم.

٥ ـ ما كان للحسين عليه السلام أن ينطلق لطلب الإصلاح في أُمّة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، إلّا من خلال تثبيت دعائم الأخلاق الإسلامية، التي برزت بشكلٍ جليٍّ وواضح في كلّ مفاصل ثورته، من خلال عمق علاقته مع الله ومع أصحابه، وفي تعامله مع أعدائه ومع الناس من حوله.

٦ ـ أنّ سلوك سيد الشهداء عليه السلام وسيرته الأخلاقية، تعكس سمو نفسه وتربيته في حجر جدّه محمد صلى الله عليه وآله وأبيه علي عليه السلام، وتجسيده للقرآن الكريم في عمله وأخلاقه.

٧ ـ أنّ النهضة الحسينية ألغت الفوارق بين الناس في تلك الواقعة، فقاتل بين يديه الشباب والشيوخ، والأبيض والأسود، والحر والعبد، فهي الواقعة التي أعطت لكلّ شخص إنسانيته، وردّت لكلّ واحد منهم قيمته كإنسان، فصار الجميع على رتبة واحدة وهي الشهادة.

التوصيات

في ضوء ما توصّل إليه الباحث من استنتاجات يورد التوصيات الآتية:

١ ـ قيام الجامعات العراقية وخاصّة كليات التربية، بتضمين مادة فلسفة التربية التصنيف الذي توصّل إليه البحث، كتعريف للطلبة بجانب مهم من تراثهم الفكري التربوي.

٢ ـ تبنّي وزارتَي التربية والتعليم العالي والبحث العلمي المنظومة القيمية في النهضة الحسينية؛ لأجل ترسيخها في نفوس الطلبة من خلال رسمها للأهداف التربوية في كلا الوزارتين.

٣ ـ تبنّي واضعي المناهج الدراسية وخاصّة تلك المتعلّقة بترسيخ القيم، مثل مادة التربية الإسلامية المنظومة القيمية للثورة الحسينية، ومحاولة تثبيتها في نفوس الطلبة من خلال طرح الموضوعات التي تؤكدها، ومن المستحسن اقتباس بعض النصوص التي قالها الإمام الحسين عليه السلام ووضعها شعارات داخل هذه المناهج، أو تضمينها محتوى في بعض الكتب، مثل: المطالعة والنصوص، والأدب، في المراحل الدراسية المختلفة.

٤ ـ على الباحثين الاهتمام بإحياء نفائس التراث التربوية الإسلامية، التي تغيب عن أذهان الكثيرين في هذا العصر، فالاهتمام بهذا الجانب مسؤولية كلّ مربٍّ؛ لإبراز دور تراثنا وفضله على المدنية.

٥ ـ الدعوة لعقد الندوات والمؤتمرات والحلقات النقاشية، التي يسهم فيها الأساتذة والطلبة لمناقشة القيم الإسلامية بشكلٍ عام، ودور الثورة الحسينية بشكلٍ خاصّ، والمناداة لإعلاء هذه القيم بشكلٍ فعلي.

المقترحات

يقترح الباحث الآتي:

١ ـ القيام بدراسة مماثلة، وذلك بالاعتماد على المنهج الحالي، ولشخصيات إسلامية أُخرى مثل الإمام علي عليه السلام، والإمام جعفر الصادق عليه السلام، ومقارنة نتائجها بالدراسة الحالية.

٢ ـ إجراء دراسة مقارنة للقيم التربوية في فكر الإمام الحسين عليه السلام، وبعض قادة الفكر في العصر الحاضر مثل غاندي على سبيل المثال؛ للكشف عن مضامين القيم في الفكر التربوي المعاصر.

٣ ـ إجراء دراسات أُخرى تتناول الأبعاد المختلفة في شخصية الإمام الحسين عليه السلام.

فهرست المصادر

* القرآن الكريم.

١ ـ أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام، محمد سعيد مرعي الجبوري، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية ـ ابن الرشد، جامعة بغداد.

٢ ـ أُسس التربية الإسلامية في السنّة النبوية، عبد الحميد الصيد الزنتاني، ط٢، الدار العربية للكتاب، طرابلس.

٣ ـ الأُصول الثقافية للتربية، محمد الهادي عفيفي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٤ ـ الأُصول الفلسفية للتربية، سعيد إسماعيل علي، دار الفكر العربي للطباعة والنشر القاهرة ـ مصر.

٥ ـ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

٦ ـ بحوث ودراسات في التربية، محمد أحمد كريم، دار المعرفة للنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان.

٧ ـ بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

٨ ـ التربية العامّة، توفيق حداد، دار حلب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

٩ ـ سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق وتخريج: شعيب الأرنؤوط، حسين الأسد، ط٩، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان.

١٠ ـ علم النفس الاجتماعي، نبيل حافظ، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.

١١ ـ في الفكر التربوي، محمد لبيب النجيحي، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت.

١٢ ـ فلسفة التربية في الإسلام، أحمد رجب الأسمر، دار الفرقان للطباعة والنشر، عمان ـ الأردن.

١٣ ـ فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، عبد الجواد السيد بكر، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة ـ مصر.
١٤ ـ الفكر العربي في معركة النهضة، أنور عبد الملك، ط٨، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت.
١٥ ـ القيم والتربية، لطفي بركات أحمد، الرياض، دار المريخ للنشر والطباعة.
١٦ ـ القيم الإسلامية والتربية، أبو العينين علي خليل، مكتبة إبراهيم الحلبي، المدينة المنورة، السعودية.
١٧ ـ القيم في العملية التربوية، ضياء زاهر، مركز الكتاب للنشر والطباعة، مصر الجديدة، القاهرة.
١٨ ـ القيم التربوية في القصص القرآني، سيد أحمد طهطاوي، دار الفكر العربي القاهرة.
١٩ ـ كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، أبو الحسن علي بن عيسى الإربلي، مكتبة بني هاشم، سوق المسجد الجامع، تبريز.
٢٠ ـ الكافي، محمد يعقوب الكليني، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، ط٥، ١٣٦٣ش، مطبعة حيدري، دار الكتب الإسلامية، طهران.
٢١ ـ لسان العرب، محمد بن مكرم (ابن منظور)، نشر أدب الحوزة، ١٤٠٥هـ.
٢٢ ـ لواعج الأشجان، محسن الأمين، مطبعة العرفان، صيدا، منشورات مكتبة بصيرتي، ١٣٣١، قم.
٢٣ ـ موسوعة مقدّمات العلوم والمناهج، أنور الجندي، دار الأنصار للطباعة والنشر، القاهرة ـ مصر.
٢٤ ـ مبادئ القياس والتقويم في التربية، عزيز سمارة، دار الفكر لنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن.
٢٥ ـ معالم التربية، فاخر عاقل، دراسات في التربية العامّة والتربية العربية، بيروت.

٢٦ ـ المؤتمر الفكري التربوي الإسلامي، الأصول والمبادئ، عادل العواد، المنظمة العربية للتربية والثقافة، تونس.

٢٧ ـ مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، مؤسسة أهل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت ـ لبنان.

٢٨ ـ منهج التربية أساسياته ومكوّناته، علي أحمد مدكور، الدار الفنية، القاهرة ـ مصر.

٢٩ ـ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة ـ مصر.

٣٠ ـ الملحمة الحسينية، مرتضى مطهري، ط١، الدار الإسلامية، بيروت.

٣١ ـ نحو فلسفة عربية للتربية، عبد الغني عبود النوري، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة.

٣٢ ـ نحو فلسفة تربوية عربية، عبد الله عبد الدائم، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت.

٣٣ ـ نحو رؤية موضوعية للتراث الإسلامي، محمود قمبر، دار المعرفة للنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان.

دور المرجعية الدينية في إصلاح الواقع العراقي
السيد السيستاني أُنموذجاً

د. الشيخ أحمد علي عبود الخفاجي*

المقدّمة

تعدّ المرجعية الدينية الامتداد الحقيقي اللازم للإمامة، التي تشكّل بدورها الامتداد الطبيعي للنبوّة في أبعادها المختلفة، وخاصّة في بُعديها العقائدي والسياسي، وقد رسم هذا الامتداد للمرجعية الطريقة التي تنتهجها وتسلكها للتعامل مع جميع الظروف والأوضاع، بما فيها الأوضاع والظروف السياسية، وحسب الشروط والخطوط التي وضعها أهل بيت عليهم السلام، فقد مرَّ أهلُ البيت عليهم السلام بمراحل وأدوار ذات ظروف وعوامل مختلفة، جعلتهم يتصرّفون مع تلك الظروف بما يتلاءم مع شروط كلّ مرحلة ودور.

وبما أنّ المرجعية الدينية هي الامتداد الطبيعي للإمامة؛ فإنّ عملها يجب أن يكون في ظلّ ما قام به أئمّة أهل البيت عليهم السلام من أدوار ومواقف مختلفة.

لقد تقلّدت المرجعية الدينية وظائف وواجبات عديدة جعلتها تحمل أمانة الرسالة المحمدية، ومارست الأدوار والمواقف والمراحل ضدّ حركة الانحراف والتدهور مثلما مارسها أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

لقد راعى السيد السيستاني دام ظله الحكومات المتعاقبة على السلطة من يوم سقوط النظام البائد في العراق ولحد وقتنا الحاضر بالتوجيه والنصيحة والإرشاد،

---

* كلّية الدراسات الإنسانية الجامعة/ النجف الأشرف.

والملاحظات القيّمة التي تصبّ في مصلحة الأُمّة والوطن، وبما ينفع المسار السياسي في هذه اللحظات السياسية الحاسمة التي تمرّ على البلاد، بما فيها من مآسٍ وأحزان، وخاصّة فيما يتعلّق بتردي الوضع الأمني، فقد كان وما زال بحق صمّام الأمان في عدم انجرار البلاد إلى حرب طائفية مؤلمة تحرق الأخضر واليابس، رغم الاعتداءات الصارخة التي انصبت على العراقيين وباستمرار من التكفيريين والظلاميين أتباع أزلام صدام، وترويع الأهالي على اختلاف الصُعُد، من قتلٍ وذبحٍ وسلبٍ ونهبٍ، وتهجيرٍ بالقسر، وتدمير للمساجد، ولمراقد الأئمّة والعلماء والصالحين والأولياء، بما ينـدى له الجبين، وكان من الممكن أن يُردّ على هذه الأفعال الظالمة بما يعادلها أو أكثر، لولا إصرار مراجعنا العظام وخصوصاً سماحة السيد السيستاني دام ظله.

وممّا ينبغي ذكره أنّه نجح بهذه السياسة الحكيمة؛ إذ أفشلت مخططات المنحرفين الذين يعملون في الليل والنهار على إثارة النعرات الهدّامة، والتكفير الظالم، والمروق عن الأخلاق الحميدة.

مبحث تمهيدي: السيرة الذاتية والملامح الفكرية للسيد السيستاني دام ظله

قد تختلف الناس على نوعية السلطة ومصادر مشروعيتها، أو على كفاءتها وصلاح حالها ورجالها، لكن ضرورتها للأمن والنظام العام هو أمر لا جدال فيه، «**فإنّه متى غابت السلطة قلّ الصلاح، وكثُر الهرج والمرج، وفسُدت المعايش، بل إنّ المعلوم أنّه مع وجود الرؤساء وانقباض أيديهم وضعف سلطانهم، يكثُر الفساد ويقلّ الصلاح**»[1].

ويمكن القول: إنّ هنالك حاجة ماسّة جدّاً لسلطة عُليا تقوم على إدارة شؤون المجتمع وتسيير أُموره العامّة؛ وذلك لتحقيق التناسق بين الاحتياجات الاجتماعية المتفاوتة، وأساليب إشباع هذه الاحتياجات، وتجميع القوى الفعّالة وتوجيهها الوجه التي تؤهلها لخدمة المجتمع على النحو الأكمل، كما أنّ هذه السلطة ضرورية لإشاعة

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد: ص٢٩٧.

العـدل بوجه الظلم والاعتـداء على الآخرين وحقوقهم، وبالتـالي يحتاج المجتمع إلى الموقف فيها رأياً موحداً يمتلك القاطعية والواقعية، والقدرة على التنفيذ[١].

فإنّ السـلطة التي تجمع بين المحافظة على السـلم الأهلي والعدل بين السـكان هي الأمثـل بطبيعة الحال؛ لأنّه الغرض الأوّل لهذه السـلطة السياسـية، والتي تكون هي الواسطة في إيجاد الحكم الصالح[٢].

إنّ ضرورة حفـظ النظـام العام في الدولـة ككيان تجتمع فيه الأفـراد والجماعات، والذي من خلاله يتمّ إرساء مبادئ العدل والسلام، وأحقّية العيش الكريم، ضرورة تتفق عليها كلّ الآراء والأفكار الإسـلامية من حيث النتيجة وإن اختلفت في شـكل النظام السـياسي السائد، وحدود الممارسة السياسـية، والمعالجة الميدانية للحوادث في هذا البلد أو ذاك[٣].

كما أنّ الاختلاف في شـكل النظام السـياسي وطبيعته وجدت على مستوى الاتجاه الفكري (المذهبي) الواحد، فالشيعة كفرقة إسلامية اختلف علماؤها في هذه المسألة، ولـكلّ حججه وأدلتـه في ذلك، مع اتفاقهـم في النتيجة والغاية، وهي إفشـاء العدل والسلام[٤].

في ضـوء مـا تقدّم يمكن القـول: إنّ حركة علـماء الدين والمراجع على المسـتويين الفكـري والميداني تهدف إلى الهدف ذاته، فهم يسـعون جاهدين إلى الحفاظ على حياة الناس أوّلاً (القيم العظمى)، فهو هدف كلّ المصلحين، وأوّل أولوياتهم على اختلاف توجهاتهم، وإذا كان الهدف والغاية من كلّ دين أو نظرية إنسـانية هي حياة الإنسان، فمعنى ذلك أنّ كلّ ما يوفر للإنسـان والإنسـانية السـلام والحياة الحرّة الكريمة، هو

(١) أُنظر: الحائري، كاظم، المرجعية والقيادة: ص٣١.
(٢) أُنظر: السيف، توفيق، رجل السياسة دليل الحكم الصالح: ص٢٥.
(٣) أُنظر: النبراوي، خديجة، حقوق الإنسان في الإسلام: ص٢٩٨.
(٤) أُنظر: المؤمن، علي، سنوات الجمر (مسيرة الحركة الإسلامية في العراق): ص٤٩٧.

هدف العلماء والفلاسفة والأديان والأفكار[1].

ومن العلماء الذين برز دورهم وبشكلٍ واضح على مسرح الأحداث في العراق بعد سقوط (نظام البعث الدموي) هو السيد السيستاني، وهو من كبار العلماء المجتهدين، وُلد السيد في مدينة مشهد المقدّسة في (٧) ربيع الأوّل (١٣٤٩هـ)، أي: في عام (١٩٢٨م)، وبها نشأ وأكمل قراءة المقدّمات والسطوح والعلوم العقلية والمعارف الإلهية لدى جملة من أعلامها حتى أتقنها، ثمّ هاجر بعد ذلك إلى مدينة قم المقدّسة سنة (١٣٦٨هـ)، فلازم بحث العلمين السيد حسين البروجردي فقهاً وأُصولاً، والسيد محمد الكوهكمري فقهاً، إلى أن هاجر سنة (١٣٧١هـ) الموافق عام (١٩٥٠م) إلى مدينة النجف الأشرف، فحضر فيها دروس جملة من أعلامها، منهم: آيات الله العظام: السيد محسن الحكيم، والشيخ حسين الحلي، والسيد أبو القاسم الخوئي (قدّس الله أسرارهم)، وبلغ السيد السيستاني مرتبة الاجتهاد سنة (١٣٨٠هـ) الموافق (١٩٥٩م)، ثمّ بدأ بإلقاء الدرس الخارج سنة (١٣٨١هـ) وإلى الآن مستمر في ذلك[2].

وقد آلت إليه المرجعية بعد وفاة السيد أبو القاسم الخوئي، وكانت الزعامة مقسومة بينه وبين السيد عبد الأعلى السبزواري، وبعد سنة واحدة فقط توفّي السيد السبزواري، فأصبح السيد السيستاني المرجع الأعلى في العراق عام (١٩٩٣م)[3].

عُرِف السيد برجاحة عقله، ولديه اهتمام كبير واطّلاع واسع على الفلسفة والآراء والنظريات المعاصرة، فهو يعرف الشيوعية والرأسمالية بدقائقها، وكذلك يعرف الوجودية بدقائقها، وكما أنّ لديه ولعاً خاصاً بالحكمة والفلسفة، فقد درسهما دراسة مجدية حتى عُدّ أحد الأركان لعلم الفلسفة في القرن العشرين، كذلك عُرف سماحته بنفاذ البصيرة، وخاصّة فيما يتصل بالشأن السياسي، وحظي باحترام جميع الأطراف

(١) أُنظر: الصغير، محمد حسين، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ص١٧٣.
(٢) أُنظر: الموسوي، حسين أبو سعيدة، المشجّر الوافي في السلسلة الموسوية: ج٣، ص١٢٢.
(٣) أُنظر: الزبيدي، حسن لطيف، موسوعة الأحزاب العراقية: ص٤١٨.

لا سيّما سلطات الاحتلال الأمريكية، ومجلس الحكم الانتقالي، رغم تضارب مصالحهم؛ ما جعل سلطات الاحتلال والأُمم المتحدة تأخذ بملاحظاته، وتتجنب إثارة حفيظته، فقد تراجعت عن بعض خططها بعد إصدار سماحته لفتاوى ضدّ القرارات المتّخذة من قِبل هذه السلطات.

وتُعدّ مرجعيته اليوم مرجعية شاملة من حيث كثرة مُقلديه فيما يضطلع بأعبائها على شتى الصُّعُد الاجتماعية، من حيث إدارة الحوزة النجفية من إنفاق ومشاريع وغيرها[1]. تعرّض السيد السيستاني إلى مضايقات كثيرة ومحاولات اغتيال والتي كُتب لها الفشل، وكان لجهاز المخابرات مقر دائم أمام منزل السيد؛ إذ دفع النظام البائد بمجموعة من الأشخاص داخل الوسط الحوزوي؛ لأجل اختراق النظام الحوزوي من الداخل، وفرض رقابة صارمة على تحرّك المرجعيات الشيعية، استمر هذا الوضع حتى سقوط النظام الصدامي في (٩/ ٤/ ٢٠٠٣م)، والذي شكّل حدثاً سياسياً ودولياً عظيماً وهاماً، وأحدث دوياً هائلاً في كلّ مكان في العالم، وأهمية هذا الحدث نابعة من أهمية الأزمة التي خلقها النظام السابق بين العراق والدول العربية والإسلامية وباقي دول العالم، من خلال حروبه ونزاعاته، كالحرب ضدّ إيران والكويت، واستخدام الأسلحة المحرّمة ضدّ أبناء الشعب العراقي من الأكراد، وكذلك الإبادة الجماعية التي تعرّض لها شيعة العراق في الجنوب.

كان سقوط النظام الدكتاتوري إيذاناً ببداية مرحلة سياسية جديدة، تقوم على أساس المساواة في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية وغيرها، لكن هذا التغيير السياسي في العراق رافقه احتلال عسكري، حاول هذا الاحتلال تجيير المرحلة لصالحه؛ بُغية الحصول على مكاسب، وفرض قوانين وتشريعات وآليات حكم تنسجم مع آيديولوجيته وتضمّن بقاء وجوده على أرض العراق بشكل أو آخر[2].

(١) أُنظر: الصغير، محمد حسين، لا وصاية على السيستاني، بحث منشور في كتاب أُمّة في رجل: ص٤٢٩.
(٢) أُنظر: الظالمي، صالح، المرجعية والمواقف الصريحة، السيد السيستاني أُنموذجاً، بحث منشور في مجلة آفاق نجفية، العدد الثاني، ٢٠٠٦م: ص١٣ـ١٤.

المبحث الأوّل: موقف السيد السيستاني من الاحتلال والأزمات الداخلية

لقد كان للسيد السيستاني موقفاً واضحاً في رفضه سياسة الاحتلال، وقد بيّن ذلك في مواقف عدّة، منها: رفضه استقبال الحاكم المدني بول برايمر لمرّات عدّة؛ لعدم وجود ما يستدعي هذا اللقاء[1]؛ إذ أُشير لهذا الأمر في ردّ على أحد أسئلة صحيفة اسهاي اليابانية ونصُّ السؤال هو: ما هي العلاقة بين الحكومة المؤقتة وبينكم؟ هل تتلقون الدعم منهم؟ أم ماذا؟ وكان جواب مكتب السيد ما يلي: «**لا علاقة بيننا وبين السلطة المؤقتة، وأمّا الحكومة المؤقتة، فلم تتشكل بعدُ**»[2].

وبعد سقوط النظام وانهيار مقومات الدولة وركائزها، أصبح العراق يعيش في فراغ سياسي كبير، لا سيّما أنّ جميع قوى المعارضة تعيش خارج حدود العراق؛ جرّاء البطش والظلم الذي تعرّضوا له إبان حكم النظام القمعي السابق، في ظلّ هذه الأوضاع توجّه الناس إلى المرجعية الدينية التي عاشت المعاناة كسائر أبناء العراق، وصمدت بوجه الظلم والحرمان مع جميع أبناء الشعب، فما كان من المرجعية وبفعل دورها في رعاية مصالح الأُمّة إلّا أن تبدي رأيها في الأوضاع القائمة آنذاك، إذ أوضح السيد السيستاني أنّ تغيير النظام كان يُفترض أن لا يكون عن طريق الاحتلال العسكري الذي ولّد مآسي كثيرة، منها: انهيار ركائز الدولة، والعيش في حالة من انعدام الأمن والاستقرار[3].

لقد أكّد السيد على أبناء العراق الذين يمتلكون الكفاءة والمؤهلات أن يتصدّوا لإدارة البلاد، وليس عليهم أن يفعلوا ذلك تحت أيّ سلطةٍ أجنبيةٍ، ورفض السيستاني كلّ أشكال التدخل في الشأن العراقي، ووجوب نيل العراق لاستقلاله بصورة كاملة

(١) المصدر السابق: ص١٤.
(٢) الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص٤٤.
(٣) أُنظر: المصدر السابق، ص٩٦.

غير منقوصة[1].

كما بيّن أنّه إنْ كان هنالك حاجة إلى قوات الاحتلال؛ لأجل إعادة بناء الدولة وتوفير وضع أمني مستقر، فيجب أن يكون هذا الوجود تحت إشراف الأُمم المتّحدة لا قوات الاحتلال العسكري.

يأتي هذا الموقف من السيد السيستاني تجاه الاحتلال كما هو معلوم بعد انهيار النظام القمعي السابق، إذ شهد الوضع الأمني تدهوراً بصورةٍ دراماتيكية، ممّا جعل السيد يساهم في ضبط الشارع العراقي عمّا يمكن أن تؤول إليه الأوضاع الأمنية من تدهور خطير، إذ أصدر في (٢٧/ ٤/ ٢٠٠٣م) فتوى تحرّم نهب ممتلكات الدولة والوزارات، وجميع الدوائر الحكومية، ودعا إلى المحافظة على هذه الممتلكات، بوصفها ملكاً عاماً لجميع أفراد الشعب العراقي، ورفض قيام العوائل وإن كانت في عوز أن تستخدم هذه الممتلكات الحكومية[2]، من جهة أُخرى منع السيد أن تقوم حالة من الانتقام والاحتراب الداخلي، وسفك الدماء بحق رجالات النظام البائد ممّن كان لهم يد في قتل الأبرياء، إذ أوجب أن تحال هذه القضايا إلى المحاكم المختصّة في الدولة بعد قيام حكومة مستقلة ومنتخبة تدير شؤون البلاد.

وبهذه الطريقة الحكيمة من المعالجة للواقع العراقي بكلّ تفاصيله، أصبحت المرجعية متمثّلة بشخص السيد السيستاني ملاذاً للقوى السياسية الوطنية الباحثة عن استقلال العراق، باعتبار أنّ مرجعية السيد السيستاني قاعدة فكرية وسياسية تنظم الفعل السياسي الوطني، وتوفق بين الفرقاء، وتُعيد إنتاج الحياة السياسية على أساس المشاركة والتعايش وقبول الآخر مهما كان هذا الآخر، إذ إنّ مرجعية

(١) أُنظر: مقابلة مع السيد محمد رضا السيستاني نجل المرجع علي السيستاني، جريدة الحياة: العدد (١٤٦٣٤)، ١٨/ ٤/ ٢٠٠٣م.

(٢) أُنظر: الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص٣٥٧ـ٣٥٨.

السيد السيستاني لا تريد تأسيس نظام سياسي واجتماعي واقتصادي وثقافي في البلاد يكـون قائـماً على حاكمية الفـرد المطلقة، هذه الحاكميـة التي كلّفت العـراق أكثر من ثلاثـة عقود من الحروب والأزمات، وقتل وتعذيب واعتقال المواطنين[1]، فمرجعية السـيد السيسـتاني لا تريد عودة هـذه الدكتاتورية تحـت غطـاء الديمقراطية؛ لذلك أكّدت المرجعية على أهمية كتابة الدستور بأيدي أبناء العراق، وليس عن طرق آليات توضع من قِبل المحتل وبعض رجالات السياسة من العراقيين، الذين لا تهمهم هموم ومطالب أبناء الشـعب العراقي، إذ أكّدت المرجعية على هذا الأمر من خلال العديد مـن البيانات التي تؤكّد عدم وجود أيّ جهة مخولة لكتابة الدسـتور ما لم يتم انتخابها مـن أبناء الشـعب، عـن طريق آليـة الانتخابـات الديمقراطيـة[2]، ولقد كان للسـيد السيستاني دور بارز في حَدَثين هامين عصفا بالعراق:

الأوّل: قام سـماحته بإيقاف سـيل الدماء والحفاظ على أرواح الأبرياء من المدنيين في مدينـة النجف الأشرف في آب (٢٠٠٤م)، حين دخلت إحدى الجهات المسـلّحة حالة من المواجهة والصراع والاشـتباك المسلّح مع قوات الاحتلال، وقد اتخذت من حـرم الإمام عـلي عليه السلام مقراً لها، وأرادت قـوات الحكومة العراقيـة الدخول إلى المدينة المقدّسـة بمسـاندة القـوات الأمريكية؛ ممّا يعني حـدوث مذبحة كبـيرة، ناهيك عن انتهاك حرمة المدينة المقدّسـة وما لها من مكانة في نفوس المسـلمين عموماً والعراقيين بوجه خاص، بادر السـيد إلى حلّ النزاع بعد لقـاءات متعددة بين الأطراف المتنازعة قام بها ممثلون عن سماحته، وقد أثمرت جهوده المباركة بحل الأزمة بعد أن عجز عن حلّها كثيرون من أهل العلم والجاه والساسة[3].

(١) أُنظر: عبد الرزاق، صلاح، المرجعية الدينية في العراق والانتخابات البرلمانية وتعزيز الوحدة الوطنية: ص٥٣.

(٢) أُنظر: الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص٣٢٥.

(٣) أُنظر: المصدر السابق: ص٧٦.

الثاني: مساهمة السيد في إخماد فتنة كادت أن تُدخل العراق في خضم حرب أهلية تعود على العراق وأبنائه بالخراب والدمار؛ وذلك بسبب قيام حفنة من الإرهابيين بتفجير قبّة الإمامين العسكريين عليهما السلام في مدينة سامراء المقدّسة، إذ تُعدّ العتبة العسكرية من المزارات المقدّسة عند أبناء الطائفة الشيعية بصورة خاصّة، وعند أغلب المسلمين بصورة عامّة، وعلى أثر هذا الاعتداء الإجرامي، أصدر السيد السيستاني فتواه الشهيرة بحرمة دم العراقي بكلّ طوائفه، وحرمة الدم السنّي بالخصوص، بل قال: إنّ من واجب الشيعي أن يحمي أخاه السنّي، كما دعا السيد وأكّد على جميع العراقيين بجميع أطيافهم إلى التصدي لعدوّهم الأوّل (الإرهاب) الذي يهدد وحدة العراق، مؤكّداً أهميّة بناء جسور الثقة لتعزيز الوحدة الوطنية والسِّلم الأهلي، فاستطاع السيد بحكمته ورجاحة عقله أن يُبعد شبح الحرب الأهلية التي كادت أن تدخل العراق في بحر من الدماء؛ الأمر الذي يُظهر بوضوح ثقل ودور المرجع السيد السيستاني باعتباره صمّام أمان للعراق والعراقيين[1].

يُعدّ تطويق واحتواء أزمة النجف من الإنجازات الكبيرة والهامة؛ إذ تعرّضت المدينة إلى دمار كبير جرّاء العمليات العسكرية في (٢٠٠٤م)، فقد عاد الاستقرار والأمن للمدينة المقدّسة، واستطاع السيد بحكمته الحفاظ على أرواح المواطنين الساكنين، بل والمقاتلين أيضاً، وإيصالهم إلى أماكن سكانهم بعيداً عن اعتقال وملاحقة القوات الأمريكية، بهذه الروح الأبوية ومن موقع الإحساس بالمسؤولية الشرعية والأخلاقية استطاع إنقاذ المدينة وأهلها، وعلى الدوام كانت تصريحاته وبياناته تحثّ على السلم والوحدة ورصّ الصفوف ضدّ العدو المشترك وهو (الإرهاب)[2].

(١) أُنظر: الظالمي، صالح، المرجعية والمواقف الصريحة السيد السيستاني أُنموذجاً، بحث منشور في مجلة آفاق نجفية، العدد الثاني، ٢٠٠٦م: ص٧٨.

(٢) أُنظر: الخفاف، حامد، الرحلة العلاجية لسماحة السيد السيستاني وأزمة النجف: ص٩٤.

المبحث الثاني: موقف السيد السيستاني من دستور جمهورية العراق لسنة (٢٠٠٥م)

إنّ البحث في دور المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف[١] في كتابة الدستور، يقودنا بالضرورة إلى أن نسبق ذلك بالآراء السياسية لفقهاء الشيعة ونظريات الدولة في فقههم.

لقد كانت مباحث الحكومة والدولة تُطرح غالباً في قالب الأحكام ووظائف الحاكم، والسؤال: مَن يكون الحاكم؟ لا أنّه كيف تجب ممارسة الحكم؟ وما هي أحكام ووظائف الدولة بعنوان كونها مؤسسة وشخصية حقوقية؟ وغالباً ما تعلل قلّة العناية هذه بأنّ الفقه الشيعي لم يجد حاجة للولوج في قضية الدولة، بواسطة الفهم الخاص بغيبة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ومسألة الإمامة وارتباطها بالدولة، وتصور أنّ العصمة شرط للحاكم؛ ما أدى إلى توقف الفكر السياسي الشيعي وقبول الفقهاء بالابتعاد عن ميدان الحكومة، إلّا أنّه ومع تولي الصفويين العرش في إيران وإعلان التشيّع مذهباً رسمياً فيها، تمتع الفقهاء بسلطة نسبية وبشكلٍ تقليدي، تحت عنوان (ولاية الفقيه)، لكنّها لم تكن على الإطلاق بمعنى نظرية دولة؛ إذ اقتصرت على القضاء ولوازمه، بينما أوجدت أُولى علامات نظرية الدولة لدى المحقق الكركي الذي عَدّ الفقيه نائباً عامّاً للإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف واتفق الأردبيلي معه في ذلك، وفسح المجال بذلك أمام الفقهاء بشكلٍ كبيرٍ، وكان التحوّل في آثار الشيخ جعفر كاشف الغطاء والميرزا القمي، فيما كان أوّل مَن بحث ولاية الفقيه تفصيلاً وكمسألة مستقلة الملا أحمد النراقي، وقال: إنّ جميع وظائف السلطان في رعيته هي للفقهاء. وكانت تلك أُولى طلائع الفكر السياسي الشيعي، فيما نقده تلميذه الشيخ مرتضى الأنصاري، وتتابع بحث المسألة حتى كتب النائيني (تنبيه الأُمّة وتنزيه الملة)[٢].

(١) المرجعية الدينية العليا: مصطلح مستحدث عند الشيعة يُطلق على مَن بلغ رتبة الاجتهاد والأعلمية من الفقهاء. أُنظر: القزويني، جودت، المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية (دراسة في التطور السياسي والعلماء): ص٨.

(٢) أُنظر: كديور، محسن، نظريات الدولة في الفقه الشيعي: ص١٥ـ٢٦.

وكان الشيخ محمد حسين النائيني قد طرق فكرة الدولة الدستورية القائمة على تحقيق مبدأ التوازن بين الحاكم والمحكوم، وتقليص صلاحيات الحكومة وسلطاتها ومَن يقف على قمّة هرمها، وتوزيع هذه السلطات؛ منعاً للتفرد والاستبداد، وكانت أُطروحته مشاركة مهمّة وخطيرة للمرجعية الدينية الشيعية في الفكر السياسي، وتُجسّد أُطروحته شكل الدولة العصرية مع تأصيلها إسلامياً من خلال النصّ القرآني والأحاديث النبوية وأحاديث الأئمة عليهم السلام[1].

وفي الفترة التي توصّل فيها الفقه السياسي الشيعي من النظرية إلى التطبيق في ظلّ حكومة ولاية الفقيه في إيران، والتي نَظّرَ لها وطبّقها السيد الخميني ازدهر الفقه الشيعي فيما يتعلّق بالسياسة ومسألة الدولة، وقد قدّم الفقهاء الشيعة نظريات مختلفة عن نظرية السيد الخميني، وهي تبتني على المشروعية الإلهية الشعبية، وتنكر على الفقهاء أيّ امتياز سياسي ـ بسبب فقاهتهم ـ عن بقيّة الشعب، كما تُنكر عليهم أيّ ولاية شرعية في تدبير الأُمور السياسية التي جُعلت ـ وفقاً لنظرياتهم ـ في غيبة الإمام المعصوم في عهدة الشعب[2].

ومن الجدير بالذكر أنّ المرجع السيد السيستاني يحظى بتأييد واسع النطاق من قِبل جميع الفرقاء على الساحة الدينية والوطنية في العراق، كما يحظى السيد السيستاني بتأييد جماهيري كبير، وتحظى فتاواه ومواقفه السياسية من التطورات في العراق على اختلاف المستويات (سياسية، واجتماعية، واقتصادية) قبولاً وتقديراً من جميع الأطراف على المستوى الداخلي والخارجي لما يمتاز به خطابه من واقعية تحليلية ورؤية مفعمة بالنظر بالعقلانية[3].

(١) أُنظر: السيد سلمان، حيدر نزار، سلطة النصّ الديني وبناء الدولة السيد السيستاني أُنموذجاً: ص٣٨ـ٤١.

(٢) أُنظر: كديور، محسن، نظريات الدولة في الفقه الشيعي: ص٢٦ـ٢٧، وص١٨٤ـ٢٠١.

(٣) أُنظر: الإمامي، محمد عباس جعفر، الدور السياسي للمرجعية الدينية في العراق الحديث: ص٢٦٥.

والأهـم من ذلك: تغليب مصلحة الشـعب العراقي بـكلّ أطيافه ورعاية حقوقه وصيانة كرامته، والحفاظ على اسـتقلال أراضيه فوق كلّ المصالح الأُخرى، ويتضح موقف سماحته في قضية مهمّة وحيوية، وهي مهمّة كتابة الدستور العراقي الجديد[1].

وفي (١٣/ ٧/ ٢٠٠٣م) أُعلـن عن تأسـيس مجلس الحكم الانتقـالي، والذي وُلد في ظـروف غير اعتياديـة على جميع الصُّعُد، أمنياً، سياسـياً، اقتصاديـاً، واجتماعياً، إذ تمّ تشـكيله من أحزاب المعارضة التي كانت في خارج العراق، وهي كلّ من (المؤتمر الوطنـي العراقي، حركة الوفاق الوطني، حزب الدعوة الإسـلامية، المجلس الأعلى للثـورة الإسـلامية) إضافـة إلى (الحـزب الوطنـي الكردسـتاني، والاتحـاد الوطنـي الكردسـتاني)، لتنضـمّ إليـه فيـما بعـد أربعة أحـزاب عراقيـة أُخرى، وهـي: (تجمع الديمقراطيين المسـتقلين، الحزب الوطني الديمقراطي، الحزب الإسـلامي العراقي، الاتحاد الإسلامي الكردستاني)[2].

لقد أكّد سـماحة السـيد على أهمية الدستور في معرض جواب سؤال وجّه من قِبل (جمع من المؤمنين) إلى مكتب سماحته في النجف، وكان السؤال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أعلنت سـلطات الاحتلال في العراق أنّها قررت تشـكيل مجلس لكتابة الدسـتور العراقي القادم، وأنّها سـتُعيّن أعضـاء هذا المجلس بالمشـاورة مع الجهات السياسـية والاجتماعيـة في البلد، ثمّ تطرح الدسـتور الذي يقـرّه المجلس للتصويت عليه في اسـتفتاء شـعبي عام. نرجو التفضل ببيان الموقف الشرعي من هذا المشروع، وما يجب على المؤمنين أن يقوموا به في قضية إعداد الدستور العراقي.

وكان جواب السـيد السيستاني بخصوص هذا الأمر ما نصّه: «**إنّ تلك السلطات لا تتمتع بأيّة صلاحية في تعيين أعضاء مجلس كتابة الدسـتور، كما لا ضمان أن يضع هذا**

(١) أُنظر: الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص٤٥.
(٢) أُنظر: المصدر السابق: ص٤٦.

المجلس دستوراً يطابق المصالح العليا للشعب العراقي، ويعبّر عن هويته الوطنية والتي من ركائزها الأساسية الدين الإسلامي الحنيف والقيم الاجتماعية النبيلة، فالمشروع المذكور غير مقبول من أساسه، ولا بدّ أوّلاً من إجراء انتخابات عامّة؛ لكي يختار كلّ عراقي مؤهل للانتخاب مَن يمثّله في مجلس تأسيسي لكتابة الدستور، ثمّ يجري التصويت العام على الدستور الذي يقرّه هذا المجلس، وعلى المؤمنين كافّة المطالبة بتحقيق هذا الأمر المهم، والمساهمة في إنجازه على أحسن وجه، أخذ الله تبارك و تعالى بأيدي الجميع إلى ما فيه الخير والصلاح، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

وبلغ الجدال أُوجه في أروقة مجلس الحكم، ولم يتوقع بول برايمر أنّ المسألة سوف تصل إلى ما وصلت إليه؛ ممّا استدعى سفره إلى واشنطن بصحبة الرئيس العراقي ورئيس مجلس الحكم في تلك الفترة (جلال الطالباني)، مطلعاً القيادة الأمريكية على التطورات الحاصلة، ليعود وبجعبته خطّة لحلّ هذا الوضع؛ إذ طرح آلية لوضع الدستور، والتي تُعرف بآلية كوكس (التجمعات الانتخابية) كحالة وسط بين التعيين والانتخاب لأعضاء مجلس كتابة الدستور، هذا الاقتراح جاء في محاولة من سلطات الاحتلال لتخفيف الضغط المرجعي واحتوائه، لكن السيد رفض هذا الاقتراح، وقال: إنّ الانتخابات يمكن أن تجرى من خلال آلية حقيقية وهي الانتخابات، ليكون المجلس منبثقاً من إرادة العراقيين ويمثّلهم بصورة عادلة[2].

وهنا يُثار التساؤل عن النظرية التي تبنتها مرجعية النجف الأشرف العليا المتجسّدة بسماحة السيد السيستاني، وهو ما لا يمكننا الإجابة عليه من دون البحث في جذور علاقة المرجعيات الدينية في النجف بأُمور السياسة.

وجدير بالإشارة إلى أنّ كتاب (تنبيه الأُمّة وتنزيه الملة) يُعدّ أوّل عمل في الفكر

(١) المصدر السابق: ص٢٢٥.

(٢) أُنظر: بريمر، بول، عام قضيته في العراق: ص١٢٥.

السياسي المعاصر للمرجعية الدينية في النجف الأشرف، وتمثيلاً لها في نهجها المتمثّل بالدولة الدستورية التي تفك الارتباط بين رجال الدين والسلطة السياسية، فكما يرى النائيني أنّ الاستبداد الديني أسوأ من الاستبداد السياسي، وهو إن وُجد ظهيراً قوياً وداعماً لا يقاوم للمستبد السياسي الطاغية، إلّا أنّ ذلك لم يمنع مرجعية النجف من التدخل في الشأن السياسي وإصدارهم الفتاوى المناوئة والمحرّمة لانتخابات المجلس التأسيسي لعام (١٩٢٢م)؛ ما عرّض علماء الدين إلى النفي والإبعاد من قِبل الحكومة، وبرغم ذلك ومنذ عام (١٩٢١م) كان الغالب هو سيادة الاحترام والحوار في العلاقة بين الطرفين، وتمكنت المرجعية الدينية بمكانتها وهيبتها من التأثير في الحكومة وقراراتها، كما تمتعت المؤسسة الدينية باستقلالها المالي والمعنوي، وحريتها في ممارسة أنشطتها الدينية والتعليمية والإرشادية، إلّا أنّ نهاية عقد الستينيات من القرن العشرين شهد توتراً في العلاقة، وساء الأمر إلى حدّ ملاحقة ابن المرجع السيد محسن الحكيم بتهمة التآمر على النظام، ثمّ تمّ الاعتداء على بيت المرجع الأعلى حينها في بغداد، والتضييق على حركة وكلائه وطلبة الحوزة، وكان ذلك جزءاً من سياسة النظام البعثي بإخضاع الجميع له.

وبعد وفاة المرجع الحكيم جاءت سياسة الحذر من قِبل المرجع السيد أبو القاسم الخوئي بابتعاده الواضح عن التدخل في الشؤون السياسية وانشغاله بالجانب الديني، إذ كان البعثيون قد نصبوا العداء للمرجعية الدينية في النجف الأشرف، وشنّوا حملات اعتقالات وتسفيرات لطلبة الحوزة العلمية، فأصبحت مهمّة الحفاظ على المرجعية الدينية وحوزتها من الأولويات، ولما كان السيد السيستاني من المقرّبين من السيد أبو القاسم الخوئي وخلفه من بعد السيد عبد الأعلى السبزواري، إذ تصدّر عام (١٩٩٤م) زعامة المرجعية الدينية العليا، فقد استمد من أُستاذه التحفظ من التدخل بالشأن السياسي في كنف سلطة مستبدّة وغاشمة لم تتورع عن محاولة اغتياله

في عام (١٩٩٧م)، ثمّ فرضِ حصار على مكتبه وسائر المراجع الآخرين[١].

وبعد عام (٢٠٠٣م) وسقوط النظام السابق دخلت المرجعية الدينية في النجف مرحلة جديدة، فبغياب القيادات لم يكن أمام الناس إلّا العودة للقيادة الدينية المتمثّلة بالمرجعية التي أصبحت ملجأً وراعياً للشأن العام، وبدأت المؤشرات واضحة بالأهمية التي يحظى بها السيد السيستاني، وما ينتظره من دور في صياغة مستقبل العراق وتأثيراته القوية في الرأي العام، ولم يكن بمقدور أحد تجاوز الاعتبار المبني على شرعية شعبية واسعة؛ إذ يعُد اللجوء إلى المرجعية الدينية في النجف الأشرف في أوقات الأزمات إرثاً وجدانياً، وهكذا وجد الجميع في السيد السيستاني الخيمة التي تجتمع قوى الدولة تحت أعمدتها ولا مفرّ من أخذ رأيه والاستئناس بتوجيهاته ووصاياه وأقواله ورؤيته الفقهية والسياسية[٢].

وفي تلك الأثناء وعقب تشكيل مجلس الحكم في العراق في تموز (٢٠٠٣م)، كان المجلس قد شكّل لجنة دستورية تحضيرية في (١١/ ٨/ ٢٠٠٣م) تتألف من (٢٥) عضواً، وكانت مهمّة اللجنة استطلاعية عن طريق اتصالها بالقوى الفاعلة بالمجتمع والاطلاع على آرائها، ثمّ رفع توصية إلى مجلس الحكم لبيان الآلية التي ينبغي من خلالها صياغة دستور جديد للبلاد، إلّا أنّ المشاورات العامّة التي كانت اللجنة قد بدأتها أسفرت عن قوى متصارعة، حول أُسس اختيار لجنة كتابة الدستور أكثر من التركيز على مبادئ الدستور المقبل، وقد تركت تلك اللجنة القرارات الصعبة لكلّ من مجلس الحكم وسلطة الائتلاف، واللذين كانا بدورهما يحرصان على معرفة

(١) أُنظر: السيد سلمان، حيدر نزار، سلطة النصّ الديني وبناء الدولة السيد السيستاني أُنموذجاً: ص٢٦ـ٢٩، وص٣٨ـ٤٢. البغدادي، عمار، مبادئ الدولة والقيادة لدى مراجع الحوزة العلمية مقاربة في رؤى الخميني ـ النائيني ـ الصدر ـ السيستاني: ص٩١ـ٩٣.

(٢) أُنظر: السيد سلمان، حيدر نزار، سلطة النصّ الديني وبناء الدولة السيد السيستاني أُنموذجاً: ص٣٣، وص٤٣ـ٤٤. البغدادي، عمار، مبادئ الدولة والقيادة لدى مراجع الحوزة العلمية مقاربة في رؤى الخميني ـ النائيني ـ الصدر ـ السيستاني: ص٩٤.

موقف السيد السيستاني من طريقة تشكيل لجنة كتابة الدستور[1]. وكان الموقف الأوّل الواضح الذي صدر من المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف أن رفضت بشدّة إلغاء دور الشعب، وتعطيل إرادته الحرّة في اختيار دستور لبلاده عبر ممثلين، تضمّهم جمعية وطنية تختصّ بكتابة دستور جديد دائم للبلاد[2].

وفي حين كانت رؤية السفير (بول برايمر) تقضي بتشكيل لجنة لكتابة الدستور عبر التعيين، فإنّه وجد نفسه في موقف صعب للغاية، وشبّه رأي السيد السيستاني بالمشكلة؛ لأنّه كان يرى أنّ الانتخابات يمكن أن تستغرق سنة، وبعد ذلك يحتاج العراقيون إلى كتابة دستورهم، ليُطرح بدوره على الاستفتاء العام لإقراره، واتباع هذه العملية يعني تأخير نقل السيادة حتى وقت متأخر من سنة (٢٠٠٥م)، إلّا أنّه وبعد تفكير قرر أن يطرح فكرة الدستور المؤقت بدلاً من الدستور الدائم، وبناءً على قرار الأُمم المتحدة رقم (١٥١١) في (١٦/ ١٠/ ٢٠٠٣م) أُلزم مجلس الحكم بوضع جدول زمني، وبرنامج لوضع مسودة الدستور المؤقت وإجراء الانتخابات، ولمّا فشل المجلس في ذلك تمّ الاتفاق بينه وبين سلطة الائتلاف على وضع قانون إدارة الدولة للفترة الانتقالية؛ إذ تحوّل المجلس الرئاسي لمجلس الحكم والمكون من (٩) أعضاء إلى لجنة لكتابة الدستور المؤقت بمشاركة سلطة الائتلاف، وتولّت مجموعة مصُغرة من خبراء، وحقوقيين، وقضاة، وضع مسودة قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية لسنة (٢٠٠٤م)[3].

---

(١) أُنظر: علي، تغريد عبد القادر، إشكالية الصياغة التشريعية في النصّ الدستوري (دراسة عن دستور جمهورية العراق لسنة ٢٠٠٥م)، مجلة الحقوق (الصادرة عن كلية القانون الجامعة المستنصرية)، المجلد (٤): العدد (١٨)، السنة (٦)، ٢٠١٢م: ص١٨٣.

(٢) أُنظر: السيد سلمان، حيدر نزار، سلطة النصّ الديني وبناء الدولة السيد السيستاني أُنموذجاً: ص٤٤.

(٣) أُنظر: علي، تغريد عبد القادر، إشكالية الصياغة التشريعية في النصّ الدستوري (دراسة عن دستور جمهورية العراق لسنة ٢٠٠٥م)، مجلة الحقوق (الصادرة عن كلية القانون الجامعة المستنصرية)، المجلد(٤): العدد(١٨)، السنة(٦)، ٢٠١٢م: ص١٨٣. وأُنظر: عبد الجبار، فالح، العلاقات الأثنية والدينية، الموقع: *https://minorityrights.org*.

وقد رأى السيد السيستاني في هذا القانون بأنّه سيُكبّل الجمعية الوطنية بقيود كثيرة لا تسمح لها باتخاذ ما تراه مطابقاً لمصلحة الشعب العراقي، وكان يتوقع أن تتم الانتخابات بإشراف الأُمم المتحدة، وهكذا يترك للجمعية الوطنية المنتخبة حرية إدارة البلاد في المرحلة الانتقالية، وكتابة الدستور الدائم، والاستفتاء عليه وفق الآلية التي يقررها المندوبون من الأُمم المتحدة[1].

ولما كان قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية هو خارطة الطريق لكتابة الدستور الدائم، فإنّ الجمعية الوطنية شرعت بعد انتخابها باعتماد تلك الخارطة؛ ليكون الدستور هو المحدد لحركة سير الدولة ومؤسساتها وأفرادها، وهي في ذلك تعتمد لإقرار مضمون الدستور على إدارة الشعب، وهو الرأي الذي أشار إليه السيد السيستاني حينما سُئل عن شكل الحكومة التي يريدها، فكانت الإجابة: «**شكل نظام الحكم في العراق يحدده الشعب العراقي، وآلية ذلك أن تجري انتخابات عامّة؛ لكي يختار كلّ عراقي مَن يمثّله في مجلس تأسيسي لكتابة الدستور، ثمّ يُطرح الدستور الذي يقرّه هذا المجلس على الشعب للتصويت عليه، والمرجعية لا تمارس دوراً في السلطة والحكم**»[2].

ثمّ يعود السيد السيستاني ليؤكّد أنّ شكل العراق من حيث هويته إن كانت قومية عربية أو هوية إسلامية، يُحددها الشعب العراقي بجميع قومياته ومذاهبه، من خلال جمعية وطنية منتخبة تكتب الدستور مع عدم تدخل المرجعية الدينية في ممارسة دور في السلطة والحكم، والنأي بالحوزة العلمية عن التصدي لممارسة العمل السياسي، وترى أنّه على علماء الدين النأي بأنفسهم عن تسلّم المناصب الحكومية.

(١) جاء ذلك في رسالة جوابية من مكتب السيد السيستاني إلى السيد الأخضر الإبراهيمي، تتضمّن الموقف من قانون إدارة الدورة العراقية الانتقالية. أُنظر: الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص١٠٧ـ١٠٩.

(٢) المصدر السابق: ص١٩٢، وص٢٢٤ـ٢٣٠.

وفي سؤال وجّه له حول مدى إمكانية تطبيق فكرة (ولاية الفقيه في إيران)، يُجيب بـأنّ تشـكيل حكومة دينية غير وارد على أسـاس فكـرة ولاية الفقيـه المطلقة، ولكن يفـترض بالحكـم الجديد والحكومـة الجديدة أن تحـترم الدين الإسـلامي، وهو دين أغلبية الشعب العراقي التي انبثقت عنه، وأن تأخذ بقيمه ولا تقرّ ما يخالف تعليماته، فـلا بدّ مـن أن تكون الثوابت الدينية والمبادئ الأخلاقية والقيم الاجتماعية للشـعب العراقي من الركائز الأساسية للدستور[1].

والواضح لدينا أنّ الشرعية الشعبية التي يمتلكها السيد السيستاني إضافة إلى رؤاه الوقّادة، قد أرغمت سـلطة الائتلاف المؤقتة والقوى السياسـية على النزول إلى آرائه، وإنفاذ كثير منها في آلية كتابة الدستور وفي مضمونه، لا سيّما أنّ هذه الشرعية لا يكتسبها سماحة السيد من الطائفة الشيعية فحسب، بل تتعدى إلى كلّ ألوان الطيف العراقي.

ولمـا كان عـام (٢٠٠٥م) مليئـاً بالنشـاطات السياسـية والفكريـة التي تمحورت حـول قضية الدسـتور، وما يجب أن يتضمّـن من فقرات ومواد، ومـا يترتب فيه من شـكل الدولة ونظامها السياسي، فازداد الجدل المتعدد الاتجاهات بين مختلف النخب السياسية والفكرية، فما كان إلّا أن شهدت المدن العراقية ـ وخاصّة العاصمة بغداد ـ مسـيرات كبرى مطالبة بضرورة الاسـتجابة لمطالب المرجعية الدينية، منها: القانونية حـول الدسـتور الجديد الذي سـيحل محـل القانون الـذي وضعته سـلطة الائتلاف المؤقتة، وهكذا عُهدت مهمّة كتابة الدسـتور إلى الجمعية الوطنية بعد انتخابها، وكان الأمر بوضوح اسـتجابة لإرادة السـيد السيستاني بكتابة دسـتور جديد للبلاد يحظى بموافقة شـعبية، ويعبّر عن تطلعات وآمال النسيج الاجتماعي العراقي بكلّ تفاصيله القومية والسياسية[2].

(١) أُنظر: المصدر السابق: ص١٩٢، وص٢٢٤ـ٢٣٠.

(٢) أُنظر: السيد سلمان، حيدر نزار، سلطة النصّ الديني وبناء الدولة السيد السيستاني أُنموذجاً: ص٤٦ـ٤٧.

وهكذا ترتكز الدولة في فهم السيد السيستاني على مطلب الحرية، ففي يقين مرجع عاش تحولات السياسة لعقود طويلة من موقع المراقب والمجتهد العارف بأحوال الناس، تُعتبر الدولة حاضنة للحريات، والقوانين محددات إجرائية؛ لذلك يولي المرجع أهمية كبيرة لأهداف وتطلعات الإنسان في العراق، ويعمل ما أمكن الجهد لأن تكون الدولة بخدمة المجتمع لا العكس، وهو بذلك يدعو إلى سيادة الدولة ونفوذ القانون ومحاربة الأفكار المسيئة لمكونات المجتمع العراقي. وهو يتعامل بذلك مع نمط الدولة الوطنية التي لم يؤسس لها الاجتهاد الفقهي، بل جاءت هي إليه تستدعيه لأجل الدعم والإشراف الأخلاقي. فالدولة العراقية بعد (٢٠٠٣م) أفسحت المجال أمام فقيه النجف لبلورة السياسات والاعتماد عليه في دعم مسيرة السياسة، كون الدولة في هذه المرحلة لا تتعارض مع النجف ولا تختلف مع الفقيه العارف بأنّ الزمن السياسي العراقي هو زمن الوطنية، والسيد السيستاني في ذلك إنّما يحمي التجربة العراقية وصيانة حقوق الشعب العراقي دون انغلاق على الحكم إن لم يعلن الإسلام كياناً للدولة، وأنّ الأسباب التي تدعوا المرجعية لدعم هذه التجربة، هي أنّ السلطة أصبحت شرعية بصندوق الاقتراع وليست قهرية، كما أنّها تعمل وفقاً لدستور ارتضاه الشعب[1].

ولقد كان للسيد السيستاني رؤية فكرية للبناء المؤسساتي والقانوني للدولة العراقية، بعد أن أصبحت المرجعية الدينية في النجف العامل الأكثر تأثيراً في الحالة السياسية الجديدة، والتي تتطلع الأنظار إليها لمعرفة رأيها وموقفها من كلّ ما يجري، فانطلقت المرجعية من أسبابها الشرعية والوطنية والأخلاقية لتقدم أفكارها من موقع حيادي، وتعبّر من خلالها عن رؤية عصرية في بناء دولة مدنية حديثة، تستند

(١) أُنظر: البغدادي، عمار، مبادئ الدولة والقيادة لدى مراجع الحوزة العلمية مقاربة في رؤى الخميني ـ النائيني ـ الصدر ـ السيستاني: ص٩٧ـ١١٣.

إلى أساس المقومات المؤسساتية الشرعية الخاضعة لقانون عام ينظمها وينظم حركتها وعلاقاتها ودورها الاجتماعي، وكان السيد السيستاني قد اكتسب تلك الرؤى نتيجة اطلاعه الواسع على شتى العلوم والمعارف من التاريخ والآداب، والفلسفة، والفكر السياسي، إضافة إلى العلوم الدينية[1].

وهكذا كان السيد السيستاني حريصاً على إيجاد هوية وطنية واحدة، وبناء دولة المواطنة من خلال نظام سياسي مقبول من كلّ المكونات المتنوعة للشعب العراقي يقرّه دستور يرتضيه الشعب، فالدولة الدستورية المنظمة للعلاقات بين الحاكم والمحكوم بتوازن دقيق والتي طرحها النائيني مسبقاً كان قد تمّ استيعابها في العقل السياسي للمرجعية الدينية في النجف، وأصبحت جزءاً من تراثها في الفقه السياسي، وما حالت دونه الحكومات السابقة سنحت به الأحداث السياسية بعد (٢٠٠٣م)، والنظرية التي كانت حبيسة العقول وغير قابلة للطرح وجدت صداها في التطبيق من خلال آراء ورؤى السيد السيستاني، ومع أنّنا لا نجد رؤية مفصلة بعنوان الدولة للسيد السيستاني، إلّا أنّه يمكن ملاحظتها في هذه الآراء والرؤى وتظهر جلية بعد البحث والتمحيص فيها، ويمكن إجمالها في تمكين الشعب من ممارسة حقّه في اختيار دستوره ونوّابه في إطار انتخابات عامّة وضمان مشاركة أوسع القطاعات من الشعب، والتأكيد على المشتركات الجامعة للإسلام الموحد لمجموع المسلمين وحماية الأقليات الدينية، وضمان حقّها في ممارسة شعائرها بحرية وتأكيد حقوق المرأة واحترام المواثيق والهيئات الدولية[2]، وهي مقومات الدولة المدنية الدستورية الوطنية التي أسبغها السيد ما أمكنه في دستور جمهورية العراق لسنة (٢٠٠٥م).

(١) أُنظر: السيد سلمان، حيدر نزار، سلطة النصّ الديني وبناء الدولة، السيد السيستاني أُنموذجاً: ص٨، وص٣٦.

(٢) أُنظر: المصدر السابق: ص٣٨ـ٥٦. والبغدادي، عمار، مبادئ الدولة والقيادة لدى مراجع الحوزة العلمية مقاربة في رؤى الخميني ـ النائيني ـ الصدر ـ السيستاني: ص٨٥ـ٩٥.

المبحث الثالث: موقف السيد السيستاني من الانتخابات البرلمانية الأُولى في (٢٠٠٥/١/٣٠م)

عدّ السيد السيستاني وجود القوات المحتلة في العراق غير شرعي، وهذا الموقف لا غبار عليه عند القاصي والداني في العراق وخارجه، ولكن السيد يرى أنّ المعركة من أجل استقلال العراق بحاجة إلى العقلانية، وإلى مرجعية سياسية وطنية ومرجعية دينية، تتضافر جهودهم مع كلّ أطياف الشعب واتجاهاته السياسية والاجتماعية، ومن خلال استخدام الأساليب المتحضرة والديمقراطية والمدنية سبيلاً لتجنيب العراق المزيد من الدماء، وطريقاً لنيل الاستقلال الكامل لكلّ أرض العراق، إذ يرى السيد وجوب أن يعمل كلّ المعنيين بالمسألة الاستقلالية وحركتها الوطنية بكلّ السبل والإمكانات، من أجل إخراج الاحتلال بأقل الخسائر البشرية والسياسية من العراق، وأن يبقى السيد على مسافة واحدة متساوية من جميع الفرقاء والقادة والاتجاهات في الساحة العراقية، على أنّ الهمّ الوطني الأساسي تبقى المرجعية هي التي تحمل أوزارهم وتعيش استحقاقاته، لأنّ هذه الاستحقاقات والعمل من أجل تحقيق كامل شروطها وأجوائها، والخروج بنتائج تُعيد الأمن والاستقرار للبلاد تعتبره مرجعية السيد السيستاني مسؤولية شرعية، وأداؤها من الواجبات الملقاة على عاتق حملة الدين وقادة ألوية المسلمين، وعلى رأسهم المراجع العظام، إذ نلاحظ هذا الدور من خلال اهتمام السيد السيستاني بصورة كبيرة وملحوظة بموضوع الانتخابات البرلمانية وتشكيل الجمعية الوطنية، وذلك الاهتمام نابع من كون المجلس يمثّل المؤسسة الأقوى في الدولة، وهو الممثّل الشرعي للشعب العراقي[1].

ولأنّ الجمعية الوطنية مسؤولة عن العديد من القضايا المهمّة، وعلى رأسها مهمّة تدوين دستور دائم للعراق، وهذه المسؤولية هي مسؤولية تاريخية، وشرعية، وقانونية، وسياسية كبيرة، ولا بدّ أن يتحملها الأكفاء من الناس، ومن المهام الأُخرى

(١) أُنظر: السيد سلمان، حيدر نزار، فكرة الديمقراطية عند المرجعية الدينية في النجف الأشرف، بحث منشور في كتاب إشكاليات التحوّل الديمقراطي في العراق: ص٩٧.

ذات الأهمية التي ستقرّها الجمعية، مهمّة وضع قانون الانتخابات الذي سوف يحدد آليـة الانتخـاب مسـتقبلاً، ومهمّة تشـكيل حكومـة انتقاليـة تدير البـلاد في المرحلة الانتقاليـة، أي: مـدّة عام واحد، وغيرها من المهام الجسـام التي تقـع على عاتق هذه الجمعية[1].

ومن هنا كان السـيد من أشـدّ المناصرين لإجراء الانتخابات؛ وذلك لما للجمعية من أهمية في رسم ملامح المستقبل السياسي للعراق الجديد، إذ سعى السيد السيستاني بكلّ ثقله لإنجاح الانتخابات رغم المعارضة السنّية الواسعة[2].

ولقد اسـتقبل سـماحته وفـوداً من مختلـف الفئـات الاجتماعية وممثـلي الأحزاب والطوائـف الدينية والمذهبية في العراق؛ ليحثهم على المشـاركة في الانتخابات، ودعا العراقيـين أن يسـارعوا للتحقـق مـن إدراج أسـمائهم في سـجلات الناخبين بصورة صحيحـة، بعد قيام المفوضيـة العليا للانتخابـات بفتح مراكز لتسـجيل الناخبين في جميـع أنحاء العراق ولمدّة سـتة أسـابيع، اعتبـاراً مـن (١/ ١١/ ٢٠٠٤م)، وفي أثناء عمليـة التسـجيل وقُبيـل انتهاء المـدّة المخصّصة لتسـجيل الناخبين، أكّد السـيد على المواطنين، ممّن لم يسـجل اسمه في السـجلات الانتخابية أن يراجع اللجنة الانتخابية في منطقته، كما دعا السـيد السيسـتاني إلى تشـكيل لجان شـعبية، يشرف عليها وكلاء ومعتمدو المرجعية في المناطق والمدن العراقية؛ لغرض مسـاعدة المواطنين على التأكد من وجود أسمائهم في سجلات الناخبين[3].

إنّ المرجعيـات الشـيعية المعـاصرة تختلـف فيـما بينها في فقـه الدولة، كـما تقتضيه الحالة الطبيعية للاجتهاد، ومع وجود هذا الاختلاف ظهرت مرجعيات شـيعية كان لها دور فعّال في الأحداث السياسـية في التاريخ المعاصر، فالشـيخ النائيني، والسـيد

(١) أُنظر: الإمامي، محمد عباس جعفر، الدور السياسي للمرجعية الدينية في العراق الحديث: ص٢٥٤.
(٢) أُنظر: عبد الرزاق، صلاح، المرجعية الدينية في العراق والانتخابات البرلمانية وتعزيز الوحدة الوطنية: ص٧٥.
(٣) أُنظر: الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص١٢٧.

الخميني، وغيرهما بينوا مذاهبهم وآراءهم في فقه الدولة وطبيعة النظام السياسي (أُسس الحكومة الإسلامية في زمن الغيبة)، أمّا السيد السيستاني لم يبيّن رؤاه في هذا الخصوص، غير أنّ سماحته قام بإصدار العديد من البيانات ذات طابع سياسي يمكن من خلالها معرفة مذهبه السياسي، فالسيد يدعو إلى العمل السلمي كما يدعو إلى الحرية من موقع الفعل السياسي لا الصِّدامي، وهو ما دلّت عليه مواقفه من العملية السياسية في العراق بعد عام (٢٠٠٣م)؛ إذ إنّ المرحلة التي يمرّ بها الإسلام في العراق، والمنطقة العربية والإسلامية، والتطورات السياسية المتسارعة والاستثنائية في البلاد فرضت على السيد أن ينتهج نهجاً جديداً من التعامل، انفتح فيه على الأُمّة ومصلحتها وقواها السياسية وأهدافها الإنسانية، آخذاً بنظر الاعتبار كلّ المؤثرات والقوى ومراكز النفوذ وتفاوت البرامج والرؤى، من دون أن يؤثر هذا كلّه على الهدف الأسمى المتمثّل بإنجاز وعد الاستقلال، وعودة العراق إلى دائرته العربية والإسلامية، ليلعب دوراً مؤثراً ومهماً في التطورات على الصعيد الإقليمي والدولي، إذ نلاحظه يمارس دوراً من نوع خاص، هدفه بناء دولة مدنية، تعددية، ديمقراطية، دستورية عصرية، تستجيب لتحديات القرن الحالي وتعمل على استحصال الحقوق الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وتأصيل الحريات العامّة والخاصّة لأكثرية الشعب العراقي.

مع أنّ الدور الذي يمارسه السيد السيستاني يختلف عن أُطروحة (ولاية الفقيه)، التي تعطي للمرجع في زمن الغيبة صلاحيات سياسية واسعة جداً، إذ أوضح السيد موقفه من ولاية الفقيه بقوله: «**أمّا الولاية فيما هو أوسع منها في الأُمور العامّة التي يتوقف عليها نظام المجتمع الإسلامي، فلمَن تثبت له من الفقهاء، ولظروف أعمالها شروط إضافية، ومنها: أن يكون للفقيه مقبولية عامة لدى المؤمنين**»[1]. وهذا يبيّن

(١) موقع مكتب سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني، الاستفتاءات، ولاية الفقيه. *http://www.sistani.org/arabic/qa*.

أنّ السيد السيستاني يذهب إلى نفس ما ذهب إليه كبار العلماء كالشيخ (النائيني)، والسيد (محمد باقر الصدر)، وهو مبدأ حاكمية الأُمّة.

كما أنّ طبيعة التنوع الاجتماعي واختلاف المذاهب ليس أمراً هيّناً؛ إذ إن تشكيل حكومة إسلامية على غرار نماذج أُخرى قد يواجَه باعتراضات كبيرة من قِبل الأطراف غير الشيعية في العراق، ويعرقل عملية بناء الدولة، ويخلق حالة من عدم الاستقرار[1].

خاتمة

وفي ختام هذا البحث نود أن نذكر أهمّ النتائج التي تمّ التوصل إليها، وهي كالآتي:

١ ـ مثّلت المرجعية الدينية في النجف الأشرف صمام أمان لعموم فئات الشعب منذُ ثورة العشرين إلى ما بعد (٢٠٠٣م)؛ إذ قامت بحثّ الناس على الجهاد والقتال ضدّ الاحتلال في عشرينيات القرن الماضي، كما أنّها كانت بالمرصاد ضدّ الممارسات الطائفية التي انتهجها بعض الساسة، بل إنّها منعت الفتنة الطائفية، وذلك ما لمسناه واضحاً في بيانات السيد السيستاني دام ظله.

٢ ـ أنّ المرجعية الدينية وعلى طول مسيرتها وتاريخها بقيت مستقلة عن الدولة وسياستها تماماً، فهي تسعى للاحتفاظ بالطابع الإسلامي للعراق، خاصّة في الوقوف بوجه الاحتلال والمدّ التكفيري؛ ولذا لم توافق على الوجود الأميركي لوقت طويل، كما أنّ القيادات السياسية كانت تحاول كسب رضا المرجعية الدينية ومباركتها لخطواتها وقراراتها، كما حدث في الانتخابات السابقة لاكتساب الشرعية، كذلك رفضت أغلب هذه القيادات السياسية تواجد الاحتلال في العراق ودعت لإخراجه.

(١) أُنظر: الإمامي، محمد عباس جعفر، الدور السياسي للمرجعية الدينية في العراق الحديث: ص٢٤٤ـ٢٤٧.

٣ ـ تتمتع المرجعية الدينية في العراق بالتأييد الشعبي الواسع ومن مختلف شرائح ومكونات المجتمع؛ وذلك لمواقفها الوطنية التي لم تفرّق بين مكون وآخر، وتصديها لدعم القيادات السياسية في العراق تحقيقاً لتوازن سياسي، وتحقيقاً لسلم اجتماعي لعدم وقوع حرب طائفية أو أهلية، وصولاً إلى استقرار المجتمع العراقي داخلياً، فقد دعت للتهدئة في العديد من الأحداث، ومنها: تفجير الإمامين العسكريين عليهما السلام، فكان لهذا التأييد الشعبي الواسع لها بمثابة دعوة شعبية لتدخل المرجعية الدينية في الشؤون العامّة للبلاد، وعُدّت الملجأ الأوّل والأخير للعراقيين للوقوف بوجه السياسة الإدارية غير الفعالة في العراق.

٤ ـ ترى المرجعية أنّ دورها يعني الإشراف على شؤون المؤمنين الروحية والعبادية والاجتماعية، وهي تكليف وليس تشريف، وهي قبل كلّ شيء مقام ديني اجتماعي وليست مركزاً سياسياً؛ لذا فإنّ الانتخابات في نظر المرجعية ليس شأناً سياسياً فقط، بل هي شأن اجتماعي، والشأن الاجتماعي يدخل في دائرة اهتمامات المرجعية. وبحكم تصدي السيد السيستاني لمقام المرجعية الدينية، فإنّه يرى نفسه ملزماً بالتعاطي في قضية الانتخابات، والتي يعتقد أنّها الأساس المتين للعملية السياسية وللحياة الاجتماعية في أيّ مجتمعٍ أو بلدٍ، ومن خلال التأمل في تجارب الأُمم التي تتمتع بنظم سياسية مستقرة وبحياة هادئة، فسلامة الحياة السياسية يكون بوجود انتخابات حرّة نزيهة تعبّر عن رأي الأُمّة وإرادتها.

٥ ـ أنّ تدخل المرجعية في الحياة السياسية نابع من مواقفها وحرصها الشديد على أن ينال كلّ العراقيين حقوقهم، وأن لا يكون هنالك تمييز لشريحة معينة على حساب بقيّة شرائح الأُمّة، وتأتي أيضاً من تفهّم المرجعية الرشيدة لأهمية الدستور في حياة أيّ أُمّة، وهي ترى أهميتها في حياة الأُمم المتحضرة، وهو

يتماشى مع ما تدعو إليه المرجعية من إحلال السلم والعدالة الاجتماعية لكافة مكونات الشعب العراقي، وأن لا يكون لفئةٍ ما امتياز على بقيّة الفئات، وهذا هو موقف أبوي تجاه شرائح المجتمع العراقي، وليس موقفاً سياسياً إلزامياً.

٦ ـ لقد كان السيد علي السيستاني يرى أنّ الأُمور ستتحسن عند إجراء الانتخابات؛ إذ سيأخذ كلّ ذي حقّ حقّه، إلّا أنّ ظهور تقصير واضح من قِبل الذين تصدّوا للعمل السياسي في العراق من مختلف المكونات، من خلال ظهور التقسيم الطائفي ـ المحاصصة الطائفية ـ للحكم في العراق، وليس على أساس الكفاءة والمؤهلات، كذلك استشرى الفساد المالي والإداري في كلّ مفاصل الدولة، وعلى مختلف المستويات الذي لم يشهده العراق خلال تاريخه السياسي، وأخيراً أدّى هذا التناحر بين الكتل السياسية والفساد المالي إلى سوء الخدمات، وتزايد مستويات الفقر وسرقة المال العام، ودخول المجموعات الإرهابية من خلال تنظيم داعش الإرهابي، والاستيلاء على مساحات واسعة من العراق، وعلى الرغم من التحذير المستمر للمرجعية الدينية للسياسيين من خطورة هذه الأُمور على مستقبل العراق، ودعواتها المستمرة إلى الالتزام بحرية الشعب وتوفير العيش السليم له، والحفاظ على المال العام، ومطالبتها المواطنين ـ وفي بداية أيّ انتخابات على مستوى النواب أو المحافظات ـ إلى الاختيار على أساس الكفاءة والنزاهة لتولي المناصب العليا في البلاد، وذلك في محاولة لتغيير الوضع القائم، وإنهاء حالة الانقسام والفساد المستشري بالطرق الديمقراطية عن طريق الانتخابات، إلّا أنّ الوضع بقي على حاله ولم يتغيّر، بل زاد من سوء الأُمور إلى الأزمة الاقتصادية لانخفاض أسعار النفط، كلّ هذا قاد المرجعية إلى تصاعد دورها في الأُمور السياسية للبلاد، وعدم ترك الأُمور بيد السياسيين الحاليين.

٧ ـ بعد وصول التنظيمات الإرهابية إلى المناطق المقدّسة والآهلة بالسكان، وقتلها الآلاف من العراقيين في الموصل وصلاح الدين على أساس طائفي، وعدم وجود قوات عسكرية نظامية من الجيش والشرطة قادرة على وقف تقدّم الإرهاب، أدركت المرجعية الدينية خطورة الوضع الأمني الحالي، واحتمال انجرار البلاد للحرب الأهلية الشاملة؛ لذا جاءت دعوة المرجعية الدينية لكلّ العراقيين إلى الجهاد الكفائي للدفاع عن الوطن والمقدّسات، وتشكيلها لقوات الحشد الشعبي ودعمهم بالمال والسلاح؛ إذ إنّ تخاذل السياسيين والانقسام بين الكتل والأحزاب السياسية، دفعها لأن تأخذ زمام المبادرة في الدفاع عن الوطن والمقدّسات والشعب.

فهرست المصادر

١ ـ إشكالية الصياغة التشريعية في النصّ الدستوري (دراسة عن دستور جمهورية العراق لسنة ٢٠٠٥)، تغريد عبد القادر علي، مجلة الحقوق (الصادرة عن كلية القانون الجامعة المستنصرية) المجلد(٤)، العدد(١٨)، السنة(٦)، ٢٠١٢م.

٢ ـ الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد، محمد بن الحسن الطوسي، ط٢، ١٩٨٦م، دار الأضواء.

٣ ـ أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف، محمد حسين علي الصغير، مؤسسة البلاغ، ٢٠٠٣م، بيروت.

٤ ـ بول بريمر، عام قضيته في العراق، ترجمة: عمر الأيوبي، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦م.

٥ ـ حقوق الإنسان في الإسلام، خديجة النبراوي، ط١، ٢٠٠٦م، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة.

٦ ـ الدور السياسي للمرجعية الدينية في العراق الحديث، عباس جعفر محمد الإمامي، دار العلم للنابهين، ٢٠١١م، بيروت.

٧ ـ رجل السياسة دليل الحكم الصالح، توفيق السيف، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١١م، بيروت.

٨ ـ الرحلة العلاجية لسماحة السيد السيستاني وأزمة النجف عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، حامد الخفاف، ط١، ٢٠١٢م، دار المؤرخ العربي، بيروت.

٩ ـ سلطة النصّ الديني وبناء الدولة، السيد السيستاني أُنموذجاً، د. حيدر نزار السيد سلمان، ط١، ٢٠١٥م، دار المعارف للمطبوعات، بيروت.

١٠ ـ سنوات الجمر، مسيرة الحركة الإسلامية في العراق، علي المؤمن، ط٣، ٢٠٠٣م، المركز الإسلامي المعاصر، بيروت.

١١ ـ العلاقات الأثنية والدينية، فالح عبد الجبار، ترجمة: سعيد عبد المسيح

شحاتة، بحث منشور على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) على الموقع: https://minorityrights.org.

١٢ ـ فكرة الديمقراطية عند المرجعية الدينية في النجف الأشرف، د. حيدر نزار السيد سلمان، بحث منشور في كتاب إشكاليات التحوّل الديمقراطي في العراق، تقديم جابر حبيب جابر، دار الضياء للطباعة والتصميم، ٢٠٠٩م، النجف الأشرف.

١٣ ـ لا وصاية على السيستاني، بحث منشور في كتاب أُمة في رجل، محمد حسين الصغير، مؤسسة البلاغ للطباعة، ٢٠١١م، بيروت.

١٤ ـ المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية (دراسة في التطور السياسي والعلماء)، د. جودت القزويني، ط١، ٢٠٠٥م، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١٥ ـ المرجعية الدينية في النجف الأشرف ومواقفها من العملية السياسية الجارية في العراق، حامد الخفاف، دار المؤرخ العربي، ٢٠٠٦م، بيروت.

١٦ ـ موسوعة الأحزاب العراقية، د. حسن لطيف الزبيدي، مؤسسة المعارف للمطبوعات، ٢٠٠٧م، بيروت.

١٧ ـ المشجّر الوافي في السلسلة الموسوية، حسين أبو سعيدة الموسوي، مطبعة الجاحظ، ١٩٩٤م، بغداد.

١٨ ـ المرجعية الدينية في النجف الأشرف ومواقفها السياسية في العراق ١٩٥٨م ـ ١٩٦٨م، د. حيدر نزار السيد سلمان، دار إحياء التراث العربي، ٢٠١٠م، بيروت.

١٩ ـ المرجعية والمواقف الصريحة، السيد السيستاني أُنموذجاً، صالح الظالمي، بحث منشور في مجلة آفاق نجفية، العدد الثاني، ٢٠٠٦م.

٢٠ ـ المرجعية الدينية في العراق والانتخابات البرلمانية وتعزيز الوحدة الوطنية، صلاح عبد الرزاق، منتدى المعارف، ٢٠١٠م، بيروت.

٢١ ـ مبادئ الدولة والقيادة لدى مراجع الحوزة العلمية (مقاربة في رؤى الخميني ـ النائيني ـ الصدر ـ السيستاني)، عمار البغدادي، مركز الهدى للدراسات الحوزية، ٢٠٠٨م.

٢٢ ـ المرجعية والقيادة، كاظم الحائري، ط٢، ٢٠١٢م، مكتبة الكلمة الطيبة، بغداد.
٢٣ ـ النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية، حامد الخفاف، دار المؤرخ العربي، ٢٠٠٧م، بيروت.
٢٤ ـ نظريات الدولة في الفقه الشيعي، محسن كديور، ترجمة: د. محمد شقير، ط١، ٢٠٠٤م، دار الهادي، بيروت.

خلاصة المقالات

باللغة العربية والانجليزية

أثر النهضة الحسينيّة في القصائد المُكتّمات

أ. د. محمد جواد حبيب البدراني

لقد تأثّر الشعر بكلّ أنواعه بالثورة الهائلة التي أحدثتها النهضة الحسينية، وامتدت إشعاعاتها للحياة بأكملها، وخير مَن عبَّر عن هذا التغيير الكبير في الواقع الأدبي ما عُرِف بـ(القصائد المكتّمات) التي ظهرت في العصر الأُموي، خصوصاً بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام، من هنا بدأ الكاتب بمسيرة بحثه الذي اشتمل على عدّة عناوين مهمّة؛ فبحث أولاً في معنى المكتّمات من القصائد، وما تحتويه هذه القصائد، وكيف أنّها كانت أشبه بالمنشورات السرِّية، والنشريات التثقيفية السرِّية لأحزاب المعارضة التي يجري تداولها سرّاً وبعيداً عن أنظار السلطة؛ بهدف التحريض على الثورة، وإيصال التعليمات للثوّار.

ثمّ وقف الباحث عند ثلاثة من تلك القصائد التي انتشرت بين صفوف المعارضة الشيعيّة للسلطة الأُموية بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وكانت اللسان المعبِّر عن الثورة والرفض بوجه التسلط الأُموي، والدعوة إلى إسقاط الحكم الجائر، كقصيدة ابن الأحمر، وقصيدة أعشى همدان...

THE EFFECTS OF IMAM AL-ḤUSAYN'S UPRISING "ON "THE CONCEALED POEMS

Dr. Muḥammad J. Ḥabīb al-Badrānī

Like all other fields of life, poetry with all of its genres was greatly influenced by the overall revolution created by Imam al-Ḥusayn's reformative uprising whose illuminating rays were stretched so widely that they covered the life of the entire humanity. With regard to literature, the best to have expressed this huge changeover in the life of the Muslim community was the poetry known as "The Concealed Poems" that were composed during the Umayyad dynasty and, more precisely, after the martyrdom of Imam al-Ḥusayn.

The current essay has been written in the light of this historical fact. It is thus divided into several chapters that cover the main topics. In the first chapter, the writer sheds light on the meaning and contents of the poetry known as "The Concealed Poems," proving that the reason behind composing such poems and then keeping them secret and hidden from the reach of the ruling authorities was that these poems represented secret statements and illuminating brochures secretly issued and distributed by the oppositionist parties for the purpose of encouraging the masses to revolt against the tyrannical ruling authorities and transferring the information necessary to the revolutionaries.

Out of these poems, the writer chooses three ones that were widely circulated among the lines of the Shīʿite party that opposed the Umayyad tyrannical authority after the martyrdom of Imam al-Ḥusayn, since these three poems particularly–such as the poem of Ibn al-Aḥmar and that of Aʿshā Hamdān–acted as the voice of the revolutionaries, expressed their objection to the Umayyad tyrannical ruling authorities, and called for dethroning this unjust rule.

الإمام الحسين عليه السلام في رواية بين القصرين لنجيب محفوظ

رؤية تحليلية

أ. م. د. وسام علي محمد حسين

لقد طاب للباحثة أن تختار إحدى روايات الروائي الكبير نجيب محفوظ، لتكشف عن ملامح الإمام الحسين عليه السلام وصورته في تلك الرواية المبدعة، وهي رواية (بين القصرين)، وهي واحدة من ثلاثية قصر الشوق والسكرية، فعقدت مقالها في مقدّمة، وتمهيد، ومحورين، وخاتمة.

تناولت في التمهيد تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، ودورها في نشر مذهب آل البيت عليهم السلام، والشغف بالإمام الحسين عليه السلام.

وفي المحور الأوّل وقفت الكاتبة عند الإمام الحسين عليه السلام في ذاكرة نجيب محفوظ، كما تتبّعت شخصية الإمام الحسين عليه السلام في رواية بين القصرين.

وفي المحور الثاني تكلّمت عن الإمام الحسين عليه السلام في رحاب الأُسرة المصرية في رواية بين القصرين، مستنتجة أنّ نجيب محفوظ قد تمكّن من تصويرها ورسمها بريشة الفنان الحاذق! وتقديمها للقارئ بأُسلوب مؤثّر للغاية.

ثمّ أنهت الدراسة بخاتمة لخّصت فيها أهمّ ما توصّلت إليه من نتائج.

IMAM AL-ḤUSAYN'S CHARACTER IN NAGUIB ;"MAHFOUZ'S "PALACE WALK AN ANALYTICAL STUDY

Dr. Wisām ʿAlī Muḥammad Ḥusayn

The author of the essay has been determined to choose one of the novels of Naguib Mahfouz, the famous Egyptian novelist, in order to reveal the features and portrait of Imam al-Ḥusayn as depicted by the novelist in his prime novel, "Palace Walk," or "Bayn al-Qasrayn," which is one of his trilogy known as "The Cairo Trilogy" that is considered the prime work of his literary career. The essay is thus composed of an introduction, a preface, two main sections, and an epilogue.

In the preface to the essay, the writer sheds light on the history of the rulers of the Fatimid Dynasty in Egypt, their roles in spreading and promulgating for the Ahl al-Bayt Sect, and their passionate love for and fondness of Imam al-Ḥusayn.

In the first section, the writer follows up the picture of Imam al-Ḥusayn in the memory of Naguib Mahfouz and the character of the Imam in the novelist's Palace Walk, while the second section is dedicated to discussing the position of Imam al-Ḥusayn in the view of the Egyptian family as depicted in the Palace Walk. The writer then concludes that Naguib Mahfouz succeeded to depict and portray Imam al-Ḥusayn's character brilliantly and excellently through introducing the Imam's character to the readers in such an extremely effective and moving style.

The essay is then concluded with an epilogue that comprises that most important results

.

الجمالية الفنّية في شعر الإمام الحسين عليه السلام

أ. م. د. مرتضى عبد النبي علي الشاوي

سلّط المقال الضوء على أهمّ مرتكزات البلاغة العربية في شعر الإمام الحسين عليه السلام، والجمالية الفنّية الموجودة فيه، وارتأى الكاتب أن يقرأ شعر الإمام عليه السلام قراءة أكاديمية تطبيقية من جانب تحليلي، كما أنّه قسّم هذه المرتكزات في كلام الإمام عليه السلام إلى عدّة أقسام أساسية:

الصور التشبيهية، والصور المجازية، والمجاز العقلي، والمجاز المرسل، والصور الاستعارية... وغيرها من العناوين التي بحثها هنا بحثاً تحليلياً مفصّلاً.

كما أنّه بحث الظواهر الفنّية في عنوان مستقل، وذكر أنّ لهذه الظواهر الجمالية الفنية عدّة أقسام: من قبيل التصوير الغيبي، والحوار القصصي... وأنهى مقاله بخلاصة ذكر فيها أنّ الهدف من هذه القراءة هو تسليط الضوء على جانب إبداعي من حياة الإمام عليه السلام الأدبية، وهي وقفة بلاغية بيانية نستشفّ منها البُعد الجمالي الذي ينضوي عليه كلّ نتاجه الشعري، على الرغم من قلّته، وكون حياته مشحونة بالأحداث السياسية التي انتهت باستشهاده، مما يكشف أنه عليه السلام كان يتمتّع بالاقتدار الفنّي في التعبير.

ARTISTIC BEAUTY IN IMAM AL-ḤUSAYN'S POETRY

Dr. Murtaḍā A. ʿAlī al-Shāwī

The writer of the essay sheds light on the most important pillars of Arabic rhetoric and the artistic aspects of beauty found in Imam al-Ḥusayn's poetry and decides to peruse the Imam's poetry in an analytically academic and applied way, thus classifying these rhetorical pillars found in the Imam's words into a set of basic figures of speech, such as simile, metaphor, mental trope, synecdoche, and allegory as well as other figures of speech that the writer discusses analytically and in details.

Discussing analytically the artistic features of Imam al-Ḥusayn's poetry in an independent chapter, the writer affirms that these artistic and aesthetic features can be classified into several categories, such as unseen imaging and narrative dialogue.

The writer then concludes the essay with a summary comprising that the purpose behind writing this essay and re-reading Imam al-Ḥusayn's poetry from this very angle is to shed light on one of the creative aspects of Imam al-Ḥusayn's personality; that is, literature. Thus, the essay has come in the form of stopping at a rhetorical and oratorical station of the Imam's life to infer the aesthetic aspect included in his poetic works despite their little number, since his lifetime was full of political events that ended up with his martyrdom, proving that Imam al-Ḥusayn enjoyed artistic and aesthetic capability of expressiveness and articulacy.

انعكاس القيم الثورية في الشعر الحسيني المعاصر

د. رقية رستم بور ملكي

ما زالت النهضة الحسينية تُعدّ من أبرز مصادر إلهام الشعراء في مختلف الجوانب الفكرية والسياسية والإنسانية على مرّ التاريخ، ولها الأثر الكبير في تقوية روح التضحية والمقاومة، ومكافحة الاستبداد؛ ذلك أنّ قضية الثورة الحسينية دخلت في ضمير الإنسان ووجدانه، واستطاع الشعراء المعاصرون تصوير واقع المجتمع باستلهام نفس الإمام الحسين عليه السلام الأبيّة، وتضحيته بنفسه وأصحابه.

اعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي في قراءة النصوص الشعرية السياسية الثورية، التي تنبعث من روح مضامين الفكر الحسيني، واتّخذ نماذج شعرية من تجارب الشعراء المعاصرين، لا سيّما العراقيين؛ حيث نهل الكثير من الشعراء والأُدباء من معين ثورة الحسين عليه السلام المجيدة، فأبدعوا في تجاربهم الشعرية حول تلك القيم الخالدة المشرقة، وأيقظوا بذلك همم المسلمين.

وقد توصّلت الباحثة إلى بعض النتائج من هذه الدراسة، منها: أنّ عاشوراء وثورة الإمام الحسين عليه السلام تمثّل خطراً على سلطة الاستبداد السياسي، وأنّ الشعراء اتّخذوا جانب المعارضة السياسية لإصلاح الأُمور ومكافحة الظلم والفساد، وغيرها من النتائج.

REFLECTION OF REVOLUTIONARY VALUES ON THE MODERN POETRY ON IMAM AL-ḤUSAYN

Dr. Ruqayyah Rustam Pūr-Malakī

Characterized by universality and everlastingness, Imam al-Ḥusayn's reformative uprising has always been one of the most eminent sources of inspiration for poets in the various fields of life, including ideational, political, and humanitarian aspects, throughout the history of humanity. It has also played the most important part in boosting spirits of self-sacrifice and resistance and struggling against despotism and tyranny. This is so because the reformative and revolutionary issue of Imam al-Ḥusayn has penetrated into man's depth and conscience. Recent and modern poets have succeeded to portrait aesthetically the community in its most obvious and factual image, inspiring that from Imam al-Ḥusayn's spirit of wrong-rejecting as well as his companions and his spirits of self-sacrifice for the truth.

The current essay is written in the deductive-analytical style due to which the writer has re-perused the political and revolutionary poetic texts in an investigative way, proving that the revolutionary images and spirit found in those poetic texts are all inspired and derived from the revolutionary ideology of Imam al-Ḥusayn along with all of its contents. The writer thus cites some poetic samples, the majority of which are written by poets from Iraq, to prove that those poets, as well as many other men-of-letters, have derived from Imam al-Ḥusayn's glorious revolution whatever they could; therefore, they have produced magnificent poetry that revolves around the Imam's everlasting and brilliant values embodied by him throughout the different chapters of his uprising. Thus, those poets, through their literary works featured by a revolutionary spirit, have succeeded to awaken the Muslim nation and persuade the masses into acquiring the values and principles of Imam al-Ḥusayn.

The writer finally concludes a number of results, the most important of which are that the ʿĀshūrā' Day–i.e. the day of Imam al-Ḥusayn's martyrdom–and Imam al-Ḥusayn's uprising stand for the most men-

acing danger to the despotic ruling authorities and that poets who composed poetry about Imam al-Ḥusayn and his uprising joined the political opposition just for the purpose of contributing to reforming the affairs of the community and struggling against wrongdoing and corruption.

استلهام الثورة الحسينية في القصيدة العينية للجواهري

دراسة تحليلية

أ. م. د. عدنان كاظم مهدي
أ. م. د. صادق فوزي دباس

إنّ للفكر الحسيني بصمة على الأجيال المتعاقبة، من حيث استلهام الهمم، وما يحتويه من قيم نبيلة ومبادئ عظيمة، فكان منطلقاً لكثير من الطاقات الفكرية والأدبية والنهضوية، لتكتب وتثور وتتعلّم من الثورة الحسنية. من هنا ارتأى الباحث أن يختار عينة شعرية كتبها شاعر العرب الأكبر الجواهري، الذي استلهم شعره من الثورة الحسينية، فقرّر أن يدرس قصيدة الجواهري العينية دراسة تحليلية؛ لاستنباط واستظهار القيم والمبادئ التي نادى بها الإمام الحسين عليه السلام، فجاء البحث مقسّماً على مقدّمة وثلاثة مباحث:

تناول في المبحث الأوّل اللوحة الافتتاحية (الاستذكار)، وفيه استعرض استذكار الشاعر ليوم الطف وما جرى فيه، ووقوفه على القبر الشريف، ومناجاة الإمام الحسين عليه السلام، واستذكار تفاصيل معركة الطف.

وفي المبحث الثاني لوحة الاستنهاض (المزاوجة بين الماضي والحاضر)، وهي مكمّلة للوحة الأُولى، وهنا تتأجّج مشاعر الثورة والدعوة لتغيير الواقع الفاسد.

وجاء المبحث الثالث تحت عنوان لوحة الختام (الإيمان واليقين)، وهي خلاصة الاستلهام والاستنهاض، ويصل الشاعر من خلالها إيماناً واعتقاداً إلى نتيجة مطلقة حتمية، وهي ضرورة الإيمان بفكرة الثورة الحسينية، والردّ على مَن يشكّك في أهدافها وقيمها، وإيصال ذلك إلى المتلقي.

ومن ثمّ أعقب تلك المباحث بخاتمة تضمّنت أهمّ النتائج المنشودة.

INSPIRATIONS FROM IMAM AL-ḤUSAYN'S UPRISING IN AL-JAWāHIRī'S POEM: "I BELIEVE IN AL-ḤUSAYN"; AN ANALYTIC STUDY

Dr. ʿAdnān Kāẓim Mahdī
Dr. Ṣādiq Fawzī Dabbās

Imam al-Ḥusayn's revolutionary and informational ideology has left its impact on the successive generations, stimulating them into determination on resisting the tyrants and wrongdoers, through the noble values and magnificent principles theoretically held by that uprising and practically embodied in the situations, attitudes, and conducts of Imam al-Ḥusayn throughout the progress of his uprising. These values and principles were the starting point of many ideological, literary, and revolutionary energies that inspired men-of-letters to revolt, learn from, and write about Imam al-Ḥusayn's reformative uprising.

The writers of the current essay have chosen as a sample Muḥammad Mahdī al-Jawāhirī's famous poem: "I believe in al-Ḥusayn, " to study it analytically in order to deduce and bring to surface the values and principles of Imam al-Ḥusayn's uprising and prove that these values have inspired the poet to compose this magnificent poem.

The essay thus comprises an introduction and three chapters. The first chapter, which is tantamount to an exordial portrait, speaks of the poet's recalling the day of Imam al-Ḥusayn's martyrdom along with all of its tragic events, followed by the poet's stopping at the holy tomb of Imam al-Ḥusayn and speaking confidentially with him, and concluded with recalling all the details of the Battle of al-Ṭaff that ended with the Imam's martyrdom.

In the second chapter, which is supplement to the first one, the writers depict a portrait of combination of the past and the present, through exciting revolutionary feelings and calls for changing the corrupt state of affairs.

Entitled, "Faith and Certainty," the third chapter is a summary of inspiration and calls for revolution. Through these two factors of faith and certainty, the poet reaches at an inevitable, final result; that is, it is necessary to believe in the ideology of Imam al-Ḥusayn's reformative uprising, to refute all those spurious arguments that are raised against the goals and values of this blessed uprising, and to convey all that to the recipients.

Finally, the writers conclude the essay with an epilogue comprising the most important results.

السمو الإنساني في الشعر الحسيني عند شعراء القرن الرابع الهجري

أ. م. د. سناء هادي عباس

يصوّر البحث تجسيد شعراء القرن الرابع الهجري لأثر واقعة الطف، وموقف أبي عبد الله الحسين عليه السلام وأصحابه في الارتقاء بالنفس الإنسانية إلى درجات السمو الفكري والتربوي والأخلاقي، ومحاولة تغيير الذات الإنسانية من واقعها المنحدر، ومن مستنقع الضلالة والتيه والتكبّر وطواعية الهوى، إلى واقع جديد تغمره المعاني الإنسانية السامية الخالدة، لا سيّما البعد عن الهوى والإيثار.

HUMAN SUBLIMITY IN THE FOURTH CENTURY POEMS ON IMAM AL-ḤUSAYN

Dr. Sanā' Hādī ʿAbbās

The essay depicts how the poets of the fourth century of Islam typified in their poems the Event of al-Ṭaff and how they expressed poetically the attitudes of Imam al-Ḥusayn and his companions towards exalting human self to the highest rank of intellectual, educational, and ethical sublimity, as well as their attempts and efforts to save humans from their deteriorating state of affairs and from the bogs of deviation, arrogance, and submission to personal whims in which they sank, and raise them to a new situation enfolded by the everlasting values of true humanity, especially adoption of altruism and aloofness from following personal caprices.

المجاز في كلام الإمام الحسين عليه السلام

أ.م. د. حسن عبد المجيد عباس الشاعر

من مواطن الجمال التي يُذهل بها أهل اللغة، من أهل الدراية بسحر اللغة العربية الفصحى، ودقّة أدائها، ونظم كلماتها، استعمال المجاز بقسميه العقلي والمرسل، وكان هذا واضحاً جليّاً في كلام الإمام الحسين عليه السلام عبر خطاباته الرائعة الرنانة.

ومن هنا أراد الباحث عرض مواطن المجاز في كلام الإمام الحسين عليه السلام مبتدئاً مقاله بخطب الإمام ورسائله، وكلماته القصيرة، التي جمعها من مظانّها؛ ليكون القارئ قريباً منها، ومن ثمّ عرض المجاز في الخطب الشريفة في مبحثين:

أوّلهما: يختص بعرض المجاز في اللغة والاصطلاح.

وثانيهما: الدراسة التطبيقية.

METAPHOR IN IMAM AL-ḤUSAYN'S LANGUAGE

Dr. Ḥasan A. ʿAbbās al-Shāʿir

Arab linguists and those experienced in and acquainted with the arts and rhetorical aspects of Arabic language, which has its own idiosyncratic charm and eccentric appeal, usually marvel at the aesthetic features of this language which is distinctively characterized by fineness and accuracy of its fluency, systematicity of its words, and frequent usage of metaphor in its two genres; namely, mental trope and synecdoche. This fact can manifestly be seen in Imam al-Ḥusayn's brilliant and echoing speeches.

On the basis of this fact, the writer of the current essay attempts to underscore the metaphor and the metaphoric statements in Imam al-Ḥusayn's speeches, opening the essay with the Imam's addresses, epistles, and maxims, as he quoted from their sources, so that the reader may be as close as possible to these words.

The writer then moves to displaying metaphor in Imam al-Ḥusayn's speeches through two points of discussion, the first point is dedicated to defining metaphor lexically and terminologically, and the second is an applied study of metaphor.

.

المنظومة القيمية والأخلاقية في النهضة الحسينية

م. م. سنان سعيد جاسم

ما يجري في العالم من أزمة أخلاقية، وتأثيرها في القيم الإسلامية، يرجع في الكثير من أسبابه إلى اختلاف البيئات الاجتماعية، وهذا الاختلاف أدّى إلى عدم انسجام في المنظومة الأخلاقية القيمية لكلّ مجتمع، ومن هنا لا بدّ أن تكون الصلة قويّة بين القيم الأخلاقية والدين؛ لأنّ الدين مصدر كلّ القيم الروحية والخلقية، ويكاد المفكّرون والعلماء والمربّون يتفقون على أنّ النهضة الحسينيّة تعدّ الهدف الأسمى للتربية والتعليم.

ولأجل ذلك عقد الكاتب هذا المقال ليتناول فيه المنظومة الأخلاقية والقيمية في النهضة الحسينية، ودورها في البناء التربوي، وبناء الإنسان المعاصر، فبحث عدّة عناوين، ليثبت أن النهضة الحسينية تمثّل التربية والتعليم، ولا يأتي النضج الأخلاقي الحسيني إلّا بالتعليم والتثقيف، وتتبّع طرقاً تربوية جديدة من شأنها أن تنهض بالواقع التربوي، مستلهمة من الواقع الحسيني.

THE SYSTEM OF VALUES AND ETHICS IN IMAM AL-ḤUSAYN'S REFORMATIVE UPRISING

Sinān Saʿīd Jāsim

The writers of the essay deal with a purely stylistic topic that is based on studying analytically the counteractant reference style in Imam al-Ḥusayn's speeches and addresses. Upon discussing this topic, which is an outlook on what is beyond Imam al-Ḥusayn's texts, the researchers put emphasis on a number of introductory issues, starting with the mechanisms of reference style and proving that the very reference mechanism discussed in the essay represents the first and most important element of literary cohesion.

Discussing the tools of reference, the writers mention a big number of tools through which other ideas than those mentioned openly in the texts can be understood.

The research is then focused on the counteractant reference style in the speeches and addresses delivered by Imam al-Ḥusayn on the ʿĀshūrā' Day, the day of his martyrdom. The writers, using clear-cut demonstrations and points of evidence, prove that Imam al-Ḥusayn used the style of counteractant reference for expressing certain notions and meanings that he did not want to say publicly. Thus, the counteractant reference in these addresses and speeches was of the kind of the exophoric reference although it combined two stylistic approaches; namely, a syntactic-grammatic approach and a pragmatic approach.

At the end of the essay, the writers conclude that the counteractant reference style in Imam al-Ḥusayn's addresses and speeches acted as duets of exophoric meanings required by the context and the situation in which Imam al-Ḥusayn was put; therefore, he had to adopt the style of indirect reference and to keep himself away from a direct reference to the messages carried by his addresses and speeches.

تجلّيات قِيم واقعة الطف في النصّ الشعري

أ. م. د. سجا جاسم محمد

د. أنوار مجيد سرحان

لا يخفى أنّ أدب الطف أدبٌ مفعم بطيف واسع من القيم العربية والإسلامية، التي تعكس العديد من القيم والمبادئ الأُخرى التي حوتها النصوص الشعرية؛ ممّا يدلّ بوضوح على عمق هذه الواقعة، وعلى أبعادها ومبادئها التي ترسّخت في نفوس الشعراء، واستمرّت إلى يومنا هذا، فكان النصّ الشعري أداة فعّالة للإفصاح عن تلك القيم بوضوح كافٍ، كما أنّها مصدر مهم من مصادر الاعتزاز بهذه الواقعة، وما تحمله من معانٍ وقيم.

ولهذا يرى المقال أنّ واقعة الطفّ قد أصبحت عند الشعراء أساساً لمادة شعرية خصبة، تجلّت عن العديد من القيم، وقد بيّن المقال بعد عرضه لمجموعة من النصوص الشعرية كمّية ونوعية القيم التي حملتها النهضة الحسينية على مدار الزمان، وقد استوحاها من تلك النصوص الشعرية.

VALUES OF THE AL-ṬAFF EVENT MANIFESTED IN POETIC TEXTS

Dr. Sajā Jāsim Muḥammad
Dr. Anwār Majīd Sarḥān

Evidently, the literature written about the event of Imam al-Ḥusayn's martyrdom during the Battle of al-Ṭaff is fully replete with a wide range of Arab and Islamic values that reflect a big variety of principles and attitudes contained in poetic texts, thus clearly indicating that the event of Imam al-Ḥusayn's martyrdom has profoundly been touching the feelings of the masses and has been characterized by many dimensions, aspects, and principles that are deeply rooted in the mentalities of poets up to the present day. For this reason, poetic texts have always been acting as the most effective style of expounding on these values in the most obvious way and as one of the important sources of taking pride in that event along with all of significances and principles it holds.

The writer of the current essay believes that al-Ṭaff Event has in the view of poets become the basis of any poetic productive matter that may stand for a manifestation of a big number of revolutionary and humanitarian values.

Citing a collection of poetic texts, the writer of the essay shows obviously the quantity and quality of values held by Imam al-Ḥusayn's reformative uprising throughout the history of humanity - a fact inspired by the writer from the quoted poetic texts.

(مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً)

دراسة في أبعادها الإصلاحية

م. د. كواكب باقر الفاضلي

قدمت لنا الباحثة مستوحية من عبارة سيدتنا الحوراء عليها السلام: «**ما رأيت إلّا جميلاً**» مقالاً حاولت من خلاله أن تربط بعض ما يحدث في الواقع الحالي بواقعة الطف العظيمة، ووضع علاج لحالة التوحّش وسيادة العنف السائد على الأرض عبر الجملة الماضية، فكانت خطّة بحثها، كالآتي:

المبحث الأوّل: تناول (الجانب الفنّي للنص)، وفيه عرضت مناسبة النص، ومصادره التاريخية، مع تحليل لبعض المقامات من المحاورة، ثمّ تعريف الجمال بشكل موجز.

المبحث الثاني: وقد تناول أثر صناعة الجمال في تصحيح مسار العنف، وفيه عرضت تأثير دعوى السلم والعمل بها في وقف مسار العنف من الاستمرار في الأعمال التي لا تؤدّي إلّا إلى الخراب والدمار، والمزيد من الدماء.

المبحث الثالث: وقد تطرق إلى الإصلاح النفسي والأخلاقي في تحقيق السلم والأمان، وأثر هذا النص من الناحية النفسية والاجتماعية، ووصلت الكاتبة إلى أنّ هذا النص الشريف هو بمثابة العلاج لثقافة العنف والإرهاب، ولا بدّ أن نرى الواقع بعيون سيدة الطفّ زينب عليها السلام؛ لتحقيق كلّ ما جاءت لأجله واقعة الطف.

Lady Zaynab's Famous Word: "I Saw Nothing But Beauty;" A Study Of The Word's Reformative Outlooks

Dr. Kawākib Bāqir al-Faḍlī

The idea of the current essay is derived from Lady Zaynab's famous word, "I saw nothing but beauty," which she said as an answer to the malicious question of the tyrannical ruler who tried to gloat at her misfortune of the martyrdom of Imam al-Ḥusayn, his family members, and his companions. The essay is thus an attempt to link between the great events of the al-Ṭaff Day - i.e. the day of Imam al-Ḥusayn's martyrdom– and the current state of affairs experienced by the human communities. The writer thus tries to impede the currently experienced state of social savagery and the dominance of violence on the entire globe by means of the aforesaid word of Lady Zaynab. For doing this mission, she follows a plan in writing the current essay, dividing it into three parts, as follows:

The first part discusses the artistic and rhetorical aspects of the word under discussion; so, the writer displays the surroundings of Lady Zaynab's declaring this word, the historical sources and reference books where it is mentioned, and an analysis of some features of the dialogue within which this word was said. The writer then gives a brief definition of the word, 'beauty' mentioned by Lady Zaynab.

The second part of the essay discusses the effects of beauty and the making of it on correcting the course to violence. Thus, the writer elaborately proves the great influence of calls to peace on violence and the big roles played by such calls in breaking down the paths to violence and stopping its march towards more destruction, ruination, and bloodshed.

In the third part, the writer alludes to the important role of self-reformation and commitment to ethicality in the achievement of global peace and security. She then moves to underscoring the psychological

and sociological impacts of Lady Zaynab's word on the issue of struggling against violence. The writer thus concludes that this word acts as the remedy for the maladies of terrorism and violence; therefore, it is necessary to see the actual state of affairs through the eyes of Lady Zaynab who, through her extraordinary attitudes, contributed greatly to achieving the goals of Imam al-Ḥusayn's reformative uprising and struggle against tyranny and wrongdoing.

المؤسسة الجامعية وأهميتها في غرس القيم التربوية والأخلاقية المستوحاة من النهضة الحسينية

م. د. ميثم عبد الكاظم هاشم الساعدي

رأى الباحث أنّ هناك دوراً مهمّاً يقع على عاتق المؤسسة الجامعية لغرس القيم والمبادئ التربوية للنهضة الحسينية في نفوس الطلاب في ظلّ الواقع الحالي؛ لما تحويه النهضة الحسينة من مبادئ وأخلاق تقوّم الفرد والمجتمع.

من هنا انطلق الكاتب في عدّة عناوين لإيضاح الطرق والأساليب التي من شأنها أن تغرس القيم الحسينية في الإنسان الجامعي وغيره.

فذكر أنّه لا بدّ أوّلاً أن نتعرّف على مفهوم القيم ومفهوم التربية، ونتعرّف ثانياً على التربية في الإسلام، ونعطف الكلام إلى القيم التربوية في النهضة الحسينية ثالثاً.

كما أنّه ذكر أنّ هناك دوراً للجامعات في غرس قيم النهضة الحسينية لدى الطلبة، وتحقيقاً لذلك استخدم الباحث المنهج الوصفي القائم على التحليل والتفسير، وجمع الحقائق والمعلومات والملاحظات عنها، ووصف الظروف الخاصّة بها، وتقرير حالتها كما هي عليه في الواقع.

واختتم الباحث مقاله بمجموعة من النتائج والتوصيات، من أهمّها الدعوة لعقد الندوات والمؤتمرات والحلقات النقاشية التي يُسهم فيها الأساتذة والطلبة؛ لمناقشة القيم الإسلامية بشكل عام، ودور النهضة الحسينية في إحياء هذه القيم بشكل فعلي، وتضمينها جوانب من حياة الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام.

THE KEY ROLE OF UNIVERSITY IN IMPLANTING THE EDUCATIONAL AND ETHICAL VALUES INSPIRED FROM IMAM AL-ḤUSAYN'S REFORMATIVE UPRISING

Dr. Maytham A. Hāshim al-Sāʿidī

The writer of the current essays believes that university, as a faculty of education and teaching, must undertake a key role in the significant mission of implanting the values and principles of Imam al-Ḥusayn's reformative uprising in the mentalities of the students, especially in the present day, which is characterized by special conditions that surround and influence not only the students of universities but also all members of the community. This is so because Imam al-Ḥusayn's reformative uprising holds such a big set of principles and values that can foster both individuals and communities.

Based on this presumption, the writer discusses several topics, intending to explain some methods and techniques through which it is possible to implant the values and principles of Imam al-Ḥusayn's uprising in the mentalities of not only students of universities but also all individuals of the society. He thus underscores the fact that it is, initially, necessary to understand the terms used in this essay, such as ethical value and education, and then get to know the features of Islamic education, before moving to discussing the educational values in Imam al-Ḥusayn's reformative uprising.

The writer also emphasizes that universities are expected to play a very important role in the process of implanting the values and principles of Imam al-Ḥusayn's uprising in the mentalities of their students; and in order to explain this idea as elaborately as possible, the writer uses the descriptive methodology that is based on scientific analysis and explanation after he has collected all data, facts, and notices appertained to the subject matter of the essay, described analytically the surroundings of the issue, and reported its actual state of affairs as exactly as they are.

The essay is then concluded with a set of results and recommendations, the most important of which is a call for holding forums, confer-

ences, and debates by the participation of both instructors and students of universities in order to discuss the Islamic values generally and the role of Imam al-Ḥusayn's reformative uprising in actively reviving these values and to highlight Imam al-Ḥusayn, his family members and his followers' putting into practice these values and practices.

دور المرجعية الدينية في إصلاح الواقع العراقي

السيد السيستاني أُنموذجاً

د. الشيخ أحمد علي عبود الخفاجي

لقد تقلّدت المرجعية الدينية وظائف وواجبات عديدة، جعلتها تحمل أمانة الرسالة المحمدية، ومارست الأدوار والمواقف والمراحل ضدّ حركة الانحراف والتدهور مثلما مارسها أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

من هنا عقد الكاتب مقاله هذا متخذاً من سماحة السيد السيستاني (دام ظلّه) أُنموذجاً للمرجعية الدينية الحكيمة، المرجعية التي طالما رعت الإصلاح في الواقع الشيعي في العموم، والعراقي بالخصوص، فوزّع مقاله على تمهيد، وثلاثة مباحث وخاتمة:

فذكر في التمهيد السيرة الذاتية والملامح الفكرية للسيد السيستاني.

وعرض في المبحث الأوّل مواقف سماحة السيد من الاحتلال، وما حصل من أزمات داخلية، وكيف تعامل السيد معها، وأهمّ الفتاوى التي أصدرها، من تحريم نهب ممتلكات الدولة، وتحريم الانتقام، والاحتراب الداخلي، وغيرها...

وعرض أيضاً في المبحث الثاني موقف سماحة السيد السيستاني من دستور جمهورية العراق لسنة (٢٠٠٥م)، وكيف كان له الدور البارز في تغليب مصلحة الشعب العراقي بكلّ أطيافه على أيّ مصلحة أُخرى، سواء كانت إقليمية أو حزبية.

وذكر في المبحث الثالث مواقف السيد السيستاني من الانتخابات البرلمانية الأُولى، كما أنّه أكّد على أنّ وجود القوات المحتلّة في العراق غير شرعي، لكن المعركة لأجل استقلال العراق ـ في نفس الوقت ـ بحاجة إلى العقلانية.

واختتم الكاتب مقاله بذكر مجموعة من النتائج التي توصّل إليها

THE ROLE PLAYED BY THE RELIGIOUS REFERENTIAL AUTHORITY IN REFORMING IRAQ'S TRUE CONDITIONS

Dr. Aḥmad ʿAlī A. al-Khafājī

The supreme religious referential authorities, due to the many significant and serious duties and missions they have taken upon themselves to assume, have been entrusted with the mission of safeguarding, defending, and promulgating for the Holy Prophet Muḥammad's mission; therefore, this authority, whether represented by one person, several persons, or a body, has played important parts and taken many decisive attitudes towards the movements of deviation and religious deterioration. In fact, these very roles had been played by the Holy Imams of the Ahl al-Bayt.

On the ground of this fact, the writer of the current essay has decided to write about His Eminence the Grand Ayatollah Sayyid ʿAlī al-Sīstānī in his capacity as the best example of the wise religious referential authority who has always had his eyes on the conditions of the Shīʿah in general and the Shīʿah of Iraq in particular and worked painstakingly for reforming these conditions.

The essay is thus divided into a preface, three parts, and an epilogue.

In the first part, the writer shows the attitudes of Sayyid al-Sīstānī to the 2003 American invasion of Iraq, highlighting the internal crises that were provoked as a result of the invasion and the ways His Eminence treated therewith. Thus, the writer refers to the most important verdicts issued by Sayyid al-Sīstānī during that stage, such as his verdicts of forbidding looting the public properties, forbidding revenge-based retaliation, forbidding clashes between the different sects and ethnic groups of the Iraqi people… etc.

In the second part, the writer presents Sayyid al-Sīstānī's attitude to the 2005 Constitution of Iraq where he played the major role in preferring the public interests of the Iraqi people, along with all of their religions, sects and ethnic groups, to the other less important interests, be they provincial or sectarian.

His Eminence Sayyid al-Sīstānī's attitude to the first Iraqi parliamen-

tary elections is discussed in the third part of the essay, where the writer cites Sayyid al-Sīstānī's famous verdict of judging the existence of the U.S. occupying forces in Iraqi to be illegal. Yet, he confirmed that any armed struggle for the independence of Iraq needs very much rationality and contemplation.

The essay is then sealed with a set of results concluded by the writer.

إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي
الإصلاح الحسيني
مجلة فصلية متخصصة في النهضة الحسينية وتعنى بالدراسات الدينية